الآثار الكاملة

(٦)

خاطرات

جمال الدين الحسيني الأفغاني

- آراء وأفكار -

تقرير: محمد باشا المخزومي

إعداد وتقديم

سيد هادي خسروشاهي



مكتبة الشروق الدولية

خاطرات
جمال الدين الحسيني (الأفغاني)
- آراء وأفكار -

الكتاب : **خاطرات جمال الدين الحسيني (الأفغاني)**
تقرير : محمد باشا المخزومي
إعداد وتقديم : سيد هادي خسرو شاهي
الطبعة الأولى ـ القاهرة
تاريخ النشر : ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م



القاهرة ـ كوالالمبور ـ جاكارتا ـ لوس أنجلوس

تليفون وفاكس : ٢٥٦٥٩٣٩ ـ ٦٧ ٤٥٤٤٤ ـ تليفون : ٤٥١٩٦٢٨
Email : adel almoalem<shoroukintl@Yahoo.com>

الفهـــرست

الموضوع	الصفحة

حول خاطرات
جمال الدين الحسيني الأفغاني

سيد هادي خسروشاهي

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الجزء السادس من «الآثار الكاملة» للسيد جمال الدين الأفغاني وهو تحت عنوان: «خاطرات جمال الدين الحسيني الأفغاني» تسلم للطباعة بالقاهرة ـ مصر على عكس الأجزاء السابقة التي طبعت في طهران ـ إيران. ويشتمل هذا الكتاب على جزء من خواطر وأفكار السيد جمال الدين الحسيني والتي تم إعدادها في اسطنبول، في عهد السلطان عبد الحميد العثماني، خلال الفترة: ١٣١٠ إلى ١٣١٤هـ/ ١٨٩٢ حتى ١٨٩٦م

لقد كان «مُقرر» هذه الخواطر، هو محمد المخزومي باشا والذي كان يحضر يوميا في خدمة السيد جمال الدين، طوال فترة إقامته في اسطنبول، وفي أوقات فراغه كان ينقل الموضوعات التي كان يلقيها السيد، ثم يدونها بعينها، بدون إضافة أو نقصان.

يقول المخزومي باشا في مقدمة الكتاب، إنني اقترحت على السيد جمال الدين أن أكتب تاريخ حياته وذكرياته، ولكنه أجاب:

«. . وأي نفع لمن يذكر أنني ولدت عام ١٢٥٤هـ وعمرت أكثر من نصف عصر، واضطررت لترك بلادي مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض، وأكرهت على مبارحة الهند، وأجبرت على الابتعاد عن مصر، أو إن شئت قل نفيت منها، ومن الأستانة ومن أكثر عواصم الأرض، كل هذه الأحوال ـ خاطرات ـ لا تسرني وليس فيها أدنى فائدة للقوم.

أما القول بأنها لا تسرني، لا بمعنى لأني نفيت من البلاد، أو سجنت، كلا! لأني أعتقد أن السجن بطلب الحق من الظالمين العتاة «رياضة» والنفي في ذلك

السبيل «سياحة» والقتل «شهادة» وهي أسمى المراتب. فأنا عن نفسي غير راض، ذلك لأن الخمول قد قعد بي، فلم يوصلني إلى أسمى المراتب وهي مرتبة «الشهداء».

ثم يضيف المخزومي باشا حول تسمية الكتاب بـ «خاطرات»:

«كنت سميت هذا الكتاب بعد أن أخذت بتحريره: «جمال الدين الأفغاني في البلاط السلطاني»! فلما سمع مني هذا وأنه عنوان للكتاب، نفر قائلاً: إن هذا العنوان ليس لهذا المقال بطبيق! قل خاطرات، ولا تزد».

فأجبت أني أفعل. ولكن نبهني إلى كلمة «خاطرات» أحد الأصدقاء وهو من المنهمكين في قواميس اللغة، إذ قال لا يصح أن تجعل عنوان ذلك الأثر المفيد مما ينتقده أهل اللغة؛ لأن «خاطرات» لم ترد بالمعنى الذي تريده من جمع وكتابة آراء وأفكار جمال الدين، والأقرب للصواب أن تقول « خواطر » لا أن تقول خاطرات؛ لأنها تفيد الوساوس! فلما كاشفت جمال الدين بذلك، تبسم وقال: رحم الله الفيروزآبادي حيث قال: «خذوا لغتكم من أعجمي»! ورحم الله الفرزدق وجرير والحطيئة، حيث قالوا: «للمتهوسين بالمتعامل المشهور، القائم مقام ضوابط وقواعد اللغة وآلاتها من صرف ونحو اليوم، علينا أن نقول وعليكم أن تتقولوا» ، فقل (خاطرات) ولا تبالي بمن فسد لسانهم ولا يصلحون إلا إلى الأجوف! والمهموز! ولا يحسنون جملة تنفر حبة القلب أو تطرب السمع. فعملنا بقوله ـ رحمه الله ـ وعنونَّا الكتاب كما ترى بـ «خاطرات».

* * *

أشرنا في السطور السابقة بأن تحرير وتقرير هذا الكتاب ـ خاطرات ـ تم إنجازه في اسطنبول في عام ١٣١٠هـ أي منذ ١١٣ عاما مضت، ولكن طباعته للأسباب التي أوردها المخزومي باشا في مقدمته، تأخرت حتى عام ١٣٤٩هـ وظهرت طبعته الأولى قبل ٧٠ عامًا مضت (١٩٣١م) وصدرت الطبعة الثانية له في بيروت، في عام ١٩٨٠م.

واليوم، تظهر الطبعة الثالثة المنقحة ـ أي بعد اكتمال المراجعة والإصلاح

اللازمين وتغيير عناوين الموضوعات وإضافة بعض التوضيحات في الهوامش وإعداد فهارس: الآيات والأعلام والأماكن في خاتمة الكتاب ـ؛ لتكون في خدمة الشغوفين بأفكار السيد جمال الدين الأفغاني.

.. أما مقرر «الخاطرات»: مخزومي باشا، فنقول عنه وباختصار: إن محمد «باشا» حسن سلطان المخزومي (سنة ١٢٨٥ ـ ١٣٤٨ هـ/ ١٨٦٨ ـ ١٩٣٠م) كاتب معروف من أعيان بيروت. ولد بالشّامات وتعلم بها وبمصر. وأنشأ في القاهرة مجلة «الرياض المصرية» نصف شهرية (سنة ١٨٨٨م) مشاركًا لخاله عبد الرحمن الحوت، وكان المخزومي يكتب أكثر مقالاتها. وعاشت نيفا وسنة. وسافر إلى أوروبا ثم أقام في الأستانة، فكان من أعضاء «مجلس المعارف» ومن مدرسي المكتب الشاهاني (المدرسة الملكية) وأصدر فيها جريدة «البيان» مدة قصيرة وعطلتها الحكومة، وثلاثة أعداد من جريدة «المساواة» بعد إعلان الدستورالعثماني. وعين مفتشا للأوقاف بحلب فانتقل إليها. وعاد إلى بيروت في بدء القيام بالحركة «الإصلاحية» بها، فعين «مفتشًا ملكيًا» مدة يسيرة، وتوفي فيها. له مقالات وآثار في الثقافة والسياسة، نشرت في الصحف والمجلات العربية ومن آثاره، تقرير وتأليف كتاب «خاطرات جمال الدين الأفغاني»، حيث جمع فيه طائفة حسنة من آراء السيد جمال الدين وأقواله [1] في المجالات المختلفة: الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية، والتاريخية.

نأمل بأن يحوز تجديد نشر هذا الجزء السادس، من تراث السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني، اهتمام واستفادة المعجبين به.

سيد هادي خسرو شاهي

القاهرة: محرم ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

---

(١) تنوير الأذهان ٢: ٥٨٩، وتاريخ الصحافة العربية ٣: ٧٩ ثم ٤: ٣٦٠.

إهداء الكتاب

إلى الشرقيين

إهداء المؤلفات والكتب للملوك والأمراء وأعاظم الرجال، عادة جرى عليها المتأخرون من العلماء والأدباء ـ وقد قلَّدوا في ذلك المتقدمين مثل : الفيروزآبادي، والعلامة الحكيم ابن خلدون ـ إذ أهدى الأول قاموسه إلى الملك الأشرف إسماعيل صاحب اليمن، والثاني تاريخه إلى أمير المؤمنين أبي عبد الله المريني، وغيرهما من جهابذة العلماء ممن نحا نحوهما ونالوا من الجوائز والأموال ما يضارع تقدير أولئك الملوك لجهود العلماء وما يلاقونه من المشاق والمتاعب في سبيل مؤلفاتهم، وليس من غرضنا استقصاء ذلك، أو التبسط فيه، بل قصدنا أن نذكر ما حام حول هذا الكتاب : «الخاطرات» من الآراء في سبيل إهدائه.

فالملوك في الشرق والحمد لله مشرقة بهم ممالكهم وآثارهم في تنشيط العلم وأهله بارزة موفورة مشكورة! وهكذا الأمراء والعظماء! وما منهم إلا من يليق أن يهدى لمقامه كل جليل ونفيس ولكن لما كان صاحب « «الخاطرات»، الحكيم الشرقي السيد جمال الدين الأفغاني ـ رحمه الله ـ من أرسخ أركان النهضة الشرقية ـ بل هو واضع أساسها، وحجر زاويتها ـ نعم هو ممن أنبتته أرض الأفغان ولكن كما سيراه المطالع، كان يهمه الشرق ويهمه أهله على السواء. وكانت نفسه تذهب حسرات عند كل نازلة تنزل في بلاد الشرق أو ملمة تلمّ بأهله، لا فرق عنده في ذلك بين بلاده ومسقط رأسه الأفغان ـ وبين كنانة الله مصر، ولا بين الأقطار الهندية وبلاد فارس «إيران» على حد قول الشاعر :

نصحت ونحن مختلفون داراً ولكن كلنا في الهمّ شرق

لذلك، فقد أجمع الرأي على إهداء هذا الكتاب «إلى الشرقيين»، على تعدد أقطارهم وأمصارهم، غير ملتفتين إلى ما قطعته أيدي السياسة من أوصال هذا الشرق ولا لما فعلته أيدي الأغراض من فصل حدود متصلة وتخوم متجاورة، فقلوب الشرقيين موحدة، وأجزاء الشرق المبعثرة بحكم الضغط ملتحمة.

نسأل الله جمع الشتات وتفريج الأزمات إنه سميع مجيب الدعوات.

بيروت: **محمد المخزومي**

٢٧ شوال ١٣٤٩هـ/ ١٢ آذار(مارس) ١٩٣١م.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله الذي بعث في كل أمة نذيرا، وأرسل خاتم النبيين محمدا سراجا منيرا وأنزل عليه ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة : ٢٦٩]. والصلاة والسلام على سائر الأنبياء والمرسلين، هُداة الخلق إلى الحق وعلى آلهم وصحبهم أجمعين.

* * *

إن هذا الكتاب: «خاطرات جمال الدين الأفغاني» قد كتبت مواضيعه في دور السلطان عبد الحميد ما بين سنة ١٣١٠هـ إلى سنة ١٣١٤هـ ـ ١٨٩٢م: ١٨٩٧م، على كمال الاحتراز، بل الخوف من شدة المراقبة ووفرة الجواسيس وكثرة الافتراء في ذلك الزمن على الأبرياء، خصوصا على السيد جمال الدين وعلى من كان يكثر الاجتماع عليه، أو يدخل بيته.

فالمُطامع له الآن، ربما لا يرى فيه كبير أهمية ولكن إذا أرجع النظر إلى ما قبل أكثر من ثلث عصر وإلى أنّ مواضيعه تحررت في الأستانة وأنّ تلك الأفكار والأقوال لم تحور ولم يطرأ عليها أدنى تغيير، يعلم خطر أمرها. كذلك لابد للمطالع أن يرى مواضيع الكتاب غير متسلسلة، والسبب في ذلك أنها لم تكن في موضوع أو مطلب واحد بل هي أحاديث بعضها بني على الحوادث وبعضها أتى

على سبيل السؤال والاستفهام والبعض الآخر على سبيل الجدل مع آخر ومنها ما هو عفوا وبغير مقدمة، فأثبتنا الجميع على علاتها وكيفية صدورها.

على أثر إعلان الدستور العثماني توهَّم كثير من أصدقائي الذين يعلمون بوجود «خاطرات جمال الدين»، أن الزمان قد حان، وآن أوان نشر الكتاب بعد ذلك الطي والخفاء.

وأتتني عدة رسائل من إخواني في مصر وممن لا معرفة بيني وبينهم من أنحاء الهند، يستحثونني على سرعة طبع الكتاب، فما كدت أن أباشر الطبع إلا ورأيت في مقال جمال الدين تحت عنوان «الأحزاب في الشرق» ما ينطبق على حال رجال جمعية «الاتحاد والترقي» من أثرة وأنانية وكذب الأماني، التي منوا الأمة بها وذهبت هباء منثورا.

فرأى لفيف من الأصحاب خطرا على الكتاب أن يعدم وعلى المنتظر أن يحرم! فرأينا التأجيل للوقت الأنسب أولى وللسلامة أدعى.

مرّت سنون ونحن على طبع الكتاب بين إقدام وإحجام حتى كانت سنة: ١٣٢٩هـ ــ ١٩١٢م، إذ أعادت الأصدقاء الكرة، في مقدمتهم بعض أرباب الصحف الأفاضل يطلبون نشر الكتاب.

فنشطنا لتلبية الطلب ونشرنا فهرست الكتاب مطبوعا. وما فرغنا من إذاعته إلا وجوّ السياسة أخذ يتعكر صفاؤه ومخاوف بعض كبار موظفي الاتحاديين أخذت تبدو من مواضيع كتاب يعلمون حقيقة أنه لم يقصد به تقريع أشخاص أو تقبيح أعمال هيئات أو قلب حكومة ما. ثم أعقب ذلك شبوب الحرب الكونية، فاحتلال الحلفاء البلاد، ثم تقطيعها إلى دويلات.. إلخ، فاضطررنا أيضا بحكم تلك العوامل أن نرجئ النشر ولكن ليس إلى يوم النشر!

* * *

وهذه هي أهم مواضيع الكتاب: (المذكورة في الفهرست المطبوع سنة ١٩١٢م).
تمهيد ويليه مقدمة من المؤلف مزدانة برسم السيد جمال الدين وحاوية ترجمة حياته حتى مقدمه الأخير للأستانة ووفاته فيها. وتشتمل على صفاته وأخلاقه وتصرفه مع

جلسائه وأوضاعه وخروجه من بلاد الأفغان بعد أن استوزره الأمير محمد أعظم خان وهبوطه لمصر أول مرة ومجيئه للأستانة ونفيه منها وسبب النفي وهبوطه لمصر للمرة الثانية وما جرى له فيها من حفاوة ونفي وما أحدثه وجوده فيها. رأيه في الإسرار والإعلان ورده على من أخذ عليه بأنه جهري لا يكتم سرا.

سبب تألمه من الشاه وغلظته في مخاطبة الملوك والأمراء. ما خاطب به السلطان عبد الحميد في شأن ناصر الدين شاه العجم وكيفية طلبه الرجوع عن بيعته للسلطان! ورأيه في السلطان عبد الحميد من حيث الدهاء والذكاء وما جرى له معه من الأحاديث الهامة في شئون السلطنة عامة والأخذ على السلطان عبد الحميد في سيرته الخاصة وما لاقاه في بلاد إيران إلى أن نفي وصورة نفيه الفظيعة وذهابه إلى أوروبا وشخوصه إلى لندن بطلب من اللورد ساليسبوري واللورد تشرشل واستقدامه من هناك إلى الأستانة وهو مقدمه الأخير الذي انتهت فيه حياته رحمه الله.

غرض جمال الدين الأسمى في حياته وما كان يتوخاه من ضربه في مشارق الأرض ومغاربها. رأيه في الأحزاب السياسية في الشرق خصوصا. رده على من زعم أن جمال الدين حكمته في لسانه أكثر مما هي من قلبه. رأيه في مصر والمصريين وبيانه صورة الحكم الذي يجب أن تحكم فيه مصر خصوصا والشرق عموما. رأيه في الوطن وفلسفته فيه بالنسبة إلى النوع الإنساني واعتقاده أن التفرد بالسلطة وسوق الأمم على هوى الفرد سيزول من العالم مع بيانه للأسباب. في تأثير فضائل الوفود والفاتحين، والمستعمرين وضربه المثل في العرب في فتوحاتهم وانتشار لسانهم. تفسيره لما أشكل على المؤرخ والشاعر التركي المرحوم ضيا باشا من عدم ترك الأتراك أثرا بعد أن توغلوا في أوروپا ولم يكن لهم ما كان للعرب في فتوحاتهم وحجج السيد في ذلك مع إسهاب في الأسباب.

في تأثير آداب اللسان. استنتاجه أن ترك الأثر مع التفريط في صون الملك وعدم حفظه أدعى للتأثر وليس فيه شيء من الفخر. في ما اشتهر عن جمال الدين من مزية الإقناع في حالتي السلب والإيجاب والسبب في ذلك. مثال في تأثير كلام السيد في مخاطبه وكيف أنه كان يحمل حتى الخامل على العظائم والجبان على الجسارة.

في تكليف السلطان عبد الحميد للسيد جمال الدين أن يزوجه من إحدى جواري قصره وما جرى له في هذا البحث من أخذ ورد، وكيف أنه أبى القبول وكلامه في الحكمة الزوجية ـ وقد تناول هذا البحث رأي السيد في أمر مساواة المرأة بالرجل وضجة المستشرقين والمتفرنجين في إعادة حقوق المرأة المهضومة ـ. مقابلة جمال الدين لسمو الخديوى «عباس حلمي» واختلاق الجواسيس فرية مسألة الدولة العباسية واهتمام السلطان عبد الحميد بذلك وما احتمل هذا الأمر الذي أقام وأقعد وما جرى أخيرا من مقابلة السيد للسلطان وما دار بينهما من الحديث في هذا الشأن.

دعابة المرحوم عبد الله نديم للسيد في بحث الدولة العباسية وتعريضه فيمن اختلقها في ذلك الحين. إجلال السيد وإعظامه لمقام الخلافة. رأيه في الإنجليز ووصفه للإنجليزي والعربي وفلسفته في الحجر الشرعي على الفرد السفيه وكيف أن الغربيين ساعون بتلك المطامع نحو الشرق. رأيه في كيفية الوصول لرفع ما وقع وسيقع على الشرق وأهله من الحجر وخطر ما يلزم ذلك الأمر من الحكمة والتدبير وبيان وعورة المطلب وكيفية تربية الطفل الذي سيكون رجل المستقبل ويتكون من تكونه أمة صالحة تحكم نفسها وتخلص من حجر الغرب. قوله في الصبر والثبات.

إنكار جمال الدين ما نراه من المدنية ومغالطته باستبداله لفظة الفناء في التنازع عوضا عن البقاء وأن العلم الصحيح إذا وصل إليه العالم فأعظم أثر له إنما يكون بمنع الحروب، التي هي من أكبر الأدلة وأسطعها على توحش الإنسان وله في ذلك براهين وإفاضة.

قوله في دعوة الإسلام وكيفية انتشاره، وأن الدين لا ينبغي ولا يصح أن يخالف الحقائق العلمية ولزوم الرجوع إلى التأويل. فيما اشتمل عليه القرآن من تدبير الممالك وأصول الحكومة الشورية ووظائف الملوك إلخ. والإشارات إلى مقدمات العلوم والفنون الحديثة. فيما سبق إليه العرب من العلوم والفنون. أدلة جمال الدين على أن الكيمياء تتم بالصناعة وأنها ثمرة الحكمة ويقتضي لها تحقيق ورسوخ في عمادات تلك الصناعة وتفنيده لأدلة ابن خلدون. إنكار جمال الدين على من يقول بسد باب الاجتهاد.

نفور السيد من قول سني وشيعي وأنه لا موجب لهذه التفرقة التي أحدثتها مطامع الملوك وجهل الأمة. رأيه في مذهب النشوء والارتقاء وأن العرب سبقوا فحققوا هذا المذهب وقالوا فيه صراحة وذكره «دارون» والدكتور شميل استطرادا في هذا البحث. رأيه في الاشتراكية ـ سوسياليس ـ وأنها لا تخالف الدين بل الأديان تقول بها. قوله حقائق الأشياء ثابتة والإحاطة بها لفرد متعذر، والعلم بأسبابها متوزع. قوله إن الحق لا يكون مع الأكثرية على الغالب وأدلته على ذلك.

رأيه في الأديان الثلاثة وأنها متفقة في المقصد والغاية. رده على من أخذ عليه قوله إن أصول الأديان واحدة وإنها من المتناقضات في مباحثه. بحث تصوفي.

رأيه في المسألة الشرقية واختصاره أمرها وتبجيله لفكرة السلطان محمد الفاتح والسلطان سليم باتخاذ اللسان العربي لسانا رسميا والأخذ بتعميمه وبراهينه على استحالة مطلب تتريك العرب خصوصا وأن شواهد التاريخ من الأدلة القاطعة؛ إذ تبرهن أن كثيرا من الأعاجم استعربوا ولم يسمع أن عربيا استعجم، وبالإجمال نتيجة مرتآه في حل المسألة الشرقية على توسع في الموضوع وتناوله حالات العناصر في المملكة العثمانية من حيث روحها وذكره الأسس الثابتة للأقوام من مدنية ولسان وتاريخ، وما لذلك من التأثير، وفيه إفاضة.

ذكره الفرق بين عدل يأتيه الفاتح عن علم وحب بإجراء العدل والأخذ به، وبين ما يأتي من ذلك عن غرور وعزة وإتيان العدل إذ ذاك عرضا. رأيه في الدول الإسلامية ومحاكمته لما أتوه من الخطأ والصواب وأسباب ما نراه في الأشياع والأتباع من التقهقر والانحطاط. حديث له عن الهند ومستقبلها وشيء عن سيرة السلطان محمود الغزنوي بفتحه تلك الأقطار. استغرابه ميل الشرقيين في هذا العصر إلى حب التطويل في المقال والتسويف والمماطلة في الأفعال على عكس ما كان عليه السلف وأمثلته على ذلك. رأيه في المستعمرات والمستعمرين وأن الاستعمار لأي دولة مهما تعاظمت قوة واقتدارا فمستعمراتها إن هي إلا ثوب عارية قابل للاسترداد وأدلته على ذلك.

قوله في أن المسلم سواء فيه العربي والأعجمي إنما يعجب بماضيه وهو في أشد

الغفلة عن حاضره ومستقبله، وكيف أنه يجب أن يكون مع ما هو عليه من دواعي ومستلزمات التقهقر مثل سلفه الساهر اليقظ والصالح المصلح والحاكم العادل. قوله في الناشئة الشرقية استحسانا واستهجانا. أمثلته في التقليد النافع وضربه المثل دليلا بدولة اليابان الشرقية. قوله إن أضعف ما في هذا العصر حق ضعيف لا قوة له وأقوى شيء باطل مبطل قوي يعطل الحق بقوته. نظرته العامة في الإسلام والمسلمين وأسباب ما ألم بهم من الانحطاط مع توفر ما في الدين من النهوض وأسباب الرقي على عكس من نهض من الأمم وليس في دينهم ما يحملهم على ما هم عليه من أخذ العدة وأسباب النهضة المشهودة فيهم وفلسفته في ذلك. رأيه في القضاء والقدر والجبر وإفاضته في ذلك.

جمل مختصرة وأمثال حكمية.

* * *

هذه هي أهم مواضيع كتاب «خاطرات جمال الدين» التي سبق نشر فهرستها المتقدم ذكره، والتي سبق القول إنها كتبت قبل أكثر من ثلث عصر. والسبب الذي حمل على تدوينها هو أن المرحوم السيد جمال الدين بعد مقدمه الأخير للأستانة أو استقدامه إليها من عاصمة الإنجليز، أوائل عام ١٣١٠هـ، ومكثه فيها إلى أن توفاه الله، لم يكن له من الآثار مطبوعا أو غير مطبوع يجمع ما كان يجول في نفسه من تلك المخدرات من معاني الحكمة التي نزلت عليها آية الحجاب في تلك الديار وما لاقاه مع شدة عارضته وقوة عزمه وعدم مبالاته في القهر ومناهضته المتغلبة من الحكام وتحمل الجور منهم في سبيل نهضة الشرق، وما كان يرمي إليه من سامي الغرض في طلب الحرية الحقيقية، وإعطاء العدل حقه بالتوزيع بين طبقات النوع الإنساني.

فكنت من يوم وفدي على القسطنطينية، ألزم له من الظل في عزلته، سهل ذلك عليّ ميله ـ رحمة الله عليه ـ وقرب الدار والجوار ـ في محلة نيشانطاش ـ فكاشفته بلزوم تدوين ما عمله وما تكنه سرائره من الحكمة ونافذ النظر وثاقب الرأي لنفع النوع.

فكانت تلك الرغبة مني في بداية الأمر لا يبالي بها كثيرا ولا يتلقاها لقاء حسنا ولكن في الأخير رأى في طلبه حقا، ولمح منه للشرق وأهله نفعا، فقبل أن يؤخذ عنه وأجاز بقوله: «سل ما تريد يا شيخ بني مخزوم واكتب ما تسمع واحفظ ما تراه وقبل كل شيء ألفت نظرك لأمر، ربما أنت ملاقيه فخذ له من الحذر عدة ومن التحمل درعا، إذا سلمت في كتابة خاطراتي من خطر الطاغية [1] وطواغيته ـ يعني جواسيس السلطان عبد الحميد ـ فستصادف من أهل الجمود عنتا وتخرصا وقلبا للحقائق فلا تبال بهم، فما خلا الكون منهم يوما ليخلو زمنك، ولا نجا منهم مخلص لتنجو أنت، ولسوف تعثر بأناس ديدنهم التنقيد لا حبا بتمحيص الحقيقة واستجلائها، وإنما دأبهم وما يرمون إليه أن يقال»، ثم قال: «وانتقد واعترض! فمثل هؤلاء ربما يخدمون الحق وينشرون الفضيلة من حيث لا يريدون ولا يشعرون، فأعرض عنهم وقل لهم سلاما».

انتهى قوله بالحرف.

* * *

---

(١) وهو لقب ملك الروم. ويشير هنا إلى السلطان العثماني...

مقدمة المؤلف

قبل الدخول في ترجمة حياة جمال الدين المدونة في متفرق المطبوعات، أقول ما اختبرته بالذات: إنه ـ رحمة الله ـ عليه كان غير مغرور بنفسه ـ كثير الاستخفاف بكل من كان يخاطبه ـ بدولتكم، أو سماحتكم، أو كان يطريه بالفلسفة، والتبريز بالحكمة والتفرد بالخطابة واحتقار الموت وغير ذلك مما هو متصف به حقيقة من المزايا والصفات العالية، وكان يقول: «يهمني أن أصل من كل هذه الصفات للطمأنينة القلبية فقط، إنني استطعت في حياتي أن قلت الحق ولم أكتمه لا رغبة ولا رهبة بل جاهرت به وأني بلغت من الشجاعة مرتبة فعلت معها بعض ما أقول» !

وقد ذكرت له يوما أن بعض أصدقائي[1] من محبيه على البعد، يرغبون في الحصول على ترجمة حاله ليزيّنوا، على اصطلاح أرباب الصحف أعمدة جرائدهم بها.

فابتسم السيد وقال:

إن العيان لا يحتاج إلى ترجمان. قل لهم ما قاله فلان عني، وكان داء الحسد من المعاصرين قد تفشى، خصوصا بعد إقبال جلالة السلطان عبد الحميد عليه واحتفائه به، فأحبوا أن يضعوا من قدر جمال الدين فقالوا عنه إنه «سرسري» يعني متشرد (تائه في الأرض)! وهذا ما يعنيه بالقول عنه.

---

(١) وهو المأسوف عليه صديقنا «جورجي زيدان» صاحب مجلة «الهلال» وكان طلبه هذا على خلاف ما اعتادته مجلته، إذ كانت لا تنشر إلا تراجم مشاهير الرجال بعد وفاتهم! وهكذا جرى، وقد بعثت له بترجمة جمال الدين بعد وفاته كما سيأتي ذلك إذ لم يتيسر لي إرسالها وهو حي، أما الهلال فلم ينشر الترجمة كما بعثتها بل نشر قسما وأغفل قسما وقد أتينا على السيرة بتمامها.

فقلت : لا ينبغي للأستاذ الحكيم أن يضن على أهل عصره بما ينفعهم ولا يضره !ـ قال :

« وأي نفع لمن يذكر أنني ولدت سنة ١٢٥٤هـ، وعمرت أكثر من نصف عصر واضطررت لترك بلادي «الأفغان» مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض وأكرهت على مبارحة الهند وأجبرت على الابتعاد عن مصر ، أو إن شئت قل نفيت منها ومن الأستانة ومن أكثر عواصم الأرض ـ كل هذه الأحوال ـ «خاطرات» [1] ـ لا تسرني وليس فيها أدنى فائدة للقوم .

أما القول بأنها لا تسرني ، لا بمعنى أني نفيت من البلاد أو سجنت ، كلا لأني أعتقد أن السجن بطلب الحق من الظالمين العتاة «رياضة» والنفي في ذلك السبيل «سياحة» والقتل «شهادة» وهي أسمى المراتب .

فأنا عن نفسي غير راض ، ذلك لأن الخمول قد قعد بي ، فلم يوصلني إلى أسمى

---

(١) كنت سمَّيت هذا الكتاب بعد أن أخذت بتحريره : (جمال الدين الأفغاني في البلاط السلطاني)!ـ فلما سمع مني هذا وأنه عنوان للكتاب نفر قائلاً : إن هذا العنوان ليس لهذا المقال بطبيق! قل «خاطرات» ولا تزد . فأجبت : إني أفعل ، ولكن نبهني إلى كلمة «خاطرات» أحد الأصدقاء ـ وهو من المنهمكين في قواميس اللغة ـ إذ قال : لا يصح أن تجعل عنوان ذلك الأثر المفيد مما تنتقده أهل اللغة لأن «خاطرات» لم ترد بالمعنى الذي تريده من جمع وكتابة آراء وأفكار جمال الدين ، والأقرب للصواب أن تقول «خواطر» ولا أن تقول «خاطرات» لأنها تفيد الوساوس . فلما كاشفت جمال الدين بذلك ، تبسَّم وقال : «رحم الله الفيروزآبادي حيث قال : «خذوا لغتكم من أعجمي»! ـ ورحم الله الفرزدق ، وجرير ، والحطيئة ، حيث قالوا : للمتهوسين بالمتعامل المشهور ، القائم مقام ضوابط وقواعد اللغة وآلاتها من صرف ونحو اليوم ـ (علينا أن نقول وعليكم أن تتقولوا) . قال : ويعجبني أحدهم إذ مضى بإنشاد قصيدته على مسمع من معارضه ، ومهاجيه فأورد ذكر «الجمل» مكان «الناقة» فقال معارضه : «استنوق الجمل» ثم ذهب مهرولا . ذلك شأن أساطين اللغة في إبان شبابها وزهوها ونضارة بلاغتها . ـ فقل «خاطرات» ولا تبالي بمن فسد لسانهم ولا يصلحون إلا إلى الأجوف والمهموز! ولا يحسنون جملة تنقر حبة القلب أو تطرب السمع» انتهى .

فعملنا بقوله ـ رحمه الله ـ وعنونا الكتاب كما ترى «بخاطرات» .

وقد عرف جمال الدين بكثرة أخذه بالقياسي ونفوره من التقيد بالسماعي . وسيأتي في غير هذا الموضع قوله يوما : «سياسة بقروتية في مملكة فرعونية»! ولما قيل له في ذلك قال : كيف صح قولهم ملكوت وجبروت؟ هكذا يصح عندي «بقروت» ! والسلام .

مرتبة وهي «مرتبة الشهداء» وحطني في مصاف المنفيين، من أرض إلى أرض والمسجونين فيها، فما أعدني في كل هذا عن أولي الهمم، ومن قام بالأعمال الخطيرة «أو المطلب الجلل».

مع أن جمال الدين ـ رحمة الله عليه ـ لم يترك عملا من الأعمال الخطيرة لخير النوع الإنساني عموما والشرقيين خصوصا، إلا واقتحمه ببسالة كادت أن تخرجه عن الهيئة المتوسطة وتتجاوز به فضيلة الشجاعة إلى نقيصة التهور وكان على علاته حكيما خطيبا، قوي الذاكرة ـ وكان في ذاكرته ـ سريع الحفظ، سريع الذكر، بطيء النسيان وإنه ليذكر خطابا ألقاه ارتجالا أو مقالا أملاه أو كتبه من سنين بالحرف الواحد وكأنما يتلوه من كتاب. شديد البعد عن التعصب، نفورا منه.

وإن ذكر المسلمين في أكثر مقاله؛ ذلك لأنهم العنصر الغالب بأكثريته في الشرق والملة المسلوبة ممالكها ومقاطعاتها. ولهذا أكثر من إيقاظهم وتنبيههم وتقريعهم وإلا فهو أكثر الفلاسفة توسعا بمعنى المساواة وميلا للعمل بها فعلا بين نوع الإنسان خصوصا في الحقوق العمومية التي لا يصح لها معنى إلا بالحرية المعقولة.

يهمه الشرق والشرقيون على السواء وبدون استثناء، مهابا أكثر مما هو محبوب لأول نظرة، شجاعا، جريئا، كريما لحد الإسراف، متواضعا مع الوسط ومن دونهم لدرجة الذل، متكبرا على الملوك والعظماء لحد التجبر، حاد الذهن، قوي الحجة، نافذ النظر، يجذب مخاطبه إليه ويرضخه لبرهانه ـ ولو لم يكن ساطعا ـ له أسلوب خاص في المقدمات تأتي نتائجها بطبعها، عظيم النفس، كبير الهمة، محب لخير البشر، يحمل كل من خاطبه على العظائم ويذلل لديه المصاعب. صحيح العقيدة، مؤمنا بالألوهية، شديد التمسك بحكمة الدين، نفورا من التقليد في المذهب، «مجتهدا»، وله في اجتهاده بعض الغرابة لمخالفته المألوف، من وجهة التفسير. يقدم حيث يحجم الناس، ويتكلم حيث يسكتون رغبة أو رهبة متسرعا ببادرات ذهنه وأكثر آرائه، يتعذر غالبا إقناعه جدلا، لأسلوبه الخاص في إبطال الحجة عليه أو التخلص منها. غير مكابر بالإجمال وكثيرا ما أعطى خصمه الحق، بعد أن يفحمه وينبهه ويدله على ما أغفله من الحجج أثناء الجدل ولكن كان لا يخلو من الحدة لمزاجه العصبي!

سيرة جمال الدين

هذا هو السيد جمال الدين بن السيد صفتر، من بيت عظيم في بلاد الأفغان ينمي نسبه إلى السيد علي الترمذي المحدث المشهور ويرتقي إلى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه). وآل هذا البيت عشيرة وافرة العدد تقيم في خطة «كنر» من أعمال «كابل» تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام ولهذه العشيرة منزلة عليّة في قلوب الأفغانيين، يجلونها رعاية لحرمة نسبها الشريف، وكانت لها سيادة على جزء من الأراضي الأفغانية، تستقل في الحكم فيه، وإنما سلب الإمارة من أيديها، «دوست محمد خان» وأمر بنقل أبي السيد جمال الدين وبعض أعمامه، إلى مدينة كابل.

أما ترجمة حياته، فأصدق من أحاط بها، عن طول خبرة وحسن صحبة ـ فهو الأستاذ المحقق المرحوم الشيخ محمد عبده، وسنذكر ما قاله ونضيف إليه ما علمناه وأغفله هو وغيره من المترجمين، إما رعاية الزمن أو لحكم السياسة!

فمما قاله:

يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل الفاضل ما رأيناه من تخالف الناس في أمره وتباعد ما بينهم في معرفة حاله وتباين صوره في مخيلات اللاقفين لخبره حتى كأنه حقيقة كليّة تجلت في كل ذهن بما يلائمه، أو قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله والرجل في صفاء جوهره وذكاء مخبره لم يصبه وهم الواهمين ولم يمسسه حرز الخراصين.

ولد السيد جمال الدين في قرية «سعد آباد» من قرى «كنر» سنة ١٢٥٤ هـ ١٨٣٩م، وانتقل بانتقال أبيه إلى مدينة كابل، وفي السنة الثامنة من عمره أجلس

للتعليم وعني والده بتربيته، فأيد العناية به، قوة في فطرته وإشراق في قريحته وذكاء في مداركه، فأخذ من بدايات العلوم، ولم يقف دون نهاياتها.

تلقى علوما جمة برع في جميعها، فمنها: العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وكتابة وتاريخ عام وخاص، ومنها علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه وكلام وتصوف ـ ومنها علوم عقلية ـ من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية وحكمة نظرية طبيعية وإلهية ـ ومنها علوم رياضية، من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك ومنها نظريات الطب والتشريح.

أخذ جميع تلك الفنون عن أساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة في تلك البلاد وعلى ما في الكتب الإسلامية المشهورة واستكمل الغاية من دروسه في الثامنة عشرة من عمره.

ثم عرض له سفر إلى البلاد الهندية فأقام بها سنة وبضعة أشهر، ينظر في بعض العلوم الرياضية على الطريقة الأوروبية الجديدة. وأتى بعد ذلك إلى الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج، وطالت مدة سفره إليها نحو سنة وهو ينتقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر، حتى وافى مكة المكرمة في سنة ١٢٧٣هـ فوقف على كثير من عادات الأمم التي مر بها في سياحته، واكتنه أخلاقهم وأصاب من ذلك فوائد غزيرة، ثم رجع بعد أداء الفريضة إلى بلاده، ودخل في سلك رجال الحكومة على عهد الأمير دوست محمد خان، المتقدم ذكره.

ولما زحف هذا الأمير إلى «هراة» ليفتحها ويملكها على سلطان أحمد شاه ـ صهره وابن عمه ـ سار السيد جمال الدين معه في جيشه ولازمه مدة الحصار، إلى أن توفي الأمير وفتحت المدينة بعد معاناة الحصر زمنا طويلا. وتقلد الإمارة ولي عهده شير علي خان سنة ـ ١٢٨٠ هـ ١٨٦٤ ـ وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان، أن يقبض على إخوته، خصوصا من هو أكبر سنا منهم ويعتقلهم، فإن لم يفعل سعوا بالناس إلى الفتنة وألبوهم للفساد طلبا للاستبداد بالإمارة.

وكان في جيش هراة من إخوة الأمير ثلاثة، محمد أعظم، ومحمد أسلم، ومحمد أمين، فانتصر السيد جمال الدين لمحمد أعظم فلما أحسوا بتدبير الأمير

ومشورة الوزير أسرعوا إلى الفرار وتفرقوا إلى الولايات كل منهم ذهب إلى ولايته التي كان يليها من قبل أبيه ليعتصم بمنعته فيها وطاشت بهم الفتن، واشتعلت نيران الحروب الداخلية. وبعد مجادلات عنيفة، عظم أمر محمد أعظم وابن أخيه الأمير عبد الرحمن وتغلب على عاصمة المملكة، وأنقذا محمد أفضل والد عبد الرحمن من سجن (قزنة) وسمياه على أفغانستان، ثم أدركه الموت بعد سنة وقام على الإمارة بعده شقيقه محمد أعظم خان، وارتفعت منزلة السيد جمال الدين عنده فأحله محل الوزير الأول وعظمت ثقته به، فكان يلجأ لرأيه في العظائم وما دونها (على خلاف ما تعوده أمراء تلك البلاد من الاستبداد المطلق وعدم التعويل على رجال حكوماتهم) وكادت تخلص حكومة الأفغان لمحمد أعظم بتدبير السيد جمال الدين لولا سوء ظن الأمير، بالأغلب من ذوي قرابته، ذلك ما حمله على تفويض مهمات من الأعمال إلى أبنائه الأحداث وهم خلو من التجربة، عراة من الحنكة، فساق الطيش أحدهم، وكان حاكما في «قندهار» على منازلة عمه شير علي في «هراة» ولم يكن له من الملك سواها. فظن الفتى أنه يظفر، فينال عند أبيه حظوة فيرفعه على سائر إخوته، فلما تلاقى مع جيش عمه، دفعته الجرأة على الانفراد عن جيشه في مائتي جندي واخترق بها صفوف أعدائه، فأوقع الرعب في قلوبهم وكادوا ينهزمون، لولا ما التفت يعقوب خان قائد شير علي، فوجد ذلك الغر المتهور منقطعا عن جيشه، فكرّ عليه وأخذه أسيرا، فتشتت جند قندهار وقوي جند شير علي، فحمل على قندهار واستولى عليها وعادت الحرب إلى شبابها وعضد الإنجليز شير علي، وبذلوا له قناطير من الذهب ففرقها في الرؤساء والعاملين لمحمد أعظم ـ فبيعت أمانات ونقضت عهود وجددت خيانات! ـ وبعد حروب هائلة تغلب شير علي وانهزم محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن، فذهب عبدالرحمن إلى «بخارى» وذهب محمد أعظم إلى بلاد إيران، ومات بعد أشهر في مدينة «نيسابور».

وبقي السيد جمال الدين في كابل لم يمسسه الأمير بسوء، احتراما لعشيرته وخوف انتقاض العامة عليه، حمية لآل البيت النبوي، إلا أنه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقه بباطله، ولهذا رأى

السيد جمال الدين خيرا له أن يفارق بلاد الأفغان فاستأذن للحج، فأذن له على شرط أن لا يمر ببلاد إيران، كي لا يلتقي فيها بمحمد أعظم ! وكان لم يمت، فارتحل على طريق الهند سنة (١٢٨٥هـ ـ ١٨٦٩م) بعد هزيمة محمد أعظم بثلاثة أشهر، وكان شديد الرغبة في الإقامة في الهند بغير ظهور، فراسل أحد أصحابه من تجار الأفغان هناك أن يكون ضيفه على أبسط حالات الضيف والمضيف.

ولكن شدة تيقظ رجال الإنجليز لكل حادثة تحدث خصوصا في الأفغان إذ ذاك، حالت دون رغبة جمال الدين في أن يأتي إلى الهند على ما يرومه من شكل البساطة، ومخالطة طبقات الهنود ـ لذلك كان اندهاش جمال الدين عظيما، إذ رأى أن الحكومة الهندية تستقبله على الحدود، استقبالا فخما رسميا ـ وليس عليه أدنى صفة تستلزم ذلك المظهر الرسمي، خصوصا وأنه لم ير بين ذلك الجمهور أحدا من معارفه ولا من استضافه وهو ذلك التاجر البسيط الأفغاني، فقابل تلك الحفاوة بقوله: «مأرب لا حفاوة من كريم»!

ولم يسع جمال الدين في ذلك الموقف إلا أن يشكر رجال الحكومة الهندية على احتفائهم به، وطلب أن يذهب إلى بيت صديقه التاجر فأجابوه: «إن الحكومة قد أعدت له نُزلا لا يمكن أن يتخلف عنه لسواه» فرضخ إلى ذلك اللطف؛ إذ علم أن العنف لا يجدي نفعا مع الضعف.

وأول سؤال ألقي على جمال الدين من الحكومة: ما هو الزمن الذي يريد أن يقيم فيه في الهند؟ قال: لا أكثر من شهرين. فقبلت ذلك الحكومة ووضعت من موظفيها أشخاصا يسألون كل زائر عن غرض زيارته وما يريد أن يقوله؟

فجاء في اليوم الأول عشرات تمكن المراقبون من أن يسمعوا ما قالوه وما أجاب به جمال الدين، وفي اليوم الثاني أصبحت العشرات مئات، وفي الثالث والرابع وفدوا جماهير وما أتم الأسبوع حتى ارتجت أقطار الهند، وهرعت أكابر علمائها وراجاتها، وغصت الساحات بالوفود، وبينهم من ليس باستطاعة الحكومة الهندية أن تمنعه من الاجتماع مع جمال الدين ولا يمكنها بذات الوقت أن ترصد مئات من المراقبين يحضرون ويسمعون ما يدور بين الزائر والمزور.

ولما ضاقت الحكومة الهندية بذلك ذرعا ، جاء عظيم من مأموريها إلى جمال الدين وعنده أكابر من الراجات والعلماء ، فخاطب جمال الدين قائلا :

إن الحكومة الهندية كانت تساهلت معكم للإقامة نحو الشهرين ولكنها ، ارتأت أن تتقدم إليكم اليوم بأن حالة البلاد لا تساعد على بقائكم أكثر مما مكثتم .

فأراد الحاضرون أن يحتجوا على هذا الإنذار وعلت وجوههم أسارير الغضب ، فأومأ جمال الدين بيده إليهم ، طالبا سكوتهم وحال بينهم وبين رجل الحكومة قائلا :

«إنني ما أتيت إلى الهند لأخيف حكومة بريطانيا العظمى ! ولا أنا على استعداد اليوم لأحدث شغبا عليها ولا لأنتقد شيئا من أعمالها ولكن تخوفها من زائر أعزل مثلي ، ومصادرتها لزائرين هم أضعف مني يسجل على حكومة بريطانيا وهن عزيمتها وضعف شوكتها وقلة عدلها وعدم أمنها من حكمها وأنها في حقيقة حكمها لهذه الأقطار الشاسعة الواسعة ، أضعف بكثير من شعوبها» .

ثم التفت إلى زائريه وقال : «يا أهل الهند ، وعزة الحق وسر العدل ، لو كنتم وأنتم تعدون بمئات من الملايين «ذبابا» مع حاميتكم البريطانيين ومن استخدمتهم من أبنائكم فحملتهم سلاحها لقتل استقلالكم واستنفاد ثروتكم ـ وهم بمجموعهم لا يتجاوزن عشرات الألوف ـ لو كنتم أنتم مئات الملايين كما قلت ذبابا !! لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى ويجعل في آذان كبيرهم المستر «غلادستون» وقرا .

ولو كنتم أنتم مئات الملايين من الهنود وقد مسخكم الله ، فجعل كلا منكم سلحفة (سلحفاة) وخضتم البحر وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى ، لجررتموها إلى القعر وعدتم إلى هندكم أحرارا» .

فما أتم جمال الدين كلامه حتى أذرف الحاضرون الدموع ، فقال إذ ذاك بصوت عال : «اعلموا أن البكاء للنساء والسلطان محمود الغزنوي ما أتي إلى الهند باكيا ، بل أتي شاكا للسلاح ، ولا حياة لقوم لا يستقبلون الموت في سبيل الاستقلال بثغر باسم» .

ونهض مسرعا مع رجل الحكومة، لكي يذهب معه حيث شاء فقال له : مهلا الآن! فموعد السفر غدا.

قال جمال الدين: إلى أين تريدون أن أذهب؟ قال: إلى حيث تشاء بعد أن تبارح الهند!

وفي الصباح سيَّرته من هناك في أحد مراكبها، على نفقتها إلى «السويس» فجاء إلى مصر وأقام بها نحو أربعين يوما، تردد فيها على «الجامع الأزهر» وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين. ومالوا إليه كل الميل، كما مال إليهم وسألوه أن يقرأ لهم «شرح الأظهار» فقرأ لهم بعضا منه في بيته، ثم تحول عن «الحجاز» عزمه، وتعجل بالسفر إلى «الأستانة».

وصل «الأستانة» وبعد أيام من وصوله أمكنته ملاقاة الصدر الأعظم «عالي باشا» فنزل منه منزل الكرامة وعرف له الصدر فضله وأقبل عليه بما لم يسبق لمثله، وهو مع ذلك بزيه الأفغاني: قباء وكساء وعمامة عجراء وحومت عليه لفضله قلوب الأمراء والوزراء وعلا ذكره بينهم وتناقلوا الثناء على علمه ودينه وأدبه وهو غريب عن أزيائهم ولغتهم وعاداتهم.

وبعد ستة أشهر، سمي عضوا في «مجلس المعارف» فأدى حق الاستقامة في آرائه وأشار إلى طرق لتعميم المعارف لم يوافقه على الذهاب إليها رفقاؤه ومنها ما أحفظ عليه قلب «شيخ الإسلام» لتلك الأوقات، «حسن فهمي أفندي» لأنها كانت تمس شيئا من رزقه! ـ فأرصد له العنت حتى كان رمضان سنة (١٢٨٧ هـ ـ ١٨٧١ م) فرغب إليه مدير دار الفنون، «تحسين أفندي» أن يلقي فيها خطابا، للحث على الصناعات فاعتذر إليه بضعفه في اللغة التركية، فألح عليه فأنشأ خطابا طويلا كتبه قبل إلقائه وعرضه على وزير المعارف «صفوت باشا»، وعلى مشير الضابطة «شرواني زاده» وعلى «منيف باشا» وكان من أركان الدولة وعضوا في مجلس المعارف، فاستحسنه كل منهم وأطنب في مدحته.

فلما كان اليوم المعيّن لاستماع الخطاب، تسارع الناس إلى «دار الفنون» واحتفل له جم غفير من رجال الحكومة، وأعيان أهل العلم وأرباب الجرائد وحضر في الجمع معظم الوزراء.

فصعد السيد جمال الدين على منبر الخطابة وألقى ما كان أعدّه ببلاغة سحرت عقول السامعين فأرسل «حسن فهمي أفندي» ـ شيخ الإسلام ـ أشعة نظره في تضاعيف الكلام ليصيب منه حجة تمكنه من التمثيل به، وما كان يجدها لو طلب حقا ولكن كان الخطاب في تشبيه المعيشة الإنسانية ببدن حي، وأن كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن، تأتي من المنفعة في المعيشة ما يؤديه العضو في البدن!

فشبه «الملك» مثلا بالمخ! الذي هو مركز التدبير والإرادة، والحدادة بالعضد والزراعة بالكبد، والملاحة بالرجلين. ومضى في سائر الصناعات والأعضاء حتى أتى على جميعها ببيان ضاف واف.

ثم قال: هذا ما يتألف منه جسم السعادة الإنسانية ـ ولا حياة لجسم إلا بروح ـ وروح هذا الجسم إما «النبوة» وإما «الحكمة» ولكن يفرق بينهما بأن النبوة «منحة إلهية» لا تنالها يد الكاسب بل يختص الله بها من يشاء من عباده والله أعلم حيث يجعل رسالاته.

أما «الحكمة» فمما يكتسب بالفكر والنظر بالمعلومات وبأن النبي معصوم من الخطأ والحكيم يجوز عليه الخطأ بل يقع فيه. وأن أحكام النبوات آتية على ما في علم الله، لا يأتيها الباطل من بين أيديها ولا من خلفها. فالأخذ بها من فروض الإيمان.

أما آراء الحكماء فليس على الذمم فرض اتباعها، إلا من باب ما هو الأولى والأفضل على شرط أن لا يخالف الشرع الإلهي.

هذا ما ذكره متعلقا بالنبوة وهو منطبق على ما أجمع عليه علماء الشريعة الإسلامية، لا أن «حسن فهمي أفندي» أقام من الحق باطلا، ليصيب غرضه من الانتقام، فأشاع أن السيد جمال الدين زعم أن النبوة «صنعة»! واحتج لتثبيت الإشاعة بأنه ذكر النبوة في خطاب يتعلق بالصناعة ـ وهكذا تكون حجج طلاب العنت ـ ثم أوعز إلى الوعاظ في المساجد أن يذكروا ذلك محفوفا بالتفنيد والتنديد!

فاهتم السيد جمال الدين للمدافعة عن نفسه وإثبات براءته مما رمي به، ورأى أن ذلك لا يكون إلا بمحاكمة شيخ الإسلام! (وكيف يكون ذلك؟!) واشتد في طلب

المحاكمة وأخذت منه الحدة مبلغها، وأكثرت الجرائد من القول في المسألة فمنها نصراء للسيد جمال الدين ومنها أعوان لشيخ الإسلام، فأشار بعض أصحاب السيد عليه، أن يلزم السكون، ويغضي على الكريهة، وأن طول الزمن يتكفل باضمحلال الإشاعات وضعف أثرها، فلم يقبل وألحّ في طلب المخاصمة. فعظم الأمر لدرجة خشي معها الصدر الأعظم على حياته وحياة جمال الدين معا فأصدر أمره إليه «مكرها» بالجلاء عن الأستانة بضعة أشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب، ثم يعود إن شاء، معترفا «عالي باشا» له بفضله، آسفا على انحطاط أهل الجمود عن فهم الحقائق، عالما أن حركة «حسن فهمي أفندي» في مقاومة جمال الدين إن هي إلا مقاومة لـ «عالي باشا» الذي نظر لجمال الدين نظرة كان يرجو معها أن يحله محل شيخ الإسلام لو سمح استعداد المحيط وقابلية القوم إذ ذاك، ولكن دهاء «حسن فهمي أفندي» أحبط مسعى «عالي باشا» فأهاج رأي «السفطاء» طلبة العلم واستهوى العوام من أهل الجمود، حتى أكره الصدر الأعظم على إصدار أمر جلاء جمال الدين عن الأستانة كما سبق.

أما السيد، ففي آخر يوم اضطر فيه أن يبارح الأستانة منفيا، أتاه عدة أفراد من العلماء المتنورين يعلنون له أسفهم وعدم رضاهم عن خطة شيخ الإسلام، حتى أن أحدهم وهو من كبار المدرسين اشتط في خطابه وتجاوز في الطعن على «حسن فهمي أفندي» وأعوانه إلى ما مس كرامة الدين. فوقف عند ذلك جمال الدين غضبان وقال [١]:

«ليس من خطأ أراه أكبر من مس كرامة دين لمجرد عمل يأتيه فرد من تابعي ذلك الدين، وأعتقد أن الهيئة البشرية لا يمكنها أن تستغني عن سلطتين: زمنية وروحية. كلتا السلطتين ترمي إلى غاية واحدة في الجوهر والأصل. نعم يمكن أن يطرأ على إحداهما خلل ليس في أصل الوضع فهذا الخلل يجب العمل على إصلاحه والوقوف بوجه من أخل وإرغامه على الرجوع إلى الأصل».

---

(١) هذه الشذرة من هذا الكتاب «خاطرات جمال الدين» نشرت في جريدة لسان الحال تحت عنوان «جمال الدين وأهل الدين» وتناقلتها بقية الصحف.

ثم قال: «السلطة الزمنية بمليكها أو سلطانها إنما استمدت قوتها من الأمة لأجل قمع أهل الشر وصيانة حقوق العامة والخاصة وتوفير الراحة للمجموع بالسهر على الأمن وتوزيع العدالة المطلقة . . إلى آخر ما في الوازع والسلطان من المنافع العامة. أما إذا أودعت هذه السلطة بيد رجل غر، جاهل، عات اكتنفه قوم من فاسدي الأخلاق، مجهولي الأعراق، يلعبون بالمسلط كيف يشاءون، ثم يحتجون على الشعب بقولهم: «مشيئة الملك قانون المملكة !!».

هذا القول على تلك الحالة مما يجب على الأمة وقوفها تجاهه، وأن تقاومه بكل ما لديها من قوة. لأن الحق في هذا أن إرادة الشعب الغير المكره والغير المسلوب حريته قولا وعملا، هي قانون ذلك الشعب المتبع والقانون الذي يجب على كل حاكم أن يكون خادما له، أمينا على تنفيذه.

وكل شعب تلعب به الأهواء ويتفرق شيعا وطوائف وتستحكم من أفراده محبة الذات والأنانية فيتجرون باسم الأمة تجاه الفرد المسلط، ويستنزفون ثروة المجموع إرضاء له، لينالوا بلغة من عيش. فمثل هذا الشعب يكون كالأنعام السائمة، أو أضل سبيلا. ومثل هذا الشعب يصدق عليه قاعدة جور أوجدها المستبدون وهي القول السابق: «مشيئة الملك قانون المملكة !».

ثم قال:

«كذلك القول في السلطة الروحية وأعني بها ما لكل دين من النفوذ المعنوي، على من يدينون به - وهي في بعض مواقفها، أنفذ من قوة السلاطين، ويقظة الشرطة وعدل الحاكم على منصة قضائه وأفعل مما ينفذه في بعض الأحيان من القصاص على بيّنات قد تكون أخطأت مجرما وأصابت بريئا. إذا تمكن الدين بحقيقته من نفس وخلت عن مراقبة السلطان الزمني، فهناك يفعل سلطان الروح ويردعه عن سرقة مال لو سرقه لما شهد عليه أحد وعن نفس لو قتلها لما تمكن الحاكم الزمني أن يقتص منه.

هذه بعض منافع الروح الدينية ولا ترى في الأديان الثلاثة ما يخالف نفع المجموع البشري، بل بالعكس تحضه على أن يعمل الخير المطلق مع أخيه وقريبه،

وتحظر عليه عمل الشر مع أي كان. أما وإذا انحرفت وتحرفت هذه السلطة المعنوية عن مواضعها واختل جوهر وضعها الأصلي، وجب عندئذ الوقوف تجاهها، والعمل بكل قوة لإرجاعها لأصلها».

ثم قال: «إذا سار الدين في غايته الشريفة حمدته السلطة الزمنية بلا شك، وإذا سارت السلطة الزمنية في الغاية المقصودة منها وهي «العدل المطلق» فالسلطة الروحية حمدتها وشكرتها بلا ريب. ولا تتنافر هاتان السلطتان إلا إذا خرجتا عن المحور اللازم لها والموضوعة لأجله».

هذه آخر كلمات قالها جمال الدين وفارق على أثرها «الأستانة» فحمله بعض من كان معه على التحول إلى مصر، فجاء إليها في أول محرم سنة (١٢٨٨هـ ـ ٢٢ مارس ١٨٧١م).

مال السيد جمال الدين إلى مصر على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها ولم تكن له عزيمة على الإقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة «رياض باشا» فاستمالته مساعيه إلى المقام وأجرت عليه الحكومة راتبا مقداره ألف قرش مصري كل شهر، نزلاً أكرمته به، لا في مقابلة عمل، واهتدى إليه بعد الإقامة كثير من طلبة العلم واستوروا زنده فأورى واستفاضوا بحره فأفاض درا وحملوه على التدريس، فقرأ من الكتب العلمية في فنون الكلام الأعلى والحكمة النظرية، طبيعية وعقلية، وفي علم الهيئة الفلكية وعلم التصرف وعلم أصول الفقه الإسلامي وكانت مدرسته بيته، من أول ما ابتدأ إلى آخر ما اختتم ـ ولم يذهب إلى «الأزهر» مدرسا ولا يوما واحدا ـ نعم كان يذهب إليه زائرا، وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة.

عظم أمر الرجل في نفوس طلاب العلوم واستجزلوا فوائد الأخذ عنه وأعجبوا بدينه وأدبه، وانطلقت الألسن بالثناء عليه وانتشر صيته في الديار المصرية، ثم وجه عنايته لحل عقل الأوهام عن قوائم العقول، فنشطت لذلك ألباب واستضاءت بصائر، وحمل تلامذته على العمل في الكتابة وإنشاء الفصول الأدبية والحكمية والدينية، فاشتغلوا على نظره وبرعوا وتقدم فن الكتابة في مصر بسعيه وكان القادرون على الإجادة في المواضيع المختلفة منحصرين في عدد قليل.

فنبغ في القطر المصري من تلامذته، كتبة لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم وأغلبهم أحداث في السن شيوخ في الصناعة وما منهم إلا من أخذ عنه، أو عن أحد تلامذته، أو قلد المتصلين به ومنكر ذلك مكابر، وللحق مدابر.

هذا ما حسده عليه أقوام واتخذوا سبيلا للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفية، أخذا بقول جماعة من المتأخرين في تحريم النظر فيها، على أن القائلين بهذا القول، لم يطلقوه بل قيدوه بضعفاء العقول قصارالنظر؛ خشية على عقائدهم من الزيغ.

أما الثابتون في إيمانهم فلهم النظر في علوم الأولين والآخرين، من موافقين لمذهبهم أو مخالفين، فلا يزيدهم ذلك إلا بصيرة في دينهم، وقوة في يقينهم ولنا في أئمة الملة الإسلامية، ألف حجة تقوم على ما نقول.

ولكن تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة إلى رأي هذا الرجل وأذاعوا ذلك بين العامة، ثم أيده أخلاط من الناس، من مذاهب مختلفة كانوا يطرقون مجلسه، فيسمعون ما لا يفهمون، ثم يحرفون في النقل عنه ولا يشعرون، غير أن هذا كله لم يؤثر في مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله.

ولم يزل شأنه في ارتفاع والقلوب عليه في اجتماع، إلى أن تولي خديوية مصر المرحوم «توفيق باشا» وكان السيد من المؤيدين لمقاصده، الناشرين لمحامده، والساعين لتأليف القلوب عليه.

* * *

ولما كان جمال الدين ميالا بفطرته إلى السياسة، عالما في دقائقها، فقد نظر إلى حال مصر نظر الحكيم المدقق ورأى ما آلت إليه من تدخل أجنبي وتفاقم أمره يوما فيوم، فعلم أن لا بد من تغير أحوالها، وكان قد انتظم في سلك «الجمعية الماسونية» وتبنى في «المحفل الأسكتلندي»!

أما انخراط جمال الدين في الماسونية وما أحدثه وجوده فيها، إذ كان عاملا في بدء أمره وقبل أن يصير من الرؤساء ـ فنختصره على قدر ما تسمح به الطريقة

الماسونية ـ وأن كان جمال الدين لا يرى في التكتم فضيلة، بل يرى فيه معرة ونقصا في الهمم.

أول انتقاد انتقده جمال الدين في المحفل، ردّه على قول أحد الإخوان القائل: «إن الماسونية لا دخل لها في السياسة وإنا لنخشى على محفلنا هذا من بأس الحكومة وبطشها».

فنهض جمال الدين وقال:

«كنت أنتظر أن أسمع وأرى في مصر كل غريبة وعجيبة، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل من بين أسطوانتي المحافل الماسونية! إذا لم تدخل الماسونية في سياسة الكون وفيها كل بناء حرّ، وإذا آلات البناء التي بيدها لم تستعمل لهدم القديم ولتشييد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة وتدك صروح الظلم والعتو والجور، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة».

ثم قال في بحث إجمالي عن الماسونية في ذلك المحفل ـ أي الأسكتلندي ـ ما يأتي:

« لا تتم الصورة في الذهن إلا بعد التعريف والوصف، فالإنسان حيوان ناطق ولكن يتم له التعريف المطلوب، المانع له من اشتراك بعض العجماوات الناطقة ـ عرفوه بصفات أخرى ـ فقالوا مميز، ضحاك بالطبع إلخ! فتسنى من التعريفات ما جعل له صورة مخصوصة في الذهن يعرف بها أنه «إنسان».

أما معشر الماسون! فيؤلمني أنني للآن ما عرفت لنفسي بصفتي ماسونيا! ولا لمطلق الماسونية تعريفا يجعل لها صورة في الذهن، أو وصفا ينطبق على من ينخرط في تلك العشيرة.

أول ما شوقني للعمل في بناية الأحرار، عنوان كبير خطير: حرية، مساواة، إخاء! غرض «منفعة الإنسان، سعي وراء دك صروح الظلم، تشييد معالم العدل المطلق» فحصل لي من كل هذا وصف للماسونية وهو، همة للعمل، وعزة نفس وشمم واحتقار الحياة في سبيل مقاومة من ظلم».

ثم قال: « هذا ما رضيته من الوصف للماسونية وارتضيته لها ولكن مع الأسف أرى أن جراثيم الأثرة والأنانية وحب الرياسة والعمل من جماعات بمقتضى أهوائهم وخضوعا لشرق عن بعد سحيق، يعتوره تهديد ووعيد وغير ذلك من الأمور التي ما تأسست الماسونية الحرة إلا لملاشاتها! واعتبرت من يصدع ويعمل بها من جبابرة الملوك والحكام أنهم من «الخوارج» وما يجرون من الأحكام الكيفية «خارجة» وأن أولئك الخوارج فيما يتخبطون فيه من تلك الأعمال هم في الظلمات وبأشد الحاجة إلى النور».

ثم ذكر أشياء تتعلق في «المحفل الأسكتلندي»، جاءت حسب أهواء معارضي جمال الدين، فلا حاجة إلى ذكرها هنا..

ومما قاله مخاطبا ومودعا من ترك في المحفل الأسكتلندي: «اعتقدوا أيها الإخوان، أن جمال الدين ينكر على نفسه حب الرياسة ويقول إن الماسونية أشرف وأرفع من أن تعمل على إيجاد سلطة لرئيس تخدم له بها غاية شخصية، أو منفعة مادية كانت أم أدبية.

دعوني أن أكون ماسونيا نزيها، متجنبا للرذائل - إذ لم يكن حرصا على شرف شخصيتي - فخوفا من أن تعاب الماسونية بي، فيتخذني الأغيار سهما للطعن بها وهي براء منه وما ذنب الماسونية؟ إلا أنها قبلتني بين أفرادها دون اختبار صحيح وأبقت عليّ من غير تبصر».

ومن كلمات جمال الدين في ذلك المحفل أن أحد الإخوان قال في خطاب ألقاه عبارة على طريق المباهاة: «إن الماسونية تفاخر بقدم عهدها وثباتها أعصرا على شكلها وتقاليدها»! فرد عليه جمال الدين قائلا:

« لا أرى أبعد عن الحق من هذا القول، فالماسونية على شكلها هذا وتقاليدها، ليست فقط قديمة العهد بل هي لم تزل في المهد ولسوف إذا أصرت وأصر أبناؤها على الوقوف عند حد رموز أكثرنا لا يفقه مغزاها ولا المراد من وضعها، أنها ستختنق في المهد ولا تدرج منه. ماسونيتكم أيها الإخوان! اليوم لا تتجاوز «كيس

أعـمال» وقبـول أخ يتلى عليه من أساطير الأولين مـا يمل ويخل في عقيـدة الداخل، ويسقط مكانة الماسونية من عينيه».

«أنتم اليـوم بين رئيس ومرءوس، تابع ومتبـوع ـ شرق يـأمر ومـستشرق يرضخ ـ مـال يجـمع وجـزية للشـرق تؤدى، وليس من عـمـل يدل على أدنى أثر من الحيـاة الماسونية في الشرق».

ومما اسـتـغربه الإخـوان الماسـون من أقـوال جـمـال الدين، أنـه طلب في المحـفل إسعـافا لأحد الإخـوان فقـال: هل الأخ مريض؟ قالـوا: لا! قـال: هل هو صـحيح البنية؟ قالوا: نعم ولكنه فقير معوز.

قال: «صـحة البـدن وذلّ السؤال؟ لا يصـح أن يجتمعا بإنسـان. الماسونية تسعف أخاها إذا سقط في العلل، أو اعترى بعض أعضائه شلل، وتقدمه على من سواه من الإخوان في البشرية، فتربي أبناءه إذا مات فقيرا، وتحسن العناية في تربيتهم. وفيما عـدا ذلك يجب أن تـرى أن في الإحـسـان إسـاءة لمن يحب أن يكون في الحـقـيـقـة إنسانا».

هذا بعض ما كان ينتقده، ويقوله جـمال الدين في المحفل الأسكتلندي وقد ضاق بآرائه وأفكاره ذرعا.

وعلـم جـمـال الدين أنه لا يمكنه العـمل مع أولئك الإخـوان! وهم على ذلك الخمول والتخوف أو الجبن، فأنشأ محفلا وطنيا، وفي برهة وجيزة بلغ عدد أعضائه العاملين في الجمعية أكثر من ثلاثمائة من نخبة المفكرين والناهضين من المصريين من مريدي جمال الدين من العلماء والوجهاء وتكرس محترمـا له وأول عمل عمله، أن صيَّر من الإخوان العـاملين في المحفل شعبا، شعبـة أناط بها إنذار نـاظر «الجهادية» كي ينظر بعين العدل والإنصاف إلى الضباط الـوطنيين الذين تمادى زمان مكثهم في السودان أكثر مما تستوجبه القوانين المسنونة للضبـاط (وكان القانون العسكري إذ ذاك أن تتناوب الخدمة صنوف الضباط وطنيين وشراكسة متمصرين) فكان أكثر الضباط المصريين الذين يقتضي استبدالهم بعد سنتين مثلا في السـودان، بآخرين من الضباط

الشراكسة «نسبا»، كانوا يقضون أربع سنوات فأكثر ولا يستبدلون، وإن استبدلوا فإنما يرسل مكانهم مصريين، ممن لا عضد لهم أو مجير من أمير أو وزير؟!

وشعبة أخرى لإنذار ناظر الحقانية، وأخرى للمالية فنظارة الأشغال وبقية النظارات والمصالح الأميرية، تلفتهم إلى إحقاق الحق وعمل العدل والإنصاف مع مستخدميهم من الوطنيين (إذ كان الموظف المصري في وظيفة ما إذا تناول خمس جنيهات راتبا شهريا ـ كان غيره من غير المصريين بمثل ذاك العمل والوظيفة، يتناول خمسة عشر أو عشرين جنيها).

ذهبت كل شعبة للوجهة التي عينت لها وأدت للنظار ما أمرت به من المحفل بلهجة وأسلوب، استهجنهما واستغربهما السامعون فحصل من جراء ذلك هزة في الأندية والدواوين، انتهت تموجاتها إلى «سراي عابدين» والخديوي إذ ذاك المرحوم «توفيق باشا» فهاله الأمر وكان قليل المبالاة بالماسونية، حتى إنه استنكر تكليفه أن يكون أستاذا أعظم للمحافل الماسونية المصرية الوطنية ـ وتردد في قبول جمال الدين زائرا ولكن بعد تلك الحركة أسرع في استزارة جمال الدين، فذهب بعد مماطلة أيام وتمثل لدى الحضرة الخديوية وبعد تلطيف وتجمل من الخديوى، قال لجمال الدين ما معناه: «إنني أحب كل خير للمصريين ويسرني أن أرى بلادي وأبناءها في أعلى درجات الرقي والفلاح ولكن مع الأسف إن أكثر الشعب خامل، جاهل، لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة، فيلقون أنفسهم والبلاد في تهلكة»!

قال جمال الدين مجاوبا: «ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص، إن الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده، ولكن غير محروم من وجود العالم والعاقل، فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري وأفراده، ينظرون به لسموّكم وإن قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد على طريق الشورى، فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين، وتنفذ باسمكم وبإرادتكم، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم».

هذا أهم ما جرى في هذه المقابلة التي كان فيها سمو الخديوي غير راض وأسر في نفسه البطش في جمال الدين ولكن لم يظهر له شيئا من ذلك.

خرج جمال الدين من مجلس سمو الخديوي ومضى إلى تنفيذ خطته في الحزب والمحفل الوطني وأخذ يخطب خطبا تستفز الخامل وتوقظ الغافل وتصير الجبان شجاعا والرعديد أسدا ضاريا وأشار على تلامذته ومريديه بنشر الفصول الناطقة بالحقوق المهضومة لأهل البلاد من المصريين وكان في مقدمة من كتب الأدباء السوريون وفي مقدمتهم المأسوف عليه «أديب بك إسحق» (١).

وعلى أثر ذلك بدأت الحركة الفكرية الوطنية في الظهور، وأخذت الحكومة تحتاط لتلك الحركة وتجامل الوطنيين وتتقرب من الشعب بالمواعيد الحسنة وحسن النية، من إنالتهم مجلسا نيابيا إذا هم حافظوا على السكينة ولم يفرطوا في المطالب الوطنية.

فطلب الأحرار من جمال الدين أن يضع خطة للمجلس النيابي المصري العتيد وبيانا واضحا للشعب كي يسير بمقتضاه نحو انتخاب نوابه فقال:

«أيها الإخوان، إن القوة النيابية لأيّ أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقي إلا إذا كانت من نفس الأمة وأي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محركة لهما فاعلموا أن حياة تلك القوة، النيابية، الموهومة، موقوفة على إرادة من أحدثها. فعزة الملك ينغصها نهضة الشعب المملوك، خصوصا إذا هو صادم إرادة مالكه أو أميره والتاريخ لم ينقل لنا أن ملكا أو أميرا أو دخيلا بقوته على شعب، يرضى عن طيب خاطر أن يبقى مالكا اسما وأمته هي المالكة فعلا لإدارة شئونها وذمام أمورها على مطلق المعنى وأعظم أماني الشعوب المملوكة، التملص من ربقة الأجنبي وتحكمه».

ثم قال: «سترون عما قريب إذا تشكل المجلس النيابي المصري، سيكون ولا

---

(١) كان جمال الدين لآخر نسمة من حياته عند ذكر أديب بك إسحق يسترجع ويقول: كان طراز العرب وزهرة الأدب، قضى نحبه في شرخ الشبوبية وعنفوان الفتوة وترك لنا قلوبا آسفة وشجونا فائضة إنا لله وإنا إليه راجعون.

شك بهيكله الظاهري مشابها للمجالس النيابية الأوروبية، بمعنى أن أقل ما سيوجد فيه من الأحزاب ـ حزب للشمال وحزب لليمين [١] ـ ولسوف ترون إذا تشكل مجلسكم، أن حزب الشمال لا أثر له في ذلك المجلس؛ لأن أقل مبادئه أن يكون معارضا للحكومة ـ وحزب اليمين أن يكون من أعوانها.

قال: تستغربون قولي هذا اليوم؛ لأن ما نبحث فيه هو أمر تصوري لم يخرج لحيز العمل بعد، ولكن متى رأيتم المجلس النيابي الموهوم تشكل، ورأيتم كل عضو يفر من أن يكون في حزب الشمال ـ الناهض والمعارض للحكومة ـ فراره من الأسد إلى حزب اليمين إذ ذاك تقولون: صدق جمال الدين! نعم أكون صدقت ولكن ليس لي في هذه الفراسة وفي صدق التصور التصديقي أدنى فضيلة، إذا رجعتم وعلمتم أن المقدمات الصحيحة هي التي تنتج النتائج الصادقة.

فمقدمات مجلس نيابي قوته المحدثة له، خارجة عن محيط الأمة والمحدث له، قوة خارجة عن الأمة ومجلسها، يعارضها، منافع متضادة وهدفان مختلفان، فمثل هذا المجلس لا قيمة له، وكما أنه لا يعيش طويلا كذلك لا يغني عن الأمة فتيلا».

ثم قال ضاحكا ضحكة متألم: «سترون أن الذي سيكون نائبا عن شعب لا أعدد مصائبه ولا أنواع رزاياه، لفقدان حريته بكل معناها، هو الذي كان آلة صماء، بيد تلك القوة التي عملت على وصول وطنه ومواطنيه، إلى ما وصلوا إليه. تعرفونه إذا شئتم أن تتفكروا قليلا، وإن شئتم وصفه فأنا أقول لكم:

نائبكم سيكون على مقتضى ما مر من مهيئات مصركم في زمانكم هو ذلك الوجيه الذي امتص مال الفلاح بكل مساعيه، ذلك الجبان البعيد عن مناهضة الحكام الذين هم أسقط منه همة، ذلك الرجل الذي لا يعرف لإيراد الحجة تجاه الحاكم الظالم معنى ولو كانت من الحجج الساطعة، ذلك الرجل الذي يرى في إرادة القوة الجائرة (كل خير وحكمة!) ويرى في كل دفاع عن وطنه، ومناقشة للحساب، قلة أدب وسوء تدبير!! وعدم حنكة؟! وتهور؟! وبالتالي يرى أن كل صفات العزة النفسية، والمقومات الأهلية القومية، مآلها الويل والثبور.

---

(١) اليمين واليسار!

وكل ما يدعو إلى الذل واحتقار القومية وسحق ما تنمو به حرية الأمة، هو من مجالي حكمته العصرية!! هذا مع الأسف الذي أراه سيتكون منه مجلسكم النيابي الموهوم (إذا صحَّت الأحلام) والذي سيخالف قاعدة كلية، لقواعد فلسفة أقرت على أن الوجود خير من العدم، فعدم مثل هذا المجلس خير من وجوده»!

* * *

ثم أخذت الأفكار تتنبه من الوطنيين من تلك الأقوال والخطب والفصول التي يبثها جمال الدين ومريدوه، وفي كلها ما يدل على نفرة جمال الدين من سياسة بريطانيا العظمى! وانتقاده لها وقد ترجمت وأرسلت إلى جرائد إنجلترا واهتموا بها كثيرا حتى تولى المستر «غلادستون» نفسه أمر الجدال في موضوعها فلما بلغ المحفل الوطني لجمال الدين إلى هذه الدرجة من الأهمية والتأثير داخل الخوف المستر «فافياني» قنصل إنجلترا الجنرال إذ ذاك وجمع بواسطة ما بثه من الرقباء في المحفل والجواسيس، ما أخاف به الحكومة وأرهب الخديوي وكان في نفسه أشياء تحذره من وجود جمال الدين في مصر، كما سبق في محادثته له.

فأصدر أمره بإخراج السيد من القطر المصري مع تابعه «عارف أفندي، أبي تراب» ففارق مصر سنة ١٢٩٦هـ ـ ١٨٧٩م قاصدا البلاد الهندية ولما وصل إلى «السويس» أتاه بعض مريديه وقنصل إيران! وبعض التجار وكل منهم يحمل مقدارا من المال، عرضوه على السيد جمال الدين وألحّوا عليه أن يقبله قرضا! فأجابهم: «أنتم إلى هذا المال أحوج والليث لا يعدم فريسة حيثما ذهب»! ثم أبحر إلى البلاد الهندية وأقام بـ «حيدر آباد الدكن» وفيها كتب رسالته في إبطال ونفي مذهب الدهريين.

ولما كانت الحادثة الأخيرة بمصر «الحوادث العرابية» دعي من حيدر آباد إلى «كلكتا» وألزمته حكومة الهند بالإقامة فيها حتى انقضى أمر مصر وخمدت الحرب الإنجليزية، ثم أبيح له الذهاب إلى أي بلد شاء، فاختار الذهاب إلى أوروبا وأول مدينة صعد إليها مدينة «لندرا»، أقام بها أياما قلائل، ثم انتقل إلى «باريز» وأقام بها ما يزيد على ثلاث سنوات، طلب فوافاه في أثنائها صديقه الأستاذ العلامة الشيخ محمد عبده، وكانت في مصر جمعية وطنية تألفت من خيار القوم، اسمها «جمعية

العروة الوثقى» فكلفته أن ينشئ جريدة تدعو المسلمين إلى الوحدة الإسلامية تحت لواء الخلافة العظمى، وكلف صديقه الأستاذ المشار إليه، أن يقوم على تحريرها ففعل ونُشر من الجريدة ثمانية عشر عددا وقد أخذت من قلوب الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا ما لم يأخذه قبلها وعظ واعظ ولا تنبيه منبه، ذلك لخلوص النية في تحريرها وصحة المقصد من مدير سياستها في تحبيرها ثم قامت الموانع دون الاستمرار في إصدارها، حيث أقفلت أبواب الهند عنها واشتدت الحكومة الإنجليزية في إعنات وأذية من تصل إليهم حتى في مصر، فإنها أصدرت أمرا وزاريا «نوباريا» وهو مسطور في العروة الوثقى ونصه:

«انعقد مجلس النظار المصري في القاهرة، واهتم في البحث في شأن «العروة الوثقى» ثم أصدر قراره إلى نظارة الداخلية المصرية قاضيا عليها بأن تشتد في منع هذه الجريدة عن دخول الأقطار المصرية وتراقب جولانها في تلك الديار، فصدر أمر الداخلية إلى إدارة عموم البوستة، يلزمها بالدقة في ذلك، وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الأوامر أعلنت أن كل من توجد عنده «العروة الوثقى» يغرم مبلغا من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيها ـ «وهي غرامة جسيمة ربما دعا إليها عسر المالية المصرية ببركة تصرّف الإنجليز في مصر».

«أما نحن فلا نظن أحدا من النظار المصريين له رأي اختياري في هذا القرار، بل لا نتوهم في المستوى والجالس على كرسي الخديوية ميلا إلى مثل هذا الحكم ولا يختلج في صدرنا أن مصريا من أي مشرب كان سواء فيه المسلم وغير المسلم، بل ولا شرقيا ممن يسكن تلك البلاد يرى فيه مسحة من العدل. هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم، ولها سعي بل كل السعي لخيبة آمال أعدائهم ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا القدح في عمرو فإن المقصد أعلى وأرفع من هذا وإنما عملها سكب مياه النصح على لهب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عموما على الصفاء والوداد.

«تلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضواري التي فغرت أفواهها لالتهامهم ـ ومن رأيها أن الاشتغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طروق الناهب.

«هذا منهاج العروة الوثقى، علمه كل مُطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها، فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقيا، مسلما كان أو غير مسلم، يميل لحجبها عن دياره؟! ولكنا نعلم أن حركات الآمرين في القطر المصري هذه الأيام قهرية، لا يخالطها شيء من الاختيار والمدير لرحى القهر عليهم «هم عمال الإنجليز».

«ولا نريد أن نقول للإنجليز إنهم ظلموا في هذا الحكم، فإن الجريدة لم يوجد فيها ما يزيد على ما تنشره الجرائد الوطنية والأجنبية من كشف مساتيرهم وبيان الرزايا التي أصيبت بها الديار المصرية من حلولهم، لأنهم ـ «الإنجليز» ـ وهم الذين إذا أحسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين في الهند وإقبال الناس عليه بالاعتبار، أسرعوا بجلبه إلى ديوان الشرطة «الضبطية» وعند وصوله إليها، يفتح له الضابط مصحف قرآن أو كتاب حديث من الكتب المشهورة، ثم يشير إلى آية من آيات الجهاد، أو حديث مما يدعو إليه ويسأله : هل أنت معتقد بهذه الآية أو الحديث؟ فإذا قال نعم قال له : فبناء على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا! فإذا أجابه بأنني درويش ملازم العزلة عن الناس وليس اعتقادي بهذا إلا لأنه كتاب ديني، ضرب له الضابط أجل أربعة أيام أو أقل، يبين فيها رأيه في الآية أو الحديث، فإن مضى الأجل ولم يحرف العالم دينه ولم يبدل عقيدته ولم يبادر بإرسال تحريفه وتبديله وخروجه عن دينه، إلى مطبعة من المطابع ليطبع وينشر، بعثت به الحكومة إلى جزيرة «اندومان» نفيا مؤبدا.

«ولو رأيت تلك الجزيرة لرأيتها غاصة بأمثال هؤلاء المظلومين، فدولة الإنجليز التي تحاسب رعاياها المسلمين، على خطرات قلوبهم، وما يمكن أن يهجس في حديث نفوسهم، لا ريب أنها تعد وجود لفظ «الإسلام» في جريدة كافيا لمنعها عن الدخول إلى بلاد لها فيها قدم ثابت، أو تسعى في تثبيته، بل تحسب أن من ألد أعدائها شخصا علق عليه هذا الاسم من أي جنس كان.

«فلا غرابة في صدور مثل هذا الجور منها، غير أننا نعلن لها أن همم الرجال لا تقعدها أمثال هذه المظالم وليس يعجزنا إدخال العروة الوثقى في كل بقعة تحوطها السلطة الإنجليزية الظالمة وذلك بعزائم أولى العزم، والإباء والنهضة».

* * *

ثم ظهرت حادثة المهدي السوداني، «محمد أحمد» وأخذ أمره في الاستفحال واتسع منه لإنجلترا مجال المداخلة في شئون مصر، بحجة قمع ثورة المهدي السوداني.

فكتب جمال الدين في العروة مقالات يحذر بها الإنجليز ويلفت نظر كبير وزرائهم إذ ذاك «المستر غلادستون» إلى سوء مصير «الجنرال غوردون»، واستحالة نجاح مقصد الإنجليز بتلك الوسيلة وأمثالها وأثبت ذلك بحجج قاطعة وبراهين ساطعة. وسيأتي ذكر ذلك تحت عنوان «عبرة وذكرى».

وقد ثابر جمال الدين على الكتابة في مسألة السودان معددا خطيئات بريطانيا ووزرائها، مفندا لأقوال اللورد «غرانفيل» وحجج «المستر غلادستون» ومبينا مسيء المصير، من انتهاج تلك السياسة في مصر والسودان، كاشفا مساتير السياسة ـ مما أقام أكابر رجال السياسة في العالم وأقعدهم، واضطربت لها أندية «لندرا» خاصة.

فاضطر اللورد «ساليسبوري» و« شرشل» أن يستدعيا جمال الدين ليسألاه رأيه في «المهدي» وظهوره إذ ذاك، فشخص إلى لندن واجتمع بهما، وهناك أفاض بتوضيح الغوامض وأطلعهما على مواقع الخطأ في سياسة إنجلترا خصوصا نحو دول الإسلام في الشرق وما تتبعه في مصر، كل ذلك بحجج قاطعة ولهجة شديدة ملؤها الإخلاص.

وبعد أخذ ورد، اختصر «اللورد ساليسبوري» الحديث ورام تقريب البعيد، فقال لجمال الدين:

«إن بريطانيا تعلم مقدرتك، ونحن نقدر رأيك قدره ونحب أن نسير مع حكومات الإسلام، بمودة وولاء، على قدر ما تسمح لنا به الظروف والأحوال، لذلك تصورنا أن نرسلك إلى السودان بصفة سلطان عليه، فتستأصل جذور فتنة المهدي وتمهد السبيل لإصلاحات بريطانيا فيه. . . ».

فقال جمال الدين: «تكليف غريب، وسفه في السياسة ما بعده، اسمح لي يا حضرة اللورد أن أسالك هل تملكون السودان حتى تريدوا أن تبعثوا إليه بسلطان؟

«مصر للمصريين، والسودان جزء متمم لها وصاحب الحق، الخليفة الأعظم جلالة السلطان حي يرزق، ولديه من الجيش المادي والمعنوي، ما يتذلل معهما كل صعب وفتنة في الكون الإسلامي وأجزاء ممالكه!

إن الإصلاح وما تنويه بريطانيا من عمله وطرق إدخاله وما تبحث له من الوسائل، فعلى سبيل الاستطراد والتطفل، ألفت نظرها ونظر كبير رجالها حضرة اللورد إلى ـ أيرلندا ـ وما تعانيه من ضروب البلاء فيما تنشده لنفسها من طلب الاستقلال؛ ليتسنى لها معه الإصلاح الحقيقي لبلادهم، فلماذا لا تجيبون سؤالهم وتصلحون أمرهم، وهم أقرب إليكم من حبل الوريد وبينكم وبينهم من الجامعات[1] ما هو معدوم لكم في مصر والسودان، وغيرهما من ممالك الشرق؟! . . .».

فبهت عند ذلك «اللورد ساليسبوري» بهتة رجل فوجئ بصدمة لم تكن في حسبانه، ولم يحر جوابا، إذ كان ينتظر من جمال الدين سجود الشكر لسلطان أتاه بدون تعب ومنصب انتصب له بلا نصب! فقال للسيد كلمات: معناها سننظر في الأمر، وودعه بقوله: «مصحوب بالسلامة»!

خرج جمال الدين من تلك الملاقاة وأكبر رجال وزارة إنجلترا ـ ساليسبوري ـ على غاية النفرة من سياسته. أما الجرائد الإنجليزية فأكثرها اهتم لنظرية جمال الدين ومباحثه، خصوصا من كان مواليا، لقضية الأيرلنديين، من الإنجليز الأحرار وبالإجمال ما خرج من لندرا إلا وأنديتها السياسية في شيء من الهرج.

* * *

. . . ثم عاد إلى فرنسا وكانت العقبات التي أقامتها الحكومة الإنجليزية ضد العروة الوثقى، قد بلغت مبلغها من الشدة فسدت في وجهها الأبواب واشتدت في عقاب من يذكرها. وبالإجمال فقد ظفرت بريطانيا العظمى! بعد أن صرفت كل

---

(١) المقصود بالجامعات هنا: الروابط والعلاقات.

همها وهممها في تعطيلها، أن انحجبت «العروة الوثقى» عن الظهور ولكنها حفظت في الصدور وما غرسته في الأذهان أخذ ينمو على مهل، في معظم بلاد الشرق وتبدو ثماره، على التدريج.

كانت مدة إقامة جمال الدين في باريز ثلاث سنوات ونيف، منها ما قضاه في نشر العروة الوثقى، ومنها ما نشر فيها تلك المقالات الرائعة في أمهات جرائدها باحثة عن سياسة روسيا وإنجلترا والدولة العلية ومصر.

ومن أبحاثه تلك الأبحاث الفلسفية وأهمها، ما جرى له من المباحث مع الفيلسوف الفرنساوي ـ رينان ـ «في العلم والإسلام وحقيقة القرآن والعمران» ـ وستأتي براهين تلك المباحث في أقوال جمال الدين الآتية ـ أما «رينان» فقد شهد له بصحة العلم وقوة الحجة ورجع عن كثير من آرائه في أن الإسلام والقرآن مانعان للحضارة والعمران وأن ما يرى في المسلمين من الانحطاط والتقهقر، إن هو إلا من سوء فهم أهل الجمود من رؤساء أهل الدين لحكمته.

كانت مدة إقامة جمال الدين في فرنسا محفوفة بالتجلة والإعظام من أكثر علمائها وفلاسفتها، وقد أحلوه من مقام العلم والحكمة مكانا عليا.

* * *

جمال الدين في طهران
ومقابلته مع ناصر الدين شاه

كيفية استقدام جمال الدين إلى طهران وتألمه من الشاه ناصر الدين وغلظته في مخاطبة الملوك والعظماء

بعد أن علم جمال الدين أن لا مقام له في «باريز» مع كثرة الحفاوة والاحتفاء، عزم على السياحة في البلاد العربية من نجد، فالحجاز، فالعراق، وبينما هو على هذه الأهبة، استقدمه «ناصر الدين» شاه الفرس على لسان البرق فسار قاصدا «طهران» تاركا سياحته. وفي «أصفهان» التقى بالأمير «ظل السلطان»، فأجلّ جمال الدين وأعظم قدره وكان هذا الأمير، على جانب عظيم من الذكاء والدهاء، فرأي في السيد خير مرشد للشاه ولمملكة الفرس، حتى إذا وصل إلى طهران استقبله الشاه بصدر رحب واحتفاء كبير مع ثناء وإطراء على فضله ونبله وفوّض إليه في الحال نظارة الحربية رسميا مع صفة مستشار خاص للشاه [1]، إذ كان لا يقطع أمرا في المملكة، إلا برأي جمال الدين [2] فقام بأعباء الإرشاد والنظارة خير قيام وفي نفس الوقت كانت لهجته، شديدة وصريحة بلزوم تغيير كل قديم بال، من إدارة الحكومة الفارسية وبضرورة الأخذ بإنهاض الأمة، ومشاركتها في حكم ذاتها.

فالتفّت أمراء الفرس وعلماؤها، حول جمال الدين وأقسموا له أنهم يصدعون

---

(١) و (٢) . . . هذا لم يحدث على الإطلاق . . .

بما يأمر به، فأشار بعدم التسرع ولزوم الأخذ بسنن التدريج، غير أن الشاه لما رأى ما ناله جمال الدين من علو المنزلة ونفوذ الكلمة في مملكته وما سخره من قلوب الأمراء والعلماء، أوجس خيفة وداخله ريب عظيم واضطراب متخوفا على سلطانه، فتنكر لجمال الدين وتغيّر سير الشاه معه فأدرك السيد ما في نفسه، فاستأذنه في السفر لتبديل الهواء! فأذن له، فسار إلى روسيا وزار عواصمها، من موسكو، فيطرسبرج، فلاقاه أهلها بالتجلة والإكرام لما سبق إلى مسامعهم من شهرته واجتمع في «بطرسبرج» بأعاظم رجالها، من العلماء والسياسيين وهم يعلمون منزلة جمال الدين، إذ كان وزيرا أولا لحكومة الأفغان في عهد الأمير «محمد أعظم خان» ونشر في جرائدها مقالات ضافية في سياسة الأفغان والفرس والدولة العلية والروسية والإنجليزية، كان لها دَوِيٌّ شديد في جو السياسة، أما نفرة السيد من سياسة الإنجليز وتنقيده لها بالبراهين القاطعة فقد أوسع له في المملكة الروسية مجالا، فأولوه غاية الإجلال والتكريم والإصغاء لأحاديثه والانتصار لسياسته، حتى أن القيصر دعاه لقصره وتحادث معه طويلا، وكان كثير الحفاوة به معظما له، مصغيا لما يقوله (!).

بعد تلك الأحاديث الطويلة، سأل القيصر جمال الدين، عن سبب اختلافه مع الشاه؟ فذكر له رأيه في «الحكومة الشورية» وضرورة اتباعها، وأن الشاه ينفر من ذلك ولا يحب أن يقرّ به.

قال القيصر: «إني أرى الحق في جانب الشاه! إذ كيف يرضى ملك من الملوك أن يحكم به فلاحو مملكته» ؟

فأجاب جمال الدين بجرأة وفصاحة: «أعتقد يا جلالة القيصر أن عرش الملك، إذا كانت الملايين من الرعية أصدقاء له، خيرا من أن تكون أعداء يترقبون الفرص، ويكمنون في الصدور سموم الحقد ونيران الانتقام. فعلت عند ذلك وجه القيصر علامة غضب فقطب حاجبيه ولم يطل الحديث بعد ذلك مع جمال الدين، بل قام من مجلسه وودّع جمال الدين بغير الشكل الذي استقبله به، إذ كان وداعا باردا، ثم أوعز القيصر إلى أكبر رجال بلاطه، أن يسرعوا متلطفين بإخراجه من روسيا!

. . . ترك جمال الدين روسيا وأخذ يجول في أوروپا وأقام في «لندرا» أياما تلقته رجال السياسة فيها، كما تلقوه في غيرها من العواصم بالإكرام والإجلال ودعوه إلى مجتمعاتهم السياسية وأنديتهم العلمية، ليروه ويسمعوا حديثه وكان أكبر همّه وأكثر كلامه، في بيان سوء تصرف الشاه في المملكة واستبداده وما آلت إليه حالها في عهده، يريد في كل ذلك تمهيد السبيل، لأحرار إيران وعدم معارضة الإنجليز لهم، إذا هم نهضوا لقلب حكومة الاستبداد بحكومة دستورية.

صادف وجود جمال الدين متجولا في أوروپا فتح معرض «باريز» سنة ١٨٨٩ م فشخص إليها والتقى بالشاه في «منيخ» عاصمة «باواريا» عائدا من باريز، فاستزاره واعتذر له عما فرط وعتب عليه بعدم عودته إلى طهران وأخيرا دعاه إلى مرافقته، فأجاب جمال الدين الدعوة وسار مع الشاه إلى بلاد فارس، فلم يكد يصل إلى طهران حتى عاد الناس وفي مقدمتهم الأمراء والعلماء إلى الاجتماع به والانتفاع بعلمه، والشاه لا يرتاب من أمره وأول ما كلفه به، أن يسن ما يراه موافقا لروح العصر من القوانين ـ ربما كان ذلك من الشاه بتأثير سياحته في أوروپا ـ فعمل جمال الدين، بهمته المعهودة، فسنّ القانون الأساسي، لمملكة فارس لتكون: حكومة، ملكية، شوروية، فما أتم قواعد الدستور الكلية ومواده وأطلع عليه الشاه ناصر الدين، إلا وأعظم الأمر، إذ رأى أن حكمه سيكون مقيدا، وأن أهل فارس، سيكونون أوسع سلطة من الشاه، بمجلسهم النيابي.

فقال لجمال الدين: «أيصح أن أكون يا حضرة السيد وأنا ملك ملوك الفرس، (شهنشاه) كأحد أفراد الفلاحين»؟

فقال جمال الدين: «اعلم يا حضرة الشاه أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك، سيكونون بالحكم الدستوري أعظم وأنفذ وأثبت مما هم الآن.

والفالح والعامل والصانع في المملكة يا حضرة الشاه، انفع من عظمتك ومن امرائك واسمح لإخلاصي أن أؤديه، صريحا قبل فوات وقته.

لاشك يا عظمة الشاه أنك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك، ولكن هل رأيت ملكا عاش بدون أمة ورعية؟»؟.

هذا الحديث الصريح من جمال الدين للشاه ناصر الدين، جاء مصدقا لما وشى به الصدر الأعظم وخوف الشاه منه بقوله: «إن ما يسنه جمال الدين من القوانين لا يفيد البلاد شيئا، ولكنه ينزع سلطان الشاه منه ويعطيه إلى السوقة والفلاحين» وغير ذلك من الوشايات!

فنفر الشاه نفورا بيّنا من جمال الدين وأعرض عنه فأحسّ بهذا التغيير والنفور، فاستأذن بالذهاب إلى بلدة «شاه عبد العظيم» على بعد عشرين كليو مترا من «طهران»، فأذن له [1] فسار إليها وتبعه جمع غفير من العظماء والعلماء والوجهاء، الذين كان يخطب فيهم، ويستحثهم على إصلاح حكومتهم وما منهم إلا وقد انفعل بخطب جمال الدين الحماسية وقبلت نفوسهم نزعة الاستقلال وسرت تلك الروح في البلاد طولا وعرضا وذاع فيها عزم جمال الدين على إصلاح إيران، فخاف ناصر الدين شاه عاقبة ذلك فأنفذ إلى بلدة شاه عبد العظيم، خمسمائة فارس، قبضوا على جمال الدين وكان مريضا فحملوه من فراشه على برذون وساقوه بصورة فظيعة وعليه دور من الحمى، درجة حرارتها أربعون ولم يسمحوا له باستراحة دقائق، حتى أوصلوه إلى حدود المملكة العثمانية في ولاية «البصرة». [2]

فما شاع خبر نفي جمال الدين على تلك الصورة في إيران، حتى قامت قيامة محبيه ومريديه وثاروا في وجه حكومة الشاه حتى كادت الدماء تجري أنهارا والثورة تثور ولكنها خمدت تحت الرماد، لشدة ما خامر الشاه من الخوف على حياته واتخذه من الحيطة (كل ذلك لم يغن عن الشاه فتيلا، لأنه بعد مدة قتل بيد رجل من الفرس قال عند طعنه للشاه: يا لثارات جمال الدين)!

* * *

(١) هذا لم يكن بإذن الشاه.. بل كان لجوءاً إلى مزار عبد العظيم من آل البيت (ع) في المدينة من شر زبانية شاه والعملاء..

(٢) إحدى مدن «العراق» اليوم.

أما جمال الدين، فمكث في «البصرة» حتى عادت إليه صحته فشخص منها إلى «لندرا»، وبينما هو مع كبار رجال الإنجليز في حجاج ولجاج، في أحوال مملكة الفرس وسوء تصرف الشاه ناصر الدين وإنذار الإنجليز بسوء عقبى إمدادهم الشاه وإعانته على عسفه في المملكة الفارسية، ورد عليه كتاب من المابين الهمايوني! بواسطة السفير الكبير «رستم باشا» في لندرا إذ ذاك، أن يقدم إلى الأستانة، فاعتذر بأنه في شاغل وقتي لإصلاح بلاده [1] ولم ينجح رستم باشا بكل ما بذله مع جمال الدين، ليذهب إلى الأستانة وبعد أيام ورد كتابان، الواحد إلى السفير «رستم باشا» والآخر لجمال الدين وفيهما من الثناء والتحريض، ما جعل جمال الدين أن يترك الرفض ويجيب الدعوة.

أما الكتاب إلى «رستم باشا» فكان فيه من الشدة والإلحاح من جلالة «السلطان عبد الحميد» هذه العبارة: «لايقبل جلالته لكم عذرا إذا ما أقنعتم جمال الدين بالمجيء إلى الأستانة، ليقابله ثم يعود إذا شاء، منتظرين إشعاركم تلغرافيا».

. . . فترك «لندرا» وقدم الأستانة سنة ١٣١٠هـ وأواخر عام ١٨٩٢م.

وصل جمال الدين إلى الأستانة وكان في انتظاره، الياور السلطاني، الذي كان أوفد من المابين لاستقباله فسأله أين الصناديق يا حضرة السيد؟ فقال: ليس معي غير صناديق الثياب وصناديق الكتب؟ قال الياور! حسنا دلني إذا أمرت على مكانهم، فأشار السيد قائلا: صناديق الكتب ههنا ـ وأومأ بيده إلى صدره ـ وصناديق الثياب هذه ـ وأشار إلى جبته ـ.

وقد قال لنا أكثر من مرّة: «كنت أول عهدي بالنفي، أستصحب جبة ثانية وسراويل! ولكن لما توالى النفي، صرت أستثقل الجبة الثانية، فأترك التي عليّ إلى أن تخلق فأستبدلها بغيرها»!

---

(١) أي إصلاح إيران وإنقاذ البلد من استبداد الحكم الشاهنشاهي..

مقابلة
السلطان عبد الحميد

ذهب جمال الدين توا إلى «المابين» وحظي بمقابلة جلالة السلطان «عبد الحميد» فاستقبله أحسن استقبال! وأكثر من الاحتفاء والاحتفال به وأدناه منه وأجلسه بقربه وكان قد أمر بإعداد وتهيئة قصر له في محلة «نيشانطاش» وسيَّره إليه بعربة خاصة.

أما جمال الدين فكان كما سبق ذكره، على غاية من الغيظ من ناصر الدين شاه، ناقما عليه وعلى حكومته الاستبدادية يشغل كل مجلس حل فيه، بالطعن الشديد وأقبح التنديد، فتقدم سفير إيران برسالة خاصة إلى السلطان «عبد الحميد» ليردع جمال الدين عن ذلك الطعن وفي ذات يوم وجمال الدين في حضرة السلطان رغب إليه بلزوم كف لسانه عن الشاه، وأن يتناسى ما مضى «بعبارة غاية في اللطف وكمال الدعة»! وكان في يد جمال الدين سبحة، فجمعها لكفه وقال بصوت جهوري: «امتثالات لإشارة الخليفة، فإني من الآن قد عفوت عن الشاه ناصر الدين».

فأعظم الحاضرون هذا القول، في هذه اللهجة؟! ولكن جمال الدين لم يبال بإعظامهم ولا بما تقولوه، لاعتقاده أنه يحق له أن يعفو وأنه قد عفا عن الشاه.

خرج جمال الدين على عادته، من حضرة السلطان إلى حجرة رئيس القرناء فقال له بلطف: يا حضرة السيد، إن إجلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل واليوم رأيناك تخاطبه بلهجة غريبة وأنت تلعب في السبحة في حضرته؟!

فقال جمال الدين: «سبحان الله! إن جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الأمة على هواه وليس من يعترضه منهم، أفلا يكون لجمال الدين حق أن يلعب في

سبحته كيف يشاء»؟ . أما رئيس القرناء فترك حجرته مهرولا خائفا يترقب من هذا الكلام بهذه اللهجة، أن يوشي به إلى السلطان!

أما الإكرام لجمال الدين والاحتفاء به والإقبال عليه، من قبل جلالة السلطان عبد الحميد فكان عظيما وقد أكثر من الاجتماع به إثر وصوله ساعات في كل يوم وليلة ـ فلخص السيد تلك الاجتماعات، وما دار فيها من الأحاديث بقوله:

«إن السلطان عبد الحميد، لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة خصوصا في تسخير جليسه».

«ولا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب ويخرج المناوئ له، من حضرته راضيا عنه وعن سيرته وسيره، مقتنعا بحجته، سواء في ذلك، الملك والأمير والوزير والسفير ولكن يا للأسف ! إن عيب الكبير كبير والجبن من أكبر عيوب الملوك».

ثم قال: «رأيت من السلطان ارتياحا لقبول كلما ذكرته له من محاسن الحكم الدستوري، وأن الإسلام، أول من عمل به في سلطانه» (أي الحكم الشوري وذلك عملا بحكم النص ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[الشورى: ٣٨].

قال: «ورأيته يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامي الدول الغربية وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك، مخرجا وسلما».

«وأعظم ما أدهشني، ما أعده من خفي الوسائل وأمضى العوامل، كي لا تتفق أوروبا على عمل خطير في الممالك العثمانية ويريها عيانا محسوسا، أن تجزئة السلطنة العثمانية، لا يمكن إلا بخراب يعم الممالك الأوروبية بأسرها».

وهكذا كانت يقظته لدول البلقان الصغيرة التي أحدثتها أوروبا، أحبولة لتضعضع بها السلطنة العثمانية وتتذرع بها للتدخل في الشئون؛ لتقتطع من أجزاء المملكة، جزءا بعد آخر، وكلما حاولت أوروبا أن تجمع كلمة دول البلقان، للخروج على الدولة بحرب، كان السلطان يسارع، بدهائه العجيب لحل عقد ما ربطوه وتفريق ما جمعوه من كلمة وكيد.

فالبلغار مع شدة شكيمتهم ودهاء أميرهم «البرنس فرديناند» رضخ طائعا لأمر

عبد الحميد ولبس الشعار العثماني «الطربوش» وافتخر برتبة المشيرية، وانتظم مع مشيري الدولة في حفلة صلاة الجمعة «السلاملك»!

أما أمير جبل الأسود «نقولا» فكان أمره مع السلطان عبدالحميد كولد، لا يرى الفرج إلا من أبيه! كان كلما شكا قلة ذات اليد، وطلب كفالة على استقراض زهيد، يرسله له دون عوض ولا سند.

أكثر جهاز ابنته التي زفها على ولي عهد إيطاليا، كان من جيب السلطان عبدالحميد وهكذا بقية دول البلقان مع ذلك السلطان العظيم الشأن.

ضاقت أوروپا ذرعا بسياسة السلطان عبد الحميد، وحيطته ويئست من أكثر دول البلقان فحولت كيدها بدس الدسائس، وصرفت همتها بالاستغواء إلى أخف الدويلات حلوما وأكثرهم غرورا وطيشا وهي دولة «اليونان» فقد بدأت تتحرش بالدولة العثمانية؛ لتتدهور بالحرب مع السلطان عبد الحميد [1].

---

(١) بعد أن نظر جمال الدين بعين البصيرة، ووقف على جريان السياسة وما هنالك من الدسائس، جزم بوقوع الحرب اليونانية العثمانية وقد حصل ذلك وجمال الدين على فراش المرض وحصلت النتيجة التي كان ينتظرها من تلك الحرب وأن أوروبا وما تعمله من المكايد مع السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية ستكون نتيجته ـ رد الكيد في النحر ـ هذا ما كان من اليونان وما أمدتها به أوروبا من المدد وما أسعفوها به من المال والعدد، فقد ذهب سدى؛ إذ لم يمض على الحرب إلا شهران أو أكثر، حتى اكتسحت جنود السلطان عبد الحميد سهول ووهاد وجبال ومعاقل «تساليا» و«لاريسا» وفرت طيور اووز اليونان من عقبان الجيش العثماني، فاستجار اليونان بالقيصر إذ ذاك، أن ينقذ أثينا بتوقيف الحرب فاستحقوا خطاب الشاعر لهم:

فما الحرب بالأمر الذي تحسبونه ... هوينا إذا استهوت عقولكم الخمر

لقد أجاد السيد توفيق البكري، إذ هنأ السلطان عبد الحميد بظفره هذا حيث قال: «وهي أول قصيدة جاءت للأستانة تهنئة بالنصر»:

أمـــا ويمين الله حلفة مقسم ... لقد قمت بالإسلام عن كل مسلم
ولولاك بعد الله أمست دياره ... بأيـدي الأعادي مثل نهب مقسم
لقد سر هذا النصر قبرا بطيبة ... وبيتا ثوى بـين الحطيـم وزمـزم

ومنها:

أمال «بلاريسا» عروش عداته ... واشرق من فرسالة الأرض بالدم
يســود جثيٍّ كالأكـــام دوافع ... بحمر كأشباه الصـواعق رجـم

قال جمال الدين :

«أما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكايد أوروبا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة (الذي فيه نهضة المسلمين عموما) فقد دفعني إلى مد يدي له فبايعته بالخلافة والملك عالما علم اليقين، أن الممالك الإسلامية في الشرق لا تسلم من شراك أوروبا ولا من السعي وراء إضعافها وتجزأتها وفي الأخير ازدرادها، واحدة بعد الأخرى ـ إلا بيقظة وانتباه عمومي وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم»!

. . . بقي السلطان مستمرا على إقباله وإكرامه لجمال الدين والدسائس والمفاسد لا تؤثر شيئا، حتى خف جمال الدين يوما وطلب من السلطان لأحد الإخوان المصريين الموجودين في الأستانة ـ ممن كان يتردد على السيد ـ رتبة وزيادة راتب فوعده السلطان بإمضاء ذلك فأتي جمال الدين وبشر الرجل بحصول مطلبه.

مضت أيام ولم تصدر الإرادة السنية بما طلبه، فكتب للسلطان يذكه ويستنجزه وعده!

ولكن عبثا انتظر، فاحتدم جمال الدين غيظا وأكبر الأمر وطلب خطا أن يؤذن له بالمثول (هذه أول مرة طلب بها الإذن للمقابلة) إذ كان السلطان هو الذي يدعو جمال الدين إليه.

فما وصل الطلب بالاستئذان حتى أسرع الحاجب «القرنا» يدعو السيد للحضور، فسار وهو يكاد يتميز من الغيظ وخشينا سوء العاقبة، من تهور جمال الدين مع السلطان لمطلب تافه.

دخل على السلطان فاستقبله حسب عادته، بوجه طلق بشوش وجمال الدين بوجه عبوس قمطريرا.

فاستجوبه السلطان قائلا : «خيرا إن شاء الله! ماذا حدث مع حضرة السيد؟».

قال : «لا شيء! إنما أتيت لأستميح جلالتك أن تقيلني من بيعتي لك لأني رجعت عنها»!

فانتفض السلطان واهتز لهذا النبأ وقال: «يا سيد! هل افتكرت بما تقول؟».

قال: «نعم! بايعتك بالخلافة! والخليفة لا يصلح أن يكون غير صادق الوعد، بيد جلالتك الحل والعقد وبإمكانك أن لا تعد، وإذا وعدت وجب عليك الوفاء وقد رجوتك بالأمر الفلاني ووعدت بأنك تمضيه، ولم تفعل»؟

عند ذلك سكن غيظ السلطان وبهت برهة مطرقا يهز برأسه، يمينا وشمالا، ثم قال: «سبحان الله يا حضرة السيد، إن أمرا طفيفا مثل هذا، يحملك أن تهجم على نقض بيعتي لأجله، أما كان يحسن بفضلك أن تلتمس لي عذرا بكثرة مشاغل السلطنة وتذكرني قبل نقض البيعة، سامحكم الله وأحسن جزاءك».

ثم أصدر إرادته حالا، بما طلب جمال الدين وآنسه كثيرا وباسطه.

قال جمال الدين: «الحق يقال أنني شعرت بتسرعي» وعرفت خطأي كما أنني عرفت للرجل، كبير فضله وسعة صدره».

وعند خروجه تقدم الحاجب من جمال الدين وناوله كيسا من المخمل الأحمر فيه دنانير، فتردد جمال الدين وقال: «يا حضرة البيك، إن نعم السلطان من قصر وفرش، وخدم وحشم، ومركبة لم تترك مجالا لمثل هذا المال».

قال القرين: «يا حضرة السيد! عطاء السلطان لا يرده إنسان».

فأتانا جمال الدين وبيده الكيس وقص علينا ما جرى وقال: «عُد هذه الدنانير يا شيخ بني مخزوم» فإذا هي خمسمائة ذهب عثماني. قال: ماذا نصنع بها؟ قلت: جبتان! والباقي ترصده للسيجار.

قال: لما ذكرت راتبا شهريا ولا ينبغي أن نهتم بالأمر كثيرا، سوف يظهر الأكفاء لهذه الدنانير فتوزع عليهم وفي الحقيقة لم يمض شهر، حتى وزّع المال على أهل الفضل والأدب المعوزين.

هكذا دام إقبال السلطان عبد الحميد على جمال الدين وهو لا يدخر نصحا وتنويها بالخائنين والسلطان يعلم من خيانتهم أكثر منه، طالما شكا له أعمالهم، حتى

قال يوما: «يا جلالة السلطان، مللتَ من تعاطينا الشكاية ومَن غيرك صاحب الأمر؟».

خذ بحزم جدك محمود واقص الخائنين من خاصتك (الذين يبعدون عن بلاطك، حقائق تخريب الوزراء هنا والعمال في الولايات وهم صنائعهم وجباة جيوبهم الخاصة) خفف الحجّاب عنك واظهر للملأ ظهورا، يقطع من الخائنين الظهور وأعتقد أن نعم الحارس الأجل ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

قال : عند ذلك تنفس السلطان الصعداء، وقال: «ذكرتني في عهد جدي محمود! وما أبعد الفرق بين محيطي ومحيطه، بين حالة أوروبا في زمانه وحالتها اليوم، بين رعيته والرعية اليوم.

«كان الفساد في عصره، منحصرا في فيئة العساكر (الانكشارية) ـ يكي جري ـ فطهّرها بالسيف واستبدالها بخير منها، وكان المجموع صالحا، بعكس ما أنا فيه يا جمال الدين.

«ما استبدلت وزيرا بآخر إلا ورأيت من مساوي الخلف ما أسفت معه على السلف. كلما دخلت أمة لعنت أختها ـ ولا مناص من الصبر وسأفعل إن شاء الله على التدريج ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ [النساء: ٤٧]!

«كلفتك يا حضرة السيد أن تقبل مشيخة الإسلام فتصلحها، فأبيت واعتذرت، إذ طلبت أن تعمل عملا أساسيا، فتغير معه الشكل الحاضر، وهذا مما لا يسمح به الزمن مع غوائله. فعذرتك بعدم القبول، فاعذرني إذا لم أقدم على التغيير بسرعة لا تتناسب مع الزمان والمكان».

ولا بد من كارثة تحدث فتشغل أوروبا عنا ونغتنم بها فرصة نصلح فيها أمرنا ونلم شعثنا إن شاء الله.

في الحقيقة أن جمال الدين لم يقبل ما كلفه جلالة السلطان به من الوظائف والرتب والنياشين، معتذرا بقوله:

«إن وظيفة العالم ليست بمنصب ذي راتب، بل بصحيح الإرشاد والتعليم ورتبته ما يحسن من العلوم، مع حسن العمل بالعلم».

أما ما دار من الأحاديث المهمة بين جلالة السلطان وجمال الدين فستأتي في فصول هذا الكتاب.

* * *

مكث جمال الدين في الأستانة، زهاء أربعة أعوام، لم تمر منها دقيقة إلا وأفاد فيها وأرشد ووعظ وحذر وأنذر وأدى الأمانة حقها، حتى داهمه داء السرطان في فكه الأسفل وعملت له ثلاث عمليات جراحية، بيد أشهر الأطباء ولم تنجح، فمات رحمه الله في ٧ شوال سنة ١٣١٤هـ ـ ٩ مارس ١٨٩٧م*.

نعم كان لفقد جمال الدين في الأستانة رنة حزن وأسف في قلب كل فاضل وقد مشى في جنازته العلماء والوزراء والأكابر والأفاضل ودفن في مقبرة في محلة ماشقة [١].

وقد رثاه شقيقي المرحوم مصطفى المخزومي بهذه الأبيات ارتجالا:

جمـــال الدين أردته الـمنـــون فعم الخطـب فالدنيـا أنيـن
إمــــام بالعـلوم ولا خــلاف وفي شرع الأمين هو الأمـين
هو العلم الذي عمرت بذكرى فضائله الـمحافل والحصون
حفيد محمد وكفاه فخـــــرا وهل بعد الكتـاب يراد دين
على خير الخلائـق مـــن إله تحيات يطيب بــــها الحزين
وآل البيت ما نظمــت مــراث وما حرقت مآقيها العيـون
تحيط ضريح من أحيا الـمعـالي ومن في جنـة المولى مكين

---

(١) ومحلة «ماشقة» هذه هي في آخر نشانطاش وفيها قشلاقها المشهور (قشلة) وفي أول المنحدر لمحلة «بشكطاش» وقد بلغني أخيرا أن الفاضل الشهير المستر كراين قد عمر الضريح ودفع أكلاف القبر البالغة على ما يقال عشرة آلاف ليرة (تركي) هكذا تكون الهمم وعلى نسبتها يكون الألم لفقدها منا نحن أهل الشرق؛ إذا لسنا للأحياء من علمائنا وحكمائنا، ولا للأموات منهم.

* دفن جثمان السيد في «شيخلر مزار لقي» .. ثم انتقلت رفاته إلى كابل ـ أفغانستان وله ضريح معروف هناك.

صفات جمال الدين

أخلاقه، مذهبه، آماله ومنزلته العلمية

أما صفاته الشخصية : فهو يمثل لناظره عربيا محضا، من أهالي الحرمين، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين، من سكنة الحجاز، ربعة في طوله، وسط في بنيته، قمحي في لونه، عصبي دموي في مزاجه، عظيم الرأس في اعتدال، عريض الجبهة في تناسب، واسع العينين، عظيم الأحداق، ضخم الوجنات، رحب الصدر جليل في النظر، هش بش عند اللقاء، قد وفَّاه الله من كمال خلقه ما ينطبق على كمال خلقه، نافذ اللحظ، جذاب النظر، مع قصر فيه فإذا قرأ أدنى الكتاب من عينيه ولكنه لم يستعمل النظارات، خفيف العارضين، مسترسل الشعر يتسرول جبة سوداء تنطبق على الكاحلين، وعمامة صغيرة بيضاء [١].

أما مذهبه فحنيفي: حنفي المذهب وهو وإن لم يكن في عقيدته مقلدا كما سبق القول، لكنه لم يفارق السنَّة الصحيحة، مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية. شديد الحرص والمثابرة على أداء الفرائض في مذهبه، محافظًا على أصوله وفروعه. أما حميته الدينية فهي مما لا يساويه فيها أحد، يكاد يلتهب غيرة على حكمة الدين ووقاية القائمين بها بحق والأخذ بناصرهم.

أما آماله ومقاصده ـ فيصح القول بأنها انحصرت في مطلب رئيسي وإليه وجَّه كليته، وصرف أفكاره وأخذ على نفسه السعي مدة حياته. ولا نغالي إذا قلنا أن كل ما أصابه من البلاء، إنما أصابه في سبيله وهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها

---

(١) أو سوداء في بلاد أفغان وإيران والعراق.

وتنبيهها للقيام على شؤونها حتى تلحق الأمة بالأمم الراقية والدولة بالدول القوية وحق العقول من قيود الأوهام، وتوحيد وجهة الشرقيين فيعود لهم مجدهم، وله حملات هائلة على سياسة بريطانيا العظمى في الأقطار الشرقية وفي هذا المطلب والمسعى من قصد وآمال قد انقطع جمال الدين عن المألوف في العالم، فلم يتخذ زوجة، ولا التمس كسبا.

نعم إنه لم يتوفق إلى كل ما أراده ولكنه بث في نفوس الأصدقاء والمريدين روحا حيّة، وبذر بذورا طيبة، انتفع منها الشرق في عاجل ثمراتها، ولسوف ينتفع بالآجل من الغرس إن شاء الله.

مناقبه: كانت مجالسه لا تخلو من الفوائد العلمية أيا كانت، بعيدة من اللغو، منزهة عن اللهو، كثير الاحتفاء بزائريه على اختلاف طبقاتهم، ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم، ولا يستنكف من زيارة أصغرهم على امتناعه من زيارة أكبرهم إذا ظن في زيارته تزلفا. وكان ذا عارضة وبلاغة لا يتكلم إلا اللغة الفصحى بعبارات واضحة جلية، وإذا آنس من سامعه التباسا بسط مراده بعبارة أوضح، فإذا كان السامع عاميا تنازل إلى مخاطبته باللغة العامة، خطيبا مصقعا لم يقم في الشرق أخطب منه قليل المزاح، رزينا، كتوما لمن استكتمه. كان قانتا، قليل الطعام لا يتناوله إلا مرّة في النهار ويعتاض عما يفوته من ذلك بالشاي فيشرب منه مرارا في اليوم. يدخن نوعا من السيجار الإفرنجي الجيد. ولشدة ولعه في التدخين وعنايته في انتقاء نوع السيجار لم يكن يركن إلى أحد من خدمه في ابتياعه، فيبتاعه هو بنفسه (قال طبيبه الخاص: إن شدة ولع جمال الدين بالسيجار الإفرنجي وكثرة شربه للشاي وتناوله الطعام مالحا، كان من مسببات السرطان، ولا أدري مبلغ هذا القول من الصحة).

أخلاقه: أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته. حرّ الضمير، صادق اللهجة عفيف النفس، رقيق الجانب، وديع مع حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه، فينقلب الحلم إلى غضب تنقض منه الشهب. فبينما هو حليم أواب، إذا هو أسد وثّاب، كريم يبذل ما بيده، قوي

الاعتماد على الله لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر. عظيم الأمانة، سهل لمن لاينه، صعب على من خاشنه، طموح إلى مقصده السياسي الذي سبق ذكره ـ إذا لاحت له بارقة منه، تعجَّل السير بالوصول إليه (وكثيرا ما كان التعجل علة الحرمان). قليل الحرص على الدنيا، بعيد عن الغرور بزخارفها، ولوع بعظائم الأمور معرض عن صغارها، ثابت الجأش، شجاع، مقدام لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه. قد يساق إلى القتل فيسير إليه سير الشجاع إلى الظفر.

إلا أنه حديد المزاج وكثيرا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة، ولكنه في آخر سني حياته صار في رسوخ الأطواد.

فخور بنسبه إلى سيد المرسلين ﷺ لا يعد لنفسه مزية أرفع ولا عزا أمنع، من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر (رضي الله عنهم) وبالجملة فضله كعلمه، والكمال لله وحده.

علومه: فأما منزلته من العلم وغزارة المعارف، فليس يحدها بليغ، إلا بنوع من الإشارة إليها. لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وإبرازها في صورها اللائقة بها، كأن كل معنى قد خلق له. وله قوة على حل ما يعضل منها، كأنه سلطان شديد البطش، فنظرة منه تفكك عقدها. كل موضوع يلقي إليه ويدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه، فيأتي على أطرافه ويحيط بجميع أكنافه ويكشف ستر الغموض عنه فيظهر المستور منه.

إذا تكلم في الفنون، حكم فيها حكم الواضعين لها، ثم له في باب التصور والخيال قدرة على الاختراع كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع، له لسن في الجدل وحذق في صناعة الحجة، لا يلحقه فيها أحد إلا أن يكون في الناس من لا نعرفه، وكفاك شاهدا على ذلك أنه ما خاصم أحدا إلا خصمه، ولا جادله عالم إلا ألزمه، وقد اعترف له الأوروبيون بذلك، بعد ما أقر له الشرقيون. وبالجملة فإني لو قلت إن ما آتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء، لكنت غير مبالغ. ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

أما قوة ذاكرته : فلا أدل عليها، من تعلمه اللغة الفرنسية، في أقل من ثلاثة أشهر، حفظ في خلالها شيئا كثيرا من مفرداتها وصار قادرا على الترجمة منها وإفادة مراده بها، بلا أستاذ، إلا من علمه حروف هجائها بيومين.

واسع الاطلاع في العلوم العقلية والنقلية وخصوصا الفلسفة القديمة وفلسفة وتاريخ الإسلام والتمدن الإسلامي وسائر أحوال الإسلام والمسلمين. كان يعرف اللغات الأفغانية والفارسية والعربية والتركية والفرنسية جيدا، مع إلمام باللغتين الإنجليزية والروسية. كثير المطالعة، لم يفته كتاب كتب في آداب الأمم وفلسفة أخلاقهم إلا طالعه.

نعم لم يتوفق إلى كل ما أراد وقضى ولم يدون إلا رسالة في إبطال مذهب الدهريين[١]، ولكنه بث في النفوس روحا حية، انتفع الشرق وأهله ببعضها وسوف ينتفع بأجمعها.

وقبل أن نختتم سيرة جمال الدين، نأتي على ما ذكره أدباء العصر ممن عاصره، في مقدمتهم فقيد الأدب «أديب بك إسحق» ونقلته مجلة «الهلال» مع تصرف حيث قال:

«قد تمر القرون وتتوالى الأجيال والناس على ما ساقتهم إليه الحاجة، من شئون معائشهم، لا يفقهون غثها من سمينها ولا يدركون مبدأها ولا مصيرها، حتى تتمخض الطبيعة، فتلد من أبنائها أفرادا يميطون عن أسرارها اللثام، فيرى الناس من ورائه شرائع ونواميس كانوا عنها غافلين، أولئك هم أقطاب العلم وأنوار العالم ومنهم الفلاسفة الطبيعيون، الذين مزقوا أستار الجهل وكشفوا غوامض الطبيعة، فمدّوا سبل الاختراع والاكتشاف. ومنهم الفلاسفة العقليون، الذين استطلعوا أسرار الحكمة المستترة وراء تلك النواميس وبيّنوا ما أودعه الخالق في خليقته، من المواهب العقلية والمكتسبات الأدبية ولكن الطبيعة لا تجود بواحد من أولئك الأفراد، إلا كل بضعة أعصر، فيسير الناس على خطواته أجيالا، حتى إذا كادوا يرجعون

---

(١) وله مقالات ورسائل كثيرة أخرى، طبعت في عشرة مجلدات: «الأعمال الكاملة».

إلى غيهم، جادت عليهم بآخر، ينفث فيهم روحا حيّة، فيهبون من رقادهم ويعودون إلى رشدهم، ريثما يأتيهم ثالث.

هكذا كان شأن العالم، من بدء عمرانه، ومن أولئك الفلاسفة، سوقراط وأفلاطون وغيرهما من فلاسفة الفرس والعرب من علماء المعقول والمنقول ممن لا نزال نستضيء بنبراسهم.

ولكن لله في خلقه حكمة لا تدركها العقول، فقد ينبغ في بعض الأجيال أفراد، توفرت فيهم قوى الفلاسفة، ومواهب رجال الأعمال، فتحيط بهم آفات تحول دون نمو ما يغرسون، فيكمن في الأرض مدفونا إلى الوقت المرهون.

ولما كان الإنسان لا يقدر العمل إلا بنسبة ما يترتب عليه من الفائدة كان نصيب كثيرين من عظماء الأرض، جهل الناس حق قدرهم، كما هو الشأن بفيلسوف الشرق وخطيبه، السيد جمال الدين الأفغاني، إذ نشأ قطبا من أقطاب الفلسفة، وعاش ركنا من أركان السياسة، ولكنه لم يتم عملا ولا ألف كتابا غير تلك الرسالة[(١)] . على أن ذلك لا يحط من مقامه وقد رأينا أعظم الفلاسفة (سقراط) مات ولم يدوّن شيئا من كلامه ولكن تلامذته حفظوا فلسفته ودوّنوها، فتوارثتها الأجيال خلفا عن سلف، فعسى أن لا نحرم من مريدي الأستاذ جمال الدين، وتلامذته من يفعل مثل ذلك» انتهى.

* * *

بقي علينا أن نؤدي الإنصاف حقه بالإتيان على كل مناقب السيد جمال الدين، فنرى له وصفا، لو سكتنا عنه، سئلنا عن إغفاله وهو أنه كان في أكثر الأمصار والعواصم يتوسع في إتيان بعض المباحات كالجلوس في المنتزهات العامة والأماكن المعدة لراحة المسافرين وتفرج المحزونين، لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار.

---

(١) وكما أشرنا، بل له رسائل ومقالات كثيرة أخرى دونت بعون الله في عشرة مجلدات وطبعت تحت عنوان «الأعمال الكاملة» في إيران ومصر.

وكان السيد حيثما حل من تلك المجالس والأماكن، يتحول ذلك الموضع إلى حلقة علم ومذاكرة أدب وحلقة درس، يستفيد كل من يسرع إليها، من طلاب الفوائد العلمية، والمقدرين لمنزلة السيد.

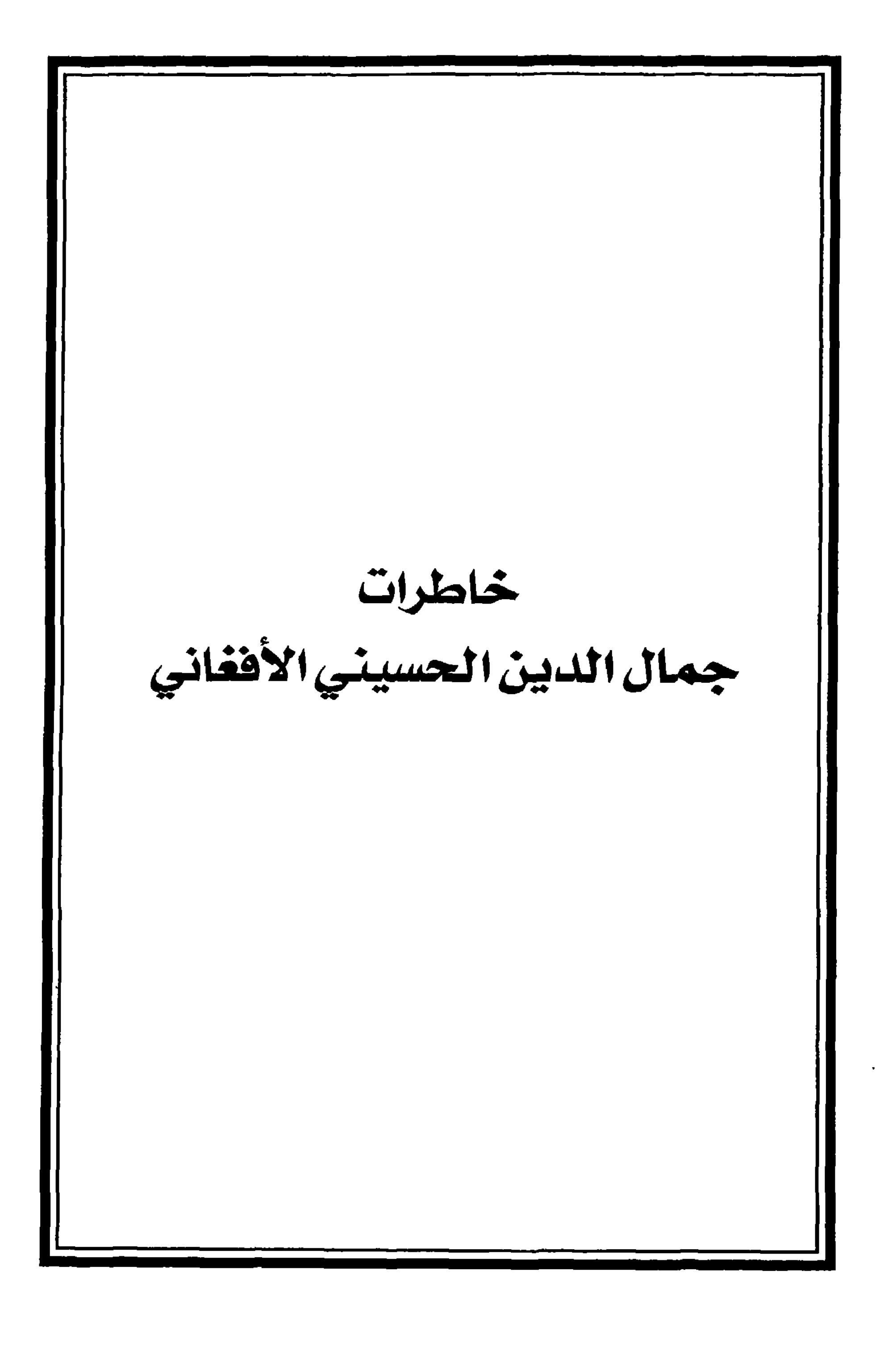
هذا الوصف الوحيد الذي ربما عده عليه بعض حاسديه، نقصا للكمال وأحبوا انتقاص قدره من هذا الباب، وقد جهلوا أن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه. وأي غضاضة على المؤمن في أن يفرج بعض همه بما أباح الله له؟

هذا مجمل ما قيل، وما علمناه من سيرة وأحوال السيد جمال الدين الأفغاني، أتينا به، دفعا لما افتراه عليه الجاهلون لحقيقته، المتخرصون تارة بمروقه من الدين! وأخرى بضعف اليقين! وهذا يكفي على معتقدنا لذوي اللب أن تقوم منه لهم حجة على صفاء جوهر جمال الدين، ولا تترك للشائنين أدنى مجال يجولون به على فضله، وما الفضل إلا من عند الله، والله ذو الفضل العظيم.

الأستانة: محمد المخزومي

١٣١٤ هـ ـ ١٨٩٧م

* * *



خاطرات
جمال الدين الحسيني الأفغاني

رأيه في الإسرار والإعلان

يرى المتأمل في أخلاق وصفات جمال الدين شيئا من التناقض! فيراه مثلا كريما لحد الإسراف وفي بعض الأحيان بخيلا لدرجة التقطير! متواضعا مع الوسط ومن دونهم من الخلق لدرجة الذل. متكبرا على العظماء لحد التجبر كما ذكر، كتوما لمن استكتمه قياما بالأمانة! جهريا بآرائه وأفكاره الخاصة، حتى تحيّرنا في أمر هذه السجية وفي أمر تأويلها.

لأن من لوازم الحكيم والحكمة «الكتمان» على مذهب الجمهور فلما كوشف في هذا الشأن، قال: «لا أرى في هذا الكون من القول أو الفعل ما يكون كتمانه لازما، إلا ما كان في علانيته شينا، ومعرة.

«ولا يكون الكمال النسبي في البشر إلا متى كثر إعلانهم وقل كتمانهم.

«فدولة تكتم عن أمتها كل أمورها، لا خير فيها، ولا هي بالدولة الأمينة من أمانتها وحسن تصرفها.

«ورجل يرى كل شيء يقال له، أو يجب أن يقوله، سرا مكتومًا، لا يرجي إلا نفاقه وما هو بالرجل الرجل ولا بشبه رجل (ومن أحب فليعلن)!

«والمحبة هنا على مطلق المعنى، لكل شيء حق ومستحسن بالفطرة من أقوال وأفعال وصفات وذات.

«فمن أحب الصدق من القول لا يتكتم به ولا يخشى بأسا من إعلانه، وبالعكس إذا أحب الكذب والكاذب فخليق به أن لا يعلن ذلك.

«ومن أحب فاعل الخير، لا يرى حرجا في إعلان حبه له إلخ... أما القبيح من كل شيء والخوض فيه، فلا يسعه إلا التستر والكتمان».

ثم قال: «وأحسن ما سمعت في وصف المروءة قولهم: (أن لا تعمل في السر ما تستحي منه في العلانية). «وبعد هذا ـ فمن شاء فليكتم ومن شاء فليعلن».

قلنا، إذن أيها الأستاذ الحكيم: من الأشياء ما ليس بالقبيح ولكنه يجب كتمانه بدليل قوله: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان». ثم مسألة الحروب وتدبير أمورها وضرورة كتمان الرأي فيها، أمر ظاهر لزومه!

قال: «أما الحاجة من حيث هي حاجة فهي «ذل» والذل قبيح من حيث هو وأقل الناس حوائج أكثرهم جهرا وأكثرهم حوائج أكثرهم «كتمانا». دونكم وقوف «إسكندر الكبير» على «ديوجينوس» وهو في «برميله» وحصر مطلبه، أن لا يحول بينه وبين شمسه.

« أما القول في الحروب فهي عندي من أقبح ما عمله ويعمله الإنسان في الأرض ـ وهي وحدها أحق الأعمال بالكتمان لفظاعتها وأجدرها أن لا تظهر لعالم الفعل».

* * *

الهدف الأسمى
وخلاف أهل الأديان !

قال: «أول نظرة نظرتها في الكون وفشلت بها، أنني وضعت الكرة الأرضية بين يدي وقستها ببعض الأجرام، فرأيت منها ما يكبر الأرض بمئات الملايين من المرات، ثم تمعنت فيما حوته من الحيوان الناطق (الإنسان) فوجدته لا يتجاوز الألف وخمسمائة مليون تقريبا وهو مقدار زهيد بالنسبة لسطح الأرض.

«ثم افترضت ذلك الجرم الذي يكبر عن الأرض بمائتي مليون مرة وأن الرجل هناك يعيش ألف سنة وأن ذلك الرجل صاحب أراض واسعة فيه، فتخيل لي أنه يملك من الأراضي ما مساحتها مساحة الكرة الأرضية وأن أولاده وأحفاد أحفاده، من الممكن أن يبلغ عددهم، إذا ازدوج بمئات من النساء مع طول العمر عدد أهل الأرض هذه، أو ما يزيد. فإذا صح مع هذا الخيال، أن تكون الأرض برمتها ملكا لرجل، في قرية من جرم المريخ مثلا ونسله عدد أهل الأرض، هل يكون بين أهل تلك القرية الذين هم أبناء رجل واحد مثل ما هم عليه أهل هذه الكرة من الاختلافات؟!

«أجابني الخيال «كلا» بل يكون كل أهل القرية آمنين مطمئنين، لا تحاسد بينهم ولا هم يحزنون، يغرسون ويزرعون، ويجنون فيأكلون.

لا يعرفون للحرب معنى، إذ لا ملك عليهم، وليس بينهم أولي مطامع. ملك شاسع واسع وخيرات مما يشتهون! يعبدون مع أبيهم، صاحب القرية إلها واحدا، خالق الكل ومبدع الكائنات».

قال: «ثم رجعت لأهل جرم الأرض وبحثت في أهم ما فيه يختلفون فوجدته «الدين» فأخذت الأديان الثلاثة وبحثت فيها بحثا دقيقا مجردا عن كل تقليد، منصرفا عن كل تقيد، مطلقا للعقل سراحه. فوجدت بعد كل بحث وتنقيب وإمعان، أن الأديان الثلاثة، الموسوية والعيسوية والمحمدية، على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية. وإذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق، استكملته الثانية. وإذا تقادم العهد على الخلق وتمادوا في الطغيان، أو ساءت الكهان فهم الناموس، أو أنقصوا من جوهره، أتاهم رسول بأرفاد وتأييد، فأكمل لهم ما أنقصوه، وأتم بذاته ما أهملوه».

«وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير، أن تتحد أهل الأديان الثلاثة مثل ما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها وأن بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطى نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة.

قال: «وأخذت أضع لنظريتي هذه خططا وأخط أسطرا وأحبر رسائل للدعوة ـ كل ذلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قرب وكثب ـ ولا تعمقت في أسباب اختلاف حتى أهل الدين الواحد وتفرقهم فرقا وشيعا وطوائف.

«ولكن ما علمت أن دون اتحاد أهل الأديان، تلك الهوات العميقة وأولئك المرازبة الذين جعلوا كل فرقة بمنزلة «حانوت» وكل طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضة! ورأس مال تلك التجارات، ما أحدثوه من الاختلافات الدينية والطائفية والمذهبية على حد قول الشاعر:

قد يفتح المرء حانوتا لمتجره ... وقد فتحت لك الحانوت في الدين!

صيَّرت دينك شاهينا تصيد به ... وليس تفلح أصحاب الشواهين!

«علمت أن أي رجل يجسر على مقاومة التفرقة ونبذ الاختلاف وإنارة أفكار الخلق، بلزوم الائتلاف، رجوعا إلى أصول الدين الحقة ـ فذلك الرجل ـ هو هو يكون عندهم قاطع أرزاق المتجرين في الدين! وهو هو في عرفهم: الكافر، الجاحد، المارق، المخردق، المهرتق، المفرق إلخ»!

«ولما انتهى بي العلم إلى ذلك الحد، انقلبت أفراحي بالخيال أتراحا، ورجعت عن نظريتي، والفشل ملء إهابي وجبتي. ثم جمعت ما ترفق من الفكر ولمت شعث التصور، ونظرت إلى الشرق وأهله، فاستوقفتني الأفغان، ثم الهند وفيها تثقف عقلي فإيران بحكم الجوار والروابط وإليها كنت صرفت بعض همتي، فجزيرة العرب، من حجاز مهبط الوحي، ومشرق أنوار الحضارة ومن يمن وتبابعتها واقيال حمَير فيها، ونجد وعراق وبغداد وهارونها ومأمونها! والشام ودهات الأمويين فَيها والأندلس وحمراؤها وهكذا كل صقع ودولة من دول الإسلام في الشرق وما آل إليه أمرهم فيه اليوم.

«فالشرق ! الشرق ؟ وقد خصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه وتحري دوائه فوجدت أقتل أدوائه وما يعترض في سبيل توحيد الكلمة فيه ـ داء انقسام أهليه وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف! فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا ولا تقوم على هذا القوم قائمة».

نعم ! عرف جمال الدين بغرضه وسعيه الحثيث، لجمع شتات أهل الشرق وإيقاظ الهمم من أهله والإشراف بهم على الخطر الغربي، المحدق بكيانهم والآخذ بخناقهم، ليعملوا على جمع كلمتهم ويأخذ كل ملك أو أمير في الشرق على ترقية شعبه وتحسين ملكه وتحصينه بالحكم الشوري الدستوري وتمكينه بما يربط الأقرب فالأقرب ويقويه بالتحالف والاتحاد حتى يرجع الكل إلى الانضواء تحت راية الخلافة العظمى.

هذا مختصر مرتئاه، وكان لا يقنط من الوصول إليه، بدليل سعيه المتواصل وتحمله أنواع المكاره والمصائب والنوائب، في سبيل ذلك المطلب.

نعم كان يراه بعيدا ولكن ما كان ليراه مستحيلا، بل رأيناه يستبشر بكل ضغط وعسف وجور، يحصل على الممالك الشرقية من الدول الغربية.

ويقول: «بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة والأزمة تلد الهمة»ـ.

وسيأتي تفصيل ذلك في بحثه عن الإنجليز ومصر.

الأحزاب والسياسة في الشرق

قال :

«الأحزاب السياسية في الشرق نعم الدواء! ولكنها مع الأسف، لا تلبث حتى تنقلب إلى بئس الداء. نحسن نحن الشرقيين تأليف الأحزاب السياسية، لطلب الحرية والاستقلال، وكل العالم لنا أصدقاء ونضطر لتركها والكل لنا أعداء. والسبب العامل في ذلك عدم التكافؤ في القوى بين الأمة وأحزابها السياسية.

يقوم الحزب السياسي بعنصر ضعيف أو بأفراد قلائل بينهم اللسن والمحنك ويعلنون تفانيهم بخدمة الأمة لتحريرها من ربقة الاستعباد والاستبداد، ويسرون خدمة أنفسهم فتتألف على أهل الحزب القلوب وتجتمع حولهم الكلمة، بسوق الضرورة وداعي الحاجة ويستحسن عملهم الغريب ويهوسهم الدخيل، شأن الحوادث المستجدة، في انقلاب الأمم من طور إلى طور.

فالأمة تتخيل من وراء وعود الحزب سعادة ورفاها وحرية واستقلالا ومساواة، على أوسع شكل، قد لا يمكن حصوله في البعيد الآجل، فضلا عن القريب العاجل. فيؤازرون الحزب بكل معاني الطاعة والانقياد والنصرة والتضحية إلخ.

«فإذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة واستحكم له الأمر، ظهرت هنالك في رؤساء الأحزاب، الأثرة والأنانية ومد حب الذات عنقه فتتقلص من القلوب تلك الطاعة وتنكمش النفوس عن ذلك الانقياد وتحصل بالنتيجة النفرة العامة. فنضطر عندئذ لترك الحزب وينفرط بالطبيعة عقده والكل له أعداء»!

وضرب لنا عدة أمثلة، منها ما حصل في «الأفغان» وغيرها وما حصل في حوادث «عرابي» وحزبه في مصر إلخ . .

ثم قال : « لا ينبغي أن يؤخذ من قولي هذا أن لا فائدة من الأحزاب على مطلق الرأي والمعنى، فإن الشرق بعد أن أخنى عليه الدهر بكلكله، ومرت عليه زلازل العسف والجور وأشكال الاستعباد، حتى تأصل في نفوس أبنائه بذور الذل والاستكانة لكل قوي اكتسح بلاده. إن هذا الشرق، وهذا الشرقي، لا يلبث طويلا حتى يهب يوما من رقاده ويمزق ما تقنع وتسربل به هو وأبناؤه من لباس الخوف والذل فيأخذ في إعداد عدة الأمم الطالبة لاستقلالها، المستنكرة لاستعبادها.

«على هذا الأساس الاجتماعي التدريجي، لا مانع يمنع الشرقي من الانخراط في الحزب بعد الحزب ويقبل من المواعيد، ما يصدق وما لا يصدق، حتى يظهر في الشرق ما ظهر في الغرب من أفراد يرون الموت في حياة وطنهم مغنما والحياة في موت وطنهم مغرما. حينئذ يكون الشرق قد تسنى له وجود الحزب الذي هو نعم الدواء من داء استعباده، فيجمع شتات أبنائه الذين كانوا أذلة، ويصيرهم بنعمة الإخاء والاتحاد والتعاون أعزة بلادهم لهم وهم لبلادهم نعم الأمناء، يعملون متضامنين على صالح مجموعهم ونصرة مظلومهم، يأخذون ما لهم من حق ويؤدون ما عليهم من واجب وهم لا يحزنون».

* * *

حكمة في القلب

أو : اللسان؟

خالف جمال الدين أهل عصره، بكثير من الصفات ولو جاراهم وحاكاهم في كل ما هم فيه من المزايا، لما كان له تلك الميزة، ولا نوه بذكره وحسب من أكبر حكماء هذا العصر. كان كما ذكرنا جهريا، متسرعا ببادرات ذهنه وآرائه، يجهر بها ولو كان بها كل خطر وضرر.

فزعم الكثيرون من مريديه أن حكمته بلسانه، أكثر مما هي من قلبه وكاشفه بعضهم بقوله: «لا أحد ينكر أن الأستاذ لم يقم نظيره في عصرنا حكيما اجتماعيا، جاب البلاد وتحمل جفاء العباد، لمطلبه الشريف وغرضه الأسمى ولكن نراه يقول من الحكمة ما لا تنفع قائلها! وتضر في الغالب من قيلت له فيحمل سامعه على العظائم ويقتحمها مغررا بنفسه من غير جدوى، ذلك مما دلنا، على أن حكمته بلسانه أكثر مما هي من قلبه».

فلم يرق لجمال الدين هذا القول، وظهرت على وجهه علامات الغيظ وعدم الرضى فقال:

«لا ينفع في الشرق لسان ولا قلب، طالما خلق المالك والمملوك، الأمير والصعلوك، العالم والجاهل، سواء في العالم الصوري، يرون في الحقيقة مرارة وفي الوهم حلاوة وفي الذل الهناء وفي طلب العلى والعز، الشقاء والعناء.

«كل مسلم مريض ودواؤه في القرآن وما على طالب الحكمة إلا أن يتدبر معانيه ويعمل بأحكامه. فهل المسلمون اليوم عاملون بما جاءهم به محمد ﷺ أو مقتدون به كما اقتدى به الأصحاب أو التابعون.

«أم تقولون إن محمدا ﷺ لم يكن حكيما حكمته من قلبه؟، تلك الحجة الواهية لمرضاء القلوب وساقطي الهمم ومتكأ أهل الذل.

« يا قوم! إن محمدا ﷺ جاء نبيا مرسلا وقبل النبوة كان أمينا صادقا، لم يقنع بأسود بيته، مثل عمه حمزة وابن عمه علي بن أبي طالب وأبطال قريش والأنصار، أن يخوضوا وحدهم غمرات الموت في الحروب لمن تحداهم وناهضهم من كفار قريش، بل هو هو، بذاته الكريمة وقد أفرغ عليه الدروع وتقلد الصارم البتار واقتحم الوغى، فتكسرت ثناياه وتخضب وجهه بالدم، انتصارا للحق ومقاومة للباطل، علمكم بنفسه وأرشدكم بقوله وفعله. أين المسلمون اليوم من شيء من هذا الإقدام وتلك الهمم؟

«وا أسفاه؟! بئس الخلف نحن، ونعم السلف من قد سلف. ترتعد فرائصكم إذا سمعتم ذكر ما أنتم فيه من غريب الذل، خوفا من أن تدعوا لنزع نيره عنكم، فترجعون إلى بارد القول وسفيه الرأي، فتطلبون حكمة من قلب لا حكمة من لسان! قُتل من كان على هذه الشاكلة من إنسان»!

فندم من تحرش بالسيد وعلم أن قوله الحق.

* * *

مصر والمصريين
الحكم المطلق والحكم العادل
ـ الحرّية والاستقلال ـ

كان جمال الدين محبا لمصر والمصريين، شديد الارتباط بهم، كثير البحث في القضية المصرية وما آل الأمر من سقوطها بين براثن بريطانيا ويذكر خطيئات للدولة العثمانية، كان بالإمكان إذ ذاك تجنبها.

ويعد عدم إرسال الدولة جيشا لتسكين فتنة عرابي من أكبر الهفوات ومن أعظم الأدلة على سفه السياسة والتفريط.

وكان يقول:

«كأن القوة الفرعونية أخذت على الدهر عهدا أن لا تبرح وادي النيل! فكلما قضى فرعون تقمص بآخر وكلما انقرضت عائلة فرعونية ادعت إرثها عائلة، وجاءت ولو من وراء البحار والتصقت بالنسب الفرعوني ولو بأقل مشابهة من خلق الغطرسة والتأله على الناس».

وكثير ما كان يردد: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾[الزخرف: ٥٤]...

ويقول: «عجيب هو نصيب المنتصر لمصر وللمصريين، إذا مكث بين ظهرانيهم، فموسى خرج منها خائفا يترقب، متهما موشى به من مظلوم نصره على ظالمه، وفرعون معبود فيها ويوسف الصديق زجّ في السجن متهما وهو لم يأت الفاحشة. نعم في النتيجة حصحص الحق وزهق الباطل.

«ولسوف تخلص مصر لأهلها إذا هم عملوا بالحزم ، وهيأوا ما يلزم من العزم وما يتطلبه حكم الذات من القوى . ولسوف يفعلون ذلك بعوامل الضغط والمسك بالخناق وإذا ما فعلوا واجتمعت الكلمة وتوحدت الأهواء نحو الغاية حصل البأس . وإذا لم يضعوا هذا البأس بينهم بسوق التحاسد أو بفعل الدسائس ، قل تم الأمر وفاز القوم ودخلوا في دور الحياة الصحيحة .

«لا تحيا مصر ، ولا يحيا الشرق بدوله وإماراته إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلاً قويا عادلاً [1] يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان . لأن بالقوة المطلقة ، الاستبداد ولا عدل إلا مع القوة المقيدة . وحكم مصر بأهلها ، إنما أعني به الاشتراك الأهلي بالحكم الدستوري الصحيح .

ثم قال : «إذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب فأهم هذه الأشياء : (الحرية) و(الاستقلال) . لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر والاستقلال كذلك . بل هاتان النعمتان ، إنما حصلت وتحصل عليهما الأمم ، أخذا بقوة واقتدار يجبل التراب منها ، بدماء أبناء الأمة الأمناء ، أولي النفوس الأبية والهمم العالية .

«أما تغيير شكل الحكم المطلق ، بالشكل النيابي الشوري ، فهو أيسر مطلبا وأقرب منالا ، إذ يكفي فيه أحيانا إرشاد الملك ونصحه من عقلاء مقربيه ـ فيفعله ـ ويشرك معه أمته ورعيته ويرى بعد التجربة راحة وتضامنا على سلامة ملكه وعزة بالتفاف طبقات الرعية حول عرشه بقلوب خالصة مخلصة وحب صميمي ـ فيكون للملك الدستوري عظمة الملك!

وعلى نواب الأمة أعباء نوائب المملكة ودرء المفاسد عنها والذود عن سلامتها ، بالأموال والأرواح .

---

(١) قلنا له : إن المتداول بين الناس عن لسانك «يحتاج الشرق إلى مستبد عادل» . قال : هذا من قبيل جمع الأضداد ، وكيف يجتمع العدل والاستبداد؟ وخير صفات الحاكم «القوة والعدل» ولا خير بالضعيف العادل كما أنه لا خير في القوي الظالم .

ولكم رأينا من عقلاء الملوك من حكم عقله فأرشده إلى استبدال مطلق الملك، بالملك الشوري، فاستراح وأراح. وهذا هو الشكل من الحكم الذي يصلح لمصر ولدول وإمارات الإسلام في الشرق».

وبتوضيح وإفصاح قال:

«لا يسلم على الغالب، الشكل الدستوري الصحيح مع ملك ذاق لذة التفرد بالسلطان ويعظم عليه الأمر، كلما صادمه مجلس الأمة بإرادته أو غلبه على هواه. لذلك قلت: «إذا أتاح الله رجلا قويا عادلا لمصر وللشرق، يحكمه بأهله».

«ذلك الرجل إما أن يكون موجودا أو تأتي به الأمة فتملكه على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسي وتتوجه على هذا القسم وتعلنه له يبقى التاج على رأسه، ما بقي هو محافظا أمينا على صون الدستور وأنه إذا حنث بقسمه وخان دستور الأمة، إما أن يبقى رأسه بلا تاج! أو تاجه بلا رأس».

«هذا ما يحسن بالأمة فعله إذا هي خشيت من أمرائها وملوكها عدم الإخلاص لقانونها الأساسي، أو عدم قابليتهم لقبول الشكل الدستوري قلبا وقالبا. وإلا فالأمير الصالح القريب، أولى من البعيد الغريب».

* * *

فلسفة الوطن

زوال التفرد بالسلطة والاستبداد

من رأي جمال الدين أن العالم الإنساني من خصائص هيئته الاجتماعية، أن لا يتيسر للإقليم متى تمصَّر وتحضَّر، أن يحكم برجل من أهله بغير قهر. وله على ذلك أدلة ومقدمات نأتي على مجملها.

لما سألناه: لمَ قال الأستاذ: إذا أتيح للشرق من يحكمه بأهله؟ ولم يقل: إذا أتيح للشرق أو لمصر رجلا منه، يحكمه بأهله على غير طريقة التفرد بالحكم المطلق؟

قال: «خليق بالإنسان كما أنه نوع واحد أن لا يكون له غير هذه الكرة الأرضية الصغيرة وطنا، بمعنى أن وحدة النوع، تقتضي وحدة المكان.

فالإنسان طالما لا يمكنه أن يعيش في الماء فموطنه إذن «اليابسة» ونتيجة هذه المقدمة أن لا يختص ببقعة منها، دون الأخرى لولا أن الحكمة قضت، أن تكون الحواس البشرية المعروفة خمسا وأن يكون للإقليم خواص خمس، بها تميزت الشعوب والقبائل التي خلقها الله من نفس واحدة، وتقسم المعمور إلى ما يسمونه ممالك وأوطانا.

«أما الخواص، فأربع منها تستمد من طبيعة الإقليم والخامسة تطرأ فتؤثر وهي «الدين» ويليها «اللسان» و «الأخلاق» و «العوائد» و «الإقليم» وتأثيره على المجموع. وتحت هذه المؤثرات تحصل للأقوام ميزة وتتأصل فيهم محبة البقاء على مألوفهم والذود عنه واعتبار من خالفه أنه ليس منهم، بل هو غيرهم بمعنى الغيرية المطلقة.

«فمتى تم لقوم من سكان الأرض أو لأهل إقليم أو مصر تلك الجوامع أو الخواص الخمس المميزة وحصلت المساواة بها، بين العموم منهم وتأثروا بمؤثراتها، أصبحت دعوى الكفاءة بينهم ميسورة وأمر التميز أو تعين الأفضلية غير ميسور. فإذا أضفنا إلى ذلك ـ الغرور، ورضاء كل إنسان عن نفسه وتعاميه عن نقص ذاته وبالإجمال: «التأله الموجود في البشر»! كما قال «ابن خلدون» علمنا مقدار ما يعانيه الفرد من قوم قد ساوت بينه وبينهم الطبيعة، أن يظفر بالميزة عليهم ويرضخهم للاعتراف بها بدون توسط القهر والغلب أو بدون التذرع بالدعوة الدينية للوصول إلى ذلك الغرض.

فإذا امتنع القهر فلا بد من الوفود على القوم (فردا كان أو جماعة) بشيء غير ما تعودوا عليه من خواصهم الإقليمية، على شرط أن يكون خيرا مما ألفوه، ليكون الأخذ به أسرع وللبقاء أدعى».

ثم قال لزيادة الإيضاح:

«انظروا إلى العالم الغربي، ترونه على تقسيماته الحاضرة واستقلال عناصره بميزاتهم القومية، لما تساووا على الوجه النسبي بالفضيلة (وأهمها العلم بالواجبات سواء كانت لهم ومعرفة وجوه المطالبة بها أو عليهم والمسارعة لأدائها) انتفى من بين ظهرانيهم أمر التفرد بالسلطة وسوق الأمة على هوى السلطان. وسينتفي ما بقي في العالم البشري من هذا النوع من الحكم المطلق على سنن التدريج ومقتضيات الفطرة.

«أصبح الأوروپيون اليوم والكل في وقت واحد، حاكما لنفسه، محكوما منها بعامل الحكم الشوري، وصارت كل أمة من تلك الأمم في مأمن من أن ترضخها القوى أو المميزات في مجاوريها، فتستهويها للانقياد لها، بالاعتقاد أنها من طبقة فوق طبقتها، لا بفعل الغلب ولا بالتشبه والتقليد الأعمى، لأن الفرق من حيث الفضائل وأسباب الرقي نذر يسير والعمل بما يستحسنه البعض من الآخر، غير عسير.

«ومختصر القول أن الحكم للعقل والعلم. ومتى صادفت هاتان القوتان حمقا وجهلا تغلبتا عليهما.

وهكذا القول في حكم الفرد المطلق، فإنه يكون ويدوم ما دامت الأمة تتخبط في دياجي الجهل. ومتى فشى العلم في الأمة فأول ما تناهض ذلك الشكل من الحكم وتعمل على التخلص منه. سنَّة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا».

* * *

ظهور الإسلام
وفضائل وفود العرب المسلمين

قال:

« لبيان تأثير الوفود على قوم بأحسن مما ألفوه وأنه أفعل الوسائل بعد القهر للحكم فيهم ولترك الأثر بينهم، فيكفي لذلك النظر في ظهور الإسلام وفتوحاته، حربا كان أم صلحا وانتشاره في أقل من عصر في أعظم المعمور من الأرض، فقد عم جزيرة العرب، فالشام، فمصر، فالعراقيين، فالهند، فأقصى الشرق، حتى فروق الأستانة، وها هو قبر خالد أبي أيوب الأنصاري وجامع القعرية المشهور «بجامع العرب» في محلة «غلطة» من أكبر الشواهد.

نعم إن زحف العرب ووفودهم على البلاد إنما كان لتعميم الدعوة الدينية أولاً، وإلا فأداء الجزية للدخول مع القول في حقيقة المساواة وللقيام في حفظ كيان المجموع.

« وكان من يقبل الإسلام لا إكراه عليه في قبول العادات وتعليم اللسان. كذلك من أدى الجزية فلا إكراه عليه في دينه وباقي مميزاته، بل يبقى على مألوفه ومؤثرات إقليمه وخواصه ولا خطر على قلب فاتح إسلامي أن يعمم آداب قومه ولسانهم أو أن يتخذ لذلك أقل الوسائل.

«ومع ذلك نرى أن كل من دان بالإسلام، أو رضي بدفع الجزية قد سارع عن طيب خاطر وارتياح عظيم للتعرب! والسبب في ذلك، أن وفود العرب حملت معها أخلاقا فاضلة ظهرت أفضليتها بأجلى المظاهر، مثل الأنفة من الكذب والوفاء بالعهد ومطلق العدل وكمال الحرية والمساواة الحقيقية بين الملك والسوقة وإغاثة

الملهوف والكرم والشجاعة، وباقي الفضائل من الهيئات المتوسطة بين الخلال الناقصة.

«وأمر طبيعي ما لهذه الفضائل والصفات من السلطة الأدبية على من لم يتخلق بها. لأن الإنسان إنما ينفعل بروحه وشعوره والانتخاب الطبيعي فطري في الحيوان وأشده ظهورا ووضوحا في الإنسان. لذلك انعطفت قلوب الأمم، على استحسان الوافدين من العرب لبلادهم، سواء فيه البلاد التي فتحت عنوة ووضعت فيها الحرب أوزارها أو صلحا.

«وأول مقدمات العادة ـ الاستحسان ـ ثم المزاولة حتى ترسم ملكة. والإعجاب بآداب قوم، باعث على حب التقرب منهم، وأعظم وسائل التقرب ـ التفاهم ـ فيتبارون في تعلم اللسان. هكذا تم للعرب ورسخ لهم في معظم ما فتحوه من الأمصار والبلدان والممالك، آثار أدبية فضلا عن الآثار العمرانية، من لسان وعادة وأخلاق ما أمكن استئصالها، بل بقيت رغم أنوف من بعدهم من دال الدول ومن هيئات الحكومات المختلفة.

«فمصر بينما هي هرقلية رومانية ومقوقوسها عامل له فيها، أصبحت في قليل من الزمن، إسلامية في الأغلبية، عربية بالصورة المطلقة، في كافة مميزات العرب. وهكذا القول في سوريا والعراق وغيرهما بدون أن يبذل في سبيل ذلك التغيير أدنى مسعى أو يستعمل له أقل الوسائل كما ذكرنا. نعم إن أكبر حامل وأفعل عامل، على تعرب أولئك الأقوام هو الفضائل الأخلاقية والصفات العالية، التي كانت تأتي بها العرب مع بأسهم وشجاعة أبطالهم».

* * *

فتوحات العرب والأتراك

تأثير اللغة العربية

قال: «جاءني يوما أديب كبير من أدباء الأتراك وبيده كتيب صغير فيه مفكرات «ضيا باشا» بخطه، فقرات ما ترجمته بالحرف: «توغلنا في الفتوحات حتى توسطنا كبد أوروبا ودخلنا «ڤينا» واضطررنا للتخلي عنها، وليس لنا ثمة أدنى أثر أدبي أو مادي وهكذا بالاستدلال، سيكون حالنا في بقية تركية أوروبا مثل بلغاريا والفلاخ والبغدان والصرب والجبل الأسود وغيره من البلدان. «إنه ليحزن المؤرخ كلما تكرر قول الشاعر العربي:

إنّ آثارنا تدل علينا   فانظروا بعدنا إلى الآثار.

أما العرب ففي كلما فتحوه من البلاد، حربا كان أم صلحا، قد تركوا من الآثار الأدبية والمادية، ما لا يقوى على ملاشاته الأدهار. فالمسلم أو المسيحي، واليهودي في مصر والشام والعراق، يحافظ كل منهم قبل كل شيء، على نسبته العربية فيقول «عربي» ثم يذكر جامعته الدينية. وآثارهم المادية في الأندلس لا تقل عن آثارهم المدنية في باقي الأمصار فهي تنطق بأفصح بيان على مر الدهور أنها حكمت من تلك الأمة.

« والأغرب أن التركي والجركسي والأرناءوطي وغيرهم من العناصر، يستعرب متى وجد أو سكن في بلاد العرب بأقرب الأوقات ويمتزج في المجموع حتى تخال أنه «عربي قح»! وأما في حكمنا فلم نستطع أن نستترك أدنى فئة ممن حكمناهم من الأمم بكمال العدل الإسلامي والسماح التركي! ولين الجانب» اهـ.

قال جمال الدين : «لو كان ضيا باشا حيا لأزلت له ريبة من حالة قومه الأتراك»! قلنا وكيف ذلك؟ قال : «إن المرحوم ضيا باشا أشكل عليه الأمر ، لما أعتقد أن الأتراك قد شابهوا العرب تماما بمعنى أنهم دخلوا في دين الإسلام، وجروا على سننهم بالفتوحات ، من حيث العدل ولين الجانب! ولكن فاته أن لكل دين لسانا ـ لغة ـ ولسان دين الإسلام «العربي» . ولكل لسان آداب ومن هذه الآداب ، تحصل ملكة الأخلاق وعلى حفظها تتكون العصبية .

«فالأتراك أهملوا أمرا عظيما وحكمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح ـ رحمة الله عليه ـ وأحب أن يعمل بها السلطان سليم وهي قبول اللسان العربي ، لسان الدولة وتعميمه بين من دان بالإسلام من الأعاجم ليفقهوا أحكامه ويمشوا على سنن الارتقاء بعلومه وآدابه ومكارم أخلاقه ومحاسن عوائد أهله . فالعرب ما نجحوا بفتوحاتهم ، بشكل الدين الظاهري فقط ، بل بفهم أحكامه والعمل بآدابه وذلك ما تم ولا يتم باللسان وهو أهم الأركان .

«قامت السلاطين العظام من آل عثمان ، بفتوحات جليلة ، وعملت خيرات ومبرات جزيلة وقربوا إليهم من كان في عصرهم من فحول العلماء من المسلمين ـ وقد تفردوا إذ ذاك بمعرفة اللسان العربي وبعض علومه ـ وعرف أولئك الفحول قدر اللسان العربي وغالوا في التقدير حتى أنهم كانوا ـ على ما قيل ـ لا يعطون وظيفة علمية إلا لمن يحفظ القاموس العربي الفيروز آبادي (وهذا لو صح ، غلو غير معقول) وليس هو من الفائدة في شيء .

«بقيت الأتراك في فتوحاتهم على تلك الصورة وفي مجموعهم بداوة صرفة ، لم يتخذوا غير القوة المادية آلة ولم ينقلوا سواها للبلاد . نعم إنهم تدينوا بالإسلام على أبسط حالاته وأشكاله بكمال التعبد ولكن على بعد سحيق من فهم معاني القرآن وآداب اللسان . والعرب لو كانوا مثلهم ، لما استطاعوا أن يكونوا أحسن أثرا منهم ولما كان لهم حضارة ولا مدنية ولبقوا بداوة محضة ، همهم فتح البلاد للاستغلال وجمع الأموال للرفاه والترف ، أو للبذخ والسرف . الأمر الذي قضى على الدول التي خلت قبل الإسلام وبعده ، والتي ما كان ليقضي عليها بسواه .

«فالانغماس في السفه والترف والبذخ والسرف من العوامل الأساسية في حالتي

الاضمحلال والانقراض وأقل نتائجه صرف الهمم عن معالي الأمور وعدم الاكتراث بما يحتاجه الملك من التعهد بأسباب دوام العمران.

«وأشد ما فيه من المخاطر، احتقار مطالب الجمهور التي كلما تمادى الملك المحجب وعونته المترفين المسرفين في إهمالها والضغط على طالبيها تحتشد الأحقاد في الصدور وتستحكم منهم النفرة ولا يلبث كل ذلك طويلا حتى يظهر في حين لا يرقبه الملك المستبد ولا أعوانه الذين غصبوا حق الأمة وهضموا حقوقهم العامة بصفتهم «خاصة».

«فالأتراك قد اتفقوا شكلا مع العرب والنتيجة من حيث هي نتيجة مؤلمة فواحدة للقومين وللأمتين. أما فضل العرب بترك الآثار العمرانية والأدبية، فليس له كبير أهمية إلى نتائج الأمور ومصيرها.

قال: «إن عدم ترك الأتراك أثرا بعد أن توغلوا في فتحهم لأوروپا ودخولهم لـ «ڤيينا» وتخليهم عن تلك الأمصار بدون آثار أدبية أو عمرانية، لا يعد حطة، كما أن بقاء آثار العرب في الأندلس لا يحسب لهم شرفا، بعد أن استؤصل ظلهم وزال ملكهم وانقرضت دولتهم، بل في معتقدي أنه من أقدس واجبات من استطاع أن يأتي بتلك الآثار وتجشم لإبرازها وإبداعها تلك المهالك والأخطار والأموال، أن يعد لحفظها في حوزته وتحت سلطانه ما استطاع من قوة لا أن تبقى أثرا بعد عين. والأثر في مثل هذه الحال أدعى للحزن؛ لأنه أفصح من كل بلاغة على التفريط وأنطق على السفه وعدم الكفاءة من كل حجة وبرهان.

«بل أرى إن عدم ترك الأثر على هذا النمط أولى من تركه لعدم التأثر (وإن خالف هذا القياس بعض الأوروپيين). فالافرنسيس مثلا ألف مهرة كتبتهم «شناعات الحرب السبعينية» سنة ١٨٧٠ وصوروا ضعفهم تجاه الألمان وعدم تدبرهم للأمور وهفوات قوادهم وأسباب خذلانهم وما أتاه عدوهم من الجرائم والتمثيل بصورة أفظع من أن يصورها العدو الألماني، فهم يذكرون ذلك ليثأروا ولكن على اهتمام متواصل، لترقي الأمة وإعداد ما يستطيعون من قوة.

«وأما العرب والترك ففي كل فتوحاتهم، سواء فيه من ترك آثارا أو لم يترك، فقد تركوا من بعدهم خلفا من الأبناء يذكرون مجد الفتح ويفتخرون بأعمال آبائهم وأجدادهم! وعن إعداد القوة هم غافلون وعن واجباتهم لاهون وإن ذكّرتهم لا

يذكرون! وإن أيقظتهم لا يفيقون، بل هم في غفلتهم راقدون، وعلى القدر كل شيء يحيلون!

«ولو عملوا بالقانون الإلهي وبقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] لكان أوفر خيرا للأمة و«السعي» أدل السبل على النجاح وأحسن ما تربى عليه الناشئة».

قال: «أما انتشار اللسان العربي فيما عدا بلادهم، فليس للفاتحين أدنى دخل فيه ولا اتخذوا له أسبابا ووسائل، بل إن ما وجد في اللسان العربي من الآداب الباهرة والحكم والأمثال والمواعظ، ذلك هو الذي أحله من الانتشار هذا المحل.

«حتى أن العرب قبل الإسلام وهم في تلك الحالة الجاهلية والبداوة المحضة وبُعدهم عن كل حضارة، كانوا يحلون بآداب لسانهم من أعظم الملوك مثل كسرى أنوشروان - محلا رفيعا - ويأخذون الجوائز ويثرون بتجارتهم مع الأعاجم، بآداب لسانهم وما يجري على ألسنتهم من الحكمة التي تأخذ بمجامع القلوب.

«هكذا كان الذكاء العربي، الفطري، المتوقد، يناسبه سلاسة اللسان وآدابه. فكان إذا ظهر بين العرب، حكيم طبيب مثل «الحرث بن كلدة» مثلا - استطاع بآداب اللسان وفرط الذكاء أن يقارع ويضارع، أكبر حكيم من الفرس مع حضارته ومدنيته!

«وكذلك الشاعر في قبيلته إذا نبغ ولو كان وضيع النسب أجلَّته القبيلة واعتبرته حامي ذمارها بأدبه وشعره وأغنته بالمال والماشية.

«وأما في الحضارة الإسلامية وفي دولها، فكثير ممن برع بالأدب فأوصله إلى مرتبة الوزارة فالإمارة، وأما من أثرى بأخذ جوائز الخلفاء والملوك من الأدباء فلا يعدون كثرة.

«هذا بعض ما لآداب اللسان من التأثير المادي، وأما التأثير المعنوي فيكفي أنه من أكبر الجوامع التي تجمع الشتات وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر. فكم رأينا من دول اغتصب ملكها الغير، فحافظت على لسانها محكومة وترقبت الفرص ونهضت بعد دهر، فردت ملكها وجمعت من ينطق بلسانها إليها والعامل في ذلك إنما هو اللسان، قبل كل ما سواه ولو فقدوا لسانهم، لفقدوا تاريخهم، ونسوا مجدهم، وظلوا في الاستعباد ما شاء الله».

قوة الإقناع

كان جمال الدين من أكابر علماء الكلام وإماما في المنطق، يحب الجدل والحجاج، وقد أحاط بضروب السفسطة، ليسلم في جدله من شراكها، قوي الحجة كما ذكرنا، أوتي قوة الإقناع لدرجة يخال الإنسان أنه قادر على الإقناع في حالتي السلب والإيجاب!

والسبب في ذلك هو أن جمال الدين مع حكمته وسرعة خاطره وتوقد ذكائه وسعة اختباره للأخلاق البشرية وكثرة مخالطته الأمم في مختلف الأقاليم وحصول الملكة له في وجوه المباحث التي كان يطرقها.

فقد أحاط على وجه إجمالي بأخلاق العرب والترك والفرس والأوروبيين وعلم أشياء كثيرة عن مرامي القوم وحالاتهم الروحية وأعظم ما كان يحرص عليه في تتبعاته أن يراقب حسنات كل قوم ـ ولو لم يحبهم ـ ويحفظها في ذاكرته، كما يحفظ سيئاتهم وخطيئاتهم.

وهكذا شأنه مع الأفراد حتى مع خادمه، فكان يرقب حركاته وأعماله في كل يوم ـ فإذا أخذ يذكر حسناته اعتقد السامع أنه الرجل الكامل ـ ثم إذا أتى على ذكر سيئاته جعله أسفل وألئم خلق الله!

وقد كثر ورود أمثال ذلك في محاضرات جمال الدين ومحادثته وإقناعه مخاطبه في حالتي الاستحسان والاستهجان للشخص الواحد والشيء الواحد، حتى توهم البعض أنها من المواهب الخاصة لجمال الدين.

ولما ذكر له ذلك، قال:

«ليس في الأمر شيء من المواهب، إذ لكل خط طرفان ولكل إنسان وجه وقفا وفيه صفات قبيحة ومزايا طيبة. والحكم على الأشخاص والأشياء إنما يختلف باختلاف الزمان والمكان والموقف، ورغبة القائل.

«أمر النبي ﷺ أن يربط أبو سفيان في خُطم الجبل لتمر عليه جيوش الله ـ فاستحق هذا الإذلال في ذلك الموقف. ثم في موضعه من قريش وإنه من كبارهم، قال بحقه: «إن كل الصيد في جوف الفرا».

«ثم لما برز أبو دجانة لقتال كفار قريش وأخذ يتبختر قال ﷺ: (مشية يكرهها الله إلا في مثل هذا الموضع).

«وهكذا قال: «نعم الإدام الخَل» تطييبًا لقلب ذلك الصحابي الفقير، الذي لا يملك سوى الخل، فقدمه طعاما في دعوة رسول الله. وقال: «بئس الإدام الخَل» إذ قدمه ذلك الصحابي الموسر.

«فكان اختلاف الحكم على الشيء الواحد، لاختلاف الوضع والواضع. وهكذا يكون الحكم على ما يماثل ما ذكرنا من الأشخاص والأشياء».

ومن صفات جمال الدين أنه كان لا يغالي في المدح، ولا يسترسل في الذم والقدح وله أسلوب كاد أن يكون خاصا به! مثال ذلك: أنه ذكر في مجلسه رجل من أرباب الصحف المشهورة في مصر فأوسعه الحاضرون استحسانا واستهجانا حتى انتهى الأمر لقول جمال الدين؛ ليكون الفصل فما زاد على أن قال: «هو مثل الهر»! ثم سكت فرضي بهذا القول المستحسن والمستهجن، والمادح والقادح.

ثم ما مضى وقت طويل حتى أفضى الحديث أيضا إلى ذكر ذلك الرجل، فأثنى جمال الدين على عصاميته وإقدامه وتمنى لو يكون بين المصريين والشرقيين، عدة أفراد مثله!

فما وسع من كان حاضرا في مجلس تمثيله في الهر! إلا أن قال: يا أستاذ في الأمس هجوت الرجل واليوم أخذت في مدحه؟

فقال: بماذا هجوته؟ ـ فذكر عبارة الهر!

قال: نعم قلت ذلك وليس في هذا التشبيه شيء من الهجو، بل يجب أن نكرم الهرة والهر ـ فالرجل يطوف كالهر ليلتقط الحوادث من منابعها، فيكاشف بها الأمة! ـ ونعم ما اتصف به وما يفعله ـ.

ولقد جرى لجمال الدين بحث وجدل مع كبير من العلماء في قول: (ليس في الإمكان أبدع مما كان) فأخذ السيد الوجه السلبي وقال: «نعم، في الإمكان أبدع مما كان، ها نحن اليوم نعجز بالعين المجردة عن رؤية الأشباح والأجرام البعيدة ونستعين بالمجاهر والنظارات فلو كانت عدسات أعيينا أقوى والانعكاسات النورانية أشد، لكان ذلك أبدع مما نحن فيه من ضعف البصر وعدم رؤية البعيد».

فوقف الشيخ وظهر عليه العجز ولم يستطع لبرهان جمال الدين ردا.

فلما انفضّ المجلس، قال السيد لجلسائه: أخذ الشيخ بالسفسطة وغلب بها وكان الغلب له لو قال إن النظارات إنما فائدتها لرؤية البعيد فقط وأما إذا استخدمت للقريب فلا يمكن أن يُقرأ سطر ولا أن يُرى قريب!

وعلى هذا يكون الحق في جانب القول في الخلق: «ليس في الإمكان أبدع مما كان»!

* * *

تشجيع الناس في طلب الحق

أتى رجل من أعاظم أدباء الأتراك وموظفي سفارات الدولة العثمانية إلى منزل جمال الدين وشكى له حاله وعدم صرف رواتبه! وكثرة التضييق عليه ومؤاخذته بآثاره الأدبية إلى غير ذلك.

فقال له مشجعا على عادته مع أمثاله:

«اعلم أن الدخول من باب الذل لا يثمر غير الذل ومعشر الشرقيين في الفقر خوف الفقر وفي الموت خوف الموت. فاقرع باب السلطان! بمطرقة الاستغناء وتردى برداء الهمة، وارفع صوتك واجعل لقدمك موطئا في بساط الغاصبين من خاصة جلالته ـ تنل ما ترغب على شرط المواظبة على ذلك؛ لأن المواظبة والإلحاح أولى الأمور بالنجاح!

فخرج الرجل من مجلس جمال الدين وكله حماسة وانفعال بحديثه، شأن كل من حادثه السيد ونفخ فيه من أمثال تلك الروح.

وبالفعل فقد ذهب الرجل للمابين الهمايوني! وكتب ما لا يكتب بلهجة غاية في الشدة ـ لا يصدق من عرف حقيقة أخلاقه أنها تصدر منه، فعرف جلالة السلطان من نهج الكتابة ومن الجواسيس التي كانت تأتيه بأسماء كل من زار جمال الدين وتكلم معه، أن تلك الكتابة ليست من كيس الكاتب! بل هي من نفثات جمال الدين، فدعاه للحضور فذهب وطال مثوله لديه وذكر له عرضا وعلى سبيل الشكاية من بعض الذين يحبهم ويعدهم للمناصب العالية، كيف يتذمرون ويشتكون ولا يصبرون! ـ وذكر اسم صاحبنا مثالا ـ.

ففهم جمال الدين أن السلطان إنما يريد أن يقول إنك أنت الذي دفعته لمثل ما كتب! وفي الأخير قال: إن الرجل يزورك على ما أظن؟ أجاب السيد: نعم في بعض الأحيان! قال: «إذا رأيته أفهمه أنني زدت في راتبه وأمرت بصرف ما تراكم له وانصحه بلزوم الصبر».

فلما خرج من حضرة السلطان لحجرة رئيس القرناء وجد ذلك الرجل هناك فبشّره بالالتفات السلطاني وقال: اسمع مني هذا المثل:

«أتي رجل لعند آخر فشكى له قلة ذات اليد وحب الإثراء وحط رحال أمله عنده، كي ينيله مبتغاه أو يرشده إلى السبيل. فقال له الرجل: إن في المكان الفلاني كنزا! فخذ قوسا وارم سهما وحيثما وقع السهم، فاحفر تجد الكنز. فذهب الرجل وأوصى على قوس قوية، غاية في الصلابة وسهما كذلك وشد الوتر لدرجة كاد أن ينقطع معها ورمى السهم فذهب بالطبع بعيدا وفات المرمى إذ حفر ولم يجد شيئا فأتى باللائمة على من هداه واتهمه أنه غرر به! فقال: وأنت يا صاحبي لقد شددت الوتر أكثر مما يلزم ولو أرسلت سهما بسيطا بشدة معتدلة، لوقع على ما طلبت!».

أما الرجل الأديب فقد أجاب بلطف واختصار: يا حضرة السيد، لا أريد من الكنوز أكثر مما وقع سهمي فوقه.

* * *

تكليف الزواج؛

هل المرأة والرجل يتساويان؟

عاش جمال الدين عزبا لم يقترن في حياته بامرأة !

وكان كلما شكى له أحد، كثرة العيال وقلة ذات اليد، يعينه على قدر استطاعته ويقول له قل: «وأثقلت ظهري بالذي خف من ظهري»!

ففي يوم أرسل السلطان من أعلم جمال الدين أنه سيرسل له جارية حسناء من قصر «يلديز» ليتأهل بها فامتنع السيد عن ذلك وأبى، رافضا ذلك التكليف بقول غريب (سيأتي بيانه).

فقيل له إنك إذن تحب تأييد مذهب «أبي العلاء» حيث يقول:

هذا ما جناه أبي عليّ   وما جنيت على أحد !

قال: «كلاّ ولا أعتقد أن مثل هذا القول يصح أن يعزي إلى حكيم مثل أبي العلاء؛ لأنه ينافي الحكمة ولا أن يتخذ حجة، أو قدوة. إذ كيف يصح لعاقل أن يعتبر التأهل والازدواج جناية؟

وإن قيل إنها جناية معنوية في بعض نتائجها، كيف يصح لولد صار حكيما مثل المعري ـ ولولا علة وجوده وهو ازدواج أبيه لما برز من العدم ـ أن يلصق الجناية بأبيه خلافا لكل عقل ونقل؟ ومن ينكر أن بقاء النوع واستكمال حكمة العمران، ما كان ولن يكون إلا بالتناسل والتزاوج.

«أما حكمة الزواج وشرطه فقد جاء في القرآن على أوضح وجه وأصرح بيان، إذ قيد من خاف أن لا يعدل ـ بالمرأة الواحدة ـ وترك للمستدل ولمن يخشى أن لا يعدل، حتى مع الواحدة «عدم الزواج» ! وهذا ما يستنتجه العقل ما دام يحمله العاقل ويقول به الحق، والعدل.

« أما أنا، فمعرفتي بما تتطلبه الحكمة الزوجية من معاني العدل وعجزي عن القيام بأمره، دفعني أن أتقي عدم العدل، ببقائي عزبا من أن أتأهل وأكون ظالما» !

فقال له طبيب موسوي كان من خاصته : «فهل تفاديا من الخوف من عدم العدل يجوز أن يخالف الإنسان طبيعته؟

فتبسم السيد وقال له: «إن الطبيعة أحكم منك! فهي تدبر نفسها ومن ترك شيئا عاش بدونه».

عند ذلك قلنا لجمال الدين: تقبل من جلالة السلطان عطاءه من المال، فلِمَ لم تقبل عطاءه من الجواري الحسان؟

قال:

« أما المال الذي يعطينيه فإني أجد له على اجتهادي أكفاء يقومون بأداء الواجب نحوه. وأما الزواج بالجارية الحسناء، فما أنا بالكفء لها ولست بوليها لأتحرى لها كفؤاً ».

ثم قال للواسطة في هذا الشأن :

« إذا أصر جلالة السلطان أو أحب أن يكرهني على هذا الأمر، فلا أظن إلا أنه يحب أن يراني في عداد الخصيان! فيرتاح إذ ذاك من هذا الفضول في الإحسان ـ فأخبروه إذا هو أصر ! ».

ولما لم يأخذ الوسيط ـ وهو من كبار الأغوات ـ من جمال الدين غير هذا الجواب، ذهب مستغربا مدهوشا من شكل هذا الرد وصورة الرفض.

وعلى ما نظن أن جمال الدين لم يخطئ في رده ورفضه قبول الزواج الذي إنما كان من السلطان عبد الحميد لمأرب لا حفاوة ؛ إذ كان جل قصده، تقييد جمال الدين بغائلة العائلة ليس إلا !

وبعد أن سكنت الضوضاء التي أحدثها تكليف السلطان عبد الحميد لجمال الدين أن يزوجه ! ورفضه على تلك الصورة التي ذكرناها ـ قيل للسيد : لو فرضنا أنك قبلت تكليف السلطان واقترنت بامرأة، فما هي الخطة التي كنت ترسمها لقرينتك؟! وما رأيك في مساواة المرأة بالرجل؟

قال : « إنه ليسرني إذ صار فرضكم بأمر زواجي «نفلا» أو في حقيقته «لغوا» وتخلصت من الخطة والخطط والخطوط !

« أما أمر مساواة المرأة بالرجل والحجاب وهتكه وحقوق المرأة إلخ، فقد قرع آذاني مرارا وقرأت في هذا الموضوع مقالات ورسائل، ولكن لا أكتمكم أنني لم أعثر في كل ذلك على مقال صريح أو تحديد لمطلب المساواة أو على بيان الغاية من هتك الحجاب أو الفائدة التي تترتب عليه أو تأتي من ورائه. وعندي لا مانع منه إذا لم يتخذ مطية للفجور.

«ولا أظن أن ضجيج بعض الناشئة في الشرق والمتفرنجين منهم يقصدون بطلبهم ـ مساواة المرأة مع الرجل ـ «في التكوين» ذلك لأنه ممتنع، بل مستحيل. فإذا صح هذا الامتناع من هذه الوجهة، فلا مناص من أن تبقى المرأة كما هي مرأة، تكوينا والرجل رجلا.

« وأما إذا قصدوا المساواة من حيث المواهب الفطرية فهذا أثر الاكتساب فيه ضعيف ـ فالشاعر والشاعرة إذا كان في فطرتهما حسن التصور وسعة الخيال مع صفاء في السليقة، برعا في الشعر. وإن لم يكونا كذلك وانصرفا إلى أوزان الخليل تعلما واكتسابا من فاعلات وفاعلات، وفاعل وفعول، فلا يخرجا إلا وازنا ووازنة!

« أما من بقي من العلوم التي تحصل للإنسان بالتعلم على نسب مختلفة بحسب القابلية الفطرية، من طب وهندسة وفلاحة وصناعة إلخ ففي انهماك المرأة ودخولها معترك هذه الصناعات نظر. فالمجتمع الإنساني إنما قام على دعامتين أو يقوم بالمجتمع عاملان : المرأة والرجل. فلنأخذ الرجل ونبحث في تكوينه وخلقه وتركيبه فنرى في أعضائه ووجوده ما ليس في المرأة ولا حاجة للتفصيل والرجوع

إلى علم التشريح وكذلك في المرأة وتكوينها ما ليس في الرجل. وفي كلا التكوينين من ناقص وزائد لا يعد بالنظر إلى الفطرة لا نقصا ولا كمالا.

لأن الطبيعة أحكمت صنعها في ذلك وأجادت في تكوينها: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤].

«يرشدنا ذلك التباين في تكوين العاملين إلى وجوب اختلاف عملهما بما لديهما من معدات وآلات التكوين؛ ليتم من ورائهما عمل صحيح بالنتيجة، وبناء مستجمع لوازمه.

قال: «ثم إذا أخذنا ما يحترفه الإنسان من الصنائع وما يتوخاه من ورائها، فلا نراه يخرج في كل ما يتحمله من مضض التعلم ومزاولة العمل عن كسب القوت له ولعياله ولا يقال عائلة إلا إذا تشكلت من رجل وزوجة وأولاد.

«وبديهي أن أبسط أنواع القوت وهو الخبز، يحتاج ليصير خبزا، عشرات العمال! منهم من يعالج الأرض بالحراثة، لتصلح لبذر القمح وأبقار وسائس ومساس ـ ويلزم له الحداد، والحداد يلزمه أعوان ـ ومطحنة وطاحن و. . و. . و. . و. . إلخ حتى يصير دقيقا فتعجنه المرأة وتخبزه في التنور أو يخبزه الفرّان، فإذا شاركت المرأة الرجل في الصناعات (وهي لا تكون إلا خارج البيت) فمن يدير أو يدبر مملكة البيت؟ ومن يربي الطفل؟ ومن يخط في لوحه الصقيل، رسوم الشجاعة والفضيلة والإقدام غير المرأة؟ ومن يربي أقيال الملوك في أخلاقهم، غير تلك الملكة وهي المرأة. اللهم إذا أرادت أن تبقى ملكة، لا أن تبقى ملكة وملكا في آن واحد!

«ليس من يحط من قدر المرأة ويمتهن خلقها ويدهورها لدركات الابتذال إلا ذلك الطائش المغرور الذي يغريها على ترك مملكتها «بيتها» وأن تزاحم الرجل في شقائه بجلب العيش الذي لو فرضنا أنها أفادت بعض الفائدة المادية فيه وعاونت به، لا شك أن الخسارة تكون من وراء تركها المنزل وتدبيره والطفل وتربيته، أعظم بكثير من تلك المنفعة التي لا تبقي على الأخلاق ولا تفسد إلا الأنسال والأعراق.

« أما رفع الحجاب ؟ فما رأيت لمن قال بلزومه وخطب فيه أو كتب أنه ذكر أقل نفع له أو فائدة تأتي من ذاته أو من ورائه والذي أراه أن الحجاب ستار إذا رفع طفرة وفجأة، إنما يظهر على الغالب من تحته شناعات الخلاعة والتبرج واستهوان الفجور وعدم المبالاة بالرقابة العامة . ولو اقتصر النساء على الاكتفاء بالسفور ولم يتخذ كما قلنا مطية للفجور، لما كان في الأمر ما يحتاج لأخذ ورد. ولكن إذا رأين للسفور متممات لا تتم إلا في خارج البيت، فهناك الطامة وفواجع الطفرة واختلال التوازن في أعمال الشريكين .

ثم قال: «رحم الله أبا الطيب المتنبي فإنه لو وجد في زماننا ورأى ما نراه من المتبرجات ـ من شرقيات مقلدات للغربيات ـ وغربيات بائحات وشرقيات ورائهن سائحات! وبتسفلهن عاملات وبشططهن وإسرافهن، آمرات فاعلات ومن الأخلاق الطاهرة (أخلاق البداوة السالمة الصحيحة) عاريات مارقات، أظنه إنما كان يرى في أخلاق نسوة (نسل الإنكلوسكسون) مجمل أخلاق البداوة ومحاسنها وصفاء عيش من يعمل بها ولرأى في أكثر نسوة من سواهم، تلك الحضارة السافلة .

ولا أدرى ماذا كان يسمح له الخيال الشعري أن يزيد على قوله :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفي البداوة حسن غير مجلوب
أفدي ظباء ما عرفن بها
مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة
أوراكهن ثقيلات العراقيب

قيل لجمال الدين، إن الذين يطلبون مساواة المرأة بالرجل ودخولها في معترك الحياة من كل وجهة، إنما يحملهم عليه ما يقرءونه في سيرة نساء المسلمين في الصدر الأول وأن السيدة عائشة ركبت الجمل وشجعت في الحرب وبرزت وخطبت وكذلك نساء الصحابة كن يرافقن الجيش ويخضن المعامع ويخدمن الجرحى وإلخ .

قال: «غريب ما يقولون وما يدعون، أن ركوب السيدة عائشة الجمل، ومرافقة نساء الأصحاب الجيش، كل ذلك حالات استثنائية لا يصح أن تتخذ قاعدة، تجري عليها النساء في كل حين.

«أما ركوب السيدة عائشة الجمل، فقد تنبأ عنه المصطفى ﷺ وذكر ذلك المركب الخشن، وأنها ستنبحها كلاب حوشب ـ الحديث ـ وليس فيه أدنى فخر لتتشبه به بقية النساء. بقي علينا ذهاب نساء الأصحاب لساحات الحروب وخدمتهن الجيش وهو أمر مستحسن، للتي لم يكن لها زوج مقعد أو والد ووالدة وأطفال. لأن الجهاد وهو فرض، فقد استثنى منه المعيل واشترط فيه إجازة الوالدين وأن خدمتهما أولى من الذهاب للجهاد إذا هما لم يأذنا (كما ورد في الحديث، وسيرة الأئمة).

«هذا شأن الرجل فما بالك بالمرأة. نعم إذا لم يكن للمرأة مانع من الموانع أو كان زوجها أو ابنها، أو أقاربها اللح في الجيش وذهبت للخدمة، بنية صالحة وذيل طاهر، عدَّ لها ذلك فضيلة وحسنة. إن تلك حالات استثنائية، لا يصح أن يؤخذ منها مساغا أو جوازا للمرأة أن تبارح بيتها لتتشبه بالرجل في خوض المهالك والمكاره وفطرة الله قد اغنتها عنها وكفتها شرها.

«وما أسقمه رأيا، وأبعده عن الصواب، أن تبرز المرأة لتقتل أو تقتل، والشاعر قد قسم لها قسمها:

فقال: كتبَ القتل والقتال علينا

وعلى الغانيات جر الذيول».

* * *

كان السيد جمال الدين، هشا، بشا، طلقا، يتدفق كالسيل في كل ما كان يلقيه من محاضرات، ويخوض فيه من المواضيع المختلفة، إلا في موضوع «مساواة المرأة بالرجل» ـ فقد رأيناه نكدا، كارها للخوض فيه، عصبيا، نفورا منه.

ولكن لما علم أن لفيف مريديه مصممون على استطلاع رأيه وأن تجنبه لهذا البحث لا يرجعهم عن متابعة الاستطلاع، عند ذلك تربع وقال:

«ما عندكم في هذا الموضوع من الغوامض، التي تحبون استجلاءها؟».

قيل: ـ قال الأستاذ: «للهيئة الاجتماعية دعامتان، أو يقوم بالمجتمع عاملان المرأة والرجل». والمفهوم الظاهر أن هذين العاملين هما بمنزلة الشريكين في الحياة فإذا ارتقى أحدهما وجب أن يرتقي الآخر، أو على الأقل أن لا يقف الواحد في سبيل الثاني.

فالرجل تدرّج في أدوار وارتقى من طور إلى طور حتى وصل إلى ما وصل إليه من مدنية وحضارة وعلوم وفنون والمرأة وقفت جامدة، خاملة، يعمل في تمادي جمودها وخمولها وعدم نهوضها الرجل ـ ويقيدها ـ الرجل ويقتل مواهبها الرجل، تارة بدعوى الدين وأخرى في عدم كفاءتها من حيث التكوين! مع أن دعوى التكوين والمواهب من قوة جسم وصحة عقل، ما كانت على نسبة واحدة في الرجال كافة، ليصح أن يحكم على تجرد النساء منها ـ فكم رجل يعد بألف وكم ألوف تمر بلا عداد!

وما جاز وجوده في الرجال من هذا القبيل، لا يستحيل وجوده في النساء بل هو من الممكنات ـ خصوصا وقد أتى على المرأة حين من الدهر كانت فيه مع الرجل في مستوى واحد ـ وأما التكوين في أمره الرئيسي من رأس ودماغ وإرادة وتمييز، ليس فيه تباين أو تغاير أو تعدد ـ بمعنى أن الرجل ليس له رأسان! وللمرأة رأس ونصف! أو نصف رأس أو في الأول أربعة آذان وفي الثاني أقل من ذلك! ـ والذي نراه من التفاوت، إن هو إلا من حيث التربية وشكلها وإطلاق السراح للرجل وتقييد المرأة في عدم البراح من الحذر، وحصر مواهبها في ذلك المضيق!

ثم انقطع الكلام وساد السكوت، فقال جمال الدين:

هل لكم ما تقولون غير هذا؟ قلنا لا! غير إلفات نظر الأستاذ إلى حالة المرأة في الغرب خصوصا في الأمة «السكسونية» التي يعجب السيد بتربيتها ويمتدح أدب المرأة فيها وحشمتها.

قال: «دخلتم في هذا الموضوع على السفسطة من باب واسع! والتوى عليكم القصد، بل عكستم القضية ـ ربما من حيث لا تريدون ـ ذلك لأنكم تطلبون للمرأة أمرا من المساواة بالرجل ولا تفقهون لفائدتها معنى ولا للمقصود حصرا ونتيجة ـ وإليكم البيان: قلتم إن الرجل تدرج وتطور وارتقى حتى وصل إلى ما وصل إليه اليوم، وإن الرجل والمرأة كانا في زمن من الأزمان في مستوى واحد! وإنه ليس في تكوينهما ما يمتاز به الواحد عن الآخر.

«فإن سلمنا لكم في هذا وجب أن ننظر إلى عوامل ارتقاء الرجل والمؤثر فيه، فإن قلتم إن الرجل قام بنفسه بدون مساعدة آخر ـ ولا تأثير للتربية عليه ـ سألتكم ما الذي منع المرأة أن تجري مع الرجل حيثما جرى؟ وتأخذ من التدرج والتطور والارتقاء، ما أخذ به الرجل وكلاهما في مستوى واحد وتكوين واحد؟ ـ والقوة التي تزعمونها في الرجل وأنه قيد المرأة بها، لم توجد فيه دفعة واحدة، بل أتت بالطبع على سبيل التدريج وسننه. ثم رأيت غيركم من المطالبين بحقوق المرأة المهضومة على وهمهم والآخذين بناصرها، لتتساوى مع الرجل ـ يهيمون في مجاهيل التاريخ ويبحثون عن المرأة في زمن الرومان ومن قبلهم أو بعدهم ويعيدون ذكرى عصر «شيوع المرأة» ـ وأن الولد ما كان ليعرف أباه، بل كان يرجع إلى أمه في نسبه قهرا وضرورة، بالنسبة إلى ذلك الشيوع ـ القبيح ـ. أقول «قبيحا» ولعل المتحمسين للمرأة يرون ذلك الشيوع «حسنا» ويرومونه ويسعون من طرق خفية للعودة إليه ولكنهم لا يستطيعون به جهرا أو يخجلهم الحق الذي لا يجدون له سترا ولا لنوره إطفاء.

«نعم يذكرون عصر الشيوع وكأني بهم يريدون أن يستنتجوا منه ـ أن المرأة كان لها منه مقامٌ ولكنه «غير كريم» إذ كان الولد يرجع بنسبه لأمه والمسيطر عليه وعليها خاله (بئس ما يستنتجون، وساء ما يقولون). أرشدنا العقل أن الإنسان في تطوره إنما كان يترك ما يضره ويقبل ما ينفعه ويأخذ بالأنسب والأصلح ـ صناعة، وأخلاقا، واجتماعا. انتقل الإنسان من العصر «الظرري» ـ العصر الصواني ـ إلى العصر الحديدي، لمنفعة رآها فيه. فهل يعقل اليوم أن يترك الإنسان الحديد ويرجع القهقري إلى الصوان يتخذ منه سلاحا وآلات على ضعف أثره ومحدودية نفعه؟ ـ كلا ـ .

« وعلى هذا، يصح القياس والقول بعدم نفع الرجوع إلى حالات تلك الأعصر، التي ما تركها الإنسان إلا لأنه رأى خيرا منها ـ ومن ذلك ـ شيوع النساء وعدم طهارة الزواج ولوث الزناء والسفاح وما يجره من ويلات العلل والأمراض الجسدية والروحية. يخطئ ويضل الصراط السوي، من قال أو يقول إن الرجل قام أو يقوم بنفسه، لا في عصر الهمجية ولا في عصر الحضارة والمدنية، بل إن الذي ساعده في كل أدوار الحياة ويساعده ويخط في لوحه الصقيل منذ طفوليته، خطوط الفضيلة، أو الرزيلة ـ إن هي إلا «المرأة» فالرجل في آثاره وجراثيم غذائه وبالخطوط الأولى التي ترسم فيه، هو صنع الأم «المرأة» مدين للأم «المرأة» تلميذ الأم «المرأة» صالحا نشأ أم طالحا.

«فإذا علمنا أن للمرأة ذلك التأثير وأن عليها القيام بذلك الواجب وتحمل أثقال ذلك العبء ـ الذي لا يمكن أن يقوم به غيرها ـ كيف يصح أن يسلب منها ذلك الحق أو تدعى لتركه أو أن تساق إلى ما لا يعنيها ويضر بالهيئة الاجتماعية ويقلبها رأسا على عقب؟ إني لا أرى في الذين يقولون بمساواة المرأة في الرجل وأشغالها بما خلق له، هو، ولم تتكلف به الأم «المرأة» ـ إلا أنهم يحاولون نقض حكمة الوجود، الذي إنما صار وجودا وكونا وهيئة ـ بوجود العاملين «المرأة والرجل». يريدون أن يرجعوا ويدغموا الاثنين بواحد ـ وبصريح القول ـ ينتهون بنتيجة ما يطلبون، إلى أن لا يكون في الكون إلا رجلٌ أو امرأة ـ هذا إذا حصلت المساواة بين الاثنين وتجاريا في العمل! ـ يعني أن يصير كل منهما طبيبا، صيدليا، مهندسا، فلاحا، خياطا، نجارا، حاكما مبعوثا، قائدا، إلخ.

«ومتى وصل المجتمع الإنساني إلى هذ الحد؟ فمن أين نأتي بالأم «المرأة» مربية الرجال ومرضعة الفضيلة لهم وهي في ذلك الشغل الشاغل الذي يستغرق كل وقت الرجال ولم يجدوا في أقل صنعة يحترفونها متسعا لهم، أكثر من جلب القوت وسوقه للبيت لتعالجه المرأة فتغذي به رجلها وطفلها. أما عمل المرأة وواجباتها في بيتها ونحو زوجها وأولادها فأهم بكثير من صناعات الرجل مهما دقت وعظمت

وجلّ نفعها. وإن أكبر فاضلة من النساء، إذا هي قامت ببعض واجبات المنزل وتدبيره وحسن تربية الطفل تكون قد رجحت على أكبر الرجال علما وعملا. لأنه كما سبق القول: «ليس غير المرأة من يهيئ للمجتمع رجلا». وهذه المرتبة السامية للمرأة لم يكن ليهيئها الرجل للمرأة؛ لأنها أسمى منه ـ بل هيَّئتها لها الطبيعة وحرمت الرجال من أن تنالها. تلك المرتبة هي أسمى من كل ما تتوهمها المرأة في الرجل من المهن والصنائع ولا تنحط المرأة إلا إذا هي تساوت مع الرجل بها.

«ومختصر القول: إن قوة المرأة في ضعفها وفضل الرجل في قوته وأن يكون تجاه المرأة ضعيفا ـ وفي مذهبي أن تبادل النوعين بالمزيتين، خروج عن حكمة الفطرة ومغالبة للطبيعة» اهـ.

* * *

مقابلة الخديوي عباس حلمي
واختلاق الجواسيس مسألة الدولة العباسية

وفد على الأستانة سمو الخديوي «عباس حلمي الثاني» ـ وشهرة جمال الدين في مصر بالغة مبلغا عظيما، وزادها خطابه على إخواننا المصريين (الذين جاءوا معه) وقد دعاهم جلالة السلطان لحديقة «يلديز» فوقف جمال الدين خطيبا واستهل خطابه بقوله:

«أحسنتم صنعا إذ أتيتم لزيارة خليفتكم، جامع شتات الممالك الإسلامية، منقذ تراث الشرقيين، من اغتيال المغتالين وشره الطامعين إلخ».

وكله حث على الارتباط بمقام الخلافة وتحريض على النهضة وتعريض بالمخاطر الحائمة حول الممالك الإسلامية ببلاغته المعروفة وتلك الطلاقة الخاصة به.

فرغب الخديوي في مقابلة جمال الدين وطلبها، ولما كان هذا الأمر يحتاج إلى إذن من السلطان! وصدور إرادة سنية فيه. استؤذن ـ فأبى ـ بل ألح بالواسطة على جمال الدين أن لا يفعل ـ وتخوف كثيرا، من هذه المقابلة وأراد أن لا تتم.

أما جمال الدين فقال لواسطة الخديوي في حجرة رئيس القرناء جهرا وعلى مسمع من الملأ الموجود:

«كضيف! فإنني أسير المضيف جلالة السلطان في منزله ولكن لي مسرح كل يوم في (الكاغدخانة) ـ وهو محل نزهة مشهور ـ كان يتنابه السيد في أكثر الأيام، ويكرر الرحمة على أبي الطيب المتنبي وينشد بيتا له :

وما في طبه أني جواد   أضر بجسمه طول الجمام

وبينما جمال الدين يوما في ذلك المحل على ربوة منفردا، إذ قدم الخديوي عباس وسار نحو السيد راجلا، فردا، تاركا عربته ومهمنداره بعيدا، ولما تقابل افتتح الخديوي الكلام بالتحية قائلا: «السلام عليكم» وبعد المبادلة بها قال السيد: من أخاطب؟ فأجابه: «محبكم عباس حلمي».

وذكر ما له من المحبة والحرمة عند سموه إذ إنه ولا شك من أكبر حكماء الشرق في العصر ويفتخر الشرقيون بمثله، وهكذا عبارات ثناء وتودد وتلطيف لجمال الدين.

واختتم الحديث بأن سموه يحب أن يراه زائرا مصر، في أيامه، مكررا ذكر ما له في القلوب من المحبة العظيمة. ولم يدر بينهما شيء لا ضمنا ولا صراحة مما يكون له أدنى تماس مع السياسة.

ولكنها فرصة للجواسيس، ربما يبخل الدهر أن يأتي بمثلها (سمو الخديوي عباس حلمي ـ وجمال الدين الأفغاني ـ منفردان على ربوة يتحادثان!!).

فانهالت محررات الجواسيس «الزورنالات» على السلطان وأهمها وهو الذي أقامه وأقعده ـ «أن جمال الدين قد تعاهد، وتحالف مع الخديوي على أن يؤسس له دولة عباسية!! وأنه قد طلب تأمينا من الخديوي بعد أن يتمم له الأمر! أن لا تكون عاقبته كما كانت عاقبة أبي مسلم الخراساني مع العباسيين ـ وأن سوريا الجغرافية لمن حكم مصر بمنزلة اللازم والملزوم، وهي مفتاح العراق».

وهكذا اختلاقات وتخرصات وترهات كانت خير ذريعة لتناول الأموال من «سراي يلديز» وباب رزق جديد لمن عيشهم موقوف على الافتراء والوشاية بالأبرياء! ـ إذ كان بالتهويل على السلطان ـ ولو برجل سائح بسيط، يجسمون أمره ويصورون من وجوده مضرات ومصائب، تأتي للدولة منه وتتناول في نتيجتها شخص السلطان وعرشه ـ فيأخذ لذلك من الحيطة ويبذل في سبيله من الأموال ما يحير العقول!

وأخذت تتوالى الوفود من المابين على منزل جمال الدين بنغمات مختلفة ـ منها لوم بشكل توبيخ مع عتب ـ ومنها إسناد خيانة بما عمله! ومنها أن تحالفه هذا مع الخديوي يعد نقضا لبيعته للسلطان . . .

والغرابة أنه كلما كان يقال في هذا الشأن، يذكر بصورة ثبوت صحة الخبر عند السلطان وأنه لا ريب في حصوله ـ وأنها وقعت الواقعة ليس لوقعتها دافعة! ـ وجمال الدين في كل تلك الأوقات، كان رابط الجأش، أكثر مما رأيناه في سائر الأحوال ـ يضحك ولا يجاوب حتى يؤدي الرسول بلاغه ـ ولا يزيد على القول له: «هل لك ما تقول غير هذا؟ فإن قال لا ـ ترجم له بالتركية ما قاله هارون الرشيد: «هنيئا لمن ما عرفناه، لأن من عرفناه وقربناه أطرنا نومه وأطلنا يومه». ويقول له: «أطار نومكم وأطال يومكم»! ويزودهم بعبارة: «إنني سأتحادث إن شاء الله مع السلطان بأمر هذه المختلقات».

وبينما خلق المابين وكبار المقربين والجواسيس في هرج ومرج وأخبار غضب السلطان على جمال الدين، تلوكه الألسنة بأشكال غريبة وصورة عجيبة ـ صدرت الإرادة بحضور جمال الدين للقصر السلطاني للمثول.

والسلطان عبد الحميد كما أنه من أقدر ملوك زمانه سياسة، على ما مر بيانه، وأحدهم ذهنا وأوفرهم ذكاء ودهاء فهو ألينهم عريكة وأكثرهم تواضعا وأقدرهم على خلب لب المخاطب، باللطف والمجاملة وكظم الغيظ فهو ولا شك لو صرف كل مواهبه لخير المملكة ـ وطرح الجبن جانبا ـ لفاق سائر ملوك عصره ولأوصل الملك الأعلى ذرى المجد.

فلما اجتمع بل أقبل جلالته عليه بأكثر من العادة وهش له وبش وأدناه وحادثه طويلا بأمور كثيرة ـ لا تخرج عن كونها تئول لذلاته إذ كل مهم في الملك لا يكون بالنتيجة عائد لحفظ حياته وتقديس إرادته! ـ فليس هو من الأهمية في شيء. حتى إذا انتهى الحديث من كل ما أراده السلطان ظاهرا وأوهم أنه سيبارح المكان قال: هيه! اجتمعت مع حضرة الخديوي في الكاغدخانة؟

أجاب نعم! تلاقينا هناك. قال: «قد ألح الخديوي كثيرا بطلب هذه المقابلة وما فهمت لهذا الإلحاح سببا أو معنى ـ فأي علاقة بينكما؟ وقد أزعجوني بكثرة الزورنالات ـ وأكثرها من الصادقين المجربين عندي الذين يتحرون لي، صحيح الأخبار! وصادقها ـ لذلك تأسفت جدا حتى كدت لا أصدق أنك تأتي بمثل هذه الأعمال».

قال جمال الدين: «وأي الأعمال أنكرها مولانا السلطان عليّ؟».

فتناول السلطان من بين يديه ومن جيبه عدة ظروف بمظروفاتها وقال: «هذه كلها على اتفاق بأنكما قد انفردتما لوحدكما وتحادثتما بالمسطور فيها» ـ ودفع إلى جمال الدين تلك الظروف.

قال: فتناولتها تأدبا ولم أقرأها استخفافا؛ لعلمي بما حوته وتضمنته من الأراجيف والأكاذيب.

فكرر السلطان عليه بقوله: «تفضل بمطالعتها وبعده نتحادث».

قال له: لا حاجة لمطالعتها فالأمر ينجلي وينتهي إذا اقتنعتم وصدقتم بأنني كنت مع الخديوي في ذلك المحل بمعزل عن الخلق وعلى انفراد ـ ليس معنا ثالث!

قال: نعم.

قال جمال الدين: هل كان مع الخديوي غير مهمنداره؟ أجاب: لا.

قال: هل سمع أحد منهم ما دار بيني وبين الخديوي وكتب لجلالتكم أم الكاتبون غير من كانوا موجودين؟!

فعند ذلك، أطرق السلطان برهة ثم بحث عن مظروف فوجده وقرأه وقال: «إن حسني باشا (وهو مهمندار الخديوي) يذكر فقط أنكما انفردتما بعيدا عنه ولم يفهم ما دار بينكما»!

قال جمال الدين عند ذلك: «فهل برهان أسطع وحجة أقوى من هذا على بطلان

هذه الأرجوفة ودحض هذه الفرية مع أني أقسم لك بعزة الحق، أنه لم يدر بيني وبين عباس حلمي خديوي مصر شيء من هذا أصلا».

عندئذ قال جلالته: «صدقت وآمنت». ـ وما هذه إلا اختلاقات وفساد ودسائس (فلان [1]) قهره الله وقبحه! ـ وأطال بسوء الدعاء عليه ـ.

أجاب جمال الدين: «كل هذا حسن في بابه ولكن لماذا انزعج السلطان وأزعج لهذه الأكاذيب؟ وما كان أغنى جلالتكم عن الحالين وقد علمتم مصادرها ومواردها.

قال: «ما كنت بالمصدق لو لا هذه الكتابة ـ فإنها جعلت في نفسي أشياء ودفعتني للاهتمام ـ وإن كان الآن قد سرى عني بعض ما وجدت لاعتقادي صحة ما قلت».

وناولني رقعة فيها بيتان من الشعر ـ (في معنى أرجوفة الدولة العباسية) وهما:

شاد الخلافة في بني العباس   عباس لكن نعته السفاح

ولأنت خير بملك ستشيدها   بالبشر يا عباس يا صفاح

فقال جمال الدين: «لا حول ولا قوة إلا بالله» تخرصوا وتقولوا واستنبطوا من الانفراد أنواعا من البهتان تحتمل الصدق والكذب، وشيئا ربما أن يقال وهو من الممكنات. و لكن أمر النظم فإنني ما نظمت في حياتي شعرا عربيا قط ـ لا عن ترفع ـ ولكن لعدم وجود السليقة الشعرية بي وعدم مقدرتي عليه»!

قال: فآمن جلالته أيضا أن الحديث مفترى وأنه على كمال الأمنية منه وأن الخديوي من أعظم المخلصين له، وأنهما بعيدان عن كل تلك المختلقات.

قال السيد: «ما وسعني لغيظ لم أكظمه ـ من اهتمام السلطان بمثل هذا البهتان وهذه الاختلاقات والأراجيف المضرة في حيثية الخلافة وعظيم خطرها ورفعة شأنها

---

(١) كان السلطان عبد الحميد يرتاح إلى إلقاء التفرقة بين مقربيه، ووزرائه ويعمل على إيغار صدور بعضهم على بعض كي لا يتفقوا فيناله من السوء ما نال عمه المرحوم السلطان عبد العزيز، ولو انتفع ملك من الحذر لكان السلطان عبد الحميد أول الملوك بالانتفاع من ذلك ولكن «ما منع حذر من قدر»!

ـ مع معرفتي دناءة مختلقيها ومرتبيها ـ وهو يدعو عليهم بشر الدعاء كالعجوز الدردبيس البتراء.

«ليسمح لي جلالة السلطان أن أذكر مثلا حضرني الآن!

قال: قل.

فقال: «إن أحد الأمراء استزار رجلا في قصره فلما جاء الرجل وجد على باب القصر كلبا هائلا، عقورا يجرأ على الأسود وربما افترسها فهرّ عليه ونبح وتحفذ للوثوب فخاف الزائر وأحجم عن الدخول، في أثناء ذلك أشرف الأمير من نافذة القصر وأهّل بالزائر وسهل واستعجله بالصعود إليه.

قال: «أيها الأمير كيف الوصول إليك؟ وهذا الكلب العقور المدهش باسط ذراعيه، فاغر فاهه! انهره أو مر من يمنعه عني.

قال الأمير: أنا من هذا الكلب أخوف منك! وهكذا أظن حالنا يا صاحب الشوكة»! اهـ.

قلنا لجمال الدين: ماذا أجاب جلالته على هذا المثل؟

قال: تبسم عن غير رضى وكان وقت الانصراف قد حان فنهض وودع على أن أعود إليه في الغد من كل بد.

* * *

في أثناء هذا القصص، كان المرحوم السيد «عبد الله نديم» حاضرا في الخلوة ـ التي كان جمال الدين يسميها «الجلوة» فقال: «ليتك عندما صرح السلطان بأن هذا الفساد صنع فلان ذكرت له دسائسه واستكتابه الأغرار وتغنيه بهذين البيتين:

هي الخلافة أرجوها وترجوني

فقد تربع فيها من هو دوني

يا غـــــوث يـا جـــــد قـــــد آن الأوان لـنـا

فـأين وعــدكم في خـان شــيــخـوني

فغضب عند ذلك جمال الدين وانتهر القائل وقال: «أعوذ بالله أن أكون من المنافقين أو أن أفعل ما أنكره على الغير أو أن أكون همَّازا مشَّاء بنميم. ما هذا الهزيان في هذا الزمان؟ وفي أي مقام جليل، خطيرَهم يتلاعبون؟ خلافة عظمى، وإمامة كبرى!

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

«الخلافة! ـ كفالة لله في خلقه ـ فأين أحلام أولئك العجزة من مقام الإمامة والخلافة وما تتطلبه من الشروط والصفات أين؟!

«الخديوي بظروفه وما أحاق وأحاط بمصره هو عندي أعجز من السلطان عن تصريف أمور الخلافة والقيام بأعبائها على ما يلزمها من مزايا وشروط أهمها الاستقلال.

«نعم! لو تخلصت مصر من براثن بريطانيا وتسنى لعباس ـ مع ذكائه وتطلعه ـ أن يكون له همة محمد علي الكبير ومضاء إبراهيم وسخاء إسماعيل لوقع من الخلافة على ما يرجوه. ولكن أين الولاية الخاصة لأمير المؤمنين اليوم في ممالك الإسلام؟ وأين المؤمنون المتلفون حول الخليفة؟ وأين الحرية المطلقة للخليفة في تصريفها على وجه الشريعة أو السير على سيرة الراشدين؟ وأين القوة التي يدفع بها إذلال أو استعمار أو استعباد المسلمين في بلادهم وممالكهم وديارهم؟ ـ وأين؟! وأين؟! ـ فلا حول ولا» ثم قال: أما الرجل ـ ويعني به «السيد أبو الهدى الصيادي» ـ فهو خير عربي صحب السلطان، وقد درأ شرا واستدر ما استطاع من الخير لقومه. وفي الرجل هزة هاشمية وخلق كريم وهمم وشمم لا ينبغي أن يناله طعن الطاعنين ولا أدل على فضل الرجل من قياسه مع غيره من العرب الذين انسلوا إلى السلطان ودخلوا في خدمته «وبضدها تتميز الأشياء»، «رحم الله الجميع».

الإنجليز وأهل الشرق

خطة الغربي وغفلة الشرقي!
والعلاج: تربية جيل جديد

قال: «أبتدئ بوصف الإنجليزي على أقصر الطرق! فهو قليل الذكاء، عظيم الثبات، كثير الطمع والجشع، عنود، صبور، متكبر.

«والعربي أو الشرقي ـ كثير الذكاء، عديم الثبات، قنوع، جزوع، قليل الصبر، متواضع.

«يثبت الإنجليزي، حتى على الخطأ إذا تسرع وقاله أو باشره.

«والشرقي، لا يثبت على الصواب ولا على طلب حقه.

«فيفوز الأول في خير النتائج، بفضيلة (الثبات).

«ويخسر الثاني كل حق برذيلة (التلون وعدم الصبر).

«ولذلك فأكثر ما ورد في القرآن ـ ذكر الصبر ولزومه ـ مثل قوله تعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾[آل عمران: ٢٠٠]، ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا . .﴾[الرعد: ٢٢]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾[الحجرات: ٥]، و﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة: ١٥٥] الآيات . .

«كل هذا يدل صراحة على أن الأمة العربية خصوصا، والمسلمين عموما أحوج إلى الصبر والثبات من كل ما في الأخلاق المؤدية للسعادة البشرية. فتراهم يستهويهم الوعد الكاذب عن علم ويرضون به، إذا كان الموعد قريبا.

«ولا يصبرون على الوعد الصادق إذا كان أمده بعيدا، فيخسرون في الحالين ولا يستثمرون غير الفشل.

«أما المصريون والشرقيون عمومًا ـ سواء كان لقاء الإنجليز أو غيرهم من دول

الغرب فمثلهم مثل رجل مثر، ترك من الأموال والأملاك ما هو معلوم بعضه ومجهول أكثره وخلف ورثة على غاية السرف والتبذير. وبمثل تلك الحالة من مورث ووارث، نرى الشريعة قضت بوضع الحجر على الوارث السفيه، المبذر، واعتبرته قاصرا، غير مختار، ولا حرّ للتصرف بملك ومتروكات مورثه.

«نعم وقع الشرقيون بما ترك لهم من الميراث تحت حكم المبذرين والمسرفين والسفهاء ـ وقضى على الشرق وأهله (تداول الأيام) أن يكون الحاكم وواضع الحجر عليهم ـ هو الغرب.

« إن الفرق ظاهر بين وضع الحجر على الوارث المسرف من الحاكم الشرعي، وبين حكم الغرب بوضع حجره على الشرق وأهله؛ لأن الحجر الشرعي يمكن رفعه بإثبات صلاح سيرة الوارث، وتبين حقه بإرجاع حرية تصرفه بمال مورثه. أما حجر الغرب فهو مما لا تؤثر فيه بينات على الرشد ولا تعمل فيه عوامل قولية وحجج منطقية، ليرفع حجره.

«والسبب أن الغرب في الحقيقة ليس من مصلحته إصلاح سير ولا إصلاح سيرة المسرف المبذر، لترجع إليه حقوقه، بل من أقصى أمانيه أن يتمادى الشرقي في غيه وإسرافه؛ لكي يطول عهد الحجر ـ ومع تمادي الزمن، أن يتم بعد الاستعمار، التملك، والاستعباد. فما لبث الشرقيون في السفه والسرف ـ ونتيجتهما عدم الكفاءة لتولي حكم أنفسهم ـ يلبث حكم تلك الوصاية.

«ما من دولة غربية تطرق باب مملكة شرقية إلا وتكون حجتها «إما حفظ حقوق السلطان! أو إخماد فتنة قامت على الأمير أو إنفاذ نصوص الفرامين أو غير ذلك من البهتان، والختل، والخداع، وواهي الحجج. فإذا لم تكف تلك الأضاليل للبقاء، تذرعت ـ إما بحجة: «حماية المسيحيين أو حماية الأقليات أو حقوق الأجانب وامتيازاتهم أو حرية الشعب أو تعليمه أصول الاستقلال أو إعطاء الشعب حقه تدريجيا من الحكم الذاتي أو إغناء الشعب الفقير بالإشراف على موارد ثروته وإلخ! فالشعب الشرقي الخامل يرى في هذه المواعيد الخلابة، ما قاله الشاعر:

ما زال يغدق آلاء ويشفعها   بما يفوق أماني النفس بالعظم

«فيرتاح إلى تلك المواعيد ويرضخ إلى حجر الغربي ويقدم في كل يوم نوعا من الطاعة وشكلا من الإكرم ورضوخا لأوامر فيها أنواع الضرائب، يتسابقون متهافتين على التعبد له (ولا تهافت الفراش على لهيب النار). يفعلون ما يأمر به الغربي ويؤدون كلما يطلب في بادئ الأمر على مضض يكتمونه ـ ويغالطون أنفسهم ـ إنها حالات وقتية أو سحابة صيف عن قريب تقشع).

«ويرجعون معللين أنفسهم أن الغربيين سيفون لهم بوعدهم! وينالون تلك الأماني، إذ يتركونهم بعد إسداء نعمة التعليم لهم ـ شعبا حرا ! مستقلا بإدارة شئونه! مختارا بوضع ضرائبه ! عالما بإيراده ومصرفه! منتقيا من أبنائه حكاما! من أنزههم نفسا! وأحسنهم سيرة وسيرا! وأصدعهم بالحق قولا وفعلا!

«هذا ما يتعلل به الشرقي. وأما ما يفعله الغربي فهو: بَرنامج يحمله من بلاده في محفظته ـ ثم ينقله إلى ذاكرته وحافظته مسطورا فيه : شعب خامل، جاهل، متعصب، أراض خصبة، معادن كثيرة، مشاريع كبيرة، هواء معتدل، نحن أولى بالتمتع بكل هذا».

«وللوصول إلى الاستيلاء الممتع ـ يضع خطة ـ وهي :

أولاً : «إقصاء كل وطني حرّ، يمكنه الجهر بمطالب وطنية.

ثانيا : «تقريب الأسقط همة والأبعد عن المناقشة والمطالبة بالحق.

ثالثا : الدخول على البلاد بتفريقها طوائف وشيعا ـ فتؤثر طائفة على الأخرى (ولو بأمور طفيفة تافهة) حتى تستحكم النفرة من بعضهم فيضعون بأسهم بينهم.

«وهكذا من باب الوظائف ليس فقط يجعلون الطائفة الواحدة تنازع أختها من الطوائف ـ بل يجعلون أبناء بيت واحد ينازع بعضهم بعضا.

كل هذه حالات تزيد الوصي جرأة وتماديا في الحكم الكيفي وغل أيدي الشعب ورجاله المخلصين عن النهوض بالوطن والتخلص من ربقة الاستعباد وفك أغلال الحجر. وهذه المطالب ـ من فك حجر واستقلال لا تتم إلا بالأخذ بأفعل العوامل ـ

مثل ترقية الهيأة بالعلم الصحيح والوقوف على مواضع الضعف ومعرفة الواجبات لهم وعليهم وكيفية الوصول للمطلوب والدخول من الأبواب لأخذ حق الضعيف من القوي. وأهم من جميع ما ذكر ـ اتفاق الكلمة، وجمع الأهواءالمختلفة».

قلنا يا أستاذ:

مثال الحجر والفلسفة فيه ووجه «الشبه والمشبه به» ـ وما حواه من الحكمة ـ كلها أقوال جليلة وآراء خطيرة حسنة الرواء. ولكن وصف الدواء بتلك الصيغ التي يصفها طلبة المدارس، لا نظنها توصل للمكان المقصود ولا تفي بالغرض المطلوب ـ خصوصا ومعظم الشرقيين في ظلمات الجهل، وأنهم قد غلبوا على أمرهم (على نتيجة اجتهادكم) وكثر بين ظهرانيهم القوّال وندر الفعّال ـ وعز العثور على قول يمكن العمل به. وإلا لو قلنا إن الملايين من الخلق لو تعلموا وتهذبوا وتفقهوا وعلموا الواجبات وكانوا على اتحاد حقيقي ـ (لغلبوا الألوف!) ـ هذا أمر بالبداهة معروف. وإنما السر كل السر والإرشاد كل الإرشاد ـ (بالإفصاح عن سُبل الوصول إلى الغاية عمليا، وإمكان تطبيق النظريات فعلا)!

قال: «تطلبون الدواء؟ والداء دفين في جسم الشرق وأبنائه، مستحكم منهم، يعز ويتعذر على الحكيم النطاسي أن يصف الدواء الناجع أو الشافي والواقي لاعتقاده أن المريض لا يتناوله، بل ربما يعمل بعكس ما يشير به الطبيب اليوم ـ ولو علم ذلك المريض أن في الامتناع من الدواء (الموت الزؤام) وهذه حالة الشرقيين في مختلف الأقاليم. لدى أهل الشرق دواء سريع التأثير في الشفاء ـ لكن عظيم الخطر، مفزع للجبناء منهم ـ وقد وصفه حكماء الشعر من العرب بقولهم:

عش عزيزا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

و:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

«هذا النوع من الدواء توارثه الغربيون وعملوا بكل معانيه فتسنى لهم به من العظمة والاستطالة والحكم بالشرقيين ما نراه محسوسا، مشهورا وبين أيدينا ومن خلفنا. أما الشرقيون وقد وجدوا في هذا الدواء الشافي والواقي، مرارة ومشقة

وقتية وعناءفاطرحوه ونبذوه جانبا، ورضوا من مجد باذخ ومسلك مسبطر (بعير ووتد!) قد لا يملكونها اليوم تمام الملك. فحق عليهم قول الشاعر:

ولا يقيم على ذل يراد به إلا الأذلان عير الحي والوتد

قال: «إن هذه الأنواع من المعالجات في الشرق إذا كنت أرى منالها اليوم بعيدا، ذلك لسقوط الهمم وخور العزائم وتفرق الكلمة والاستسلام للخمول وبُعد النفوس في معظم الشرقيين عن مرامي العزة النفسية وحرمانهم من لذة ما تنبسط به الروح عند نوال المنعة القومية والحرية الحقيقية وما في عزة الحاكم الفرد من الحول والطول بقوة مجموعه (ولو كان صعلوكا) على الجمهور المحكوم، ذلك الجمهور الشرقي اليوم المستكين للمهانة والخاضع للقوة الموهومة التي يتخيلها هولا هائلا أو غولا آكلا.

ثم قال: ـ «الناس في الموت، خوف الموت وفي الذل، خوف الذل»!

«أما وأنتم تطلبون دواء يسهل على الشرقيين تجرعه ـ فأقول:

بلى! نحتاج إلى عمل جديد، نربي به جيلا جديدا، بعلم صحيح وفهم جديد لحقيقة معنى السلطان الأول، على الأجساد والأرواح وهو «الدين» وجمع ما تشتت من الكلمة من أهل الأديان وتوطيد العزم على قبول الموت في سبيل حياة الوطن.

«يقوم بذلك جمعيات يتولى أمرها أناس يأخذون على أنفسهم الأبية عهدا «أن لا يقرعوا بابًا لسلطان ولا يضعضعهم الحدثان ولا يثني عزمهم الوعيد ولا يغرهم الوعد بالمنصب ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب، بل قوم يرون في المتاعب والمكاره بنجاة الوطن من الاستعباد ـ غاية المغنم ـ وفي عكسه ـ المغرم»!

قلنا: نعم ما وصف الأستاذ، إذا قيد الله ويسر للأمة أفرادا يقومون بتلك الغايات الشريفة ويكون في نفوسهم ذلك الإباء فلا يقرعون معه بابًا لسلطان (ولو استقرعهم) ولا يهرعون لمنصب! وإن هم فعلوا فلا يغفلون عن الوفاء بالعهد ولا ينقضون الميثاق. ولكن أين هم؟

أجاب: «يقولون الحاجة أم الاختراع ـ وقال المصطفى ﷺ ـ «اشتدي أزمة تنفرجي». «فالأزمة تلد الهمة ـ ولا رجاء من المستضعف إلا إذا يئس ـ ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق ولا يظهر فضل الفجر إلا بعد الظلام الحالك. وعلى ما أرى قد أوشك فجر الشرق أن ينبثق، فقد ادلهمت فيه ظلمات الخطوب وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج. سنَّة الله في خلقه:

ومهما ادلهمّ الخطب لا بد ينجلي وأظلمت الدنيا فلا بد من فجر

«نعم! لا بد لذلك النسيم الذي حمل معه أجزاء فردية الحياة والنشاط والنهضة ـ ومر على أعرق الأمم في الجهل ـ ولما استنشقه هبت من رقادها ودوّخت ممالك الأرض واستفتحتها وملأتها عدلا ـ ذلك النسيم الذي جعل في العراق هارونا ومأمونا وفي الشام والأندلس وسائر المشرق دولا ودهاقين ودهاة ـ ومن فحول العلماء جهابذة وأساطين!

«أكرر وأقول «نعم»! لا بد لذلك النسيم بعد أن سرى عن تلك الممالك والبقاع فهبطت في مهاوي الذل وأصبح نشاطها خمولا وعلمها جهلا وملكها أثرا بعد عين ـ لا بد وأن يعيد الكرة ويمر على الشرق مرة أخرى فتنشط له العقول وتقوّى به العزائم وينفتح لاستعادة المجد المجال، وتظهر من زوايا الخمول فحول الرجال إن شاء الله.

ثم استطرد وقال: «كما علمنا أن معدات المرض، وجراثيمه في الشرق، قد أتت من مطامع الغرب (ودخلت إليه من باب خمول الشرقيين) تنحصر في أمور رئيسية سبق التنويه بذكر بعضها ـ مثل إقصاء أصحاب العارضة، والأحرار الحقيقيين إلخ . . ـ كذلك يجب أن نعلم أن عوامل غريبة مهلكة تبدو في أول مظهرها خفيفة الوطأة، سهلة المأخذ، لا ضرر من التسامح بها ـ وهي: أسلوب عجيب لإضعاف لغة القوم والتدرج بقتل التعليم القومي وتنشيط القائلين من الشرقيين بأن ليس في لسانهم العربي أو الفارسي أو الأورد والهندي وإلخ، آدابا تؤثر ولا في تاريخهم مجدا يذكر.

وأن المجد كل المجد لذلك الشرقي الخامل أن ينفر من سماع لغته وأن يتباهى بأنه لا يحسن التعبير بها! وأن ما تعلمه من الرطانة الأعجمية هي منتهى ما يمكن الوصول إليه من المدركات البشرية؟!

قال: «ولقد شاهدت وسمعت من مثل هذه الضحكات المبكيات عدة أشخاص من زعانف الشرقيين ـ وقد وقفوا على منابر الخطابة، يتذلقون إلى طالبي الرزق في بلادهم من الغربيين ـ فأنكروا على قومهم ولسانهم كل فضيلة ـ وتغنوا بجمل غربية ورطانة أعجمية، حشوها المدائح التي ربما تكون أوصلتهم إلى بلغة من عيش عند ذلك المكتسح لبلادهم ـ ولسوف ينبذ من كان مثلهم مكانا قصيا ـ فلا الأجنبي يحميه ولا الوطن يحويه.

«لا جامعة لقوم لا لسان لهم ولا لسان لقوم لا آداب لهم ولا عز لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمي وتحيي آثار رجال تاريخهما فتعمل عملهم وتنسج على منوالهم. وهذا كله يتوقف على تعليم وطني يكون بدايته «الوطن» ووسطه «الوطن» وغايته «الوطن»!

«ويجب أن يكون الوطن في مفهوم الشرقيين كقاعدة حسابية ـ اثنان فاثنان ـ يعملان أربعة! فلا تستطيع الفرق والمذاهب أو الأقوام والطوائف أن تدعيها خاصة ولا أن تحاول نقضها.

هذا هو الوطن، وهكذا يجب أن يكون التعليم الوطني».

* * *

حياة الشرق بالعلم

قال: «لا يفوتنكم أن نهوض الأمة المحجور عليها لفك حجرها، بإثبات كفاءتها وترقية مجموعها بالعلم الصحيح والأخذ بأسباب المهيئات لحكم ذاتها ـ ليس كما تظنونه بالأمر السهل ـ فهو سيصادف عقبات كئود، ينبغي التفكير بها مليا وإعداد قوة عظيمة من الحكمة والدهاء والسعي الحثيث لتذليلها. فالعالم ولو كان «أعزلا» فهو بعلمه «كمي مخش» ـ والجاهل وإن كان مخشا فهو بجهله «أعزل». وهكذا القول في الأمة ـ خصوصا في زماننا هذا ـ زمن الاستعمار. «أو كما قلت يا شيخ بني مخزوم! في رياضك المصرية، زمن: «تحرير الأرقاء وإسارة الأحرار».

«أقول للشرقيين: تأملوا كيف تحفظ الدول ثغور مستعمراتها من إدخال الأسلحة والأجزاء النارية إليها، وكيف يشددون النكير وينزلون أصرم العقوبات على من فعل ذلك. والحكمة في هذا ظاهرة وهي ـ تخوف المستعمرين من استعمال تلك القوى ضدهم. ولو أمنوا من عدلهم فيمن يحكمون من الأهلين، أو فيما استولوا عليه من الأمصار لما تخوفوا كل هذا التخوف ولا أخذوا من التحوط كل هذا الاحتياط وسنوا له أصرم القوانين.

«والعلم لقوم أو لأمة قد سهل الحجر عليها ـ محض جهلها ـ ليس بأقل هولا أو أخف دهشة وتأثيرا من إدخال السلاح لمستعمرات المستعمرين ـ أو الأوصياء على ثروة الشرقيين وبلادهم (لسرفهم وجهلهم). فالغربيون ولا ريب يمانعون (بطرق خفية) ترقية الشرقيين لأنفسهم على طريقة وطنية خاصة بهم ـ ويعرقلون مساعيهم (بأشكال نصح! غريبة) ولا يسهلون وسائل تهذيب أخلاق مجموعهم ـ بل يعملون على العكس ـ وبالإجمال لا يمكنونهم من التوسل فيما يئول لوصولهم للحكم

الذاتي ـ بأساليب غاية في المكر والمغالطة والسفسطة والاستعانة ببعض أهل البلاد على ذلك (وهم الأسقط همة). فحياة الشرقيين بالعلم الصحيح ـ موت لحكم الغرب فيهم وفك الحجر عنهم ـ والعكس بالعكس. إذن فلابد من تمام اليقظة والعمل بكمال الحكمة من الشرقيين للوصول إلى الغاية بدأب متواصل وهمم لا تفتر وعزائم لا تكل.

«أما الرجال والكهول ومن شب منهم عن دور التعلم ـ واستقام على عوج فيما تلقفه ـ هؤلاء تقومونهم بالمحاضرات وفتح نواد وطنية، للاجتماع واختلاط أبناء الطوائف مع بعضهم، وإراءة طرق العمل للنهوض بالوطن على طريق الخطب، والمثال الحسن والتذكير والتحذير.

* * *

كيفية تربية الأطفال

قال: «أما الأطفال والصبيان ـ فأحسنوا للأول تربية المرأة ـ وأما الثاني (وهم الصبيان) فأغلقوا في وجوههم مدارس الحكومة ـ وافتحوا لهم أبواب المكاتب الأهلية. لأنه لو سلم برنامج دروس مدارس الحكومة من سموم تدس في الدسم للوطن ـ لا تسلم من ضرر ما تشحنه فيها من علوم قد لا يحتاجها المتعلم في عمله وفنون لا فائدة متحققة لمن تلقاها ـ ولكنها بلا ريب تترك التلميذ عليل الجسم فيخرج عليل العقل، أليفا للنظر في الكتب، خياليا، وهاما، نفورا من العمل، جامدا فيما تعلم، بليدا في كل ما تحاوله من العمل. أما «الوطنية» أو «حب الوطن» ـ فهو الداء الذي تخشاه المدارس الأميرية! أو من كان تحت سلطة الأوصياء «الأجانب» منها، فتحرم ذكر ما يئول للوطن كيلا تصاب الطلبة بالعدوى منه وتعم بالنتيجة البلوى عليهم.

«أما الطفل، فيجب أن تتعهده الأم رضيعا، فطفلا بكمال الاعتناء الصحي، ليكون صحيح الجسم صحيح العقل، ثم ترضعه حب الوطن مع تدريجه بالعلوم اللازمة وعدم إطفاء نوره الفطري بتعليمه الكذب وتحبيب العمل إليه وتمرينه عليه مع رعاية سنه.

«وبالاختصار: تجعلون المدارس الأهلية الوطنية دور علم وعمل ولتكن تلك المدارس بعيدة من مزدحم الخلق وفاسد الهواء، فسيحة الأرجاء، متنسقة تقسيم البناء، فكما يكون فيها غرف لتلقين العلوم، هكذا يكون فيها أماكن لمزاولة العمل. وكلما دخل دماغ التلميذ شيء من العلم، أجبر أن يعمل بأعضاء جسده شيئا من العمل ـ فيعمل بالحدادة مثلا والنجارة والبناء في المدرسة مع رفاقه ويعاني تربية الحيوانات فيها فيحتلب الأبقار ويصطنع الجبن ويستخلص السمن والزبدة وغير

ذلك مما ينفعه جسديا وإذا خرج من المدرسة أفاده ماديا. ويكفي إذا خرج على ما ذكرنا أنه يخرج رجل علم وعمل، لا رجل غطرسة وعجرفة وكسل، كل على أهله، يكثر به وبأمثاله العدد ولا ينتفع بهم أحد.

«أما الدين فعلى قسمين: قسم عبادات وقسم معاملات.

فالعبادات، يؤديها الإنسان لربّه بمعزل عن كل أحد، فلا يعارض غيره بها ولا غيره يعارضه، إذ لكل وجهة هو موليها والله رب العالمين، لا رب اليهود فقط ولا النصارى فقط ولا المسلمين فقط وهو الذي خلقكم من نفس واحدة.

وأما المعاملات، فهي شرع بين العموم، يعملون أبناء الطوائف على خير وطنهم متكاتفين، متعاونين، يشتغلون في المدرسة أخدانا ويخرجون منها إخوانا، يحملون بين أفئدتهم شعور الولاء والإخلاص، لا يحل ما ارتبطوا به، من روابط المحبة الوطنية قرب ولا بعد ولا ينسون عهد الصبا وذكراه ـ بل يكونون في جسم الوطن كأعضاء الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم له المجموع من الجوارح ـ كيفما ساروا وأينما حلوا، فلا يرون إلا وحدة من سماء وأرض وماء وحب لوطن واحد، لا تبلبل ألسنتهم مختلف اللغات ولا تشتت كلمتهم تباين النزعات ولا تفعل فيهم أهواء أولى الغايات من أرباب تلك المدارس والمعاهد أو إن شئت قل تلك المصايد وإن كان منها بعض النفع.

* * *

في الصبر والثبات

قلنا: إن الأستاذ قال في مقدمة بحث: أن الإنجليزي يثبت حتى على الخطأ إذا تسرع به وقاله أو باشره، وبفضيلة ثباته يظفر ويصل لغايته بنتيجة الثبات. مع أن ثباته لو فرضناه، أو كما فرضه الأستاذ كان على الخطأ، فما معنى ظفره وفضيلته بالثبات على غير الصواب؟ وهل في ربحه بالقوة المجردة غير الخسران؟

قال: «إن الفضائل التي نجلّها ومنها الصدق والكرم والشجاعة وباقي الهيئات المتوسطة لم تكن لتحصل للفرد أو للأفراد، إلا بمزية الثبات عليها. فلا يمتاز الرجل بصفته «صادقا» إذا لم يثابر على الصدق ويعرف به في سائر تقلبات الظروف والأحوال وإلا فصدقه مرة أو مرتين لا يؤهله للاتصاف بالمعنى المطلق لفضيلة «الصدق والصادق».

«وهكذا القول في الكرَم والشجاعة وباقي الفضائل، فلا يتسنى للمرء الاتصاف بها إلا بالثبات عليها. فالثبات إذن عقد الواسطة للهيئات المتوسطة من كل فضيلة، أو رذيلة ولا يمكن الاتصاف بأحدهما إلا بالثبات.

وهذا زهير بن أبي سلمى يقول:

من يأت يوما على علاته هرما   يلقى السماحة منه والندى خلقا

قال: «وقد سمعت حكاية يعزونها للجنيد وهي: ـ أن رجلا كان ديدنه السرقة وقد قطعت يده في الأولى ثم قطعت الثانية في السرقة الثانية، فثابر على فعل السرقة برجله فقطعت! فثابر فقطعت رجله الثانية! فسرق بلسانه فقطع! إلى أن استحق القتل، فصلب! فمر عليه «الجنيد» فقبل جسده فقيل له «تقبل جسد لص مصلوب؟ ـ قال إنما أفعل ذلك لثباته!. فسواء صحت هذه الحكاية أو الأسطورة أو لم تصح، ففيها ما يدل على معقول «فضيلة الثبات» من حيث هي.

«وما أعلاه قدرا وأجلّه فضلا إذا كان الثبات على ما يحسبه البشر ـ فضيلة ـ وكان في الحقيقة من الأنواع النافعة للإنسانية التي يحصل بها تخفيف الآلام الكثيرة في هذه الحياة القصيرة بالمعاونة والمساواة والإخاء الطيني ـ الذي سترجع إليه كل هذه الهياكل البشرية عودا كما بدأها خالقها ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩].

ثم قال: لو أخذنا ذلك اللص (الذي أفضى به الثبات على السرقة إلى القتل بعد قطع أهم أعضائه وأوصاله) طفلا وتعاهدناه على ما سبق بيانه وهذبنا حيوانيته بالعلم الصحيح والوسط الصالح والمثال الحسن وفيه ما فيه من ذلك الاستعداد الفطري للثبات، فأي عظيم من رجال الفضيلة كان يضارعه أو يفوقه؟ مثلا لو تعلّم الفنون الحربية مع فطرة ذلك الثبات، أفما كان يكون عند أصحاب التيجان من أكبر قواد الكتائب وأفرس الفرسان؟

«نعم ـ ولكان من أكبر القتلة المبجلين المحترمين! ـ لأنه لا ينقص عند أهل النظر من يعرف فن الحرب قولا إلا الثبات في موطنه. فالهزيمة والغلبة، لا تتم إلا بفرار الجبان من فرد أو جيش أو بالثبات منهما لبضع دقائق.

«أما القول في الشرقي إنه لا يصبر ولا يثبت اليوم تجاه أقل مقاومة.ولا يحتمل أدنى صعوبة فهذا لا يحتاج إلى برهان؛ إذ حالة الشرق وأهله وما نراه في ممالكهم من الرزايا والنوائب أعظم دليل، قام بنفسه عليهم في معترك هذه الحياة، والتنازع فيه على الفناء»!

* * *

تنازع الفناء
ودليل توحش الإنسان
ونتيجة العلم الصحيح

قال جمال الدين أكثر من مرة «تنازع الفناء».

فقيل له: إنما يريد الأستاذ أن يقول «تنازع البقاء»؟

قال «كلا! بل تنازع الفناء؛ لأن البقاء الذي لا يعتريه فناء، ليس فيه تنازع ولا نزاع. وكل ما نراه من حيوان أو نبات أو جماد فهم يسيرون في كل ثانية نحو الفناء ولو بتبدل الشكل وفنائه بالتحول. والتنازع الذي نراه قائما بين الحيوان والنبات، إنما هو على أشياء تفنى في النتيجة. وطالما المنتزع والمنازع والمنزوع منه سواء في المصير إلى الفناء، فكان الأصح أن يقال «تنازع الفناء»!

قلنا: وهل اصطلاح العالم المتمدن على هذا التعبير خطأ لهذه الدرجة حتى يستبدل، ويضع لفظة «البقاء» مكان «الفناء»؟

قال: ما تعنون بالتمدن، أو العالم المتمدن؟

قلنا: الرقي النسبي بالمكتسبات العلمية والمادية. فأمة الإنجليز مثلا والفرنسيس والألمان والأمريكان ومن ماثلهم من الأمم هم مدنيون، متمدنون بأفرادهم ومجموعهم.

قال: «لا يقدّر الفرد ولا تقدر الأمة ولا تقدر الأشياء ولا تقدر المكتسبات العلمية إلا بنسبة ما ترتب على ذلك من الفائدة.

«فلنأخذ من ذكرتم من الأمم المتمدنة ومكتسباتهم العلمية وما صنعوه وعملوه

وكسبوه وربحوه وما ترتب على ذلك وما حصل من المنافع والفوائد للبشر من وراء تلك المكتسبات والمدنية والثروة ـ ثم نعدد ما رأينا. هل رأينا غير مدن كبيرة وأبنية شامخة وقصور مزخرفة ومعامل ينسج ويصنع فيها القطن والحرير بأصباغ كيماوية مختلفة ألوانها ومعادن ومناجم واحتكار تجارات أتت لهم بثروات وكنوز؟! ثم هل غير التفنن باختراع المدافع المريعة والمدمرات والقذائف وباقي المخربات القاتلات للإنسان، تتبارى تلك الأمم الراقية المتمدنة اليوم؟!

«ثم لو جمعنا كل ما في ذلك من المكتسبات العلمية وما في مدنية تلك الأمم من خير وضاعفناه أضعافًا مضاعفة ووضعناه في كفة ميزان، ووضعنا في الأخرى الحروب وويلاتها. لا شك أن كفة المكتسبات العلمية والمدنية والتمدن هي التي تنحط وتغور، وكافة الحروب وويلاتها هي التي تعلو وتفور. فالرقي والعلم والتمدن على ذلك النحو وفي تلك النتيجة إن هو إلا جهل محض وهمجية صرفة وغاية التوحش؟!

قال: «وعندي أن الإنسان اليوم هو أحط درجة من إنسان الجاهلية حتى ومن الحيوان الناهق؛ لأنه ربما يكون للإنسان في دوره الأول ـ في حروبه الوحشية وعوامل الجاهلية ـ معذرة في طلب الحاجيات للحياة بسهم وقوس وسيف وسمهري. وقلما تفعل تلك المعدات في قتل النفوس، إذا قيست بما لدينا اليوم من المدمرات والأسباب المهلكات وباقي المعدات. نعم لدينا كل ذلك نعده ونستعمله ليس للحاجيات بل لأدنى صور الكماليات. «أما كون الإنسان أحط من الحيوان الناهق ـ لعدم استفادته من حقيقة العلم، أو العلم الحقيقي ـ فأعظم أدلته «الحروب؟!». خذ أدهش الحيوانات المفترسة وأسم الحشرات القتّالة فلا تري بين تلك الأنواع ما تشاهده من حين لآخر، ما بين «الإنسان!». هل رأيت أو سمعت أن ثلاثمائة ألف أفعى! وقفت تجاهها مثلها وتقلبت بينهم الأنياب واقتتلوا، أو قتل بعضهم بعضا؟ أو العقارب؟

أو هل وقفت الأسود صفوفا وتناهشت لحوم بعضها بعضا، وسالت دماؤها؟ أو الحمير، فعلت مثل ذلك؟ كلا ثم كلا!

«إذن، فالإنسان في مدنيته الحاضرة وفي مكتسباته العلمية والأدبية والعملية

وفي بذل ثمرات سعيه في سبيل الحروب أو استثمار ثروته منها وفي مرضاة موقدها ـ أو رضائه عنها ووقوفه فيها تلك المواقف التي لا تقفها الحيوانات ولا الحشرات فهو أحط منهما ـ وليس ثمة مدنية ولا علم بل جهل وتوحش.

ثم قال: «قرأت في القرآن أمرا تغلغلت في فهمه روحي وتنبهت إليه بكليتي وهو: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ..﴾ [البقرة: ٣٠]. فاندهشت الملائكة لهذا النبأ ولهذه المشيئة الربانية، إذ علمت أن ذلك الخليفة، سيكون الإنسان وأن ذلك الإنسان الخليفة ـ سيصدر منه موبقات وسيئات أعظمها وأهمها أنه «يسفك الدماء». فقالت بملء الحرية، المتناسبة مع الملأ الأعلى وعالم الأنوار والأرواح، الذي لا يصح أن يكون هناك شيء من رياء ونفاق: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ..﴾ [البقرة: ٣٠]. ووقفت الملائكة عند هذا الحد من الطعن في الإنسان ولم تذكر باقي السيئات من أعماله ـ إذ رأتها لغوا بالنسبة لهذين الوصمين ـ الفساد وسفك الدماء! ـ لذلك برزت بهما حجة واتخذتهما برهانا على إعظام جعل الإنسان «خليفة» وفيه ذلك الاستعداد للعمل بالرذيلتين.

«وهنا أول ما يتبادر للذهن أن قول الملائكة هذا أتى اعتراضا على المشيئة الربانية وفيه من عدم التأدب مع الله ما فيه ـ وهم أولى الخلائق بالتأديب ومعرفة عظمة الخالق ـ وقد جاء في حقهم أنهم﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. ومتى صح هذا ـ كان الأقرب للصواب أن الملائكة أرادت أن تعلم ما أعده الله لصون الإنسان (وقد جعله خليفة له في الأرض) عن الفساد وسفك الدماء؟ يدلنا على ذلك قوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة: ٣٣]. وبأبسط المعاني أن الله تعالى أفهم الملائكة ـ أنكم علمتم ما في خليفتي في الأرض وهو الإنسان من الاستعداد لعمل الفساد وسفك الدماء وجهلتم ما أعددته لصونه وصرفه عن الإتيان بالنقيصتين المذكورتين ـ ألا وهو «العلم»، فقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم

بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٣١ـ٣٣].

«فلا تثريب على من يقول إن الله أراد بهذا أن يقول للملائكة: أيتها الملائكة إنني قد علَّمت آدم ـ خليفتي في الأرض ـ علما جهلتموه أنتم وأن بذلك العلم يصان الإنسان، ويكف عن الفساد وسفك الدماء، فلا يحدث من خليفتي ما خشيتموه وأعظمتم أمره (وذلك الصون للإنسان حصره بالعلم؟). وجاء في القرآن تعظيم قدر العلم الصحيح (لا ما نراه من القشور فنسميه علما) بمثل قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، ومثل ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. فترى حكم المساواة في القرآن قد جاء عاما بين الناس ـ إلا في هاتين الآيتين ـ إذ منع في الأولى (المساواة بين العالم والجاهل) وفي الثانية (أن يكون غير العالم عاقلا).

«فمما تقدم يفهم أن العلم الصحيح الذي للآدمي أن يصل إليه هو العلم الذي به ينتهي الإنسان عن الفساد في الأرض وسفك الدماء. والعلم الذي لا يصون الإنسان عن هذين النقصين ليس هو بالعلم الذي تعلمه آدم، ليدحض حجة الملائكة على أنه سيفسد ويسفك الدماء، بل هو يناقضه ويشهد على ذلك النقيض ما نشاهده اليوم في أوروبا والعالم المتمدن مما جعل رقيهم النسبي في المكتسبات العلمية نقيضا للبرهان!

ولا بد أن يصل العالم الإنساني إلى درجة من حقيقة العلم يمتنع بها عن إراقة دماء بعضهم بعضا ـ وليس بين القاتل والمقتول لا نزاع ولا خصام حتى ولا تعارف بالوجوه، بغير صفوف القتال ـ يساقون للمزاجر لإرادة ملك، مسرف مغرور، أو تهويل أفراد يقبضون على زمام الأحكام ويسوقون الخلق للقتل كالأنعام يغتنمون فرصة الحرب ليكتنزوا من ورائها الذهب والفضة.

ثم قال: «إن الإنسان لتعروه الدهشة عندما يرى أفراد الأمة يسوق بعضهم بعضا للثكنات، فصفوف القتال ـ وجلهّم غير راض عنها بل نافر منها ـ إذ يعلم أن من ورائها يتم الأطفال، وموت الشيوخ وهتك الأعراض. يهولون عليهم ويستهوونهم باسم «الوطن». والوطن بقاع من الأرض ـ ولو أنصف الناس بعضهم بعضا لوسعتهم ـ وما فضل الأرض إلا أنها تتحمل أثقال البشر يمرحون فوقها ويقتتلون

عليها وهم لها في الأخير تاركون، وإلى جوفها داخلون، فما أحرى بالإنسان أن يعيش مع أخيه فوق أديمها ـ وهو رفات العباد ـ بصحيح الإخاء وشيء من الهناء، ريثما يدرك الجميع الفناء.

«ومما يزيد في الدهشة والحيرة، أن الحروب وويلاتها لا يحتاج في توقيفها وإبطالها إلا توقف الأمة عن إجابة الداعي إليها وطلب الرجوع إلى العدل المطلق مع تحكيم الإنصاف المحض، فإذا فعلت ذلك كل أمة (ولو أهاجها ملكها أو هوّل عليها أميرها، أو وزراؤها، ورؤساؤها) فبمن يقاتلون؟ والأمة محجمة عن الحرب، لا ترضى بالقتال وتطلب تحكيم العقل والعدل، وهل يرى المسيطرون غير ترك الطمع مخرجا من ذلك الموقف الحرج؟ وهل يستطيعون غير ترك الضعفاء يأخذون حقهم بقوة الحق ـ بلى ـ لا ينقذهم غير ذلك.

«نعم إن عدم إجابة الأمم لداعي الحرب واتفاقها على تحكيم العقل والعدل فيما فيه يختلفون، هو الذي يكفي البشر شر الحروب والقتال ويجعل الخلق في سلام دائم وهناء مقيم.

«هناك يصح أن يقال: إن البشر أو بني آدم قد تعلموا وحصل لهم مكتسبات علمية، أو على اصطلاحكم «تمدنوا!» ليس بمعنى أنهم تركوا القفر وعمروا المدن وسكنوها ـ كلا ـ بل بصحيح العلم الذي إنما يكون له قدر على نسبة ما يترتب عليه من الفائدة».

ثم قال: «وأعظم ما يبعث على الأمل في إبطال الحروب إذا ارتقى العالم الإنساني في حقيقة العلم وعم طبقاته، أنك لو أخذت اليوم عموم عساكر بريطانيا وتخيلتهم حقيقة مثل «نيوتون» و«دروين» وغيرهما وفرنسا مثل «باستور» وأمثالهم من باقي الأمم، فهل يقفون صفوفا للاقتتال، لعدم احترام سفير؛ لأن كرسيه وضع في المأدبة الملوكية في غير الموضع الذي يريده! وهل يريقون دماء مئات الألوف من تلك الأنفس الزكية لذلك، أو لأجل بقعة من الأرض يطمعون بضمها للمملكة أو ليستعمرونها.

قال: «لا أظن! ولا تظنون ذلك! ولا هم يفعلون!».

دعوة الإسلام

الدين والحقائق العلميَّة

قيل لجمال الدين بعد أن انتهى من إفاضته في بحث الحروب ولزوم إبطالها على نحو ما سبق: إذن ما معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦٠].. وآية السيف التي نسخت ثلث القرآن تقريبا؟ والأمر الصريح في الجهاد؟

قال: «هنا فرق عظيم بين ما نراه من الحروب اليوم، وبين الجهاد في سبيل الدعوة الدينية والقصد منها إرجاع الخلق إلى الحق، ذلك الجهاد الذي ما عمل به الإسلام فورا واعتباطا من غير تدريج.

«جاء محمد ﷺ بالإسلام والقرآن بعد أن تقدمه موسى عليه السلام بالتوراة، وعيسى عليه السلام بالإنجيل. فلم يمض على بني إسرائيل دهر طويل بعد موسى حتى تلاعب الكهنة والكتبة والفريسيون بأحكام التوراة وبكثير من أساسات الناموس الموسوي، فجاء عيسى مصلحا ما اختل ومداويا ما اعتل ومتمما لما أنقص من ذلك الناموس وأدلى بالإنجيل وفيه وفي التواراة «الهُدى» وما يلزم للخلق من الإرشاد! ولكن لم يمض كذلك حين من الدهر حتى ظهرت الاضطرابات الدينية والفرق ـ من صابئة ويعقوبية وغيرهما ـ وساء الكثير من الناس فهم أقوال المسيح الروحانية العالية والتصوفية المحضة.

«وظهر في العرب ما هو أشد وطأة إذ استفحل بينهم أمر عبادة الأوثان، وطمت الضلالة والغواية وعمت الأعمال البربرية عموم القبائل العربية حتى لم يستثن منها

فريق ولا قبيل. تلك الأعمال التي تقشعر منها الأبدان كوأد ـ دفن ـ البنات أحياء وما أشبهه ـ وباقي الضلالات من العبادات وتعدد الآلهة من هبل أكبر وعزّى واللات ومناة وغير ذلك. فجاء محمد ﷺ رسولا مصدقا لصحيح التوراة والإنجيل، داعيا إلى الله وتوحيده، مرشدا للخير أمينا بشريعة سمحاء تكفلت لعموم الخلق بكل سعادة، مادية، ومعنوية، مقبحا للشرك بالإله والمشركين به مظهرا بطلان ما يعبدونه من دون الله ـ بقرآن معجز وحجج بالغة ـ مثل قوله: ﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ .. ﴾ [الرعد: ١٦].

ثم قال: «أما آية السيف فقد قلتم إنها نسخت على وجه التقريب (ثلث القرآن) وهذا الثلث إنما كان كله لطف ويسر وأمر بالمعروف ودعوة إلى وحدانية الله بالحكمة والموعظة الحسنة ومباهلة وتحدٍ وجدال بالتي هي أحسن ـ ينطوي تحت كل هذا مطلب واحد ـ وهو توحيد الله وعبادته وترك عبادة الأوثان، وقبول الهداية واستئصال الضلالة. حتى إذا ما ذهب كل ذلك اللين واللطف والدعوة بالحكمة والمواعظ الحسنة عبثا ـ في سبيل قبول الهداية ـ وفيه نفع شامل. وبرز المخالف مصرا على الضلالة، مقاوما ـ وفي ذلك ضرر عام للمجموع ـ عند ذلك وقف الإسلام في وجه المشركين من العرب وأنذرهم بأنه لا يقبل منهم إلا «الإيمان» بالله وحده وتحطيم «الأوثان». وما أشد ما لاقاه محمد ﷺ ومن آمن به ـ من كفّار قريش ومن عشيرته ومن عموم العرب ـ من أنواع الاضطهاد والاستهزاء والعذاب ـ مما يطول شرحه وما هو معلوم عند العموم.

«أما أهل الكتاب ـ وهم الموسويون والعيسويون ـ فقد خيرهم الإسلام أحد أمرين: إما الاشتراك بأداء الجزية وفيه صلاح الأمر الدنيوي للكافة ـ والمقصد الأعلى من هذا ـ صون النفوس وعدم سفك الدماء بقليل من مال يؤخذ فيصرف في المنافع والمصالح وفي تعزيز قوة المجموع ـ وكذلك يدخل به مع القوم إلى ساحة مساواة حقيقية ـ له ما لهم وعليه ما عليهم ـ ولا إكراه عليه في دينه بل يكون مصانا

في شعائره وأصول عباداته وعاداته من كل أذى، وإما أن يختار الإسلام فيشارك القوم في العاجل من دنياهم وسلطانهم وفي كل ما حوته أخراهم من نعيم مقيم وجنات تجري من تحتها الأنهار.

«والغرض الأسمى في الحالتين ـ كما ترى هو عدم سفك الدماء ووقاية ذلك البناء الإلهي من الهدم جذافا ـ بل تجسم فيه طلب الهداية لعبادة إله واحد وتأسيس العدالة وتوزيع الحق بمطلق المعنى. لذلك ترى أن كل مصر، أو قطر دان بالإسلام، أو دخل في حوزته خيَّم فوق ربوعه السلام ورتع أهله في بحبوحة من العدل المطلق وساد فيه الأمن والأمان وحصلت المساواة على أصح وجوهها ونمت الخيرات بينهم وفاضت البركات ـ باعتراف كل منصف غربي مثل اللورد (اسبنسر) و(كارليل) وغيرهما ـ ممن قالوا الحق ونطقوا بالصدق. وهذا كله لا يشبه بصورة من الصور حروب أهل المدنية الغربية الحاضرة التي يشب ضرامها لتوسيع نطاق البلاد بالإلحاق أو بالاستعمار وبالنتيجة استعباد العباد تحت تلك الوسائل.

«ويتوهم الكثير ممن لا وقوف لهم على الحقائق ـ أو من يكابر بالمحسوس ـ أن انتشار الدين الإسلامي فيما انتشر فيه من الأمصار والأقطار إنما تم بعامل القهر والسيف وسطوة الجيوش! ولكن إذا نظرنا إلى الحقيقة بعين الإنصاف رأينا أن من ظهور الإسلام في مكة إلى الهجرة للمدينة «يثرب» إلى أن عم الإسلام جزيرة العرب بأسرها ـ لم يحصل بغير غزوات معدودة وسريات محدودة ـ بطش الإسلام بها في الكفَّار من قريش كوقعة بدر وأحد وحنَين فذلت أشد القبائل العربية ودانت بالإسلام وعم الفتح باقي الجزيرة وتناول اليمن بدون قتال بل بالدعوة والإرشاد فقط.

«ثم إذا أخذنا ما تجمع للخليفة الأول أبي بكر، وللخليفة الثاني عمر الفاروق ـ رضي الله عنهم ـ من الجيوش وما بعثوه من المجاهدين ـ وعلمنا أن مجموع الجيوش الإسلامية في العهدين لم يتجاوز الأربعين ألفا وقسنا ما دخل من الممالك في حوزة المسلمين ومن دان بالإسلام، من قطر الشام وفلسطين فحلب فالعراقين، فمصر وممالك الفرس وغيرهم إلى جدران الصين، تبيّن وتحقق لنا أن عمل الجهاد بالسيف لم يكن ليذكر في جانب الدعوة بالحكمة والأخذ بالعدل المطلق والمثال الحسن، والقدوة الصالحة وما فتح من البلدان والأمصار صلحا أكثر بكثير مما فتح عنوة وحربا. وأما قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ..﴾

[الأنفال: ٦٠]. . . ليس لسفك الدماء كما يظهر من صريح الآية بنهايتها حيث قال: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فالأمر بإعداد تلك القوة لم يكن ليقصد منها إلا «الإرهاب» فقط؛ ليتقي بها سفك الدماء وليخشاها طلاب الحروب ويمنع قتل النفوس. فتوفير العدد والعَدد وإرصاد القوة على مطلق المعنى إذا كان القصد منه «الإرهاب» وليس سَفك الدماء كما هو الظاهر والواقع ـ فهي أفعل الوسائل لمنع الحروب.

فـ«مولتيكي» قائد الألمان قال ما معناه: (أبطال الحرب لإبطال الحرب). والقرآن جاء بذات المعنى قبله بألف وثلاثمائة عام بدليل ما مر من حصر القوة بمطلق معناها للإرهاب فقط.

«فالقرآن وتعاليمه، ودين الإسلام ومن دان به والسيرة المحمدية ومن عمل واقتدى بها من الأصحاب، لو أمكن للناس أن يعملوا بها، لتوفرت لديهم السعادة وأنواع الخير ولخف عنهم كثير من الويل والشر. أقول هذا ـ وعزة الحق! ـ وأنا غير متحيز ولا منتصر للإسلام عن غير هدى ولا يداخلني بمعتقدي هذا أدنى عامل من عوامل التعصب. لذلك أقول ثم أقول القرآن؟ القرآن! وإني لآسف إذ دفن المسلمون بين دفتيه «الكنوز» وطفقوا في فيافي الجهل يفتشون على الفقر المدقع! خالفوه في كل ما أمر وعملوا عكس ما قال ـ حتى كأنما القرآن أمرهم بالاختلاف وحذرهم من الائتلاف! وحثهم على انتقاضهم على أنفسهم وتشتت كلمتهم وأن لا يعتصموا بحبل الله جميعا، بل يتفرقوا ليفشلوا وتذهب ريحهم؟! أو كأنه قال: لا تتدبروا معاني القرآن لتفهموا وتعملوا بما يئول لخير دنياكم قبل أخراكم.

«وكيف لا أقول واأسفاه! وإذا نهض أحد لتفسير القرآن فلا أراه إلا يهيم بباء البسملة ويغوص! ولا يخرج من مخرج حرف صاد الصراط! حتى يهوي هو ومن يقرأ ذلك التفسير في هوة عدم الانتفاع بما اشتمل عليه القرآن من المنافع الدنيوية والأخروية مع استكماله الأمرين على أتم وجوههما. عم الجهل وتفشى الجمود في كثير من المتردّين برداء العلماء حتى تخرصوا على القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة ـ والقرآن بريء مما يقولون.

«أثبت العلم كروية الأرض ودورانها وثبات الشمس دائرة على محورها . فهذه الحقيقة مع ما يشابهها من الحقائق العلمية لا بد من أن تتوافق مع القرآن والقرآن يجب أن يُجلّ عن مخالفته للعلم الحقيقي، خصوصا في الكليات. فإذا لم نر في القرآن ما يوافق صريح العلم والكليات اكتفينا بما جاء فيه من الإشارة ورجعنا إلى التأويل إذ لا يمكن أن تأتي العلوم والمخترعات بالقرآن صريحة واضحة وهي في زمن التنزيل مجهولة من الخلق، كامنة في الخفاء لم تخرج لحيز الوجود.

«ولو جاء القرآن، وصرح بالسكة الحديدية! والبرق وما تفعله الكهربائية من الغرائب وغير ذلك ـ لضلّت الناس وأعرضت عنه وحسبته كذبا. لذلك نراه قد جاء بالإشارة إلى كل ما هو حادث اليوم وما هو ممكن أن يحدث في مستقبل الزمن، مع مراعاة عقول الخلق وتقريب الأشياء للأذهان عن طريق نظرهم وقابلية فهمهم».

* * *

تعاليم القرآن
وأصول الحكومة الشورية

قال جمال الدين:

«نعم إن تدبير الممالك وصونها من سلطان أو ملك يطغى بقوته بالحكمة وحسن الرأي وأصول الحكومة الشورية والمشاورة ودعوة الأمة للتداول ووظائف الملوك ومساوئهم وما يحدثونه إذا دخلوا بعساكرهم للمدن والقرى من المفاسد وإذلالهم أعزة القوم وصلاحية الملوك في إعلان الحرب بعد أخذ رأي الأمة وأصول مفاوضة الملوك مع دهاقين المملكة والأشكال النافعة من التجسس ومعرفة أحوال الممالك المجاورة وغيرها ـ كل ذلك مسطور في القرآن ـ في سورة النمل ـ بأصرح عبارة وبآيات وجيزة. وإليك البيان:

غضب سليمان عليه السلام على الهدهد إذ تفقده ولم يجده، فلما حضر قال: ﴿جِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] ـ (غير ملفق ولا مشوب بكذب كما تفعل أكثر الجواسيس مع الملوك والحكام! ـ ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] ـ دينهم ومعتقدهم ـ ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤]. فلم يتسرع سليمان بقبول نبأ الهدهد، بل قال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧]! ثم أعطاه كتابا ليوصله وأوصاه أن يترقب عن بعد ما يفعلون. فلما جاء الكتاب إلى «ملكة سبأ» جمعت فورا مجلس الأمة و﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢]؟ وبعد أن تداول مجلس الأمة ـ الوزراء اليوم مثلا ـ

واستخرجوا إحصاء من سجلاتهم بما عندهم من المعدات الحربية، أعلنوا للملكة وأنبئوها، أنه في إمكانهم محاربة سليمان بما توفر لديهم من القوة، إذا هي وافقت على إعلان الحرب: ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل: ٣٣].

فقالت ما معناه: «إن للحرب ويلات فلا ينبغي أن نتسرع بإعلانها بل نحاول درأها بما أمكن من التدابير والوسائل السلمية والتودد واللين إلى غير ذلك، عسى أن نتخلص ونخلص البلاد من رزايا دخول الملوك بعساكرهم وما يحدثه ذلك ـ ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] و: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥] وكأنها أسرت في نفسها قائلة: إذا قبلوا الهدية، علمت أن مطمع سليمان بالمال! وليس للإيمان بالله وتوحيده. فرد سليمان الهدية وتحفز لإخراج الملكة وقومها أذلة بالحرب وأراد أن يريها ما لديه من القوى وما تسخر له من رياح يمتطيها وتجري بأمره (طيارات مثلا) وسرعة نقل الأخبار والأشياء بأسرع من البرق (التلغراف اللاسلكي) مثلا.

«ووجدنا في ذلك القصص أن بتلك الواسطة التي توفرت لسليمان وبها نقل عرش «بلقيس» من «سبأ» إلى «القدس» قبل أن يرتد إليه طرفه جاءت صريحة بالعمل مبهمة عن الآلة العاملة ـ إذ لم يكن بالإمكان للقرآن أن يصرح بشكلها أو باسمها، لبعد ذلك عن الأذهان في ذلك الحين.

«وكذلك لو جاءنا القرآن بنقل الأخبار بالفضاء وشرح لنا ما فهمناه اليوم لما صدقنا ذلك لو لم نرَه (باللاسلكي). وهكذا العلم لا يعجز عن إحداث ما نظنه اليوم مستحيلا وإبرازه مرئيا ـ فالبشر في الهيكل الترابي قد تحدد له ما يستطيع عمله به وإنما في قوة روحه وبحبوحة عقله، لا ندري إلى أين يصل وأي المستحيلات اليوم لا يمكنه أن يجعلها ممكنة، فنراها بسيطة بعد أن كنا نعظم تخيلها. وفي قصة الهدهد إشارة دقيقة جدا وهي: عندما أراد سليمان استحضار عرش «بلقيس» استعرض ما عنده من وسائط النقل السريعة وأربابها واستبرزهم ما عندهم من ذلك: ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ [النمل: ٣٩].

فرأى السيد سليمان ذلك بطيئا فلم يرق له! فتقدم عند ذلك غيره و﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]. فعلمنا من تلك الإشارة، أو الصراحة أن واسطة نقل الأشياء بسرعة لا يتخيلها وهمنا اليوم، كانت علما مدونا بكتاب وله أرباب وذوو رسوخ فيه وتمكن وقدرة عليه على غير طريقة الأرواح التي يتم لهم بها خاصة التطور. وها علماء عصرنا اليوم قد انتبهت إلى عمل الروح واستخدامها بالتنويم المغناطيسي (اسبيرتيزم) و(هبنوتيزم)، هذا العلم إذا لم يتوقف البحث فيه بل سار متقدما بالتجارب والتمحيص لا يبعد أن يأتينا من المدهشات والغرائب، بما لم يكن بالحسبان بل ربما يحقق لنا ما سبق القرآن بالإشارة إليه كما ذكرنا.

«أما كروية الأرض وهي من الحقائق العلمية فقد أشار إليها القرآن بقوله ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ [النازعات: ٣٠]ـ والدحي ـ بلغة العرب (البيض) أو الشكل البيضي وهو الكروي أو الأقرب إليه. فهذه الإشارة تكفي لتتفق الحقيقة العلمية مع القرآن أو نرجع بالتأويل ليتفق القرآن مع الحقيقة العلمية لا أن يختلفا.

«وأما ثبات الشمس وأنها تدور على محورها ـ فقد أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: ٣٨] والجري والدوران، بمعنى واحد وكذلك المحور والمستقر، فلا تثريب على من يستنتج أن الشمس تجري على محور لها، هذا إذا كانت الحقيقة العلمية ما ذكرنا (من دوران الشمس على محورها) فالقرآن يكون قد أشار إليها وما خالفها. ووصل علماء الفلك بالبحث إلى أن الأرض والشمس، كانتا جرما واحدا ثم انفصلت الأرض «كرة» كما هي اليوم وكان السديم إلى آخره.

فإن تقرر هذا كحقيقة علمية، فإنا نرى في القرآن ما لا يخالفها ـ بقوله: ﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

«وإذا نظرنا مثلا في علم الثروة رأينا أن كثيرا من المتأخرين قد ادعوا وضع قواعده الكلية ونوه بذكر أفرادهم لبراعتهم بفن الثروة، ومن أعظم تلك القواعد وجوب جباية العشر وقت حصاده، وما ينطوي تحت ذلك من أموال يؤخذ عنها (رسوم) عند وجودها وأن من فوائد ذلك سهولة أداء الزراع ما عليه من الحق في

وقت الحصاد وإلخ. فنرى أن القرآن قد سبق أولئك العلماء في فن الثروة وجاء بتلك القاعدة بقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام: ١٤١]!

«وهكذا ترى في القرآن إما إشارات إلى كليات العلوم وقواعدها وإما بصراحة، وقد يطول الشرح في تتبعها كلها فاجتزأنا بهذا القليل عن الكثير وتركنا لطالب المزيد التتبع. ومما أشغل العلماء كيفية فناء العالم، والصورة التي يتسم بها فتتبعثر الأرض. وغاية ما وصلوا إليه أن الفناء الأرضي، وقيامتها إنما يتم باختلال النظام الشمسي وبالزلزال. وعلى هذا نرى القرآن قد أشار بل صرح بذلك بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج: ١] وبقوله ـ ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ١، ٢].

«أما الإشارة إلى اختلال النظام الشمسي فقد قال في بحث الساعة وعلاماتها: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف: ٤٧] أي خارجة عن محورها غير راضخة للنظام الشمسي وإذا ما حصل ذلك فلا شك يختلف ما عرف من الجهات اليوم فيصير الغرب شرقا والجنوب شمالا، وبذلك الخروج عن النظام الشمسي وما يحدثه من الزلزال العظيم لا شك تتبعثر أجزاء الأرض لبعدها عن المركز وتنسف الجبال نسفا وتتحول براكين هائلة وبالنتيجة تخرب الكرة الأرضية ويعمها الفناء بما فيها من حيوان وتقوم القيامة، والله أعلم.

* * *

تقدّم العرب
في العلوم والفنون!

قال جمال الدين: «أخذ المنصفون اليوم من علماء الغرب بالاعتراف للعرب ببعض الفضل بما سبقوا إليه ـ كالجبر ـ وهو من موضوعات العرب وواضعه «أبوالسمح». والجاذبية، والمركز [١] لم يكن المكتشف لهما (إسحق نيوتون) مع الاعتراف بفضل الرجل. وكذلك التحليل والتركيب [٢] واكتشاف الفوسفور [٣] واستحضاره واستحضار الأوكسجين من حجر المغنيسيا [٤] ووصفهم لغاز الأوكسجين والدلالة عليه بخاصته أنه غاز حساس، وكذلك الأيدروجين وخاصيته وأن الواحد منهما لحاسته يطفئ الأجسام الملتهبة ويصعد مرتفعا، والثاني يلهبها وهو أحط من الأول. وحامض الآزوت [٥] وحامض

(١) اكتشفها أبوبكر بن بشرون من الجيل الثالث للهجرة، وعرفها بقوله عند ذكر مركبات الكيمياء: «قوة حاسة قابضة منعكسة إلى المركز الأرض!!

(٢) وكذلك التحليل والتركيب من مكتشفات ابن بشرون من تلميذ أحمد بن مسلمة المجريطي الذي عاش في الجيل الثالث وذكر ذلك في رسالته لأبي السمح في الكيمياء الموجودة في مقدمة ابن خلدون تحت تعبير «الحل والعقد».

(٣) اكتشفه ابن بشرون كذلك في الجيل الثالث للهجرة، والمؤرخ الألماني «هفر» في كتابه تاريخ الكيمياء يقول صراحة إنه وجد في المكتبة الملوكية رسالة ترجمت إلى اللاتيني لبشير من علماء العرب الموجود قبل أعصر يعرف استحضار الفوسفور من الأدرار ويسميه «الياقوت الجمري الاصطناعي».

(٤) وهو من مكتشفات ابن بشرون وعرفه بخاصته في الرسالة المار ذكرها لأبي السمح وتعبيره عنها (بروح حساسة أي غاز).

(٥) حامض الآزوت وهو من مكتشفات جابر بن حيان الكوفي، ولم يستطع الغربيون إنكاره أو ادعاءهم اكتشافه. وجابر عاش في الجيل الثاني للهجرة وفي العصر الثامن للميلاد، يعني قبل ألف ومائة سنة تقريبا.

الكبريت[1]، والكبريتي وغيرها من عمادات مباحث الكيميا كل ذلك من مكتشفات العرب.

«وكان الأساتذة في علم الكيمياء للجيل الثالث للهجرة أحمد بن مسلمة المجريطي، وتلميذه ابن بشرون، وأبا السمح وقد تقدمهم مثل جابر بن حيان الحرّاني ومن بعدهم زكريا أبو بكر الرازي وغيرهم.

قيل لجمال الدين: إن المجريطي وتلميذه ابن بشرون وأبا السمح ورد ذكرهم في مقدمة ابن خلدون في بحث الكيمياء ـ فما رأي الأستاذ في هذه الصناعة؟

قال: «أما أحمد بن مسلمة المجريطي ـ وهو من انتهت إليه الرياسة في مختلف العلوم في الأندلس (في الجيل الثالث للهجرة وما بعده) فما كذب في قوله: «إن الكيمياء ثمرة الحكمة» وإنها «تتم بالصناعة» أي يتم عمل المعادن الخسيسة وترفيعها للذهب أو الفضة (صناعة). أقول هذا لا تقليدا للطغرائي، ولا لأني عانيت هذا الأمر أو أشير على أحد أن يعانيه أو يولع به، وليس ذلك لاستحالته كما يتوهمون بل لعدم توفر أسبابه العلمية والفنية وعدم وجود الأستاذ فيه ـ وشغف الخلق في معدن الذهب معلوم ـ الأمر الذي يذهب معه كل عقل ودربة. فيحاول المولع لاقتطاف ثمرة الحكمة بمحض الجهل، والتخبط بتجارب وأمور لا تثمر إلا الخيبة.

«أما براهين ابن خلدون في إنكاره على المجريطي وابن بشرون قولهما بصحة الكيمياء وموافقته لأستاذه ـ التلفيفي ـ وحكمهما باستحالة صحتها (الكيمياء) ـ لم يكن بالاستناد منهما إلى علم ـ بل جل برهان ابن خلدون وأستاذه أن رسالة ابن بشرون في الكيمياء من قبيل الألغاز، ومعانيها لا تكاد تبين!! مع أن الرسالة بكافة ألفاظها ومعانيها صناعية محضة، وفنية صرفة. وعلم الكيمياء له اصطلاحات

(١) اكتشفه أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المولود في مدينة (الري) في بلاد العجم سنة ٢٤٦ وتوفي سنة ٣٢٩ وعرف استحضاره وذكره في كتابه (الحاوي، في فن الكيمياء اسم (روح الزاج) وأنه بتقطير (زاج قبرس) التي هي (كبريتيت الحديد) يستحصل حامض الكبريت الذي هو أهم الحوامض وألزمها وأنفعها في الصنائع.

خاصة يفهمها من يعاني ويدرس ذلك العلم. ولما كانت الكيمياء ثمرة الحكمة والعلم كما صرح به المجريطي ـ كان فهم ما يكتب في شأنها عويصا ـ يحتاج إلى تحقيق في النظر وممارسة في العمل.

«ولم يدّع ابن خلدون أو أستاذه التلفيفي أنهما عانيا هذا الفن ولا هما فنّدا ما ورد في الرسالة عن طرق علمية أو أتيا بالحجج والبراهين. بل غاية ما قالاه كما سبق: «إن الرسالة لما كانت من قبيل الألغاز أو لا تكاد تبين فهي إذن لا تتم ـ يعني الكيمياء ـ إلا بالسحر أو بأرفاد مما فوق الطبيعة). مع أن الرسالة كما قدمنا صناعية وفنية صرفة تنطبق معانيها على فن الكيمياء الحديث ـ المأخوذ بدون شك عن جهابذة العرب ـ أولئك الأعلام الذين وصلوا من كل فن إلى الغاية منه خصوصا فيما نحن في صدده (الكيمياء). ولا بد أن يأتي زمن ـ إن دام الحال على هذا المنوال ـ من البحث والتنقيب، والتجربة، أن يتوصلوا إلى فهم حقائق هذا الفن الجليل واقتطاف ثمراته.

«قلنا إن علم الكيمياء قد أخذه الأوربيون عن العرب بشكل ناقص لغريب اصطلاحهم فيه والتزامهم التعمية بأكثر مباحثه؛ لأنه لم يكن قصدهم منه ترقية الصناعة وإيجاد الأصباغ والأجزاء الكيماوية على ما فعل الأوروبيون بعلم الكيمياء، بل كان غرضهم (العرب) عمل الذهب بالصناعة ومع كون أوروبا لم تعتن ولم تهتم إلا بقشور ذلك العلم وهي مقدمات لنتيجة ـ فقد قامت تلك القشور لدى الغربيين مقام تحويل المعادن الخسيسة إلى الذهب بدليل ما انتفعوا بها في شعبات الصنائع والتجارة.

«ثم إن ابن بشرون ـ في رسالته لأبي السمح ـ قد دل بإشارة وبتعبير خاص على المادة التي يمكن بها العمل ـ وهي ما يسمونه باصطلاحهم (الحجر الفلسفي أو المكرم أو حجر الحكمة) ـ وأنصف كل الإنصاف بقوله: «إن معرفة المادة وحدها لا تفي بالغرض المقصود ولا تثمر إذا لم يتمكن طالب ذلك العلم من معرفة عمادات تلك الصنعة ـ ومنها «التحليل والتركيب» ـ هذه الصراحة في أساس فن الكيمياء وجدت مسطرة في رسالة ابن بشرون العربي قبل الجيل الثالث للهجرة وبعده ـ وعلماء أوروبا يدعون بدون محاشاة أو مبالاة أن المعلم لافوازيه هو أول من تنبه فأثبت

التحليل والتركيب! نعم إن ابن بشرون لم يذكر بلسانه العربي لفظة «تحليل» و«تركيب» بل قال: «الحل» و«العقدة» ـ وهو الأصح فنا وفهما. ثم ذكر ابن بشرون بعد التحليل والتركيب ـ أو بعد الحل والعقد عمادا آخر ـ وهو «التقليب» ـ وفسره بقوله: تقليب الشيء من جوهره إلى جوهر غيره ارتقاء، قال: «فالتراب يستحيل نباتا والنبات حيوانا، وإن أرفع مواليد النبات أدنى طبقات الحيوان، سلسلة تنتهي عند الإنسان؛ إذ هو آخر الاستحالات الثلاثة ونهايتها إلخ».

«وقد ذكر في معرض التحليل والتركيب ـ أو الحل والعقدة ـ قائلا: إننا لو أخذنا مادة مركبة وحللناها ثم أعدنا تركيبها (وهو ما يسمى اليوم في علم الكيمياء الحديث «أصول سانتاز») يستحيل أن ترجع المادة إلى ما منه تركبت ـ لتبادل أجزائها الفردية واتحادها مع بعضها على القانون الفني ـ الذي كان بلا ريب معروفا عند علماء العرب. وقد صرح ابن بشرون أيضا بإمكان حصول جسم مستقيم معتدل بالتفاعل الكيماوي طبعا. وهذا هو المفهوم اليوم عند من درس مقدمات الكيمياء وعلم أن الأساس مثل «البوتاس» مثلا إذا تعامل مع حامض الأزوت فعلى التدريج تذهب خاصة الأساس وخاصة الحامض ويحصل هناك جسم معتدل ليس هو بالأساس ولا بالحامض ويسمونه «أزوتيت البوتاس» لا يؤثر على الترنسول ولا على ما هو أشد منه إحساسا.

«هذا نوع من أنواع ما يسميه علماء العرب الأقدمون «التقليب» فمن لم يدرس ذلك الفن، ويعلم أصوله يتوهم لا شك كما يتوهم بعض المغاربة الطوافون في الأرض، الذين يموهون على السذج من الخلق (بعلم الكيمياء) ويفهمونهم أن «التقليب» عبارة عن قص أوراق على شكل الدينار والدمدمة عليه! وحرق البخور والعزائم فتنقلب الورقة دينارا!! فأين هذا من أقوال ومقاصد ابن بشرون وأستاذه المجريطي اللذين وصلا بلا ريب إلى الغاية والثمرة المطلوبة من هذا الفن. ثم ذكر بعد التقليب عمادا آخر هو «التنشيف»! وهذا العماد غاية في الأهمية، ويكفي أنه لا يتم الأمر بدونه مع استكمال شروط العمادات الأخر. وقد ثبت في الفن الحاضر أن التنشيف أو التجفيف، على أنواع، فمن المواد ما يسمونها صابونية لا يمكن تنشيفها بالهواء ولا بالشمس ولا بالحرارة؛ لأنها لو وضعت على حرارة مهما كانت درجتها

خفيفة أو معتدلة أو شديدة (وهي تحت تماس الهواء) فلا تجف؛ لتواصل امتصاصها ما في الهواء من الماء. فلذلك يراجعون في معالجتها أنواعا كثيرة من أصول التجفيف، أو التنشيف. منها ما يضعونه في ناقوس من زجاج ضمنه حوض فيه حامض الكبريت الصرف وفوق الحوض أو الإناء تلك المادة التي يراد تنشيفها فتوضع على لوح من زجاج تطلى أطرافه بمادة لزجة يوضع عليها الناقوس لمنع الهواء من الخارج. وبتلك الطريقة يمتص حامض الكبريت ماء الهواء ورطوبته (لشدة حرصه) على الماء وبالتالي يمتص ما في المادة من ماء ورطوبة ـ فيحصل تجفيفها.

«والنوع الثاني للتجفيف ـ وهو وضع المادة تحت مخلية الهواء وتوالى استعمالها حتى تجف وتنشف ـ والنوع الأخير وهو لم يذكر فيما طالعته من كتب الكيمياء الحديثة وإنما وجدته في كتب القوم (أي علماء العرب) وكان ذكرهم له من قبيل الإشارة إذ قالوا بعد البحث فيما للحرارة والبرودة من تأثير ـ ذلك البحث الدقيق ـ بقولهم «مادة [1] حساسة» استحضارها يكون من برادة النحاس بعد إخراج سواده حتى يصير نحاسيا، ومعاملته بحامض الكبريت (الزاج) إلخ.

«ولا نرى هذا الوصف ينطبق على غير الحامض الكبريتي الذي يعمل بواسطته الثلج اليوم لشدة برودته بتبخره السريع. ثم ذكر من العمادات «التقنية» لمنع المادة من الفساد وتطهيرها من دنسها، وإخراج آفتها منها. وهذا معروف بالفن الحاضر «بالتطهير» ومواد التطهير كثيرة، منها الكحول الصرف، والأوكسجين (مولد الحموضة) وقد رجحوه على الكلور لحفظه المادة العضوية من غير تخريب، ويفيد بالتبييض أكثر من فائدة الكبريت أيضا.

ثم ذكر «التكليس» في عداد العمادات المهمة فمن التكليس ما يتم بالاحتراق تحت تضييق الهواء النسيمي ومنه ما يحصل بتفاعل الحوامض إلخ. فمن هذا كله نعلم أن علم الكيمياء لا يمكن الحصول عليه إلا بالتعلم الصحيح والنظر الدقيق

---

(١) كذلك في رسالة أبي بكر بن بشرون لأبي السمح في مقدمة ابن خلدون في (علم الكيمياء).

والتجارب المتمادية عند فقد الأستاذ، وبالإجمال فالكيمياء صنعة من أدق الصنائع وفن من أجلّ الفنون، ولا ريب أنه ثمرة العلم والحكمة (كما قالوا حقا).

«إن ابن مسلمة المجريطي وتلميذه أبا بكر بن بشرون قد صرحا بأن معرفة الحجر أو المادة التي يمكن العمل بها غير كاف وحده إذا لم تكن المعرفة تامة بتلك العمادات التي هي روح تلك الصناعة. وابن خلدون لم يدع ولم يقل إنه عثر على المادة وأتقن هذه العمادات «كما سبق القول» بحسب الأصول الفنية وأنه جربها على ما يتطلبه العلم ولم (ينجح) ليصح إذ ذاك إنكاره، ويكون قوله حجة على إبطالها وإخراجها من عداد الصناعات وإنها لا تتم إلا بالسحر أو بأرفاد بعالم مما فوق الطبيعة أو بالنفوس الخيِّرة أو الشريرة ـ وما كانت حجته على هذا القول إلا أنه وجد الرسالة من قبيل الألغاز كما مر ذكره وهكذا وافقه أستاذه التلفيفي وليس لهما من برهان غير أنهما وجدا معانيها «لا تكاد تبين»!! فيا ترى لو أخذ ابن خلدون أو أستاذه التلفيفي كتاب الكيمياء الحديث اليوم ورأى (ك١/ ٤) وأن ذلك معناه حامض الكبريت أو (ذي ٢ك) (أنه كبريت الزئبق). وهو لم يدرسه أو يعاني ذلك الفن أو يأخذه عن أهله بالتعلم لا شك كان ينكر ذلك ويقول إنه ليس بعلم، بل أحاجي وألغاز وأضاليل بحروف مقطعة وأرقام! أو كان يقول إنها من قبيل السحر لأنها لم تبن له واضحة ولا لأستاذه التلفيفي كما تظهر بسائط الأمور.

«ثم إن ابن خلدون قد صدّق بحالومية أحمد بن مسلمة المجريطي وهي: «طماغس بعد أن يسواد وغداس توفنا غادس»! وقال: إن تلك الكلمات والأسماء الأعجمية إذا تلاها الإنسان قبل النوم بعد رياضة وصدق توجه فإنه يرى بها ما يحب أن يراه مما تطوق نفسه لمعرفته. وقال ابن خلدون أيضا: «إنه رأى بها مراء غريبة كانت نفسه تتشوق للوقوف عليها» ـ وبالنتيجة ـ قد قال بصحتها «وأن التجربة قد أثبتتها إلخ». مع أن تلك «الحالومة» لا تنطبق على علم بأصول ولا على فن يحصل بالمزاولة والممارسة أو ما يقوم عليها برهان عقلي. من الغريب أن يصدق ابن خلدون مثل هذه الحالومية (وربما يكون تصديقه حقا) وينكر علما مثل الكيمياء الذي لم يقف على حقيقته أو يثبت وقوفه عليه ولم يعان أمره واصطلاحاته، مع اعترافه بأن

الكيمياء صناعة غريبة المنحي، بعيدة التناول عن جيل البداوة، مفتقرة إلى صحة النظر، والتدقيق في علوم من تقدم من اليونان القدماء والكلدانيين قبل جابر بن حيان الحرّاني. «ثم قال جمال الدين: هذا ما رآه ابن خلدون، وهذا ما ارتأيته في هذا المطلب. ولا يصح أن يرتاب المنصف بأن ابن خلدون من مفاخر الأمة، وأنه أغزر العلماء مادة وأدقهم نظرا وأصحهم قياسا وأنفاهم للخرافات عن الدين وأسرعهم أخذا بالمعقول وأكثرهم ردا للباطل من القول وأبعدهم عن التقيد بالمألوف عن غير علم بالفائدة ـ وبالإجمال ـ فالعالم عالة على فضل ابن خلدون في حكمة التاريخ إذ هو الواضع لها ولا منازع».

* * *

انسداد باب الاجتهاد؟!

عرف جمال الدين باستنكافه ونفوره من التقليد من غير تمحيص، فكان يأخذ بالأحسن من الأقوال، ويرد الضعيف منها ويجتهد للاستنباط للأولى ويتناول الأقرب للصواب وما يقبله العقل.

ذكروا يوما في مجلس جمال الدين، قولا للقاضي عياض واتخذوه حجة، واشتد تمسكهم بذلك القول حتى أنزلوه منزلة الوحي بأنه لا يأتيه الباطل لا من خلفه ولا من أمامه.

فقال جمال الدين: يا سبحان الله إن القاضي عياضًا قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله وتناوله فهمه وناسب زمانه، فهل لايحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه وأصح من قول القاضي عياض أو غيره من الأئمة؟ وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال أناس (هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من تقدمهم) قد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا وقالوا وأدلوا دلوهم في الدلاء في ذلك البحر المحيط من العلم وأتوا بما ناسب زمانهم وتقارب مع عقول جيلهم، وتتبدل الأحكام بتبدل الزمان.

فقيل: يفهم من قول الأستاذ أن القاضي عياضا أو من تقدمه من الأئمة، إذا قالوا قولا جاز لمن بعدهم أن يقول ما يترآى له سواء كان مخالفا أو موافقا، ولا يخفى أن مثل هذا القول يحتاج إلى الاجتهاد، وباب الاجتهاد عند أهل السنة مسدود؛ لتعذر شروطه.

فتنفس جمال الدين الصعداء وقال: ما معنى باب الاجتهاد مسدود؟! وبأي نص

سُدَّ باب الاجتهاد؟! أو أي إمام قال لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي أن يجتهد ليتفقه بالدين؟! أو أن يهتدي بهدي القرآن وصحيح الحديث أو أن يجدَّ ويجتهد لتوسيع مفهومه منهما والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجيات الزمان وأحكامه ؟! ولا ينافي جوهر النص.

« إن الله بعث رسولا بلسان قومه «العربي» ليفهمهم ما يريد إفهامهم، وليفهموا منه ما يقوله لهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وفي مكان آخر: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]. فالقرآن ما أنزل إلا ليفهم، ولكي يعمل الإنسان بعقله لتدبر معانيه وفهم أحكامه والمراد منها.

فمن كان عالما باللسان العربي وعاقلا غير مجنون وعارفا بسيرة السلف وما كان من طرق الإجماع وما كان من الأحكام مطبقا على النص مباشرة أو على وجه القياس وصحيح الحديث، جاز له النظر في أحكام القرآن وتمعنها والتدقيق فيها واستنباط الأحكام منها ومن صحيح الحديث والقياس.

ثم قال: «لا أرتاب بأنه لو فسح في أجل أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل وعاشوا إلى اليوم ـ لداموا مجدِّين مجتهدين يستنبطون لكل قضية حكما من القرآن والحديث، وكلما زاد تعمقهم وتمعنهم، ازدادوا فهما وتدقيقا. نعم أولئك الفحول من الأئمة ورجال الأمة اجتهدوا وأحسنوا (جزاهم الله عن الأمة خيرا) ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن أو تمكنوا من تدوينها في كتبهم والحقيقة أنهم مع ما وصلنا من علمهم الباهر وتحقيقهم واجتهادهم، إن هو بالنسبة إلى ما حواه القرآن من العلوم والحديث الصحيح من السنن والتوضيح إلا كقطرة من بحر أو ثانية من دهر، «والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده» وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

* * *

السنة والشيعة
ومطامع الملوك في جهل الأمة

قال جمال الدين : «ظهر لآل البيت النبوي في أوقات وأزمنة مختلفة أحزاب وشيع، فمنهم من ضل «كالمؤلهة» وهم من يقولون بألوهية على بن أبي طالب ومنهم «المفضلة» و «الغلاة» في محبة أهل البيت وقد دخل الاثنان تحت حكم من قال : «يهلك فينا أهل البيت اثنان : محب غال وعدو قال» [(١)].

«أما المفضلة من الشيعة وهم يقلدون في المذهب الإمام جعفر الصادق وهو من أكابر فقهاء أهل البيت، فهذا الجمهور من المسلمين لمجرد تقليدهم للإمام جعفر ومغالاتهم في حب الآل وتفضيلهم للإمام علي، لا يجب أن نخرجهم من عداد المسلمين ونجسم أمر هذه الفروق في الفروع ونجعلها واسطة للتفرقة وللنزاع فللخصام، فللاقتتال! تلك الأمور التي سهل وجودها جهل الأمة وسفه الملوك الطامعين في توسيع ممالكهم.

«فالملوك من السنيين هوّلوا وأعظموا أمر الشيعة لاستهواء العوام بأوهام غريبة وعزويات عجيبة على شيعة أهل البيت، ليتسنى لهم بذلك تحزيب الأحزاب وتجييش الجيوش؛ ليقتل المسلمون بعضهم بعضا (بحجة الشيعة والسنية) وجمعيهم يؤمنون بالقرآن وبرسالة محمد صلى الله عليه وعلى آله.

«أما مسألة تفضيل الإمام علي والانتصار له، فلو سلمنا أنه كان في ذلك الزمن

---

(١) «هلك فيَّ الاثنان : محب غالٍ ومبغض قالٍ» الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ

مفيدا أو ينتظر من ورائه نفعا لإحقاق حق أو إزهاق باطل، فاليوم نرى أن بقاء هذه النعرة والتمسك بهذه القضية، التي مضى أمرها وانقضى مع أمة قد خلت، ليس فيها إلا محض الضرر وتفكيك عرى الوحدة الإسلامية.

« ثم قال: لو أجمع أهل السنة اليوم ووافقوا المفضلة من الشيعة (من عرب وعجم) وأقرّوا وسلموا بأن على أبن أبي طالب كان أولى بتولي الخلافة قبل أبي بكر، فهل ترتقى بذلك العجم؟! أو تتحسن حال الشيعة؟! أو لو وافقت الشيعة أهل السنة، بأن أبا بكر تولى الخلافة قبل الإمام علي بحق، فهل ينهض ذلك بالمسلمين السنيين، وينشلهم مما وقعوا فيه اليوم من الذل والهوان وعدم حفظ الكيان؟! أما آن للمسلمين أن ينتبهوا من هذه الغفلة؟! ومن هذا الموت قبل الموت؟!

« يا قوم، وعزة الحق إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لا يرضى عن العجم ولا عن عموم أهل الشيعة، إذا هم قاتلوا أهل السنة أو افترقوا عنهم لمجرد تفضيله على أبي بكر وجميعهم لا يحسنون أمر دنياهم. «والناس أبناء ما يحسنون».

«وكذلك أبو بكر فلا يرضيه أن تدافع أهل السنة عنه وأن تقاتل الشيعة لأجل تلك الأفضلية التي مر زمنها والتي تخالف روح القرآن الآمر أن يكونوا كالبنيان المرصوص».

أما قضية التفضيل فلو استحقت البحث بعد تلك الأجيال، لكفى أن يقال لحل إشكالها: إن أقصر الخلفاء الراشدين عُمرا تولى الخلافة قبل أطوالهم عمرا. فلو تولى الخلافة بعد النبي ﷺ علي بن أبي طالب، لمات أبو بكر وعمر وعثمان ولم يتيسر لهم خدمة الإسلام والمسلمين، بما استطاعوا أن يخدموه به (رضوان الله عليهم أجمعين). حكمة الله في خلقه، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. [١]

(١) يقول الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ: «... وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماما، كان ذلك لله رضًى» نهج البلاغة.

مذهب النشوء والارتقاء !

سئل جمال الدين عن البيت المشهور لأبي العلاء المعري :

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

هل يقصد المعرّي في هذا البيت من الشعر ارتقاء الحيوان من الجماد؟ويوافق مذهب داروين في النشوء والارتقاء؟ ذلك المذهب الحديث الذي أوجده «داروين» وأقام علماء الأرض وأقعدهم؟ أم قصد المعرّي معنى آخر وتماس اتفاقا أو عرضا مع أهل مذهب النشوء والارتقاء؟

قال : «لا أغالي ولا أبالغ إذا قلت ليس على سطح الأرض شيء جديد بالجوهر والأصول. تبتكر في الكون محدثات وتحدث أمور وتقرر علوم يؤخذ ويعمل بها أجيالا ، ثم تطرأ عوامل مختلفة، تندثر بها تلك المحدثات وتجهل تلك العلوم ؛ إذ يحجبها الخفاء وتحفظ أحيانا بعض رفات آثارها (طبقات الأرض) ـ وكذلك ما يحدث من عظائم الأمور ـ قد تذهب مع جيلها وربما يبقى شيء من أثرها في خرائب أهلها . وهكذا القول فيما يزهو وما يتمحص ويتقرر من العلوم عند أجيال مضت ، قد تموت مع أربابها أو تمحى بمحو ما أودعت فيه من الكتب والأسفار.

«فالسعيد من الخلف من يعثر على أثر من آثار السلف فينتبه بكليته إليه ويعمل على بعثه من موته ، إما بإخراجه من الخرائب ، وإما بنقب طبقات الأرض ، وإما بمناجاة أرواح قائليه وفاعليه . . وهكذا يعيد الإنسان الكرة على قديم مبتكرات الأسلاف من المحدثات والأمور العظيمة والعلوم والفنون الغريبة (عندنا اليوم)،

وذلك بسوق غريب وعوامل عجيبة، تعمل في عقل الإنسان في سائر الأزمان. بينما الإنسان اليوم سائر في البحث والتجربة، يقصد أمرا فإذا هو (عرضا) يعثر على نتائج لم تكن بحسبانه فينشط لها عقله ويصرف إليها همته، ولا يزال يكد ويجرب ويجدّ حتى يتيسر له وضع أساس الاكتشاف أو الاختراع أو تقرير قواعد كلية، لعلم، أو لفن.

« أما مقصد أبي العلاء فظاهر، ليس فيه خفاء ـ فهو يقصد بالنشوء والارتقاء ـ أخذا بما قاله علماء العرب قبله بهذا المذهب وقد مر ذكره ولا بأس من إعادته : إذ قال أبو بكر بن بشرون في رسالته لأبي السمح عرضا في بحث الكيمياء (إن التراب يستحيل نباتا، والنبات يستحيل حيوانا، وإن أرفع المواليد هو الإنسان «الحيوان» وهو آخر الاستحالات الثلاثة وأرفعها. وإن أرفع مواليد التراب (ومنه المعادن) النبات ـ وهي أدنى طبقات الحيوان ـ سلسلة تنتهي عند الإنسان إلخ. فإذا كان بناء مذهب النشوء والارتقاء على هذا الأساس فالسابق فيه علماء العرب وليس «داروين» مع الاعتراف بفضل الرجل وثباته وصبره على تتبعاته وخدمته «للتاريخ الطبيعي» من أكثر وجوهه وإن خالفته وخالفت أنصاره في مسألة «نسمة الحياة» التي أوجدها الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ لا على سبيل الارتقاء من سعدان فالإنسان أو من الزوابع المائية ! أو أن «البرغوث» سيكون بعد ألوف أو ملايين من السنين، فيلا عظيما ! لأننا نرى اليوم في البرغوث ما يشبه خرطوم الفيل! وغير ذلك من المباحث التي دونتها في رسالة «نفي مذهب الدهريين» ردا على داروين وأشياعه وأرى إغراقا في نسبة الإبداع والابتكار للنشوء والارتقاء والانتخاب الطبيعي له.

« ولو قال بذلك مثل «بخنر» و «هكسلي» و «اسبنسر» وغيرهم من علماء الغرب ممن لو جاز ترك مناقشتهم فلا يسعني أن أمر على ذكر حكيم شرقي انخرط مع من ذكرت من العلماء ممن أيدوا مذهب «داروين» وأخذوا بناصره وهجموا على مألوف الشرقيين بقواعد ذلك المذهب، فمن حيث الجهر بمعتقد يعتقده الإنسان أنه اعتقاد صحيح ولو خالف الجمهور، فالدكتور شميل له في نشر مذهب «داروين» وتحمله أعباء المكفرين له (عن غير علم وتحقيق) يعدّ لشميل فضل ولكن لا أرى الدكتور شبلي قد تخلص من جرأته الأدبية وبعض رسوخه في الفلسفة من وصمة التقليد

الأعمى لعلماء الغرب ـ وبمعنى أوضح ـ إنه أراد أن ينتصر لداروين وأن ينشر مذهبه رغم أهل الأديان وفي ذات الوقت عارض أستاذه وصاحب المذهب المنتصر له. إذ لا يخفى أن القصد من مذهب الماديين الوصول إلى أن الإنسان تدرج من الحيوان وأعظم دليل لهم ما يرى في السعدان والقرود وأعلى أنواعه «الأورانغ أوطان» من الذكاء والحركات وتركيب الأعضاء.

« ثم إنهم نظروا في أجنة ذوات الفقر ومنها ـ الإنسان ـ فرأوه يمر نموه بدرجات الحيوانات التي دونه حتى الأحفورية أو السابقة لها إلخ. ولكي يتوصلوا إلى جحود الإنسان بتقويمه الحسن هذا، رأيناهم يركضون وراء الأحافير ويغوصون في طبقات الأرض وإمامهم في مذهب النشوء والارتقاء هو «داروين» بلا شك وهذا الحكيم لما وصل إلى النقطة الجوهرية وهي (موجد نسمة الحياة) فلم يسعه إلا أن قال: « إن الخالق هو الذي نفخ نسمة الحياة في الأحياء» وهذا قوله بالنص الواحد: «إني أرى أن الأحياء التي عاشت على هذه الأرض جميعها من صورة واحدة أولية نفخ الخالق فيها نسمة الحياة !! » اهـ.

« إن قول «داروين» هذا، ينفي ظهور الحياة على سبيل طبيعي ولكنه لم يرق لعلماء الطبيعة الماديين وأنكروا على «داروين» هذا القول واتهموه بالخوف من أهل دينه وقالوا إن قوله هذا يجعل المذهب ناقصا بل ينقضه من أساسه لأن الغاية كما ذكرنا من مذهب الطبيعيين «إنكار الخالق» وإسناد الأعمال إلى الطبيعة. هذا مقام الحيرة لمريدي مذهب «داروين» فإما أن يكون إمام مذهبهم «داروين» قال قوله السابق عن علم وتحقيق وفيه كما قالوا نقض لأساس المذهب، وإما أن يكون الخوف الذي اتهموه به من أهل الأديان حمله على الجهر بهدم أساس مذهب الطبيعيين ؟ وبالنتيجة يريد الدكتور شميل والأستاذ «برن» وغيرهما أن يوافقوا «داروين» إذا أصر على إنكار «الخالق» ويخالفوه إذا أقر بوجوده! وبالاختصار إن كل ما جاء في مذهب الطبيعيين من حصر الأحياء بأنواع قليلة وتفرع الكثير منها وعنها، كل هذا لا يضر التسليم به كما أنه لا يفيدهم أن الحياة وظهور الأحياء نتيجة لقوى طبيعية نعم إذا أمكنهم إثبات التولد الذاتي، كان لأقوالهم معنى ولمذهبهم مستندا.

«هذا الذي رأيت ما يؤاخذ به الحكيم شبلي الشميل وقد خالف إمامه وأستاذه

«داروين» وفيما عدا ذلك، فإني أقدّر الشميل، قدره في دقة بحثه وتحقيقه وجرأته على بث ما يعتقده من الحكمة وعدم تهيبه من سخط المجموع لما يجهله من حقائق العلم.

* * *

أما جمال الدين فكان يعلم ما بيني وبين الدكتور شميل من الولاء وقد ظهرت عليّ علائم المسرة لتقديره الرجل ولكن ساء ذلك أحد إخواننا المصريين فقال: يا أستاذ إنني وجدت في الدكتور شميل «غرورا» ! فأجابه السيد إن الذي رأيته في الشميل لم يكن «غرورا» ولكنه «عزة النفس» والذل وصحيح العلم ضدان لا يجتمعان.

وقليل العلم، السفسطائي، المدلس فيجمع عليه الطيالسة الخضر ويخرّون له إلى الأذقان ويعتبرونه بمظهره العالي لا العلمي ويبخلونه لبذل طعامه وعظيم داره. والدجالون كثيرون في كل قطر ومصر وفي كل آن وزمان.

قيل للسيد: «إذا لم يكن لعلماء العرب في مذهب النشوء والارتقاء غير تلك الشذرات والعبارات الوجيزة فهي لا تفي بالمقصود، بل يصح الاستشهاد بها على أن القوم فهموا من هذا المطلب كليات فقط ولم يعيروها اهتماما استحق منهم أن يفردوا لها بحثا أو كتابا خاصا يتكفل باستيعاب ما يلزم ذلك المذهب من الأدلة واستجماع البراهين!

فقال: «هاتوا مكتبة بغداد والأندلس والقيروان وما ترجم في عصر الخلفاء العباسيين وما حقق علماء العرب من المباحث وما ألفوه من الكتب الفلسفية والطبيعية والكيمياء. وبعد ذلك طالبوني وألزموني الحجة بعدم استيفاء أولئك العلماء مواضيع ما نرى من المباحث في العلوم والفنون الوافدة إلينا عن طريق الغرب اليوم. ودعوا العصر الجليدي يستحوذ على قارة أوروبا مرة أخرى، ويدور الدور الفلكي بمفعوله وتأثيره ويجعل الحياة في ذلك الإقليم معتذرة كما كانت أولاً، وانظروا إذ ذاك إلى نهضة الشرق ـ خصوصا متى تغير شكل الحكم في أهله ـ

فترون الشرق قد عاد مشرقا بالعلماء، زاهرا بحقائق العلوم، مثبتا، مقررا لكل ما هو نافع ويصلح أن يبقى أثرا. ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[آل عمران: ١٤٠].

«أما الانتخاب الطبيعي ـ فهو في جيل البداوة وفي حضارة الإسلام ـ أمر معروف ومعمول به، سواء أكان في انتخاب الزوجات من النساء وتحري النجيبات من الأمهات فيخطبون بناتهن، وفي ذلك أقوال مأثورة ـ كالقول «خذ لابنك خالا» ـ أي زوجة يكون لها من الصفات الطيبة وحسن الخَلق والخُلق والمزايا ما لإخوانها حتى إذا جاء الولد، يكون فيه من الوراثة عن طريق أمه ما يشبه أخواله من موجبات الفخر ـ وكذلك عن طريق الأب ـ فيشبه الأعمام فيفتخر، أو يمتدح فيقال فلان معمّ ومخول! أو في تحسين نسل الخيل. وأما حرص العرب على الانتخاب الطبيعي ـ في تحسين الحيوان ـ فأمر مشهور، إذ البدوي إلى اليوم يطوف البراري والأمصار ليجد إلى فرسه جوادا من جياد الخيل! ويحرصون على حفظ أنساب الخيل، حرصهم أو أكثر من حرصهم على أنساب البشر! ـ قال وبالاختصار ـ علم قليل مفيد في الصدور يعمل به، خير من علوم كثيرة في الكتب مسطورة ولكن لا يعمل بها».

* * *

الاشتراكية
والعدالة الاجتماعية

كان مجلس جمال الدين يجمع أهل المذاهب المختلفة والمشارب المتباينة، فيضطر أن يخاطب كل إنسان على حسب عقله واستعداده ويراعي معتقداتهم ما أمكن، ويخوض مع المعطلة والماديين وغيرهما من لاهوتيين متعصبين، يأتي على ذكر الفلاسفة وما قالوه في كتبهم مع توضيح مذاهبهم وذكر حججهم ومنتهى ما وصلوا إليه من البراهين.

ذلك ما حمل الكثيرين أن يذهبوا بالحكم على جمال الدين مذاهب شتى، تارة ينظرون إليه بنظر ، المارق من الدين! وطورا أنه ديني متعصب! ومن حال جمال الدين هذه تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة من الإلحاد إلى رأيه وأذاعوا ذلك بين العامة وأيدهم أخلاط من الناس، من أولي المذاهب المختلفة، الذين كانوا يطرقون مجلسه فيسمعون ما لا يفهمون، ثم يحرفون في النقل عنه ولا يشعرون ويتبجحون بالتلمذة عليه وينسبون ما أشربوا من الكفر إليه ـ كما سبق ذكر ذلك في سيرته ـ. على أن المباحث التي كان يدور بها لسانه أثناء مناظراته الجدلية في بيان عقائد من ذكرنا من المعطلين والماديين، إنما كان المراد منها إظهار حقائق النِّحل بمعزل عن الاعتقاد بها والجنوح إليها، بل مع تعقيبها بالرد عليها وإقامة الحجج على بطلانها. وهكذا اجتهاده في بعض أحكام القرآن وتفسير بعض الأحاديث واستنباط الأحكام من سيرة السلف.

من أمثلة ذلك: أن أحد كبار الأدباء وكتبة الأتراك، كان يغشى مجلس جمال

الدين، وجمال الدين يحترمه لذكائه وحسن أدبه، وكان أشد الناس حرصا على الاقتباس من آراء السيد من سائر من حضر أو تتلمذ عليه في ذلك المحيط. أما الرجل فكان شديد الولوع بآداب الأمم الغربية، كثير الإعجاب في نهضتهم الاجتماعية وتوزيع أعمالهم وإعطاء كل فئة من المجموع قسطا من الاشتراك في صالح الهيئة.

فقال لجمال الدين: يا حضرة السيد، إن خير ما في أوروبا من النهضة هو (السوسياليست) ـ الاشتراكية ـ وهذه النهضة هي التي ستؤدي حقا مهضوما لأكثرية من الشعب العامل. فإذا كان الدين الإسلامي «أو المشيخة الإسلامية» يقاومان مذهب الاشتراكيين، فأرى هناك ثلمة لا تسد بسهولة وخللا يجب ملافاته بالحكمة، فما رأيكم ؟!

«فقال جمال الدين: إن ما تراه الاشتراكية في الغرب وما تتوخاه من المنافع بذلك المذهب في شكله الحاضر وأسسه وتخبط واضعي مبادئه، كل ذلك يعكس نتائج الاشتراكية ويجعلها محض ضرر، بعد أن كان المنتظر منها كل نفع. «الاشتراكية الغربية» ما أحدثها وأوجدها إلا حاسة الانتقام من جور الحكام والأحكام وعوامل الحسد في العمال من أرباب الثراء، الذين إنما أثروا من وراء كدهم وعملهم وادّخروا كنوزهم في الخزائن واستعملوا ثروتهم في السفه وبذلوها في السرف والتبذير والترف، على مرأى من منتجها والفاعل العامل في استخراجها من بطون الأرض، ومن ترابها إلخ . . . وبالاختصار ثمرات عمل العمال بكل أنواع حاجة العمران، فكل عمل يكون مرتكزا على الإفراط، لا بد أن تكون نتيجته التفريط.

«أفرط الغربيون الأغنياء، بنبذ حقوق العمال والفقراء وراء ظهورهم، فأفرط العمال بمناهضة أهل الثروة وغاصبي حقوق الأمة ـ بالمناصب ومسببات الجاه ـ فلا قاعدة دينية يرجع إليها ولا سلطان وازع يعمل بقهر لصالح المجموع، لذلك أصبح أمرهم في الاشتراكية «فوضى» ولسوف ينعكس أمرها. أما الاشتراكية في الإسلام، فهي ملتحمة مع الدين الإسلامي، ملتصقة في خلق أهله منذ كانوا أهل بداوة وجاهلية.

«أول من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالإسلام هم أكابر الخلفاء من الصحابة ـ وأعظم المحرضين على العمل بالاشتراكية كذلك من أكابر الصحابة أيضا ـ وإليك البيان : أما إن الاشتراكية من خلق البداوة فالبرهان عليه ما كان من أهل الثراء منهم ومواساته لأهل قبيلته وعشيرته ولا أعد كثيرا من ذلك بل أجتزئ بمن اشتهر منهم، مثل حاتم الطائي في السنين المجدبة وكيف أنه نحر أعز ما لديه (وهو فرسه) ذلك لمجرد مجيء امرأة من أقصى قبيلة طيء، إذ قالت له : يا حاتم قيل لنا إن عندك لحما عبيطا فأتيت بصبيتي، فقال: صدقت، ثم نحر فرسه وأشعل ناره. تلك العلامة التي كانت كدعوة للمجموع يعلمون منها أن هناك طعامًا فيأتون لمكان الدخان في النهار ولشعلة النار ليلا، ويشتركون جميعهم في المأكل دون أدنى منة لصاحبها لأن الأمر بينهم مناوبة يفعله الميسور والمثري، كل على نسبته وما لديه من سعة.

هكذا فعل حاتم مع من قصدته وأطفالها، وبمن رأى النار ويمم نحوها من أهل جواره وقبيله، وقد تواتر الخبر بأن حاتم لم يذق من ذلك اللحم شيئا مع كونه قرما، سغبا. وهناك رجل آخر من رجال العرب وهو «طلحة الطلحات» كان شأنه، أن كل أعزل معدم يأتيه، يقول له: «دونك الفرس والرمح والسيف فعسى أن تكتفي بهم ذل السؤال وإن لم تفعل ولم تحسن العمل بهم فلا أرشدك والله أغناك» يقال إن الرجل ـ طلحة ـ المثري بالخيل والسلاح جهز على المنوال المذكور ألف فارس ولم يبق عنده إلا ما أعطى لواحد منهم. فكان كل فارس ممن جهزهم طلحة إذا أتاه غلام سماه طلحة، فلم يمض كثير من الزمن إلا وكان في تلك القبائل من أسماء أبناء أولئك الآباء مئات من ذلك الاسم فسمي « طلحة الطلحات»!

«هذا مثل من الاشتراكية قبل الإسلام ومنه يعلم أن الثروة كانت ولا تزال موجودة في الأفراد ولكن حسن استعمالها وجعل نصيب للآخرين فيها يجعل الاشتراكية أمرا مقبولا وصفة ممدوحة إذ لا أنانية ولا أثرة ولا استطالة على الفقير بخيول مطهمة يستأثر بها ولا بطعام شهي يلتذ به مع لفيفه ولا ببناء شاهق يسكن فيه، بينما موجد ومسبب ومهيئ تلك النعم كلها. ذلك العامل الفقير الذي يسكن كوخا حقيرا نصف أعضائه وأبنائه في خارجه عرضة لصبّارة القر وأوّارة الحر، لا يملك من القوت خبزا كافيا ولا من الملبس ما يستر به تمام العورة. هذا ما عليه اليوم

أهل الثروة وهذا ما استنفر طبقة العمال للمطالبة بالاشتراكية وفي نفيرهم روح الانتقام والإفراط في المطالبة بحقهم ـ يقابله التفريط في زجرهم وعدم الرضوخ لما يطلبونه بالحق ـ ولسوف يتفاقم الخطب وتعم من جراء ذلك البلوى في الغرب ولا يسلم منها الشرق.

« أما الاشتراكية في الإسلام فهى خير كافل لجعلها نافعة مفيدة، ممكن الأخذ بها، لأن الكتاب الديني وهو القرآن أشار إليها بأدلة كثيرة منها : أن المسلم أول ما يقرأ من فاتحة الكتاب ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيعلم أن للخلق ربا واحدا وهو مع سائر الخلق من المربوبين على السواء. ويرى ويعلم أن القرآن أتى على ذكر أرباب القوة ورجال الحرب والغزاة ومن يتولى إمرتهم وقيادتهم، فخاطبهم آمرا ومعلما ومدافعا ومبينا حقوق المستضعفين من الأمة الذين لم يتمكنوا من الاشتراك مع من ذكر ليكون لهم من ذلك الجهاد وتلك المساعي نصيبا ـ إذ قال : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١] هذه آية باهرة أوجبت على من يسعى مجاهدا ومخاطرا بحياته أن يكون مشتركا معه بنتيجة غزواته وغنائمه ـ ما لم يكن مشتركا فعلا ـ فأعطى أولا «لله تعالى » نصيبا ومرجع هذا النصيب لعباده، ثانيا «للرسول» ثالثا «لذوي القربى» وهم لا شك من المستضعفين الذين إنما قعدوا عن الاشتراك في الجهاد والسعي وراء الغنائم، لعلل تختلف أشكالها وأنواعها ولكن الدين لم يجز حرمانهم بل جعل لهم نصيبا من مساعي أولئك الأشداء، الأقوياء المجاهدين، الخائضين غمرات الموت إلخ.

« كل ذلك نراه مبنيا على حكمة الاشتراك ولبث حكم هذه الآية جاريا وكان الرضاء به شاملا لمجموع المسلمين، من مجاهد أو قاعد عن الجهاد لعلة، فبدأ بالدرجة الأولى بعد الله ورسوله بذوي القربى من المجاهدين على درجاتهم (ممن ينظر بحاجات أولاد المجاهدين وعيلتهم عند تغيبهم) وعطف على من دونهم في المرتبة الثانية ممن ليس لهم أقرباء فقال « واليتامى » ثم وسع نطاق الاشتراكية فقال

«والمساكين» ثم رأى أن يأخذ نطاقا أوسع فقال « ابن السبيل» أي عابره فتم بهذا الشكل نوع من الاشتراكية لم يكن أوسع منه شكلا ، ولا أنفع .

«ثم جاء بموضع آخر من الكتاب مقرعا لمن يكنزون الذهب والفضة ثم حبذ، وأثنى على الذين يؤثرون على أنفسهم بالعطاء والإسعاف والإطعام ولو كان بهم خصاصة . وهكذا ترى قانون الاشتراكية المعقول في آيات القرآن تترى .

فلننظر هل عمل بهذا القانون وما كانت نتائج العمل به .

«نعم إن الإخاء الذي عقده المصطفى ﷺ بين المهاجرين والأنصار لهو أشرف عمل تجلى به قبول الاشتراكية قولا وعملا ، فالمهاجر من المسلمين إنما استطاع أن يفر بدينه راضيا بهجره بلده وترك مسقط رأسه ومفارقة أهله وذويه والخروج من ماله ومقتناه ، مسرورا أن يصل لدار الهجرة سالما . والأنصاري وهو في بلده مع آله وذويه وماله قبل راضيا مسرورا أن يشارك أخاه المهاجر بكل معنى الاشتراك . حتى لو تطلع الإنسان منا اليوم وأشرف على تلك الأرواح الطاهرة لرأى من مجالي الاشتراك روحا وجسدا ما ينبهر له عقله ولصح اعتقاده أن عمل الدين وتأثيره في تلطيف الكثافة الجسمانية لا يضارعه مؤثر أو عامل آخر على البشرية ولرجعوا إليه لو كانوا يعقلون .

ثم قال : «لما كان مذهب الاشتراكية كبقية المذاهب والمبادئ ، لها طرفان ـ وخير الأمور أوساطها ـ رأى الشارع الأعظم أن تنعم فريق من قوم وشقاء فريق آخر في محيط واحد وبمساع ليس بينهما وبين مساعي الآخرين كبير تفاوت ، مما لا يتم به نظام الاجتماع وكان النبي ﷺ (بالمؤمنين رحيما) فجاءه عن طريق الوحي وهو نتيجة تمحيص نزعات النفس البشرية وما عسى أن ينجم من المضار أو المنافع لها فوضع للدين أركانا خمسة ومن تلك الأركان «فرض الزكاة» في المال والركاز والأنعام إلخ . ثم أضاف إليها كما سبق «الغنائم» فأخذ منها قسطا بمقدار الخمس ، ثم بعد ذلك حرض على بذل «الصدقات» وحرّم «الربا» بنكتة غاية في الحكمة : وهي أن لا يؤكل الربا أضعافا مضاعفة وهو ما وقع عليه التحريم ولكي يكون للإمام مخرج إذا قضت المصلحة بالتسامح للحكم بجواز الربا المعقول الذي لا يثقل كاهل المديون ولا يتجاوز في برهة من الزمن رأس المال ويصير أضعافا مضاعفة ، وفرّق

صراحة بين احتيال المرابين، المتلبسين بالدين، الذين يتظاهرون بالتجنب عن الربى ببيعهم سلعة قيمتها الحقيقية مائة درهم! يجرون عقد بيعها مع المشتري المضطر بثلاثمائة درهم! وحقيقة هذا الفرق إن هو إلا نصيب الربا وعينه وإنما يجعلونه عن طريق البيع ويخدعون أنفسهم بأنهم تخلصوا من ارتكاب جريمة الربا التي حظرها عليهم الدين.

«وإليك بعض ما جاء بهذا الشأن بالقرآن: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[البقرة: ٢٧٥، ٢٧٦]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ١٣٠].

أما ما جاء في الحث على الصدقات فكثير كقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[البقرة: ٢٧١]. وقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾[التوبة: ٦٠] وقال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] وأمثال ذلك كثير في الكتاب والحديث، حثا وتحريضا على البذل ومؤاساة للفقراء وأهل العوز درءًا لمفاسد أرباب المطامع وسدًا لعوامل حسد الحساد لأهل الثروة والنعيم إلخ.

«أما الثروة فتختلف بكميتها من مائة إلى ألوف وملايين من الدنانير ولكن لا تختلف بكيفيتها بمعنى ـ أن رجلا يملك مائة دينار بين قوم لا يملك أفرادهم إلا دراهم معدودات، فيمكن لصاحب تلك المائة أن يظهر بمظهر الثراء ويأخذ من التنعم حظا نسبيا ويلفت أنظار قومه ويدعوهم لحسده، هذا إذا تمادى بالأثرة والأنانية ولم ينل قومه منه رشاشة فضل على حد قول زهير بن أبي سلمى:

ومن يك ذا فضل ويبخل بفضله على قومه يستغنى عنه ويذمم

«ولقد قلنا عن زمن الجاهلية وعصر البداوة ما فيه الكفاية ـ ومختصره ـ أن أعظم

مثر كان يتساوى في مسكنه ومأكله وملبسه مع أفراد قبيلة وعشيرته، فلا تتحدث نفسٌ من ذلك المجموع بأدنى حاسة من الحسد، أو داع يدعوه إلى الانتقام. ثم جاء الإسلام، فكان أكبرهم منصبا وهو الخليفة لرسول الله يعمل بسيرة نبيِّه من الاكتفاء بالقليل من العيش والكفاف منه ومجالسة الفقراء ومشاركتهم بكل معنى الاشتراك في مظاهر الحياة الدنيا ونعيمها.

لقائل أن يقول إن شظف العيش في زمن النبي المصطفى وخلفائه كان يدعو بطبيعة الأمر إلى عدم التحاسد. فنقول: إن الفتح الإسلامي في زمن أبي بكر الصديق بلغ من الممالك مبلغا عظيما وجاء بالمغانم الكثيرة ومع ذلك لا نرى أن وضعية الخليفة أبي بكر قد تغيرت ولا مظاهر وزرائه، وقواده تبدلت ولا شكل حياة من أثرى من متجرة العرب قد ظهر فيهم شيئا يلفت نظر حاسد، أو يجعل في نفوس غيرهم أقل غصة.

«ولا ريب أن الفتوحات في زمن الفاروق عمر بن الخطاب قد امتدت فصارت أوسع نطاقا، والمغانم أعظم وفرا. والنفوس البشرية مع هذه العوامل قلّ ما تنجو من تطلع للسرف والترف ومهيئات الاستطالة والأنانية (وقد توفرت أسبابها) وبالفعل ورغما عن قرب العهد بسيرة الشارع وخليفته أبي بكر وتمسك الفاروق بسيرتيهما، فقد أتته الأنباء الصادقة ممن بثه لمراقبة سير وسيرة عماله بأنه قد فشت لعامل مصر«عمرو بن العاص» وعامله في دمشق «معاوية بن أبي سفيان» وغيرهما من العمال في العراق وغيره هيئة بذخ وسرف وثراء، فخشي معه حصول ميزة الأكاسرة لأولئك الأفراد من العمال، الخادمين للجموع ويصرفون سلطان الحكم ونفوذه بغير وجوه الحق فتدب النفرة على سبيل التدريج إلى نفوس الأمة من حكامها وبالأخير، تنقبض تلك النفوس عن الطاعة الاختيارية وتفقد الثقة ويضعف الإيمان ويتزلزل البنيان ويعم البلاء (والعياذ بالله).

فأسرع الفاروق لملافاة ذلك الخلل بتقريع عماله بأخشن الأقوال ـ عظة وتحذيرا وقتلا للغرور ـ فخاطب عامله في مصر بقوله: «إلى العاص بن العاصي، ما أقطعتك مصر طعمة لك ولقومك. وبمثل قوله له: «لا تبالي أن تحيا أنت ومن معك، أن أموت أنا ومن معي. . » وبمثل قوله: «متى كان ابن العاص في مثل ما بلغني عنه من ثراء ودور وقصور؟ وبما معناه إلخ». وهكذا خاطب عامله في الشام

معاوية بن أبي سفيان، وهدده بأن يجتنب غطرسة هرقل وتعاظم الأكاسرة والقياصرة. ولم يكتف بما قاله بل أرسل معتمدا وبيده أمرا مبرما أن يشاطر كل عامل بمقتناه من ثروة ومتاع، حتى أن ذلك المعتمد أخذ فردة نعل العامل وترك له الأخرى.

«هذا درس عملي وعلني لملأ المسلمين ـ أفهم فيه الفاروق ـ الحاكم والمحكوم عدم سواغية الأثرة والاستطالة وعمل بذلك على محو دواعي الحسد من الصدور فعلا. فلننظر ماذا فعل عمر بن الخطاب بما صادره من أموال العمال؟ وماذا صنع بمغانم كسرى وقيصر؟ وماذا ظهر على تلك الخليفة من آثار عظمة الملوك والأمراء، سواء كان في مسكنه أو ملبسه أو مأكله؟

«ظهر عليه مع كل ما توفر لديه أن لباسه كان أحقر ما يلبسه الفقير في الأمة (ومرقَّعيته مشهورة في تواريخ الأمم وأن فيها مع رقع الأقمشة رقعة من أدم، أي من جلد). (وأما مسكنه) فكان يقضي سحابة يومه في سقيفة حقيرة يدخل إليها مطأطأ الرأس، ينظر في شئون الخلافة ويقضي وقت استراحته في البقيع ـ جبانة الأموات! (وأما مطعمه) فكان خبز الشعير الغالب عليه، بينما كان يطعم الأيتام والأرامل والمستضعفين من المهاجرين والأنصار خبز البُرِّ والسمن والتمر وينيلهم كل ما كان مناله عزيزا إلا لأهل الثراء إذ ذاك. هكذا كان يشاركهم مع نعيم الأغنياء ولا يشترك معهم فيه، فضلا عن بذل المال للمحتاجين وفرض الفروض لهم من بيت المال وإعطاء الجوائز لمن كان له أو لآبائه سابقة في الإسلام، بعشرات الألوف ومئات الألوف كل على حسبه.

«فأهل الإسلام مع تمحض سلطان الحرية فيهم، لم يروا في سيرتي الصديق والفاروق ـ رضي الله عنهما ـ ما يدعوهم إلى أقل تذمر أو تململ أو تفكر بمناهضة لسلطانهما أو تألّب على قلب أشكال حكمهما وإمرتهما أو إحداث شغب يعرقل مساعيهما في الفتوحات، بل كانوا يبذلون النفس والنفيس في طاعة الخلفاء تأييدا لشوكة الإسلام وتعميما لعدل الشريعة السمحاء.

هذا كان موقف الخلفاء وحال الأمة معهم ولذلك تجلى العدل المطلق في الأحكام والتزم الحكام للتقيد به قولا وعملا. وهكذا مضى زمن خلافة الفاروق وجاء زمن

خلافة عثمان بن عفان، وفي خلالها ظهرت أثرة خاصة للأمويين، تذمر منها الهاشميون وأكثر القرشيين وفي مقدمتهم أبناء الصديق والفاروق، ومن كان على رأيهم إلخ . . في زمن قصير من خلافة عثمان تغيرت الحالة الروحية في الأمة تغيّرا محسوسا وأشد ما كان منها ظهورا في سيرته وسير العمال والأمراء وذوي القربى من الخليفة وأرباب الثروة، بصورة صار يمكن معها الحس بوجود «طبقة» تدعى «أمراء»! وطبقة «أشراف»! وأخرى أهل «ثروة وثراء وبذخ»! وانفصل عن تلك الطبقات، طبقة العمال، وأبناء المجاهدين ومن كان على شاكلتهم من أرباب الحمية والسابقة في تأسيس الملك الإسلامي وفتوحاته ونشر الدعوة وصار يعوزهم المال الذي يتطلبه طرز الحياة والذي أحدثته الحضارة الإسلامية، إذ كانوا مع كل جريهم وسعيهم وراء تدارك معاشهم لا يستطيعون اللحاق بالمنتمين إلى العمال ورجال الدولة وقد فشت العزة والأثرة والاستطالة وتوفرت مهيئات الترف في حاشية الأمراء وأهل عصبيتهم وفي العمال وبمن استعملوه وولّوه من الأعمال إلخ . .

«فنتج من مجموع تلك المظاهر التي أحدثها وجود الطبقات المتميزة عن طبقة العاملين والمستضعفين في المسلمين ـ تكوّن طبقة ـ أخذت تتحسس بشيء من الظلم وتتحفز للمطالبة بحقهم المكتسب من مورد النص ومن سيرتي الخليفة الأول والثاني أبي بكر وعمر. كان أول من تنبّه لهذا الخطر الذي يتهدد الملك والجامعة الإسلامية، الصحابي الجليل «أبو ذر الغفاري» فجاء إلى معاوية بن أبي سفيان وهو في الشام وخاطبه بوجوب الرجوع إلى سيرة السلف وبتقليل دواعي السرف والترف وعدم التمادي في مسببات الحسد والعمل على نزعها من العاملين من رجال المسلمين وذكر مواعظ كثيرة وعدد أخطارا جمة من وجود طبقة فقيرة، عاملة مفكرة في المسلمين، يكتنفها شظف العيش وقلة ذات اليد بين ظهراني قوم، أكثرهم ممن لا سابقة لهم في الإسلام ولا لآبائهم ولا من الصفات المحمودة ولا من المجهودات أو المميزات العلمية والجسدية ما يوليهم أو يعطيهم حق ما هم فيه من النعيم وطيب العيش والرخاء ـ غير محض الانتماء والإدلاء بولاء لآل حرب وعمالهم.

«فأجابه معاوية بما معناه: يا أبا ذر! إن ما تقوله هو الحق ولكني ليس في استطاعتي الرجوع لا إلى سيرة الصديق وسيره ولا إلى العمل الذي كان يعمله

الفاروق. وغاية ما في إمكاني الحث على بذل الصدقات والقول الليّن، إرشادا وعن طريق الوعظ لتخفيف دواعي الحسد وغير ذلك فلا سبيل إليه.

«قال: يا معاوية! قد نصحتك والدين النصيحة، فاحذر أنت والخليفة عثمان مغبة ما أنتما عليه! ـ وذهب من مجلس معاوية مغاضبا. واجتمع مع طبقة المتألمين والمتذمرين من المسلمين وقص عليهم من سيرة السلف أشياء وأطلعهم على ما قاله عامل الشام معاوية بن أبي سفيان، وأردفها بإعلانه مشاركته لهم في كل ما يتحسسون به قلبا وقالبا وبمختصر القول إنه شجعهم على النهضة والمطالبة بحق صريح لهم اهتضمته جماعة بغير وجه شرعي ولا باجتهاد أمام سلف.

«فكان من وراء عمل أبي ذر هذا، أن حصل شيء من التهيج والانفعال النفسي، ما خشي معه معاوية وأعوانه سوء المصير. فجمع معاوية كيده واستنجد دهاءه! وبعث لأبي ذر ليلا بألف دينار ـ فقبلها أبو ذر ـ وفي الحال بادر لتفريقها على الفقراء والمعوزين من المسلمين. وفي ثاني يوم أرسل معاوية رسولا (بتعليم منه في الإرسال الأول وفي البعث الثاني) وقال: «يا أبا ذر أنقذني من عذاب معاوية فإن الألف دينار لم يرسلها إليك وإنما غُلطت». فقال أبو ذر: والله لم يبق معي من دنانيره ولا دينار ـ فليمهلني حتى آخذها ممن وزَّعتها عليهم من المستحقين في المسلمين، وعلم معاوية صدقه وضاق به ذرعا، فكتب إلى الخليفة عثمان مستجيرا من إلقاءات أبي ذر وما أحدثه من التأثير في النفوس، فأجابه مستسرعا إرسال أبي ذر إليه، فأرسله ولما تقابل مع عثمان لم يسمع منه أكثر مما سمع من معاوية وأنه لا يمكنه أن يفعل ما فعله الفاروق مع العمال من مصادرة ما عندهم من الثروة ولا أن يرجع ما كان من حالة مجموع المسلمين في عهدي الصديق والفاروق إلا عن طريق الحث على بذل الصدقات والإحسان فقط.

فقال أبو ذر: «يا عثمان، أما تذكر حديث رسول الله (ومعناه إذا وصل البناء إلى السلع. . واستعلى في المدينة. . وفشت إلخ) وجبت الهجرة أو كما قال في مكان آخر: «يا عثمان إن النبي أمرني بالخروج منها إذا بلغ البناء سلعا». (وهو جبل في المدينة). فها قد استعلى بناؤك وبناء قريبك معاوية وأعوانكما فأستودعك الله، تاركا لك ولمن استعملت من العمال «أعمالكم» والله من ورائكم محيط. فألح

عثمان على أبي ذر، أن لا يفعل! فقال أبو ذر: إن رسول الله أولى أن يتبع. وبالفعل قد هاجر أبو ذر من «المدينة».

«كان في عمل أبي ذر هذا أنه قد أخذ بمحض النصح لخليفة المسلمين إذ ذاك «عثمان» وبنصح «عماله»! وبالدفاع عن حقوق المسلمين كي لا تتكون طبقة اشتراكية! يكون رائدها «الانتقام؟». بل دعاهم إلى العمل بنص القرآن والاقتداء بمن طبق ذلك النص عملا من الخلفاء.

«هذا مختصر ما علم به الدين الإسلامي من الاشتراكية المعقولة، النافعة للمجموع الإنساني وما عمل به خلفاء الإسلام وكل اشتراكية تخالف في روحها وأساساتها اشتراكية الإسلام ـ التي سبق ذكرها ـ فلا تكون بنتيجتها إلا ملحمة كبرى وسيل الدماء ولا سيل الأبرياء ومن تخريب لبناء لا يشاد عليه شيء ينتفع به أحد من الخلق.

نعم يستفيد من يلوك بلسانه كلمة الاشتراكية، ويجعلها أحبولة صيد وهي كلمة حق يراد بها الباطل. أكرر القول إن اشتراكية الإسلام هي عين الحق، والحق أحق أن يتبع» اهـ.

* * *

الإنسان

الصدفة ـ العلم

«قال إن كل الحوادث لا بد وأن تقترن في آن حدوثها مع سبب لها ، ملازم غير مفارق ويختلف الخلق في معرفة ذلك السبب ، ويتفاوتون على نسبة علمهم بالأسباب والمسببات وإرجاع كل علة لمعلولها وكل سبب لمسببه وحادث لمحدثه . فالحوادث عند الجاهل منسوبة للصدفة على الغالب وهي أهون المراجع للتعليل عنده . فإذا سقطت صاعقة مثلا على شجرة كبيرة في خلاء من الفضاء، يقول بالصدفة حصل نور شديد! ورعد وبرق ومطر غزير ، وبالصدفة التجأ زيد لتحت تلك الشجرة وبالصدفة سقطت عليه تلك الصاعقة!

«هذا ما يقوله من لا يفقه معنى لزوم السبب للحوادث. وأما من يعلم ـ والعلم متفاوت، ودرجات ـ فيعلم أن مهب الرياح وشكل الكرة الأرضية وما فيها من معترضات الجبال وأوضاعها في الشمال والجنوب والشرق والغرب والمضايق وتأثيرها عند هبوب كل ريح منها والأحراش والأشجار، إلخ . . كل هذه الأشياء من مسببات الأمطار بعد أن تجلب السحاب وتسوقها الرياح وتحدث العواصف وهي من مسببات الصواعق؛ لأنها لا تحدث إلا من عاصفتين متضادتين يتكون عند اصطدامها والاحتكاك شرارة كهربائية هي «البرق» ويليها هزيم «الرعد» وهو صوت الصدمة. فإذا عرفنا بعض أسباب المطر والبرق والرعد، ورجعنا إلى التجاء الإنسان لتحت الشجرة علمنا أن السببُ فيه محبة الذات، الأمر الفطري في الحيوان. وحب البقاء والتذرع بالوقاية والمحافظة على الحياة، أظهر ما يكون في الحيوان الناهق من حينما يدب ويدرج منه في الإنسان .

«خذ مثلا الأفعى ـ والجرز ـ فقد رأيت أكثر من مرة جرزا قابلته أفعى! فعمد الجرز فورا إلى عود من الأرض ووضعه في فمه بشكل مستطيل، بارز عن شدقيه واستقبلها على ذلك الوضع فكانت كلما دارت لتبتلعه أدار ذلك الواقي له وهو العود فيتعذر عليها بلعه وكثيرا ما ملَّت من مداعبته ويئست من ابتلاعه لما تحراه وأوجده بسوق الفطرة من أسباب الوقاية فانسلَّت ومضت.

«والإنسان في تحري أسباب البقاء في هذا العالم الفاني بصورته ـ والباقي في جوهره ـ إنما يتحرى ما يتحراه الحيوان من أسباب الوقاية والحياة. فإذا رأيناه يلتجئ عند العواصف والأمطار لتحت الشجرة ـ فليس ذلك بصدفة ـ بل عن سائق وقصد وغاية وكل ذلك يرجع لحب الذات للوقاية وحفظ النفس. أما الصاعقة، فالقوة الموجودة في الأشجار لجذبها أمر مبسوط مع ما ذكرناه في كتب الحكمة الطبيعية وغيرها مما يدرس في المدارس، فليس في سقوطها شيء من الصدفة. وهكذا القول في كل ما هو جار وفي كل حادث على وجه الأرض، له سبب وإن خفي.

«فالصدفة ـ لعدم معرفة الأسباب ـ عند الجاهل «كثيرة» وعند العلم والعالم، «قليلة» وعند القدرة الإلهية «معدومة» لا وجود لها: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤].

«والعلم أو التسلسل بمعرفة تلك الأسباب فمتوزع بين البشر يضيق ظرف العمر الإنساني عن استيعابها واستيفائها ولولا أنه ﴿ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٠] لأمكنه أن يعلم أسباب حوادث كثيرة ولكن ما فات الفرد بالنسبة إلى قصر عمره الطبيعي من التتبع يتلافى إكمال ذلك النقص النسبي من يأتي بعده من أفراد النوع. وكلما وصل إلينا من العلوم ـ مع خدمة ألوف الرجال لها متعاقبين من علماء محققين ـ وعلى مدى الأجيال العديدة ـ لم تزل بالنسبة إلى الحقائق الثابتة فيها «علوما ناقصة» أو هي في حقيقتها «قشور» لتلك العلوم في غايتها وحقيقتها.

«فعلم الطب مثلا ـ ووجوده ملازم لوجود الإنسان لضرورته ـ مع كثرة من خدمه من فحول الرجال، في مختلف الأجيال، لم يزل ناقصا، بدليل أن أمراضًا كثيرة

وقف علماء الطب عند حد العجز عن وجود دواء لها شاف، حتى من الأواخر من وجد الدواء ومحى من سطور كتب الطب «هذا الداء لا دواء شاف له، ولا واق»! وما يدرينا أن الدواء الشافي لكل داء موجود إما في النبات أو في المعادن أو في قوى الطبيعة وأسرارها، ولكن نقص العلم وعجز فهوم الرجال، جعله مخفيا لعدم الاهتداء إليه اليوم.

«وهكذا القول في الكهربائية، فخواصها ومظاهرها، عرفها الأقدمون بشكل بسيط في العصر «الظرري» وهو عصر الحجر الصواني، فكانوا يستعملون منه سلاحهم، إذ يحددونه فيجعلونه ذا حد جارح ويستورنه بالقدح زنادا فيوري. وعلماء اليوم يقولون إن الأصل في المادة الحركة ومنها تتولد الحرارة ومنها يتولد النور. فهذه الأصول كما قدمنا كانت ولم تزل عند الأقدمين وعند أهل البادية اليوم معروفة على أبسط حالاتها، فيعالجون حجر الصوان بالاحتكاك فتتولد منه حرارة فنور، فنار ويستغنون بذلك عن عيدان الإنارة بوضع قطعة صوفان عند القدح وخروج الشرارة من الحجر، فتلتهب فيضعونها على الهشيم فيشتعل.

«نعم إن هذا العمل ساق البدو، وأهل الأعصر الخالية إليه (الضرورة) ولم يكن بالعلم المدون لتحصل منه فائدة كبيرة. وأهل هذا العصر مع كونهم استفادوا من توليد الكهربائية وعلموا مظاهرها واستخدموا قوتها ولكن كنه الكهربائية وحقيقتها وطريقتها أو كيفية تجمعها في المادة، لم يزل مجهولا غير معلوم، وهذا الجهل لا يقدح ولا ينفي أن حقائق الأشياء ثابتة والإحاطة بها للفرد متعذر، حتى إن العلم ببعض سلسلة أسباب الحوادث متوزع بين البشر.

قال: «ويعجبني في بحث الحركة والحرارة، ما قاله أبو بكر بن بشرون قبل أكثر من ألف عام: «إن الحركة هي الأصل في توليد الحرارة وللحرارة، خاصة نقل الأشياء وتحركها. والكون بما فيه من رطوبة ويبس ليس لهما إلا البرودة والحرارة فالبرودة تيبس الأشياء وتعقد رطوبتها، والحرارة تظهر رطوبتها وتعقد يبسها. والمرجع الكلي في الأشياء، الحرارة المنبعثة عن الحركة وهي أصل الحياة ومتى فقدت حرارة الكون تعذرت الحياة أو فقدت» اهـ.

ثم تفكر وقال: «إن في خلق الإنسان وفي عقله من القوى الغريبة والأسرار العجيبة ما يدهش العقل ولقد أصاب الشيخ الأكبر بقوله: «أيحسب الإنسان أنه جرم صغير وفيه انطوى العالم الأكبر»[١]. نعم إن الإنسان من أكبر أسرار هذا الكون ولسوف يستجلي بعقله ما غمض وخفي من أسرار الطبيعة وسوف يصل بالعلم وبإطلاق سراح العقل إلى تصديق تصوراته فيرى ما كان من التصورات مستحيلا، قد صار ممكنا، وما صوّره جموده وتوقف عقله عنده بأنه «خيالاً» قد أصبح «حقيقة»!

«لبث الإنسان يقلب طرفه في الفضاء وطبقات الهواء، يتجادل عقله مع النسور والعقبان محلقة ويهبّ لمجاراتها واللحاق بها ثم يقعده الجمود ويريه ذلك مستحيلا فيرجع إلى الوراء. والعقل وهو معتقل بذلك الجمود يحاول فك قيده ليسير إلى الأمام. وهكذا كان موقف عقل الإنسان مع الحيتان وأسماك البحار يناجي نفسه ويقول: إن عندي من القوى وفهم الأسرار ما ليس في الحيتان والعقبان فلمَ لا أفعل فعلهما، وأجري جريهما؟ وعندي إذا ظفر العقل في هذا العراك والجدال وتغلب إقدامه على الأوهام واستطاع فك قيوده ومشى مطلق السراح، لا يلبث طويلا إلا ونراه قد طار بأسرع من العقبان، وغاص في البحار يسابق الحيتان وسخر البرق بلا سلك لحمل أخباره وتحادث عن بعد أشهر مع غيره، كأنه عن قاب قوسين أو أدنى. وهل يبقى مستحيلا إيجاد مطية توصله للقمر أو الأجرام الأخرى وما يدرينا بعد ذلك ما يأتيه الإنسان في مستقبل الزمان، إذا هو ثابر على هذا السير لكشف السر بعد السر من مجموع أسرار الطبيعة التي ما وجدت إلا للإنسان، وما وجد الإنسان إلا لها»[٢].

---

(١) والأصل، أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر.

(٢) وقد تم اليوم أكثر ما قاله جمال الدين وكان العلماء إذ ذاك يحاولون ويجربون في أوروبا تسخير الفضاء للطيارات والبحار للغواصات والعالم كلّه، بالفضائيات!

هل الحق مع الأكثرية ؟

قال : «وجود بعض المجموع الإنساني على شيء والاعتقاد به ، لا يفيد أحيانا معنى أنه على الحق ، خصوصا إذا كان رائده وقائده مطلق التقيد بالمألوف والتقيد الأعمى بدون حجة ولا برهان . فالحقائق من دين ومذهب وقواعد علمية وفنية ، ما ظهرت واستقرت وتدونت وانتشرت إلا بواسطة أفراد قلائل وقد قاومها المجموع ، بأشد ما لديه من قوة ووسائل القهر . فجوبيتار «إله الآلهة» ما تجرأ على الكفر به أحد في عصر التعبد له وكانت الكهنة مع مجموع الشعب تنزل على من يكفر به آيات العذاب وأنواعه واليوم يعدون من يكفر بجوبيتار وألوهيته مؤمنا .

«ثم جاء «موسى» وكفر بألوهية فرعون . وكان الإيمان بالله عند مجموعهم يعد كفراً واليوم الأمر بالعكس .

ثم جاء عيسى وليس من يؤمن به غير ذلك النفر القليل من الحواريين ومع تصريحه أنه أتى ليتمم الناموس لا لينقصه فكان المجموع من اليهود في أورشليم من ألد الخصوم وصلبوا مَن تبعه وتفننوا بأنواع عذابهم واليوم ترى تعاليم المسيح في القدس «مكان الاضطهاد» وفي بيت لحم «محل الولادة» وفي أكثر المعمور من الأرض ، يدان بها ويعمل على نشرها .

« ثم جاء محمد ﷺ وكانت شيعته أفراد قلائل ومن آمن به يعدّون على الأصابع وهم : «طفل» ـ وهو علي بن أبي طالب ـ «وامرأة» : ـ وهي خديجة الكبرى بنت خويلد ـ ومن الرجال «أبو بكر» . وكان المجموع من قومه أشد المقاومين لدعوته وجحد نبوّته وكان من يؤمن بمحمد ﷺ عرضة لأنواع العذاب وموضع السخرة والاستهزاء .

«واليوم ترى مئات الملايين من الخلق تدين بدين محمد، وأكثر مجموع العالم يحترم ويدين بتعاليم الثلاثة: «موسى» و«عيسى» و «محمد». بعد أن كانت أتباع الثلاثة ـ شراذم، بل أفرادا قلائل في بدء أمرهم. ولو لم تكن تعاليمهم محض خير وموافقة لروح البشر والإنسانية، لما أخذ التكاثر من تابعيهم رغم مقاومة المجموع ورغم الاضطهاد والقتل والاستهزاء والنفي والصلب وكل أنواع العذاب ـ حتى صاروا أمما، وفتحوا ممالك وصار لأولئك الأفراد والشراذم دول وجانب يخشى وبأس يتقى ومدنية وحضارة لا تفنى.

«وهكذا ينبغي أن نعلم أن كل تعليم إذا كان حقا في ذاته ـ ولو خالف المألوف وكانت أنصاره قلائل ـ فمن الحكمة أن لا يمتهن لقلة الأشياع والنصراء أو لكثرة جماهير المخالفين والمقاومين له في بادئ الأمر، بل يجب أن ينظر إليه بعين البحث والنقد الصحيحين. فإن تبيّن منه نور حق وكان الناظر ضعيف الهمة، لا يجرأ على مناصرته ومظاهرته ـ فليصبر حتى تكثر الأعوان ـ ولايسارع لمجاراة الكفران به. فكم مضطهد للمسيح، لم يلبث حتى اعتنق دينه وجاهر بتعاليمه، غير مبال بالقتل وأنواع العذاب. وكم عربي ناهض محمدا، ثم خاض بعد إيمانه غمار الحروب واستبسل في سبيل دعوته وطاب له الموت حبا بنصرته.

«والدعوة لطلب الحرية في فرنسا ـ وهي دعوة ومطلب حق ـ كم صادف أهلوها من المحن وكيف استحرّ فيهم القتل وسالت الدماء واليوم فالعالم يقدِّرهم ولسوف يقتدي بهم.

وهكذا دعوى الاشتراكية على ما سبق ذكره وبيانه ـ وإن قلّ نصراؤها اليوم ـ فلابد أن تسود في العالم يوم يعم فيه العلم الصحيح، ويعرف الإنسان أنه وأخاه من طين واحد أو نسمة واحدة، وأن التفاضل إنما يكون بالأنفع من المسعى للمجموع وليس بتاج أو نتاج أو مال يدخره أو كثرة خدم يستعبدها أو جيوش يحشدها وغير ذلك من عمل باطل ومجد زائل وسيرة تبقى معرة لآخر الدهر».

ثم قال: «مخالفة المألوف أمر عظيم وما يحتاجه من الجرأة وعلو الهمة أكبر وأعظم. لا تصدق أن أحدا من البشر يمكنه تخطي المألوف ومخالفته بسهولة،

فهناك عقبة كئود وهوة هائلة لا يذللها ولا يجتازها إلا فحول الأبطال ونوابغ الرجال إما بالأرفاد أو بالحكمة وعظيم الهمة. وأعظم مزايا الأنبياء، اقتحامهم مخالفة أقوامهم وما كانوا فيه من ضلال ومساوئ أحوال بما يعبدونه ويتعاملون به ويألفونه من قول وفعل وعادة. ولو لم يكن لهم إلا تلك المزية (وأنصفهم من يجحد وينكر رسالاتهم ونبوّاتهم) لأعظم من شأنهم ولوجد فضلهم كبيرا..

«فموسى (وقد بطش بفرعون وأخرج بني إسرائيل من مصر على الرغم منه)، والمسيح وهجومه على هيكل اليهود والفريسيون في أوج عظمتهم وسلطة ناموس موسى في يدهم وهو في أجلّ تعاليه. فسفَّه أحلامهم ودخل هيكلهم وكسر صناديقهم وخرّب ما يتجرون به وقال: «بيتي بيت الصلاة، يدعى وأنتم جعلتموه مغارة للصوص»!

«وكذلك محمد، فقد كسَّر الأصنام وأذل اللاّت والعزّى ومَناة واستأصلهم فعلا وأبى قبول الملك من قريش ونهض لإعلاء كلمة الحق واستسهل في سبيلها كل اضطهاد وحرب وطعن وضرب. وخالف كل مألوف لقومه غير معقول وبدأ به بنفسه وباشره بذاته وطبقه على الأقربين من عشيرته. مثل نفي التجارة بالربا وعدم التعامل بها. فحطّ الربا وأنزله من أموال أقاربه من عمومة وخئولة وكان لهم من ذلك أموال طائلة. وهكذا التبني ـ إذا كان الرجل من العرب يتبنى ابن الآخر «والنبي» قد تبنى زيد بن حارثة فكان يدعى زيد بن محمد، فلما أوحي إليه ﷺ أن ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] ـ فقد دعاه إلى أبيه «حارثة».

وهذا من المخالفة للمألوف عند العرب في المكان الأعظم. ففعله بذاته، وكان خير قدوة لترك كل مألوف غير معقول، وأمثال ذلك كثير.

* * *

الأديان الثلاثة متفقة في المبدأ والغاية

الناس تجاه الأديان الثلاثة : الموسوية والعيسوية والمحمدية وكتبها ، لا بد أن يكونوا أحد رجلين إما رجل يعتقد أن رجال الأديان الثلاثة قد أرسلهم الله وأوحى إليهم بالتوراة والإنجيل والقرآن ، والقصد من إرسالهم إرشاد الخلق وإراءتهم الصراط المستقيم في الأمور التعبدية ، ومن بيان الحلال والحرام وصون مصالح العباد بما شرعه لهم من الشريعة وإلزامهم العمل بها ـ وبالإجمال ـ بيان مشيئة الله بما يريد من خلقه وما يريد أن تكون خليقته عليه . وعلى هذا فلا يمكن أن يكون قصد الله إلا واحدا ومشيئته إلا واحدة وكتب الوحي وما أنزله على الرسل لا بد وأن تكون متفقة فى المقصد والغاية ولا يصح التباين في جوهرها ولا أن تخالف بعضها بعضاً .

فلننظر إلى الأمر الرئيسي الذى جاء فى التوراة من أمر العبادة وما أراده الله من عباده هناك ، فنرى أن الله قد نادى موسى من جانب الطور وكلمه قائلا : «إني أنا الله لا رب سواي فاعبدني أنت وبني إسرائيل» ومختصر ما ورد فيها أن طاعة الله وعبادته والعمل بما يبلغه الرسول كل ذلك له في الآخرة ثوابٌ وسعادة سرمدية فضلا عن عاجلة الدنيا . والإنسان بسوق الحب الذاتي لا يريد ولا يحب أن يعتقد أنه سيذهب سدى بعد الموت ؛ لأن الاعتقاد بذلك مزعج للنفس ، مقبض للروح فهو يرجو بعد الفناء الظاهري أن يبعث ويكون له معاد وأن يحيى حياة أبدية . ثم لننظر ما جاء في الإنجيل ـ وما قاله المسيح ـ فنرى أنه قال : «بما معناه ـ : «أعطيتني سلطانا على كل جسد لأعطي حياة أبدية لكل من أعطيته ، وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» . فالعيسوية هي

ناموس جاء متمما مكملا لما قبله من التوراة كما قال المسيح: «جئت لأتمم الناموس لا لأنقضه» إلخ.

ثم إذا نظرنا إلى المحمدية نرى القرآن مشحونا بتوحيد الله، ولزوم طاعته وعبادته بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ﴾ [الرعد: ٣٦]. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٢ـ٥]. هكذا ترى الأديان الثلاثة متفقة في الأمور التعبدية بلا أدنى تباين أو تخالف. ثم ننظر في المعاملات وما أجيز منها في تلك الأديان وما نهي عنه فيها. نرى أن ما جاء به موسى أو ما أمره الله به من الوصايا قد عمل بها المسيح ولم ينقض أو ينقص منها شيئا. وكذلك ـ محمد ـ فإنه جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل.

قلنا: إن الناس تجاه الأديان الثلاثة وكتبها ـ إحدى رجلين ـ رجل يعتقد بالوحي ويؤمن بالأنبياء والرسل ورجل يجحد الوحي ولا يؤمن بالأنبياء ولا بإرسالهم من عند الله. أما الرجل المؤمن فقد بحث ودقق وطبق كتب الأديان الثلاثة على بعضها كما مر ـ فلم يجد فيها أقل تباين، بل وجدها متفقة في المقصد والغاية. وأما الرجل الكافر، ومنكر الوحي، فيقول: إن الكون مع حوادثه من حيث حقيقتهما ليس فيهما شيء جديد! وما نراه جديدا فإنما هو في شكل الإبراز وصورة الإلقاء والتلقي. فيأتي في قرن من القرون أولو بصيرة ولب ودهاء فيعلمون تعليما بشكل خاص وصور معلومة عندهم ـ تأخذ من نفوس الخلق كل مأخذ ويبتعد لها إذا وضعت في شكل تعبدي، أو يعمل بها إذا أفرغت في قالب تعليمي.

فالتعليم بتوحيد الله وتقديسه معروف عند قدماء المصريين قبل موسى بأجيال، والتثليث من تعاليم الوثنيين وقد قال فيثاغورس الفليسوف اليوناني قبل المسيح بخمسمائة عام **وإن موسى وعيسى ومحمدا، هم رجال عقلاء حكماء امتازوا عن وسطهم وجمعوا من معتقدات الأقدمين قواعد وأقوالا وضعوها في كتب، لا يعقل أن تكون من إله السماء(!!)**

ويقول ذلك المنكر: إنه لو سلمنا أن في كتب الأديان شيئا من النفع فهو لا يوازي

مضار ما نراه بين أهل الدين نفسه! والأديان من الاختلاف والتنافر والمشاحنة والبغضاء! ولو كانت من الإله حقيقة، لجعلهم أن يتفقوا عليها ولا يختلفوا ثم يستحيل أن يكون فيها ما يرى من الخرافات إلخ.

قال جمال الدين: «هذا غاية ما عند الجاحد المنكر من القول والحجاج. والمطلوب منه في موضوعنا هنا ـ ليس الإيمان بالوحي وبالأنبياء، بل إذا كانت كتب الأديان الثلاثة متفقة بالتعاليم الجوهرية وفي المقصد والغاية أم لا؟ أما اتفاقها وعدم تخالفها فقد ثبت ولا يستطيع أحد جحوده وإنكاره. وأما ما يراه المنكر ونراه نحن أيضًا، من اختلاف أهل الأديان، فليس هو من تعاليمها ولا أثر له في كتبها وإنما هو صنع بعض رؤساء أولئك الأديان الذين يتجرون بالدين ويشترون بآياته ثمنا قليلا ساء ما يفعلون.

رؤساء الأديان ـ وما أنفعهم إذا صلحوا ـ وما أضرهم إذا فسدوا! فالأديان في أصلها وجوهرها وازع عظيم ودواء نافع مفيد لكثير من أمراض البشر ـ هذا إذا أحسن الأطباء ـ وهم هنا رؤساء الأديان ـ عدم خلط ذلك الدواء بالضار من الأجزاء وراعوا قابلية العقول قبل الأجسام وأعطوها منه بقدر معلوم، بقول مفهوم وبيان معقول!

ثم قال: «سألني أحد نواب الهند عن أشياء يعتبرها شبهات كادت أن تخل في عقيدته الإسلامية وتريبه في إنزال الكتاب أهمها: إذا كان القرآن كلام الله وقوله: ﴿وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] حقا. فلمَ الإسلام في هذا العصر في أعظم دركات التقهقر والانحطاط وعلى خلاف صراحَة الآية؟ ـ وأطال في القول حتى إذا انتهى ـ قلت له:

«اعلم أن كل دين يجب أن يكون حقا، فالإسلام اسم ومسماه الحق، فلو أتاك رجل اسمه «عالم» وهو في حقيقته جاهل هل تنكر لمجرد الاسم وعدم انطباقه فضل المسمى وتقول؛ لأن اسم هذا الرجل «عالم وهو جاهل»؟ إذن لا فضيلة للعلم! ولو أتتك الملايين باسم الإسلام كما هو الحال في هذا العصر وهم لم يقوموا بحق المسمى من الحق، هل ينبغي لمجرد مخالفة الاسم أن ينكر فضل المسمى وهو حقيقة «الإسلام» كلا.

لذلك قال تعالى ﴿وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ . . ﴾ الآية. ولم يقل ومن تسمى بدين الإسلام ليظهره! إلخ، على أن الإسلام ومن دان به من المسلمين لما علموا بحق الدين ظهروا ظهورا طبّق الأرض نورا وملأها عدلا .

«فالظهور للحق وللحقيقة وليس للإسلام اسما مجردا. وما تراه اليوم في المسلمين من التقهقر ليس من حقيقة دين الإسلام، بل من جهل المسلمين، «حقيقة الدين». وفي هذه الآية ﴿وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ما يفهمنا أن هناك كلا من بعض». فالأديان في مجموعها هي «الكل» وأجزاؤها **«الموسوية» و«العيسوية» و«الإسلام»**! فمن كان من هذه الأديان كلها على الحق فهو الذي يتم له «الظهور والغلبة». لأن الظهور الموعود به الدين إنما هو «دين الحق» كما قلنا وليس دين اليهود ولا النصارى ولا الإسلام، إذا بقوا أسماء مجردة ولكن من عمل من هؤلاء بالحق فهناك «الدين الخالص». قال الله تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

* * *

أصول الأديان واحدة

ـ بحث عرفاني ـ

قال: إن أمر التصوف لم يكن في المسلمين فقط، بل رجال أديان الكتب السماوية كانوا على حقيقة من التصوف في المعنى واختلاف في صور الألفاظ وشكل الإلقاء أو الفهم الذي يريده الرئيس أو المسيطر أن يحور به المعنى على حسب ما يرتئيه نافعا ومفيدا وموافقا للغرض في حينه.

فآيات التصوف في التوراة أكثر إغلاقا مما في الإنجيل، مثل قوله: «إسرائيل ابني البكر»! فاليهود مع وجود هذه الآية في التوراة، ما ذهبت ولا اعتقدت أن الإله له ابن أو يجوز عليه ما يجوز على البشر من أشكال التناسل والولادة أو الزوجة والولد ومثل هذه الكلمات، والأقوال لا يسعنا إلا أن نقول إنها «تصوف» أو ألفاظ لمعان حقيقتها غير ظاهر ألفاظها. وكثيرا ما تأتي أقوال المتصوفة على صورة من الإبهام بالنسبة لبعد ما بين منظورهم بالبصيرة والحس الروحي وبين ما يرى من الأشياء المحسوسة ولها قوالب ألفاظ مألوفة تدل على معناها! بعكس المرئي والمشاهد في الحس الروحي ومواجد أهل التصوف الذوقية، التي يقصر ما لدينا من الألفاظ عن تصويرها والدلالة عليها. فالتصوف يجب أن نفهمه ـ إنه مذهب حكماء وعقلاء «تريضوا» أي هذّبت ولطفت جسمانهم الرياضة وكثر منهم النظر في الأشياء والتطلع إلى حقائقها وفهم كنهها عن طريق الحس الروحي والانفعال في النفس المتعلقة في الجسم مؤقتا. فهم فيما كانوا يرون ويقولون في مواجدهم ومشاهدهم وذوقهم، إما أن يراه من كان من غير طبقتهم غير معقول وغير مفهوم وإما أن يسيء فهم معناها إذا أخذه على ظاهر لفظه.

. . كان بحث جمال الدين - في التصوف - وفي أن الأديان الثلاثة متفقة في المقصد والغاية وأن غرضها تعليم التوحيد وأن تعمل لخير الإنسان في محفل حافل في بيته، وكان من جملة الحاضرين طبيب وهو «موسوي»! فبعد أن انفض المجلس قال الطبيب: يا أستاذ إن النصرانية لا تعلم التوحيد بل أساسها قائم على التثليث، بعكس الموسوية والإسلام. والإنجيل طافح بمثل أقوال المسيح «أنا في الآب والآب فيّ» ومثل قوله: أيها الأب مجّد ابنك ليمجدك ابنك أيضًا!

فقال جمال الدين: إن المسيح وضع أساس تعليمه والغاية من مجيئه أن يكمل الناموس لا أن ينقضه وناموس موسى بُني على التوحيد، فلا يصح نقض ذلك الأساس وإن ورد بعض الأقوال ما يخالف في ظاهرها ذلك الأساس وجب الرجوع إلى التأويل كما قدمنا وأن لا يرمي أي دين بالضعف والوهن.

«وأما أمثال قول المسيح: «أنا الآب والآب فيّ» فقد ورد عنه قوله أبي وأبيكم «وكلهم أبناء الله يدعون»! وفي التوراة كما ذكرنا جاء «إسرائيل: ابني البكر» وهذه الأقوال كلها تصوف محض. «وورد في كلام أهل التصوف من المسلمين أقوال مغلقة - مثل قول الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي والخواص والجنيد والحلاج، والجبلي وابن مشيش والسهروردي والبكري وغيرهم. وإليك أمثلة من ذلك! يقول الشيخ الأكبر في بعض صلواته: «اللهم يا من ليس حجابه إلا النور ولا خفاؤه إلا شدة الظهور، أسألك بك في مرتبة إطلاقك عن كل تقييد، التي تفعل فيها ما تشاء وتريد وبكشفك عن ذاتك بالعلم النوري وتحولك في صور أسمائك وصفاتك بالوجود الصوري». وقول السيد البكري: «نعم العبد الذي به كمال الكمال وعابد الله بالله، بلا حلول ولا اتحاد ولا اتصال ولا انفصال». ثم قال: «ترون هذه الكلمات المتناقضة ظاهراً، إنما أراد نفي الحلول الذاتي فأتى لذلك بنفي الحلول أولا وإلا كيف يعقل لو بقينا على مفهوم الظاهر من معنى الكلمات، أن المتصل بالوقت ذاته يكون منفصلا؟ فمعاني التصوف وإن كانت مغلقة في الغالب لا يفهمها إلا أصحاب الذوق والمواجد، ويعسر على غيرهم تناول فهمها فلا بأس من التقريب في التأويل لينتفي غير المعقول.

«وخير مثال يقرب للعقل المفهوم في مثل هذه الحال والأقوال «المرآة» التي تمثل

الشيء تماما، فينفتح بهذا المثال بعض مغلقات ما ذكره من كلام المتصوفة، فإذا قابلت المرآة الشمس رأيتها في المرآة ولا يعتري الإنسان أدنى شبهة أنها «الشمس» على غير طريقة الحلول في المرآة ولا على صورة الاتحاد أوالاتصال أو الانفصال! وحقيقة ذلك المرئي من الشمس إنما تجلس في المرآة «الشفافيتها» وبتلك الشفافية حصل ذلك الانطباع على تلك الصورة على غير حلول ولا ولا إلخ.

ومن الأمثلة ـ قول ابن مشيش: «وانشلني من أوحال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها، واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي وروحي سر حقيقتي وحقيقته جامع عوالمي بتحقيق الحق الأول يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن. .». وقول الحلاج: «ما في الجبة غير الله!».

ثم قال جمال الدين: إذا علمنا أن تجلي الشمس في المرآة حصل لشفافيتها، هكذا تجلى الذات في خلقه عندما تتلطف الكثافة الترابية، الجسمانية وتشف الروح وتتمكن من اتصالها بعالمها، ترى من الذوق في الشهود، ما لا يسعه إلا التعبير بالمتناقضات ظاهرا كما تقدم وليس ثمة تناقض. وكلام المسيح إن هو إلا غاية في التصوف، ولا يصح حمله أو فهمه على صورته الظاهرية وإلا لانتقض أساس الناموس الموسوي الذي إنما أتى ليتممه، فلا يصح أن تنزل التوراة على موسى من عند الله «بالتوحيد» وينزل الإنجيل من عند الله على عيسى «بالتثليث». وصريح أقوال المسيح في جوهر الاعتقاد أكبر دليل على صحة ما نقول من أن الأديان الثلاثة متفقة في المقصد والغاية».

* * *

المسألة الشرقية

أخطاء السلاطين الأتراك!

قال جمال الدين: مختصر المسألة الشرقية هي عراك بين الغربي والشرقي! وقد لبس كا منهما لصاحبه درعا من الدين! فالغربي تذرع بالنصرانية والشرقي بالإسلامية. وأهل الديانتين كالآلة الصماء بأيدي محركيهما! فالقائمون بالنصرانية يسخرون الدين لأجل الدنيا ويحسنون أمر دنياهم وما تتطلبه مظاهر الحياة. والعاملون بالإسلامية يسخرون الدنيا لأجل الدين وإذا هم لم يعملوا بأحكامه يخسرون الدين والدنيا معا.

إن فتح القسطنطينية ـ تلك العاصمة العصماء ـ من قبل السلطان محمد الفاتح سنة ٨٥٦ ـ سنة ٨٥٧ هي التي ولدت الحقد في الملوك المسيحيين ضد المسلمين وأخذت من ذلك الوقت تجمع كيدها وتحصر همها لمناصبة الدولة العثمانية وتعمل على إذلالها وتضعضعها وإخراجها من فتوحاتها الأوروپية بكل وسيلة وفي كل سانحة وفرصة. والأكثر في الحروب، والتغلب، والانتصار فيهما، إنما يكون بالقوة وبالعلم ولو أن الدولة العثمانية راعت من يوم تأسست أو من يوم ما استقلت به سنة ٦٩٩ وراقبت حركات العالم الغربي وجرت معه حيثما جرى في مضمار المدنية والحضارة وقرنت إلى فتوحاتها المادية ـ القوة العلمية ـ على نحو ما فعلت اليابان أقله.

نعم لو فعلت ذلك، لما كان ثمة مسألة شرقية أو لما ظهر ذلك التباين الذي لا يثبت معه الحكم طويلا وهو تحكم الجهل بالعلم ـ أو «حكومة جهل تحكم حكومات علم»!

ولا يتسنى اليوم للسيف المجرد أن يحكم بأمة يدافع عنها مدافع العلم ـ وما مسألة الدين إلا ذريعة ـ تظهر بعد استكمال القوة للوصول لتلك الغاية وهي دفع الجهل والحكومة الجاهلة عن الحكم بأمة عالمة لها تاريخها ولسانها وآثارها ولو كانت بالية.

وإذا كان للضغينة الدينية شيء من الدخل في إيجاد المسألة الشرقية والاحتفاظ بها. فإنها ليست هي كل أسباب المسألة ـ بدليل أن سلاطين آل عثمان فتحوا وتوغلوا وضموا الممالك وكانوا يدينون بالإسلام.

ومن دخل في ملكهم وتحت سيطرتهم ـ كانوا نصارى وأشد تمسكا بالنصرانية مما هم الآن. فلو كان أمر الدين هو الباعث على هذا الحقد والمناهضة لكان الأولى أن يظهر إذ ذاك وعدم ظهوره، بل رضوخ الطوائف والإمارات النصرانية للحكم العثماني الإسلامي أكبر دليل على أن مسألة الدين لم تكن هي وحدها الفاعلة في أمر المسألة الشرقية التي امتدت وستمتد إلى غير تركيا وستعم كل قارة وكل حكومة تتفق في شكلها وحكمها وتفريطها مع حكومة تركيا.

إذا تفحصنا عوامل تغلب الدول الإسلامية على الحكومات النصرانية لوجدناه منحصرا فى «القوة والعلم». وهكذا يدول أمر الدول ـ انتصارا وانكسارا. والدول المسيحية اليوم إنما يغلبون الحكومات الإسلامية بالعلم ـ مصدر القوة وينغلب المسلمون بالجهل ـ مصدر الضعف. علم الأتراك يوم تسنى لهم فتح الممالك «علم الحروب وتعبية الجيش» ـ وجهل الأوروبيون ذلك ولم يضارعوهم فيه، فانتصر الأتراك وانكسر الفرنجة.

التزم الأتراك والسلاطين العظام منهم جانب الدين وكان على منصة المشيخة الإسلامية علماء أعلام وفقهاء وأجلاء عالمون عاملون بحقيقة وأحكام الإسلام ـ يصدر السلطان وأكابر دولته عن رأيهم وينزل على حكمهم ـ فعدلوا في الرعية وأمنوا من دخل في ذمتهم، وسهلوا لهم الصعاب وحافظوا على جامعاتهم من دين ولسان وعادة، فرضخ المستعمرون من الطوائف النصرانية لقوة العثمانيين وعدلهم وعلمهم بالنسبة لجهل غيرهم في تلك الأعصر.

فظل النصارى في طاعة العثمانيين، وظلوا في كل المعاني رعية لهم ما دامت تلك المؤهلات والصفات في الفريقين: القوة والعلم في الحاكم! والضعف والجهل في المحكوم.

حتى إذا انعكس الأمر وبان الجهل مصدر الضعف في الأمة الحاكمة وظهر العلم مصدر القوة في الأمم المحكومة، نهضت للتخلص من ربقة الاستعباد لمن دونهم في العلم واستبسلت في الرجوع لحكم ذاتها بذاتها.

وقد سهل عليهم كل صعب في هذا السبيل، إقرار الدولة لهم على جامعاتهم الكبرى من دين ولسان وتاريخ تلك النعمة التي كانت وتكون على الدولة أكبر نقمة. ولا مناص لها من تحمل أعباء ذلك وهي سنة الوجود. لأن الأمم المحكومة إذا تيسر لها المحافظة على جامعاتها من دين ولسان وتاريخ ولم تستحل وتنحل في غير عنصرها فهي أرقب الناس للفرص وأعلق الخلق بإعادة مجدها وتجديد وإعادة سيرتها الأولى.

ولن يثنيها أشد العوامل عن المطالبة بها وتزداد نشاطا وتستمد قوة معنوية كلما آنست من حاكمها المستهين بها استطالة بغير حق واستهضامًا لحقها بغير وجه مشروع وبقهر ليس له من الإنصاف نصيب وبقتل يحيي ميت العزائم.

ثم قال: ومن ينظر إلى تاريخ الدولة العثمانية ونشأتها، لا يتمالك نفسه من الإعجاب بنشاطها وكثرة ما فتحته من الممالك وأخضعت لسلطانها من الأمم، ويأخذ به الاستغراب كل مأخذ من تفريطها وعدم جريها مع أحكام الزمن وحرمانها نفسها ومن دخل في حكمها من الأمم أن تجري وإياهم في ميدان الحضارة أو أن يبقى لها أثر من الآثار في تلك الممالك والأمصار. نشأت في الجيل السابع للهجرة أو آخر القرن الثالث عشر للميلاد بآسيا الصغرى، فاستخلص السلطان عثمان الأول ما بيد السلجوقيين من الملك وهو القسم الشرقي ومشوا على ما بيد الروم من القسم الغربي.

وقد حول العثمانيون أنظارهم وصرفوا قوتهم وهمتهم إلى شبه جزيرة البلقان تلك البقعة الغريبة في وضعها الجغرافي إذ وقعت في أقصى الجنوب الشرقي من

أوروپا وإلى جانب آسيا. وبعد انقسام المملكة الرومانية إلى شرقية وغربية كانت شبه جزيرة البلقان في المملكة الشرقية وفيها غير تركيا، اليونان، والصرب، والبلغار، وورومانيا، والجبل الأسود ولكل من هؤلاء الأمم عنعنات ومطامع وعروق وأنساب ونزعات طائفية واختلافات مذهبية وميول سياسية، كانت معها البلقان في سائر الأعصر مهد الفتن والقلاقل ولا تزال كذلك وسيعم بلاء البلقان أهله ويتعدى إلى ما سواه من الممالك [١].

لأن كل دويلة من هذه الدويلات الصغيرة تطمح في تكبير حوزتها، وهذا الكبر لا يتم إلا بتصغير جارتها أو بابتلاعها ومن وراء هذه المطامع في حكومات البلقان وابتلاع بعضهم بعضا، الدول الضخمة كروسيا والنمسا ومن ساعد على استقلالهم وإخراجهم من الحكم العثماني وهم بمساعدة البلقانيين على الاستقلال إنما يريدون أن يبتلعوه ويمتلكوه جزءا بعد جزء وستكون الحجة عنصر السلاوي والصقلبي وكانت الحجة من قبل تخليص النصرانية من الحكم الإسلامي - والصحيح - قوي يحاول اقتناص وابتلاع الضعيف.

ثم قال: «هذا بحث يطول! ولنعود إلى ما كنا فيه من النظر إلى ما ترك العثمانيون من الأثر فيما افتتحوه من الممالك. افتتح السلطان مراد الثاني بلغاريا سنة ١٣٨٢م وبقيت تحت حكم العثمانيين وفي حوزتهم نحوا من أربعة أجيال والبلغاريون قوم أشداء وأصلهم من المغول مثل المجر والفنلنديين، نزحوا من جهات قازان في روسيا وأوروپا ونزلوا بلاد البلقان في الجيل السابع للميلاد وهي من أول نشأتها ألفت الاستقلال وحافظت على مكانتها وكانت دولة البيزنطيين تخشى بأسها، ثم أخذت في التقهقر فافتتحها الروسيون، ثم ناهضتهم وأعادت استقلالها في القرن الحادي عشر، ثم دخلت في حوزة الروم وصارت جزءا من المملكة الرومانية الشرقية ثم استقلت ثالثة ولم يفقد البلغاريون استقلالهم أربعة أجيال إلا مع العثمانيين وماذا فعلوا مع البلغار في مدى تلك الأجيال وأي أثر عثماني تركوا في بلغاريا؟! لا شيء! بلى، تركوا لهم جامعاتهم الكبرى من دين

(١) وآخر هذه النزعات الطائفية والقومية، قد أتت بنتائج غير إنسانية كثيرة في آواخر القرن العشرين!

ولسان وتاريخ يسيرون مع الحضارة والمدنية مع السائرين وحكامهم الأتراك من القاعدين مكتفين بالفخفخة والغطرسة والفخر بالأسلاف!

هذه أربعة قرون وبلغاريا تحت حكم العثمانيين وهي لا تزداد إلا انحطاطا حتى إذا ما صارت أيالة ممتازة بموجب معاهدة برلين نهضت وقطعت شوطا بعيدا في الحضارة والعمران والترقي وصار لها جانب يخشى حتى من الدولة العثمانية.

أما الصرب فهي أيضا من فتوحات مراد الثاني سنة ١٣٨٩م وبقيت كذلك في حوزة العثمانيين أكثر من أربعة قرون، وقد حاولت التخلص من حكم العثمانيين مرارا وآخر ثورة قام بها الصربيون دامت أربعة عشر عاما نال بها الصربيون من الباب العالي نوعا من الاستقلال! وسنة ١٨٧٨م استقلت تماما بمقتضى معاهدة باريس ولحقت بجارتها بلغاريا. وكذلك اليونان فقد أخضعتها الدولة العثمانية مع من أخضعت من ممالك البلقان وظلت في حوزتها وتحت حكمها إلى سنة ١٨٢٩ فاستقلت بمناصرة أوروبا وبعد حروب طويلة دامت سبع سنين واشتركت فيها العمارة المصرية بقيادة إبراهيم باشا إذ أرسلها محمد علي باشا الكبير إلى المورة، للأمر بالمعروف.

أما رومانيا وكانت في القرن الثاني عشر عبارة عن إمارتي فلاخيا ومولدافيا وقد خضعوا للعثمانيين وكانوا يؤدون الجزية من سنة ١٣٩٢ إلى سنة ١٧١٦. ثم بعد ذلك دخلوا تحت سلطة الحكم العثماني، ثم احتلت روسيا البلاد وأعادت لهم امتيازاتهم التي كانت لهم وخسروها من سنة ١٧١٦ ثم كانت ثورة ١٨٦٦ وانتهت باختيار الرومانيين البرنس شارل دي هوهنزلرن الألماني. ثم قرر مؤتمر برلين استقلال الولايتين المعروفتين بالفلاخ والبغدان، استقلالا تاما ودعاهما باسم رومانيا. وفي سنة ١٨٨١ جعلت الإمارة مملكة ونودي بأميرها ملكا.

أما الجبل الأسود ـ وله من اسمه نصيب ـ فهو مقاطعة صغيرة، جبلية وعرة، لا تزيد مساحته عن ٣٦٣٠ ميلا مربعا وسكانه مائتان وسبعة وأربعون ألفا وهم من العنصر الصقلبي وأكثرهم فلاحون رعاة، على غاية من شقاء العيش. هذه الإمارة الحقيرة قديمة العهد بالاستقلال ولم يرضخها، ويفتتحها من العثمانيين إلا ذلك

السلطان العظيم سليمان القانوني الذي وصلت السلطنة العثمانية في عصره إلى منتهى المجد والعظمة. ولما كان الجبل الأسود على ما ذكرنا من الفقر والوعورة وأهله أولي بأس وشدة واستبسال في الدفاع عن استقلالهم، فكانت الدولة تعد الجبل من ولاياتها، والجبليون من حين لآخر يجاهرون بالعصيان، حتى إذا حملت عليهم جيوش العثمانيين يتظاهرون بالرضوخ. وهكذا من سنة ١٥٢٦ إلى زمن البرنس نقولا ـ وهو ملك الجبل الحالي ـ ظل معترفا بسيادة الدولة إلى سنة ١٨٦٢، ثم جاهر بالعصيان والتمرد حتى إذا كان مؤتمر برلين ـ ذلك القضاء المبرم على الدولة ـ فقد أعلن استقلال الجبل الأسود والتحق بإخوانه أمراء شبه جزيرة البلقان وتخلصوا من حكم آل عثمان.

هذه هي شبه جزيرة البلقان التي افتتحها العثمانيون وبقيت في حوزتهم وتحت سلطانهم لأجيال، فماذا أحدثت في تلك الممالك من آثار العمران؟ وماذا تركت في تلك الشعوب من الذكرى؟ وماذا أعدت من الحزم والرأي والتدبير لبقاء تلك المقاطعات والإمارات في حوزتها؟ وإذا كان الجواب «لا شيء»! ، حينئذ يضطرنا الإنصاف إلى أن نقول: إن الدولة العثمانية في فتوحاتها وما شاهدناه من تفريطها، لم تكن لتحسن الاستعمار بل بقيت سدا منيعا للأمم المحكومة منها، يحول بينها وبين الأخذ بأسباب الحضارة ومجاراة الأمم الراقية في مدنيتها وعلومها وصنائعها. شعوب من ذكرنا من ممالك البلقان يزيدون عن السبعة عشر مليونا ولكل أمة ومملكة جامعات ومميزات من تاريخ ودين ولسان وعادات وأخلاق وهي في كل هذا ـ على طرفي نقيض مع العثمانيين الأتراك ـ فلو أخذت الدولة بالحزم بعد الفتح وعملت بصائب الفكر والرأي، لعلمت أن بقاء تلك الممالك في حوزتها يحتاج لإيجاد جامعات تجمعها مع شعوبها فتعمد إلى وسائل تعميم لسانها ـ بإحداث دور علم وغيرها ـ حتى إذا استطاعت وتسنى لها في ظرف جيل أو جيلين أن تعمم لسانها ـ كان لها إحدى العوامل الكبرى للبقاء ولعدم سرعة الانفصال والتفكك! إذ يكونون أتراكا باللسان مثلا، أو بالدعوة الدينية كما يفعل اليوم دول الاستعمار ببث المبشرين من الإنجيليين والرهبان وبتشييدهم «دور العلم». فإذا انتشرت الدعوة الدينية، وقبلتها الأمة المستعمرة اشتركوا بجامعة ثانية وهى اللسان والدين فكان الارتباط أشد وأوثق.

وهكذا، إذا فازت على مدى أربعة أجيال، أن تعمم الجامعات التي لها بين تلك الشعوب، اشتدت عرى الاتحاد وانتفى التغاير وأسباب النفرة، أما والدولة العثمانية لم تفعل في ممالك البلقان ما ذكرنا ولم تفكر فيه فضلا عن أن تسعى إليه فكان خروج تلك الممالك من حوزتها واستقلالهم، أمرا محتما وقوعه لا مرد له ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٦٢]!

ثم لننظر في فتوحات الدولة للممالك الإسلامية من مصر والشام، فحلب، فبغداد وتونس وسائر الممالك العربية! فنراها قد تمكنت من الفتح مع قليل من المقاومة والحروب وكان لجامعة الدين التأثير العظيم في قبول الحكم العثماني، ولو أن الدولة قبلت من يوم استقلالها وعملت بالفكرة من عهد السلطان محمد الفاتح أو السلطان سليم، بأن يتخذ اللسان العربي ـ وهو لسان الدين ـ لسانا رسميا وتسعى بكل قوتها وجهدها لتعريب الأتراك، لكانت في أمنع قوة وآمن حصن من الانتقاض والخروج عن سلطانهم، ولكنها فعلت العكس؛ إذ فكرت بتتريك العرب! وما أسفهها سياسة! وأسقمه من رأي؛ لأن تدين الأتراك بالدين الإسلامي، على جهل باللسان العربي جعل لهم في القلوب منزلة ساقت وتسوق الأمة العربية للعطف عليهم مع سائر المسلمين. فما قولك لو تعربت وانتقى من بين الأمتين، النعرة القومية وزال داعي النفور والانقسام «بالتركي وبالعربي»! وصاروا أمة عربية بكل ما في اللسان من معنى وفي الدين الإسلامي من عدل، وفي سيرة أفاضل العرب من أخلاق، وفي مكارمهم من عادات. لا ريب لو تيسر ذلك لكان إعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسورا وجمع شتات الممالك الإسلامية تحت لواء سلطان عادل همام مثل الفاتح أو السلطان سليمان أو السلطان سليم غير عسير.

ولكن مع الأسف عدم قبول فكرة السلطان الفاتح أو السلطان سليم لتعميم اللسان العربي ـ خطأ بين ـ لا يضارعه إلا توغل العثمانيين في أوروبا وشبه جزيرة البلقان وجعل القسطنطينية عاصمة السلطنة والخلافة.

لأن المستعمرة ـ مهما عظم موقعها وطاب هواؤها لا يصح أن تتخذ قاعدة أو عاصمة الملك لأسباب أهمها أن المستعمرة ـ كما سيأتي بيانه ـ كالثوب العاري قابل

للاسترداد والممالك لا تسقط ولا تتبعثر أجزاؤها إلا من ضعف السلطان في عواصمها وبسقوطها. ومنها بعد المستعمرة على الغالب عن مجموع القوة وإحاطتها بأعداء الملك وأعوانه إلخ.

انظر! هل ترى دولة أوروبية جعلت عاصمة ملكها في غير قلب مملكتها وفي غير مكان نشأة تلك الأمة؟ فالإنجليز لم يجعلوا عاصمتهم - مع سعة ملكهم - إلا جزيرة بريطانيا وفي قلبها مدينة «لندن» وهي الجزيرة التي سكنها البريطانيون في دور توحشهم. والفرنسيس - في باريس - قلب بلاد الغاليين. وهكذا بقية الدول؛ لأنه على تقدير ذهاب المستعمرات كلها وانتقاضها فإنه يبقى من البلاد ما كان لهم ملكا خاصا.

وعلى هذا جرى الخلفاء الراشدون فمقرهم كان «المدينة» وهي قلب البلاد العربية، محاطة بقوة العرب من سائر الجهات. ثم الأمويون في الشام. ثم العباسيون في بغداد، والعاصمة أنشأها المنصور إنشاء وكان في ملكهم من المدن ما هو أطيب هواء، وأمنع موقعا من بغداد ومع ذلك فلم يستبدلوا العارية بالملك الصرف.

«نعم إن فتح القسطنطينية فيه من الفخر للفاتح ما لا يمحوه الدهر، خصوصا بعد أن حاوله الأمويون وبعثوا بالجيوش تحت قيادة يزيد ومعه خالد أبو أيوب الأنصاري صاحب المقام المعروف بالسلطان أيوب ولم يظفروا. ثم العباسيون واكتفى الرشيد ومن بعده بأخذ الجزية من ملكها! وغيرهم من ملوك الإسلام ولم يظفر بالفتح وبمعنى الحديث الشريف: «لتفتحن القسطنطينية فنعم الأمير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش» إلا ذلك الفاتح العادل الكبير السلطان محمد طيَّب الله ثراه.

ولا أرتاب أن فتح القسطنطينية لو تيسر للأمويين أو للعباسيين، لما جعلوها عاصمة ملكهم، بل جعلوها كما جعلوا غيرها من الممالك، مستعمرة تتقوى المملكة بجباية الأموال منها، وفوضوا أمر إدارة شئونها لأحد الدهاة منهم كما فوضوا مصر والأندلس والسند وبخارى وبلاد الفرس وغيرها للمقتدرين من العمال وهذا هو الحزم وغاية الصواب.

وأما شبه جزيرة البلقان فإن كان في ظاهر أمر فتحها من الأتراك ما يدل على القوة والبأس فإنها في حقيقة الأمر كانت مصدر بلبال الدولة وإضعاف قوتها إذ لم تسكن فيها القلاقل والفتن ولم تفتر الدولة من تجييش الجيوش وإراقة الدماء في سبيلها ـ كل ذلك ـ وبالنتيجة كان البقاء في البلقان غير مضمون، بل كان استقلال ممالك البلقان مجزوما فيه من كل عاقل.

قال: «ولقد سمعت من المرحوم عالي باشا ذلك الصدر الأعظم الكبير العقل، النافذ النظر وهو يعتقد أن داء البلقان، سوف يضعف جسم الدولة وسوف تضطر مكرهة على التخلي عن البلقان بعد خسارات مادية ومعنوية لا يمكن تعويضها. وأنه وجد طريقة للتخلص من البلقان مع حفظ شرف الدولة والاستعاضة عنه بمبالغ جسيمة يمكن إصلاح بقية المملكة بها، وتعزيز قوتها في آسيا وإفريقيا.

ويا للأسف كيف أن هذا الرجل الكبير لم يتوفق لتحقيق هذا الفكر السليم والعمل الذي فيه كل خير وكان أمر الله مفعولا؟! فلو فعلت الدولة وأخذت برأي عالي باشا وغيره من حكماء الوزراء أو بالذي تصورته لها من أنها تتخذ بغداد عاصمة ملك ومقر للخلافة. وعندها الدجلة والفرات والخابور والبصرة وشط العرب. ذلك النيل الذي يفيض كل أربعة وعشرين ساعة مرة! وتلك السهول الخصبة التي على جانبي وضفتي ذينك النهرين العظيمين والتي مساحتها عشرة أضعاف أراضي مصر، على أقل تعديل، وأعظم منها خصبا وأكثر إنباتا.

ثم قال: رحم الله محمد علي باشا ذلك الأمي الكبير، نابغة رجال أعصار وأجيال، فقد طوى تحت جبته همما تدكدك الجبال وقلبا يقدم به على هائل الأعمال وتحت عمامته دماغا فعالا وعقلا جوالا وبصرا نافذا وفكرا ثاقبا ورأيا صائبا. بلغ الرجل من حدة الذهن وفرط الذكاء والدهاء وبعد النظر أنه بعد أن حسن خراب مصر تحسينا بينا، ونظم ما اختل من أمورها واستنهر النيل للقناطر الخيرية ومنها يجري في الجداول والترع. عرض على الباب العالي والتمس من السلطان أن يعيضه بالبصرة عن مصر وأنه يعد إسعاف هذا المسئول منّة وفضلا. فتأمل؟!

هذا الرجل العظيم لو لم يعلم يقينا أن البصرة خير من مصر لما طلب ما طلب، هذه هي البصرة، وأما الموصل «ذات الربيعين» فما شئت عنها فقل! ثم إذا علمنا أن

المسافر من بغداد في عصر الرشيد كان يمشي في ظل الأشجار حتى يبلغ غوطة دمشق ومصب نهر «قويق» في حلب. ثم إذا اتجه من هناك للشمال ورأى سيحون وجيحون يجريان في سهول أطنه وفي الجنوب عند دمياط ورشيد والإسكندرية يصب النيل المبارك وأن كل تلك الممالك والأمصار والأنهار هي ملك خاص للمسلمين لا ينازعهم فيه منازع إلا أولو القوة من أهل المطامع ونزاعهم بالختل والخداع وبالحيلة والمكر ليس إلا.

فلو أنصف الأتراك أنفسهم وأخذوا بالحزم ـ واستعربوا ـ وترأسوا ذلك الملك وعدلوا في أهله وجروا على سنن الرشيد أو المأمون على الأقل ولا نقول على سنن وسيرة الخلفاء الراشدين!

فمَن كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة؟ أو أعز جانبا؟ وأمنع حوزة، مَن؟ ولكن مع الأسف إن إخواننا الأتراك لم يحسنوا من أعمال الدنيا غير «الحرب» وهم فيما عدا ذلك وفيما يختص في شئون العمران أقل روية وعملا من سواهم ـ يسوءني وأنا ممن يحبهم ـ وأتاثر كلما افتكرت بما ارتكبوه من الخطأ في عدم قبولهم اللسان العربي وأن يستعربوا!

وأزداد تأثرا إذ أراهم يرتكبون خطأ أفضح وهو جريهم وراء تتريك العرب واستبدال اللسان العربي لسان الدين الطاهر والأدب الباهر وديوان الفضائل والمفاخر باللسان التركي»!!

وذلك اللسان الذي لو تجرد من الكلمات العربية والفارسية لكان أفقر لسان على وجه الأرض ولعجز عن القيام بحاجيات أمة بدوية ولولا أنه خليط من ثلاثة ألسنة لما رأينا للأتراك شعرا يقرأ أو منثورا يفهم أو بيانا يترجم عن جنان! وهو في حالته هذه ـ إذا وزن مع لسان من الألسنة الحية ـ تجده قد خف وزنا وانحط معنى. «فكيف يعقل تتريك العرب وقد تبارت الأعاجم في الاستعراب وتسابقت وكان اللسان العربي لغير المسلمين ـ ولم يزل ـ من أعز الجامعات وأكبر المفاخر فالأمة العربية هي «عرب» قبل كل دين ومذهب. وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان ما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان.

ثم قال: لقد كاشفت السلطان عبد الحميد في أكثر هذه المواضيع في خلوات عديدة فكان يسمع بكل إصغاء ولكنه في النتيجة كان قليل الاحتفاء بكل ما قلته له وفهمت من أوضاعه وأسارير وجهه أنه لا يعتقد أن قبول اللسان العربي وفكرة الفاتح والسلطان سليم بذلك ـ صوابا ـ وكذلك لا يحب أن يعترف أن توغلهم في أوروبا وفتح شبه جزيرة البلقان كان خطأ! نعم إن زمن العمل قد مضى وانقضى وكان الحزم في إخراج تلك التصورات لحيز العمل والدولة العثمانية إبان عزها واستكمال قوتها وبأسها أما اليوم فالأمر للقوة والطاعة على الضعيف، وليس باستطاعة عبد الحميد أن يفعل ما كان بإمكان السلطان الفاتح أو السلطان سليمان أو السلطان سليم أن يفعله.

قال: فحولت وجهي عن ما لا يمكن إلى ما يمكن، وفيه وقاية ما بقي من أملاك السلطنة العثمانية في غير أوروبا. فقلت للسلطان عبد الحميد: أتأذن في تقديم لائحة في تصوراتي، لتحسين حال المملكة والتحوط بصونها من مطامع الأعداء؟ قال: لا أريد أن تكتب شيئا من ذلك. إذ لا أحب أن يطلع أحد على ما يدور بيننا! بل قل لي ما تشاء أن تكتبه بكل حرية وصراحة فأنا لك من السامعين!

قلت: أيعتقد جلالة السلطان أن مصر لو بقيت ولاية ترسل إليها الولاة من الأستانة مثل باكير باشا ومحمد باشا اليدكشي ـ وأمثالهما لجمع الأموال من غير وجهه وتوزيعها على رجال الدولة هنا «الأستانة» فقط، على ما هو مشهور وغير خاف على جلالتكم. هل هو خير لمصر وأهلها وللسلطنة؟ أم جعلها خديوية كما هي قبل الإنجليز، خاضعة للدولة ومن الأجزاء المتممة للسلطنة، يأتمر خديويها بأمركم والعساكر المصرية عثمانية تسرع لتلبية الأمر باللحاق مع جيوش السلطان وبكل المعنى رعية، خاضعة، طائعة؟ فتفكر مليا وحول وجهه نحو النافذة عني، حتى ظننت أن الحديث قد أساءه وأنه لا يحب الخوض فيه ولا العودة إليه! وإذا هو بغتة قد التفت وتوجه بكليته إليّ وكأنه قد انتهى من ذكرى ما جرى من محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا وكيف أنه كاد أن يستخلص السلطنة العثمانية فتحا بالقوة».

وقال: لو قلنا إن وجودها خديوية أحسن من بقائها ولاية، ثم ماذا؟

قلت: يا مولاي، إن السلطنة العثمانية تتألف اليوم من ثلاثين ولاية ومساحة

أملاكها في آسيا فقط ستمائة وواحد وستون ألف ميل مربع (ومساحة بريطانيا وأيرلاندا مائة وعشرون ألف ميل فتأمل !!) فتبدأ بالبعيد منها والمطموع فيها مثل «طرابلس الغرب»فتجعلها خديوية، ثم إلى ولايات بغداد فالبصرة فالموصل فتجعلها خديوية! والي بيروت وسورية وحلب مع القدس فتجعلها خديوية، ثم إلى جزائر بحر سفيد وكريد مع أدرنة وسلانيك فتجعلها خديوية ويشترط عليها تعزيز العمارة البحرية قبل كل شيء. ثم الحجاز فتجعل خديويها الأقدر من الأشراف الهاشميين اليوم والأحسن سيرة. ثم اليمن وخديويها يكون الإمام الزيدي.

أما الأناضول وولاياته قونية، أنقرة، آيدين، أطنة، قسطموني، سيواس، ديار بكر، بتليس، أرضروم، معمورة العزيز، وآن، طرابزون، فتقسم إلى ثلاث خديويات، يكون لكل خديوية منفذ بحري الواحد على البحر الأسود إما في سيواس، أو صامسوم، والثاني في بروسة والثالث في أزمير. وبلاد الألبان وهي ولايات قوصوه ويانية وأشقودره ومناستر، فتجعلها خديوية أيضا، هذه يا مولاي! عشر خديويات بل عشر ممالك كل واحدة منها أعظم موقعا من اليونان وأكبر مساحة وأخصب أرضا وأنشط قوما وأرجح عقولا. وما يقعدهم عن اللحاق بمن انفصل عن السلطنة العثمانية أو التفوق عليهم إلا شكل الحكم وقيود وأغلال المركزية القاتلة للهمم، الموهنة للعزائم.

«ومن يرسل لتلك الولايات من الولاة اليوم ـ أحد رجلين، إما الخامل ، البليد، المرتكب وهمه جمع المال، وتوسيع الخراب. وإما الرجل النشيط، العاقل وليس له من الأمر شيء إلا الاستئذان من الباب العالي لترميم جسر في بغداد مثلا سقط منه حجران أو أكثر! فلا يصدر الإذن إلا بعد أشهر أو أعوام وبعد أن يكون طغيان النهر قد جرف كامل الجسر!

«هذه الخديويات يا مولاي أول من تفوضها إليهم أهل بيتك من أمراء آل عثمان، فتخلصهم من القعود مع النساء وتربية الخصيان! فيحسن بالضرورة كل منهم ما تولاه من أجزاء السلطنة، ومصير ذلك التحسين والخير إليه ولأسرته ويكون مع كل أمير وزير فاضل أمين. ثم لا أرى مانعا يمنع من العهد ببعض الخديويات إلى من

عرف من الوزراء، بالإخلاص والهمة ورجاحة العقل - ومن غير الوزراء أيضًا - وجلالة السلطان إذا شاء وفتش عنهم، وجدهم في غير حاشيته الذين يدخلون على بلاطه ولحضوره ويحشون آذانه بالباطل ويمنعون عنه كل حقيقة ويقصون عن قربه كل فاضل.

ثم قال: وقد رأيت السلطان - وهو على تمام الإصغاء لما أقول - قد تقطب وجهه، وعلته كآبة امتعاض وحزن! فقلت: يا مولاي، وعزة الحق، وبولائي لأمير المؤمنين ونصحي للمسلمين، إن ما ساقني لما قلته إلا الإخلاص، والحرص على ملكك والغيرة على الدولة والممالك الإسلامية الشرقية، التي ليس لجمع شتاتها وتوحيد كلمتها إلا الاعتصام والانضواء تحت لواء الخلافة. وجلالتك ترى أن أجزاء السلطنة أخذت تتفكك، الجزء بعد الآخر! فصار من الواجب نظم الممالك وأجزائها بسلك من النظام، أوثق وأشد وأحكم. وما وجدت ذلك السلك إلا بذلك الشكل الذي قدمته. ولما انتهيت، هز السلطان رأسه وتناول لفافة من التبغ، أسرع في تدخينها وقال: ماذا تركت يا حضرة السيد للسلطان وما أبقيت لتخت آل عثمان؟

قلت: يبقى جلالة مولاي السلطان، ملك أولئك الملوك! وينضم إلى العرش العثماني عشرة عروش، غير عرش مصر. ثم متى نهضت تلك المقاطعات والخديويات وأخذت نصيبها من الرقي والعمران؟ وصارت «مثلا» خديوية العراق مثل خديوية مصر، ثروة وانتظاما، لا شك في أن إيران تسرع لمقام السلطنة العظمى، للاتحاد معها، إذ هي في أمس الحاجة لشد الأزر ولصون كيانها من مطامع الغرب، الموجه نحو عموم دول الشرق. ثم ما أسرع الأفغان للانتظام في ذلك السلك؟ سلك اجتماع كلمة دول الشرق الإسلامية تحت راية الخلافة العظمى والسلطنة الكبرى؟ ثم ومتى تم ذلك - وسيتم إن شاء الله - هل تقعد أهل الهند وراجاتها وأمراؤها والمائة وثمانون مليونا من المسلمين، عن نصرة الخليفة الأعظم واللحاق لشد ساعد إخوانهم، ليدفعوا غارة الغرب عن الدول الإسلامية في الشرق وعن هندهم أيضًا أو ينهضون نهضة الرجل الواحد للتخلص من ربقة الاستعمار والمستعمرين ويرجع الشرق للشرقيين وما ذلك على الله بعزيز.

« قال: أما السلطان عبد الحميد فكان سيئ الظن لا يأمن أحدا ويسيء الظن في

كل أحد! فقال لي: يا حضره السيد، هل اجتمعتم بإسماعيل كمال بك في هذه الأيام؟ فانتقلت بسرعة إلى ما يرمي إليه السلطان ـ وهو أن إسماعيل كمال بك كان قد كلِّف أو تعين لولاية طرابلس الغرب وطلب توسيع صلاحيته وأن يكون له الحق في عقد قرض لتحسين وإصلاح الولاية وغير ذلك. وقد سمعته من بعض الزائرين وليس من نفس الرجل.

أجبت: يا مولاي، أعتقد أنني لا أسخر ضميري لجد العرب «إسماعيل بن إبراهيم الخليل» إذن، فما أبعد إسماعيل كمال ـ أن يسخِّرني أو أن أسخَّر له. وما اتبعت فيما عرضته على جلالتكم، إلا داعي النصح والإخلاص. فلم يرد السلطان جوابا على ما ذكرته وسردته بل قال مثلا تركيا «آت إسكداردن كجتدي»! ومعناه« أن الجواد اجتاز إسكدار»! وهو مثل يضربونه الأتراك «لما فات من الأمر» ولا حيلة فيه.

ثم تنفس جمال الدين الصعداء وقال: «هذا ما كان مني في هذا الشأن يا شيخ بني مخزوم! وهذا ما كان من السلطان عبد الحميد، سلطان العثمانيين وخليفة المسلمين! الذي تعنو له وجوه ما يقرب من الثلاثمائة مليون، ينتظرون من هذه الدولة هبة ليحيا بهم حقهم ويموت ويهلك باطل غيرهم! كيف لا تذهب النفس حسرات وأكبر سلطان في المسلمين هذا موقفه من الجمود عن قبول النصح وإصلاح الملك والمحافظة أو المطالبة بصريح حقه في أجزاء سلطنته بل روح الممالك الإسلامية باب الحرمين ـ مصر؟ وفي صون مصر في حوزة الملك الإسلامي وكشف الإنجليز عنها، صون للممالك العثمانية وغلق لكل بلية مهيأة في المسألة الشرقية.

«وعزة الحق! إن ما كتبته عن حق مصر وما استنهضت من الهمم وما حذرت به من سوء المصير لو تلي على الأموات لتحركت أرواحهم ولرفرفت على أجداثهم ولأحدثت لأعدائهم أحلاما مزعجة ومراء مريعة. كاد أن لا يخلو سطر من «العروة الوثقى» إلا وفيه ذكر «مصر» ولا براهين وأدلة على ظلم الإنجليز إلا ويتمثل في «مصر». ولا خوف من شر مستطير يفكك أجزاء السلطنة العثمانية إلا ونراه من التهاون في أمر «مصر»! ذلك لأن جرح مصر كان ولم يزل له في جسم الأمة الإسلامية والعرب عموما نغول وبعروقها اتصال.

«ولا يفوتن أهل الشرق العلم بأن كل مدينة وكل مقاطعة إسلامية شرقية هي بمنزلة «مصر» وإن لم تسقط تحت حكم أهل المطامع اليوم فالشراك لها منصوبة والسقوط «والعياذ بالله» قريب! إلا إذا نشطت العقول وعملت أولو العزائم ولمّت الأمم الشرقية شعثها ووحدت كلمتها وطلبت حفظ ملكها بأسبابه وعزة الحرية والاستقلال بمؤهلاتها. ما قرعت آذان المسلمين والشرقيين عموما بالحجج القاطعة وهتكت أستار الطامعين بالبراهين الساطعة وأظهرت فظائع حكمهم بمن حكموا محسوسا، إلا لأقرب البعيد من زمن الاستعباد وأقصر طيّات المسافة في الذل والمهانة ، لمن لم يسقط بعد من المقاطعات الشرقية وله من الزمن ما يؤجل معه سقوطه ويلمّ شعثه، ويمد بعضهم لبعض يدا، عسى أن تكون يد الله فوق أيديهم.

«ولكن يا للأسف! إن مبدأ تدهور ممالك المسلمين في الشرق كان من شاهق عظيم، لا يمكن للحكيم الوقوف في سبيل سقوطه وهو في وسط الانحدار! أو بقربه من نقطة المركز. ذلك الشاهق العظيم، شاهق حكمة الدين! وإذا كان انحطاط الأمم مرضا، وله سير معلوم، فيتعذر على الطبيب الحاذق توقيف السير، بل غاية ما يمكنه الإتيان بالملطفات والمسكنات حتى ينتهي السير ويبلّ العليل ويدخل في دور النقاهة ـ هذا إذا لم يمت ـ وكان في موته راحة! ولميت مع الأموات، خير من ميت الأحياء! ولقد أحسن من قال:

ليس من مات فاستراح بميت　　　إنما الميت ميت الأحياء

ثم سألني السيد ـ إن كان عندي «العروة الوثقى» متفرقة أو مجموعة؟ أجبته: كلا، وإنما قرأت منها قديما أعدادا متفرقة. ثم سأل من كان يكثر من زيارته من إخواننا المصريين ـ مثل عبد السلام بك المويلحي ـ فلم يجدها عنده، بل وجد مجموعتين الواحدة عند إبراهيم بك أدهم والثانية عند أبي النصر السلاوي أفندي فأخذهما وأعطاني نسخة وبعد أن تصفح صفحات منها ـ ظهرت على السيد علامات تأثر عميق وقال:

«نعم هو الحق الذي لا مرية فيه لو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ولا ضعف قوي ولا انهدم مجد ولا تقوض سلطان. ولكن هو القدر فلا يغالب ولو

كان لنصح الحكيم تأثير لما أخطأ الجاهل! ثم قال: مصر أحب بلاد الله إليّ وقد تركت لها في الشيخ محمد عبده طودا من العلم الراسخ وعرمرما من الحكمة والشمم وعلو الهمم وإني ليذهب بي العجب ويأخذ مني كل مأخذ عندما أرى المصريين في جمود وأولي الهمة منهم في قعود!

وكيف لم يتسنّ إلى الشيخ في همته ونهضته وله من تلميذه، مثل سعد زغلول[1] وإخوانه خير أعوان ولم تتألف منهم إلى اليوم عصبة حق؟ تصدم باطل

---

(١) كان لوفاة الوطني الكبير والزعيم الجليل المغفور له سعد باشا زغلول سنة ١٣٤٦هـ سنة ١٩٢٧م رنة حزن في أنحاء وأمصار الشرق قاطبة، وقد رثاه المؤلف ونشر ذلك الرثاء في الجرائد هنا وفي مصر تحت عنوان:

(حزن الشرق على فقد سعد)

كيف لا يحزن الشرق على فقدك يا سعد؟! وكنت ركنه الركين وقائد نهضته العظيم ومرشده الحكيم. نعم أنبتتك أرض مصر وبلغت أشدّك في مصر وأوتيت الحكمة وبالغ الحجة في مصر، فناضلت عن حقها بكل ما أوتيته من المواهب وقارعت لأجل حقها الخطوب، وتحملت في ذلك السبيل أنواع المكاره والمعاطب. كنت أعلم الناس أن لجراح مصر نغولا في قلب الأمة العربية، فمصر للناطقين بالضاد نقطة دائرة الاتصال ومحط الرحال وكعبة الآمال، إذن فمصاب الشرق بك عظيم على سعة أرجائه والأمة العربية المنتشرة جماهير وقبائل حول دائرة مصرك يا سعد، لا عجب إذا أعظمت فيك المصاب وأكبرت فيك الرزيئة وعلمت بفقدك، كيف يجل الخطب ويفدح الأمر. حقا أصم بك الناعي وإن كان أسمعا:

ألا فلينح عز البلاد مدى الدهر ... وأم العلى تذري من الدمع ما تذري
فقد دهم الخطب الذي راح وقعه ... يقلب أحشاء الأنام على الجمر
فجعنا لعمر الله بالسعد والنهي ... وبالعزم والإقدام والنهي والأمر
لرزئك رزء طبق الكون مأتما ... وحزنك حزن لا يزال إلى الحشر

تساوى في إجلالك والإعجاب بشمائلك القريب والبعيد وتسابق عارفوك بالذات وعارفوك بالصفات، فبلغ السير بالفريقين إلى ذروة ركزوا فيها أعلام إعظامك، وتبجيل خلالك على السواء ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ [المائدة: ٥٤].

فآثارك خالدة يا سعد!، وأمرك في مصر والشرق متبع يا سعد وأرض أنبتتك وأمة كريمة قدّرتك وناصرتك وقدرة صالحة أوجدتك يا سعد! سوف ترينا خير خلف لك يشغل ما تركت من فراغ عظيم ويقوم في مقامك الكريم، ولولا هذا الرجاء لعز العزاء وفقدنا الصبر ولسوف ترفرف بروحك من الملأ الأعلى على من تركت من بعدك، فتسر في عالمها الروحاني إذ ترى شخصك الجليل نصب الأعين ودرر نصائحك قيد الألسن، فتعلم إذن أنك بروحك ومعناك يا سعد لم تمت:

وإن زعم الأقوام أنك ميت ... فحاشا بميت الله مالك من فخر =

الإنجليز وتجليهم عن الهرمين وتصون الحرمين فلم يبق في قوس الصبر منزع ولا في معونة الغير مطمع!

* * *

. . . كان جمال الدين كثير الإعجاب بذكاء وفضل الأستاذ العلاّمة الشيخ محمد عبده وكان كلما ذكره يقول: «صديقي الشيخ» وقلت «للصديق» أو قال لي «الصديق»! فنفهم أن المراد بالصديق «المرحوم» الشيخ محمد عبده وكان السيد عبد الله النديم المصري في آخر أيامه، يكثر من التردد إلى منزل جمال الدين. وكأن الغيرة قد فعلت في نفسه من كثرة الثناء على الشيخ محمد عبده فقال: يا سيد ما غفلت مرة عن إضافة لفظة الصديق إلى الشيخ كأنه لم يكن لك بين الناس صديق غيره؟ إذ نراك تنعت من سواه «بصاحبنا» أو فلان من «معارفنا»! فتبسم عند ذلك جمال الدين وقال: وأنت يا عبد الله صديقي ولكن الفرق بينك وبين الشيخ، أنه كان صديقي على الضراء وأنت صديقي على السراء! فسكت النديم ولم يحر جوابا مع شدة عارضته وولوعه في كثرة الكلام وكان كثيرا ما يدّعي الكفاءة مع جمال الدين! فيقول: نفي جمال الدين كما نفيت! وسجن كما سجنت! وأهدر دمه كما أهدر دمي وهكذا وجمال الدين يقابل كل هذا بإعراض وابتسام.

= ولكن دعاك الحق للخلد عالما   بأنك في الأخرى على رفرف خضر

. . . مات الأستاذ الحكيم الشرقي جمال الدين الأفغاني، فجزع لفقده صحبه ومقربوه، في طليعتهم الإمام الشيخ محمد عبده وفقيد الشرق سعد ولكن الخطب بالحكيم جمال الدين لم يزلزل الشرق وأهله كما فعل فقد سعد. وكان الفقيد الأول «جمال الدين» يكرر قوله المسطور في هذه الصفحات.

وكنت جعلت فاتحة هذا الكتاب ـ مناجاة من روح جمال الدين إلى سعد، فأبت الأقدار إلا أن تكون مناجاة بين الروحين وهذه هي بالحرف: «إن روح جمال الدين تحييك وتحيي رجل الشرق فيك وتناجيك بقولها: إن كنت وضعت في حياتي ركنا للنهضة الشرقية أو وصفت لها نفسها أبية فأنت يا سعد قد شيدت الأركان ورفعت البنيان وكنت للوصف نعم الموصوف، فتقبل خاطراتي وأزكى تحياتي ـ المناجي جمال الدين الأفغاني»!

يرفع هذه المناجاة لمعاليك المعجب بهممك والمفتخر بنهضتك وشممك وأزيد اليوم بعد الفاجعة الحزين «على فقدك».

محمد المخزومي

انتهى رثائي الذي نشرته الصحف!.

ثم قال: يا شيخ بني مخزوم، إنك ترى بين هذه الوريقات «العروة الوثقى» أمثلة تنطق وقضايا تصدق على الشرق وأهله ما داموا في تلك الغفلة وفي ذلك الشقاق والنفاق ورضاهم في الذل خوف الذل. فالظلم إذا تغير في شكله لا يتغير في نتيجته وتتغير أسماء البلدان والمقاطعات المظلومة وأهلها ولكن أعمال الظالمين لا تتبدل. وإن كان لها مبدل فقوة الأمة واجتماع الكلمة.

وهكذا القول في الصادقين، الناهضين، المجاهدين في سبيل أوطانهم وتخليص أمتهم. والساقطون الخائنون إنما تختلف أسماؤهم وتتفق صفاتهم، سنَّة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا. فإذا رأيت مثلا نوبار باشا الأرمني يعمل على نكاية مصر وما يضير المصريين وقد تبوأ رياسة النظار فيهم وليس بينه وبينهم أقل جامعة، حتى إنه لو باع مصر بأبخس الأثمان فهو الرابح ولا يخسر في هذا البيع ملة! ولا وطنا ولا جنسا!

فلسوف ترى من الدخلاء في غير مصر ـ بغير اسم ـ يعمل ما هو أنكى من عمل «نوبار» للبلاد ويكون شر آلة للاستعباد وإن رأيت نوبار يعطل جريدة وطنية مثل «الأهرام» فمن كان على شاكلته في غير اسم من الشرق ربما يصادر الجرائد الوطنية بعد أن يزج في أعماق السجون أصحابها، وهكذا لا تتبدل من الخائنين إلا الأسماء ولا من أعمال الظالمين إلا الأشكال.

* * *

العدل
الحقيقي أو الصوري؟

قال: لا ريب أن العدل من أشرف الصفات وأسمى الفضائل؛ إذ به حفظ المجتمع الإنساني وعليه قوام الممالك وعمرانها. وإذا كان العدل فضيلة، فلا بد أن يكون هيئة متوسطة بين الجور والظلم وبين الخرق والتسيب، فلو تصفحنا ما وصل إلينا من أقرب التواريخ تصديقا ـ ولو شذرات ـ عن الموآبين والرومانيين والآشوريين ومعاصريهم من المصريين وما بعدهم من التتار وغيرهم، نجد أن الملوك في فتوحاتهم كانوا أحد رجلين: فاتح لا يهمه غير جمع الغنائم وسفك الدماء واكتساح البلاد، يمر على البلاد مرور العاصفة الشديدة والإعصار، فيتقلص ظله بعد موته إما لتنازع قواده وقومه أو لانتفاض البلاد عليهم. وفاتح تتوفر في حاشيته الحكماء وأولو الصحافة من الوزراء، مع ميل منه للحكمة، فيؤسس ملكه على شيء من العدل فيدوم ويتداوله من بعده، إلى أن تضعف تلك القواعد بعدم العمل بها أو لتحريف بمضمونها، فتخرج عن مواضعها وتسقط مزيتها أو تنعكس النتيجة المنتظرة منها فيدخل الملك في الهرم وتدب فيه عوامل الانقراض ـ وأفعلها ـ استفحال الظلم وضعف العدل.

«وإذا نظرنا إلى أعمال الملوك وما فيها من الأثر المحمود نرى من العدل الذي أتى ـ وهو مقصود بذاته ـ هو ذلك العدل الذي بقي أثره وعلقت به النفوس وطاب ذكره. فكسرى أنوشروان ـ وانحراف إيوانه ـ وذلك العدل، بذلك الانحراف، الذي لم يدفعه إليه دافع، ولم يحمله على إجرائه غير الحب للعدل والولوع به فطرة، كان أفعل وأبلغ الأمثلة لمثل الفاروق أن يكتب لعمرو بن العاص: أكسرى

أعدل منّا؟ فاستهدمه حائط جامعه بعد أن أخذه من اليهودي بقهر وغلب ـ وبغير الرضا ـ الأمر المشهور، المعروف.

«هذا مثال من العدل الذي بقي قدوة ومثالا؛ لأنه صدر عن حب حقيقي لمجرد العدل. وأما ما جاء من العدل في ظاهر أعمال بعض الملوك، عفوا عن غير حب في إجراء العدل ذاته، فقد ذهب ومضى مع من ذهب وقضى من الملوك، ولم يبق له من المحمدة أثر وإن ذكر فعلى سبيل الاستدلال على التفريط والضعف في الحزم.

«مثل ما ذكر عن أحد أجداد كسرى نفسه: قيل إن أبرويز دخل قرية من أعمال ملكه فرأى فتاة حسناء، أعجبته وفتن بها ولكي يتقرب من فؤادها ويشغفها بحبه، أمر برفع المظالم عن القرية وجوارها! وعفاهم من دفع الخراج، وأسبغ على تلك المقاطعة من النعم ما لا يحصى! ولو قيس ما صرف من الأموال في سبيل تلك الفتاة، إلى ثمن بيت الأرملة التي لم تبعه من كسرى وعفّ لها عنه، كان كنسبة الدانق للمليون ومع ذلك! فربما كان عمل أبرويز في حينه وفي نظر أهل القرية وجوارهم عدلا وكرما ـ ولكنه لم يثمر ثمرا صالحا ـ ولا قدوة حسنة، ولم يكن له في الأخلاف ذلك الذكر الحميد بل ذهب وانقضى بانقضاء الغرض وانطوى مع فاعله وذلك كله لأنه لم يقصد به العدل المجرد.

«وأما عمل كسرى ذلك العمل البسيط بذاته، العظيم بنتيجته وهو قبوله انحراف إيوانه ـ ذلك الشين المعيب ـ لذلك البناء الرحب المهيب، دون أن يكره عجوزا فقيرة على ابتياع بيتها منها ولو كان به زخرف الإيوان وسلامته من العيب والنقصان. فأثمر عدله وتحدى به أعدل الخلفاء وهدد به أكبر العمال. هذا هو العدل الذي يبقى وينتج للبشر خيرا ويكون أبلغ عبرة وذكرى.

«يذكر المنصفون من مؤرخي الإفرنج وغيرهم، عدل المسلمين الفاتحين في الرهبان والولدان والشيوخ ويترجمون وصايا وسيرة الخلفاء وسير قادة الجيوش على تلك السنن وعدلهم ورأفتهم بالأسرى. وما كان يجري من العدل، لم يكن لغرض ولا عن غرور، بل حبا للعدل واعتقادا أنه واجب تتطلبه الإنسانية ويأمر به الشرع، فبقيت لتلك الأعمال والآثار خير أحدوثة وأقدس مثال وأحسن ذكرى لا تقوى

على ملاشاته الأدهار. ولم ينعكس أمرها على فاعليها ولا أتت بغير النتائج المنتظرة منها.

خذ مثلا سلاطين آل عثمان ـ وما عاملوا به الأقوام عند فتح بلادهم، وما تساهلوا به من الأمور بسوق الغرور بما لديهم من قوة وشدة وبأس واعتقدوه في حينه رحمة وعدلا! ولم يكن في الحقيقة إلا من قبيل العدل العرضي والرحمة الغير مشفوعة بدعامة منقول أو دليل معقول.

من ذلك أن الأجانب لما طرقت بلادهم توسل أولياؤهم للسلاطين العثمانيين بوسائل الخضوع والاستعطاف لكي يسمح للتراجم أن تحضر مع رعاياهم الأجانب الغرباء عن اللسان إلى مجالس الحكم ليترجموا أقوالهم. فسمحوا لهم بما طلبوا وكان ذلك السماح من السلاطين للأجانب وفي نظرهم أقل ما منحوه من المراحم في حينه. فلما مر زمن الغلبة والقهر والقوة والبأس من العثمانيين وظهرت علامات الضعف في الملك العثماني ـ كما سبق بيانه ـ انقلبت تلك المراحم وأشكال العدل العرضي المعطى للأجانب بشكل امتياز وتحكم في أهل البلاد، وحكامهم واستطالت على العباد وانعكس الأمر تماما وأتى بعكس النتيجة المنتظرة. واستحالت تلك الرحمة نقمة وصار الوطني بها محكوما ذليلا والأجنبي في الوطن حاكما عزيزا لا يسأل عما يفعل، والوطنيون يسألون. وما زالت تلك المرحمة يتوسع بها الأجنبي ويضيق بها على الوطني حتى أصبح دماء أهل البلاد «جبارا» تقريبا. فإذا قتل يوناني وطنيا مثلا، أسرع القنصل لانتشال القاتل من يد القضاء وتلقّاه بالترحاب من الباب! حتى إذا كانت الجناية فظيعة في شكلها، كان أعظم قصاص أن يرسل الجاني اليوناني معززا، لأقرب الجزر يقضي بها أياما معدودات ثم يعود رافعا رأسه ـ بقبعته ـ متبخترا بمشيته، معتزا بتابعيته!

«هذا ما فعلته الدولة العثمانية وأعطته إبّان عزها ومجدها للأجانب وحسبته رحمة وعدلا ولم يكن كذلك. ولو عمدت للعدل الحقيقي إذ ذاك وطرحت العزة والغرور جانبا وسهّلت أسباب المساواة بين العموم من رعية وأجانب تجاه العدل العام الإسلامي لما تورطت بإعطاء ذلك الامتياز البسيط للأجانب ـ الذي أصبح مركبا ـ وصار من أقوى عوامل المداخلة في أمور الدولة وأقرب الحجج تناولا لحفظ

حقوق الأجانب وما ضاع في البلاد إلا حقوق أهلها مع تلك الامتيازات. تلك الامتيازات التي لم يعهد لها مثيل في دولة من الدول ـ إلا في الدولة العثمانية ـ وهذه لو أنها طلبت من الدول وهم في ضعفهم، وهي في أوج مجدها، أن يكون للرعايا العثمانيين حق وجود التراجم في مجالس الحكم عندهم، كما أعطته هي مرحمة للأجانب، لا أظن أنها كانت تقبل.

«واليوم نرى أن أصغر دولة لا تقبل من أعظم الدول أن يكون لرعاياها أقل امتياز على أهل البلاد ولا شبه مداخلة في القضاء. فالإنجليزي مع غطرسته وعجرفته واعتزازه بنفسه وأنه من طينة غير طينة الآدميين، لا نراه يجرأ أن يكون في بلاد البلجيك أو سويسرا أو الدانمارك غير خاضع لقضائهم أو أن يحضر لمجلس القضاء تراجم يؤثرون على الحكام كما هو الشأن في الممالك الإسلامية، والسبب كما علمت هو تلك المرحمة الموهومة المعطاة عن عزة وغرور من السلاطين، وهي إلى الخرق والتسيب أقرب منه إلى العدل. ولو كان العدل مقصودا في ذاته وحقيقته ويراد العمل به عند طلب تلك المراحم واللطف والعطف على الأجانب ـ بحجة عدم معرفتهم اللسان ـ لكان في الشرق مندوحة عن تخصيصهم وميزتهم عن الغير؛ إذ في الفقه فصل خاص لمن لا يعرف اللسان ـ أن يؤتى بترجمان ـ أيا كان يحلفه القاضي اليمين على أن يصدق بالترجمة وليس من حاجة لترجمان من دولة أجنبية أو من رعايا دولة المجرم، تئول معه حال الرحمة نقمة ويتمرد الجناة على القضاء والقضاة.

* * *

الدول الإسلامية
أسباب التقهقر والانحطاط

قال: لا تتكوّن الدول ولا يخلص لها السلطان إلا بقوتين.

قوة الجنس التي تدعو للاتحاد لمغالبة من سواهم ـ ويكون فيه النعرة والعصبية والانتصار لجنسه.

وقوة الدين، الذي يقوم مقام الجنسية في جمع الكلمة وتوحيد الوجهة وطلب الغلب بتلك القوة لمن خالفهم فيها.

«فإذا أخذنا العرب قبل الإسلام ـ وجدناهم أمة فيها النجدة والبأس والقوة الجنسية ولكن ما تيسر لها تكوين دولة ولا قام لها سلطان يجمع الكل. ذلك لأن قوة الجنس توزعت في القبائل فكانت كل قبيلة تجمع في نفسها من قوة الجنس كتلة صغيرة، تغالب غيرها من القبائل. وعلى هذه الصورة لم ينتفع العرب كأمة من قوتها الجنسية، بل خسرت لأنها وزعتها ـ بدلا من أن تجمعها ـ ووجهتها لنفسها، عوضا من أن تغالب بها غيرها فكانت قوة الجنس في العرب على هذه الحال أشبه شيء بسلاح المنتحر! جاء الإسلام والأمة العربية على هذا الوضع، من شتات قبائل مختلفة الأهواء، بأسهم بينهم، كل قبيلة تتعصب لقبيلتها، يغيرون ويقتلون ويسبون حلة بعضهم بعضا. فدعاهم إلى دين يجمع الأهواء ويوحد الكلمة ويمنع الدعوة إلى عصبية وأقام قواعده مقام القوة الجنسية، مع حفظ ما ألفوه ورضعوه من الحرية بكل معناها ومساواة بأصح مبناها وعدل شامل وبالإجمال بكل ما يطهر الأنفس ويلطف الشعور.

فالعرب بذكائهم وحدة ذهنهم لم يطل عليهم الزمن حتى وجدوا من أنفسهم ارتياحا للدعوة ومن قلوبهم ملبيا ومجيبا للداعي، فدخلوا في دين الله أفواجا، وازداد العرب بالإسلام إقداما وبأسا وقوة. تلك القوى التي كانوا قبل الإسلام يضعونها بينهم، قد وجههم بها الإسلام بعد أن اتحدت قلوبهم إلى الممالك والأمصار، فدانت لدعوة دينهم الأمم ودخلت في طاعتهم الملوك وذلّت لهم الأكاسرة، فملئوا أكثر معمور الأرض عدلا وفتحا من جبال بيريني الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا إلى جدران الصين، في أقل من ثمانين سنة.

«وهكذا دام مجد الإسلام في تعال وملكهم في اتساع، في دور الخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين، إلى عصر الرشيد والمأمون، وهناك بلغ مجد الدولة الإسلامية الأوج وأخذ من بعدها زمنا في التوقف، ثم بدأ في التقهقر والانحطاط إلى دركة لم يبق معها من تلك العظمة والإجلال، إلا رسوم وألقاب فقد مسماها وانعكس معناها. فهل تم هذا الانحطاط والتقهقر، بدون سبب؟ كلاّ! . هل حصل لقلة في عدد المسلمين؟ لا! بل إن عدد المسلمين في دور انحطاط دولهم، كان أكثر من يوم مجدهم وإبّان عزهم. إذن فالسبب الأعظم والفاعل الأكبر في السقوط، هو إهمال ما كان سببا في النهوض والمجد وعزة الملك وهو ترك حكمة الدين والعمل بها وهي التي جمعت الأهواء المختلفة والكلمة المتفرقة وكانت للملك أقوى من عصبية الجنس وقوته.

«نعم! لما فشى الجهل في الخلفاء وبعدوا عن العلم بحقيقة الدين وحكمته وهن وضعف أساس الملك وتزلزل أقوى دعامة له. فرجعت القواد والرؤساء إلى توزيع قوى الجنسية ومتفرق عصبيات القبائل من وائلي ومضري ويمني ولم يعد لسلطان الدين تلك القوة الجامعة المانعة من عصبية.

«وقد زاد في ضعف الخلفاء ـ بلية ـ الإكثار من الأغراب وجعلهم قوة استعاضوا بهم عن قوة عصبيتهم وجنسهم، فارتقى كثير من المماليك إلى أعلى مراتب القواد وترأسوا الدواوين ومدوا أيديهم إلى الأموال واستبدوا بالقرى والسواد وتصرفوا بأموال الدولة حسب الهوى. فوقع الخلفاء بين فقدان قوة الدين وقوة الجنس ولا

يكون مع هذا إلا الانحطاط وبالتالي الانقراض كما حصل وأسفاه ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨].

«وهكذا ترى الممالك في دور تأسيسها معززة الجانب بأهل عصبيتها أولي الغيرة على الملك وصونه لا يدخل في مناصب الدولة الرئيسية غريب عن الجنسية ولا تبدو لذلك أقل ضرورة. بعكس دور التقهقر فأول ما تبدو طلائعه في استخدام الغريب وهو بخلق التملق والتزلف والمسكنة، وبالإجمال كل ما تأباه نفوس أهل عصبية الملك من الأخلاق، يتمكن من التقريب، ويتدرج في المراتب ويقرّب من كان على شاكلته من أهل جنسه وقبيلته حتى يسقط بآخر الأمر الملك والمملكة بأيديهم. وما أكثر الأمثلة على ذلك في بطون التواريخ كالقائد أفشين، والديلميين آل بويه وغيرهم.

«ثم إن ما جرى لدول الإسلام العربية في دور تأسسها وانحطاطها، جرى للعثمانيين ويجري على غيرهم من الدول. ومتى رأيت الغريب، المناوئ قد دب وتسنم ذرى المراتب المهمة في الدولة فبشّرها بسوء المصير.

«هل يمكن لنا اليوم أن نرى مستشار خارجية إنجلترا، هنديا أو مصريا؟

أو هل يخطر ذلك ببال إنجليزي؟ كلا! ثم كلا. ولكنك ترى ذلك في الدولة العثمانية وهي في دور الضعف والتقهقر، فمستشار نظارة الخارجية العثمانية أرتين باشا ـ «أرمنيا»! وسفيرها لدى أنكى دول الأرض لها وأشدها عداء وهي «إنجلترا» موزوروس باشا «روميا». حاكم جزيرة كريت، قسطاكي باشا! وهكذا مناصب الدولة العثمانية، مشحونة بيورغاكي وقسطاكي وآغوب وأوخانس. . . إلخ.

وكل فرد من هؤلاء الرجال، له أمة محكومة من الدولة العثمانية باذلة جهدها للتخلص من الحكم العثماني، تعمل فيها دسائس الدول الغربية، لتناهض الدولة، سعيا وراء استقلالها. فمع هذه الآمال والأماني، هل يعقل أو ينتظر من أولئك الرجال إخلاص في خدمة الدولة أو تعزيز جانبها والعمل على صونها وتعاليها ومصلحتهم القومية ومصلحة أممهم، في خلاف ذلك؟!».

الهند والاستعمار الإنجليزى

الجبن والوهم!

قال: ما أغرب ما سقطت به الأقطار الإسلامية من تفكك عرى الاتصال وجهل بعضهم أخبار بعض، رغم أقطارها المتصلة وأمصارها المتجاورة. فالأفغاني قلما يعلم أو يهتم بحال أخيه الإيراني وكلاهما لا يدري من حوادث الهند إلا طفيفها ويجهلان الخطير من أمورها وحالاتها وكم تضيع في هذا الجهل فرص سانحة وتخسر صفقات ربما كانت رابحة، لو انتهزت في حينها وأعد لها معداتها مثل الثورة التي حدثت في الهند سنة ١٨٦٠ ولم تصل أخبارها للأفغان ولا لإيران إلا بعد أن تمكن الإنجليز من إطفاء جذوتها!

«وهكذا ترى الهندي أجهل من إخوانه المسلمين في أخبارهم وأحوالهم في مشارق الأرض ومغاربها من جهلهم بأحواله. فالتركي والمغربي من تونسي وجزائري ومراكشي يعلمون أن في الدنيا مقاطعة تسمى «الهند» وفيها من الملايين «هنود مسلمين». والهنود يعلمون أن في المعمور دولة عثمانية ـ إسلامية ـ وإذا وصلتهم نتف من أخبارها أو شيء عن قوتها، خفقت له قلوبهم فرحا وعطفوا على حبها جوارحا وأفئدة، طحنها مظالم حكامهم طحنا وعجنتهم بالكوارث عجنا.

«وهكذا ترى العالم الإسلامي يجهل أهل كل مقاطعة ما ألم بالأخرى من جور ورزية وكل واحد في شأن يلهيه وهمّه يكفيه. وإني في كل ما جبته من الأقطار وتجولت فيه من الأمصار الإسلامية قلما رأيت من يعلم شيئا جوهريا عن الهند، بل كان أعلم من رأيت من يدرك أن الهند قد سقطت تحت نيران الإنجليز وأنها تسوم

الهنود سوء الأحكام. الهند، هي تلك الدرة الثمينة في عقد القارة الآسيوية وهي التي كانت من قديم الزمن هدف الفاتحين ومطمع أنظار الملوك والسلاطين وإليها زحف إسكندر الأكبر ودخلها من الشمال فاتحا، عن طريق سرخس باب الهند، وعن طريق «البصرة» وبندر عباس فبلوجستان دخل الجيش الإسلامي، الجيش الذي بعثه «الحجاج بن يوسف» ففتح به السند وبخارى وكابل فالهند!

«ثم في القرون الوسطى زحف السلطان محمود الغزنوي ذلك السلطان الكبير الهمّة الذي أقل ما يؤثر عنه في فتحه وغزوه بلاد الهند أن الماء نفد من الجيش وكاد أن يهلك في تلك الفيافي والوهاد، فجاء خادم السلطان بقربة ماء كان خبأها وحرص عليها للسلطان خاصة فأخذها وأراقها على مرأى من الجيش وخاطبهم بقوله: «لا خير في حياته إذا هلك الجيش ـ ويفضل الموت إذا كان فيه سلامة عسكره»، فتحمس العسكر عند ذلك وجدّوا السير ونسوا ما هم فيه من الظمأ. حتى وصلوا إلى مكان المياه فاستقوا وبعد ذلك انقضوا على حصون الهند وقد ثبت أن ذلك الجيش كان مجهزا بالمدافع فدكدكوها وافتتحوا مدنها وغنم السلطان ما شاء أن يغنم وقضى من الهند إربه. ثم عقبه تيمورلنك بخيله ورجله فسخَّر الأقطار الهندية وأسس فيها ملكه وتعاقب في أولاده وأحفاده. وآخر من زحف على الهند وفيها السلطنة التيمورية ـ نادر شاه الإيراني ـ فأخذ من خزائن الهند وجواهرها ما لا يحصى! ومختصر القول: إن الملوك والفاتحين طرقوا الهند وغنموا منها الغنائم ولكن بحروب هائلة وتجشم أخطار واقتحام مهالك تشيب لها النواصي.

«أما الإنجليز ـ فقد ملكوا نحو ثلث العالم! ـ وما سفكوه في ذلك السبيل من الدماء وصرفوه من الأموال، كنسبة القطرة إلى البحار أو الدرهم إلى المليار وإنما تملكوا ما ملكوا بسلاح الخديعة والحيلة. يدخلون إلى الأقطار والأمصار أسودا ضارية ـ في لين ملمس جلود الأفعى! ـ يعرضون أنفسهم في صورة خدمة صادقين وأمناء ناصحين، لا يهمهم إلا تقرير الأمن وأسباب الراحة وتقويم النظام وتثبيت الأمراء وتأييد نصوص الفرامين وتعزيز شوكة السلطان وغير ذلك من الحبالات والمصائد وأنواع التغرير والمكائد. حتى إذا أرادو التدخل في شئون ملك للشرقيين ورأوا أن القائم به رجل حكيم، يقظ وبصير حاذق وأن وجوده في الملك يعرقل

سعيهم ويؤخر سيرهم نحو ما يقصدون، بادروا وأخذوا في التشويش عليه فإما أن يفسدوا عليه قلوب رعيته ويأخذوا بيد السفهاء منهم ويثيروا عليه الأحقاد. أو يغروا أحد أعضاء العائلة المالكة بالعصيان وطلب الملك ليجدوا في ذلك وسيلة للدخول في الأمر أو يتفقوا مع الوزراء على خلع السلطان ثم ينصبون بدله إما ضعيفا أحمق وإما صبيا لم يبلغ الرشد من أبناء الملك أو أقاربه؛ ليتمكنوا من بلوغ مآربهم تحت علمه ويبلغوا غايتهم باسمه ويقطعوا المسافات الطويلة في مدة قصيرة بلا ممانع، ولا عائق، مع إصابتهم جزيل الأجر على ما عملوا في بداية الأمر.

«أو أنهم يفعلون كما فعلوا مع الهنود لما انتشروا في أقطارهم كتجار وشركة تجارية واندسوا بينهم وصرفوا فيهم كيدهم، فتمكنوا من تفريق كلمة الأمراء وإغراء كل نواب أو راجا بالاستقلال والانفصال عن السلطنة التيمورية، فتمزقت المملكة إلى ممالك صغيرة! ثم أغروا كل أمير بآخر يطلب قهره والتغلب على ملكه! فصارت الأراضي الهندية الواسعة ميادين للقتال وأضطر كل نواب أو راجا إلى النقود أو الجنود؛ ليدافع بها عن حقه أو يطلب التغلب بها على عدوه.

«فعند ذلك تقدم الإنجليز بسعة الصدر، وانبساط النفس ومدّوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين وبسطوا لهم إحدى الراحتين ببدر الذهب وقبضوا الأخرى على سيف الغلب. بدءوا قبل كل عمل بتنفير أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الأهلية ورموها بالضعف والجبن والخيانة والاختلال، ثم أخذوا في تعظيم شأن جيوشهم الإنجليزية وقوادها وما هم عليه من القوة والبسالة والنظام، حتى اقتنع كل نواب أو راجا، بأن لا ناصر له على مغالبة خصمه، إلا بالجنود الإنجليزية!

«فأقبل الإنجليز على أولئك السذج، يضمنون لكل واحد صيانة ملكه وفوزه بالانتصار على غيره، بجنود منظمة تحت قيادة قواد من الإنجليز ويكون بعض الجنود من الهنديين وبعضهم من البريطانيين وما على الحاكم إلا أن يؤدي نفقتها.

«ثم خلبوا عقول أولئك الأمراء بدهائهم وبهرجة وعودهم ولين مقالهم، حتى أرضوهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم ـ فرقة من العساكر ـ لتدفع شر بعضهم عن بعض! وصار بذلك «الإنجليز» أولياء المتباغضين! وسموا كل فرقة

من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التي أعدوها لحمايتها ففرقة الحكومة السنية! سمّوها «عمرية»! وفرقة الحكومة الشيعية «جعفرية»! وللوثنيين سموها «كشتية»! ولما فرغت خزائن الحكام الهنود وقصّرت بهم الثروة من أداء النفقات العسكرية فتح الإنجليز خزائنهم وتساهلوا مع أولئك الأمراء في القروض وأظهروا غاية السماحة، فبعضهم يقرضونه بفائدة قليلة وبعضهم بدون فائدة وينظرون به الميسرة، حتى ظن كل أمير أن الله قد أمده بأعوان من السماء وبعد مضي زمان كانوا يومئون إلى طلب ديونهم بغاية اللطف ويشيرون إلى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية الرفق، فإذا عجز الأمير عن الأداء قالوا: نحن نعلم أن وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم! وإننا ننصحكم أن تفوضوا إلينا العمل في قطعة كذا من الأرض نستغلها ونستوفي ديوننا وننفق من غلاتها على الجيوش التي أقمناها لكم. ثم الأرض أرضكم! نردها إليكم عند الاستيفاء والاستغناء وإنما نحن خادمون لكم!

«فيضعون أيديهم على أخصب الأراضي، وأنبتها، وفي أثناء استغلالها يؤسسون فيها قلاعا حصينة وحصونا منيعة، كما يفعلون في ثكن «قشلاقات» عساكرهم على أبواب العواصم الهندية وفي خلال هذا يفتحون للأمراء أبوابا من الإسراف والتبذير ويقرضونهم ويكتفون بمقابل قرضهم، قيامهم على أراض أخرى يضمونها إلى الأولى. ثم يحضّون ويذكون نار العداوة بين الحكام لتنشب بينهم حروب فيتداخلون في أمر الصلح فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر، عن جزء من أملاكه، ليتنازل لهم الثاني عن قطعة من أراضيه وهم في جميع هذه الأعمال موسومون، متصفون بالخادم الصادق والناصح الأمين لكل من المتغالبين! وغير هذا فلهم شئون لا يهملونها في إيقاع الشقاق بين سائر الأهالي فتضعف قوة الوحدة الداخلية، ويخرب بعضهم بيوت بعض حتى إذا بلغ السير نهايته واضمحلت جميع القوى من الحاكم والمحكوم ـ وغلّت الأيدي ـ فلا يستطيع أحد حراكا، ساقوا الحاكم إلى المجزرة بسيوف تلك العساكر التي كانت حامية له واقية لبلاده وكانت تشحذ لجز عنقه من سنين طويلة وينفق على صقالتها من ماله، ثم

خلفوه على ملكه في حقيقة الأمر وفي الظاهر يظاهرون بقوتهم أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك، فيخلعون الملك ويولون الطالب، على شريطة أن يقطعهم أرضا أو يمنحهم امتيازا فيحولون الملك من الأب للابن ومن الأخ لأخيه! ومن العم لابن أخيه وفي كل هذا التداول هم الرابحون وأول خطوة خطوها في الهند كانت في مملكة «أود» وهي من الممالك الواسعة وأغلب أهلها على مذهب الشيعة ولها نواب «حاكم» عظيم زينوا له الطمع في لقب «شاه» لينفصل عن الملك التيموري.

«وفي التنازع لنيل هذا المطمع يصيب كلا من الطامع وصاحب الملك سهم من الضعف والوهن، فيتهيأ كل منهما للوقوع في مخالب الإنجليز وقد حصل.

«وعندما كانت الحرب قائمة بين دوست محمد خان وبين «رانجت سنك» البنجابي، تخوّف الإنجليز من تسلط الأفغانيين فتدخلوا في الصلح وبذلوا جهدهم في ذلك وسحروا قلوب الأفغانيين بلين القول ولطف الوعد حتى أرضوهم بترك مدينة بيشاور وما يليها لـ «رانجت سنك».

«وانعقد الصلح على ذلك وانجلى الأفغانيون عن مملكة بنجاب ورجعوا إلى بلادهم وبعد عشر سنين من تاريخ الصلح زحف الإنجليز إلى بنجاب وافتتحوها لأنفسهم واستولوا على مدينة بيشاور، فقال بعض أمراء الأفغان: «إن ذلك الصلح كان مقدمة لهذا الفتح وإن الإنجليز في تعيينهم الحدود إنما كانوا يحددون بلادهم ولكن كنا عنه غافلين». ومن أفعال الإنجليز في الهند ما فعلوه من زمن غير بعيد مع «راجابرودا» وهو أمير عظيم، فلما أحسوا فيه البصيرة والحزم خلعوه بدعوى باطلة. وأقاموا بدله ولدا صغيرا من عائلته، ثم انتصبوا له أوصياء فوضعوا أيديهم على جميع خزائنه وتولوا إدارة ممالكه واستلموا قيادة عساكره. ولم يبق إلا الاسم يذكر ولا يشكر.

«كل هذا يفعله الإنجليز، تحت راية العدالة والإصلاح! وحفظ الراحة! وتقرير النظام، ويساقون إليه بباعث المحبة والإخلاص، ولا يذكر هناك اسم «التملك والاستيلاء» نعم! ولهم الحق في استبقاء اسم والسكوت عن آخر. فإن أمراء الشرقيين لا يبالون بما دلت عليه الأسماء وإنما يهمهم طنطنة الألفاظ وفخامة

الألقاب، إذا سلب الأمير الشرقي ملكه وماله وجرّد من جميع حقوقه وبقي له لقبه ولواحق لقبه فهو في سكرة من لذة ما بقي له وفي ذهول عما سلب منه، هذه خلة عرفها الإنجليز في كل أمير شرقي لذلك فهم يقرّون أعينهم بترك هذه الأسماء محفوظة بعدما جردت عن معانيها.

«ولا يرى الإنجليز أقل داع يدعوهم لنزع هذه الألقاب من الأمراء وإزعاجهم بذلك. واللقب الضخم حصن حصين يسجن فيه الأمير الشرقي أو جب عميق يلقى فيه وهو يظنه جنة عرضها السموات والأرض! فليعش أمراء الشرق متمتعين بنعيم ألقابهم وسعادة أسمائهم ويكفهم من المجد أن يقال لهم بين خدمهم وخاصتهم في داخل دوائرهم «نواب صاحب»! «راجا صاحب»! «خديوي صاحب»! «سلطان صاحب»! و . . .

«واخجلتاه! هذه الألقاب كانت تشير إلى ملك فسيح ومجد شامخ وشوكة قوية وسطوة تخضع لها الجبابرة، فكيف طابت نفوس أمراء الشرق بقبولها عارية من كل شرف؟ لم يبق من معناها إلا سلطة على الخدم والحشم وما هم فيها بأحرار، بل لا بد أن يوافقوا فيها رضاء الأجانب؟

«ومن مناقب الإنجليز وغرائب عدالتهم في الهند، أن «جيرت سنك» كان «راجا» على ممالك «جنبه» الواقعة في جنب «عنبرسر» من طرف حملايا، فلما مات هذا الملك تولى ابنه «سوجت سنك» على طبق قانون الوثنيين، فأراد حاكم الهند الإنجليزي وهو إذ ذاك «اللورد نورثبروك» ضم تلك المملكة إلى الأملاك الإنجليزية وإدخالها، واستملاك أراضيها حسب المألوف وعادة الإنجليز.

«فطلب من «سوجت سنك» أن يتنازل عن الملك لأخيه «قوبال سنك» وكان وليدا من جارية ولا يجوز فيْ قوانين الوثنيين أن يتولى الملك، أبناء الإماء ما دام من أبناء الأحرار حيّ فلما تمنع «سوجت سنك» من التنازل اعتمادا على قانون بلاده، أنزل بحكم اللورد جبرا، بعدما ضربت زوجته التي كانت ملكة تلك البلاد، لكونها زوجة الملك، ونهب جميع ما كان بيت الملك من الخزائن والتحف والجواهر الثمينة، والمخلفات القديمة «أنتيكات» التي كان يتوارثها الملوك من أجيال طويلة.

فإن عائلة الملك كانت من قدماء العائلات الملوكية، ثم نصب بدله «قوباك سنك» وبعد مدة قصيرة، عزل «قوبال سنك» ونصب بدله ولده الصغير «سيام سنك» ليكون الأمر والنهي حسا ومعنى بيد أمراء الإنجليز وتحت تصرف الذي أقاموه من طرفهم «وصيّا على الملك الصغير»!

«ثم إن «سوجت سنك» المخلوع ظن أن اللورد نوثبروك وحده هو الظالم وأنه لو رفع أمره للحكومة العادلة في لولندرا، يجد لديها عدلا ويصادف منها إنصافا، فجاء وعرض حاله على الحكومة العادلة؟! فإذا القلوب متشابهة والنفوس متوافقة والأراء متحدة والأفكار متألبة على سلب الحقوق والغلو في العدوان. وفي خلال السنين التي صرفها في بث شكواه، أنفق كل ما عنده في المطالبة بحقه والمرافعة مع ظالمه والحاكم خصمه، حتى أصبح صفر اليدين لا يملك قوت يومه ولا يجد له منصفا. هذا الملك السيئ الحظ، مع ما كان له من رفعة الشأن وارتفاع نسبه في الملك إلى أجداده الأقدمين من نحو ألف سنة، رأيته وأنا في أوروبا، يتضور من الجوع، رث الثياب، حقيرا ذليلا.

قال: ولقد عثرت على منشور إنجليزي قديم نشرته حكومة إنجلترا في الهند ونحن نشرنا ترجمته في «العروة الوثقى» ونصه:

«إذا وجدت في دوائر الحكومة وظيفة لا يقوم بها إنجليزي ـ أي لا تليق لخستها أن تكون لأحد من الجنس الشريف» وجب أن يقام فيها أحد الفارسيين، الباقين على دين «زرادشت» (المجوس). فإن لم يكن منهم مقتدر على القيام بها، أقيم فيها «وثني» (عابد صنم)! فإن لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء، من يؤدي عملها كلف «بها مسلم». فليس للمسلمين في الهند حظ من وظائف الحكومة إلا ما يعافه المجوسي والوثني وهذا هو عنوان محبة الإنجليز للمسلمين!! وهو برهان دعواهم أنهم أولياء المسلمين!! وأنصارهم!! لا أكثر الله من أمثال هؤلاء الأولياء والأنصار.

«ومن مناقبهم وغرائب عدلهم!! أنهم جعلوا جزائر «اندومان» منفى لعلماء المسلمين، والجريمة التي يستحق العالم عليها النفي هي أن يعترف بأنه معتقد ببعض

آيات القرآن!! (وقد مر ذكر ذلك). ولو أردنا تعداد مناقب الإنجليز وقصصنا ما يعاملون به رعاياهم في الهند عموما والمسلمين خصوصا، أطال بنا الشرح وانتفخت بطون المجلدات وضاقت الصدور من كثرة السطور وما ذكرناه إن هو إلا نذر يسير وقليل من كثير . هذه هي الهند التي إذا أشرف السائر على أي بقعة من بقاعها الشاسعة، الواسعة شخص بصره ودهش لبّه بما يراه من آثار عناية الله بتلك البقاع وما منحتها من الخصب الطبيعي، حتى إن الأحجار الصلدة لتنشق عن الأشجار الضخمة، العالية الأغصان، المورقة الأفنان، يفيء ظلها محيطا واسعا من الأرض وكأن أديمها بما فرش عليه من أنواع النباتات قد بسط عليه بساط من السندس الأخضر.

«فيخيل للناظر أن سكنة هذه الأراضي في خفض من العيش وسعة من الرزق، بل يظنهم أسعد من على وجه الأرض، ولكنه إذا تجاوز المروج والأودية إلى المدن والقرى، ضاق صدره وتفطر قلبه من منظر سكانها، يرى ألوفا مؤلفة يعبرون في الشوارع والأزقة، جيئة وذهابا، حفاة، عراة، بادية سوآتهم، كاسفة أحوالهم، لا يجدون رمقة من العيش.

«ثم يتمكن الحزن من الإنسان، إذا رأى بأم العين، ووقف على أحوال أولاد السلاطين المغوليين وما هم فيه من الذلة وأحفاد «تيبو» سلطان وما أصابهم من الفقر والمسكنة وسلالة سلاطين «أوده» وما نزل بهم من الهوان ونوابي «كارناتك» وأمراء «السند» وما حل بهم من الصغار و«مرتة» تلك القبيلة العظيمة، القاطنة في «فونا» و«ستاره» وما حولها وما أحاط بها من البلاء المنصب عليهم وعلى غيرهم من سائر الأمراء والرجاوات العظام.

«كل تلك الأحوال والمشاهدات، تسوق المنصف قهرا لأن يحكم حكمًا لا ريبة فيه بأن إدارة الحكومة الإنجليزية «العادلة !!» هي التي هيأت تلك الرزايا والبلاء للهنود وهي التي حرمت أولئك المساكين من التمتع بما آتاهم الله من فضله وهي التي جعلت الأعزة أذلة، وبعد أن كانوا يسكنون القصور العالية أصبحوا اليوم يأوون إلى خصاص، بل أقفاص؟

«إذا خاطب الإنجليزي هنديا إنما يكلمه بالعصا؛ إذ لا يعدونه من فصيلة الإنسان. وإذا أراد حكام الإنجليز أن يجمعوا أعيان البلاد لإلزامهم بأداء ضريبة جديدة هيأوا مكانًا عليا، يرتفع عن الأرض نحو ثلاثة أذرع، لتوضع عليه كراسي السادات الإنجليز ويجلس الهنود مفترشين منخفض الأرض إظهاراً للامتياز، مع أنهم ما جمعوهم إلا لسلخ ما بقى من جلودهم وامتصاص ثملة دمائهم فهل سمع بمثل هذا في الأمم السالفين؟! كلاً! إن جنس الهنود «قوم برهما» لما قدموا من إيران وفتحوا الهند لم يسيئوا معاملة أحد من السكان القدماء مع أنهم كانوا يعتقدون أنهم سماويون وأبناء الآلهة، قبلوا جنس «التلنكان» الهندي في مصافهم وأشركوه في حقوقهم مع كونه مغلوبًا لهم حربًا.

«فتح المسلمون أرض الهند فعاملوا الوثنيين مثلما عاملوا بني ملتهم، ما حرموهم الوظائف السامية! وما من سلطان مسلم تسلط في الهند إلا كان له من الوثنيين عمال ووزراء. كان المسلمون يسيرون مع الوثنيين سيرة الإخوة ـ حتى أوقع الإنجليز بينهم الشقاق في بنجاب وأطراف مدراس.

«يزعم الإنجليز أن المسلمين بسوق التعصب الديني يجورون ولا يعدلون! مع أنا نرى إلى الآن حكومات صغيرة يحكمها راجوات ونواب من أهل السنة والشيعة ونرى للراجا الوثني وزيراً مسلمًا وعمالاً مسلمين وللنائب المسلم وزيرا وثنيا وعمالا وثنيين. وهكذا السنيون مع الشيعة والشيعة مع السنيين، ولا نرى في الملايين الكثيرة المحكومة بالإنجليز رجلاً هنديا في وظيفة شريفة.

«رب نعمة جلبت نقمة! نعم إن ما أنعم الله على أرض الهند من الخصب وما وما أودعه فيها من الثروة الطبيعية، جلبت عليهم الإنجليز، وما أكبرها نقمة على الهنود وعلى من جاورهم من الممالك وما اتصل بها من البحار؛ لأن الإنجليز يرون كل مملكة في شمال الهند أو في جنوبها أو شرقها وشمالها هي بابا للهند ومهددا لملكهم في الهند ويلزم للإمبراطورية البريطانية أن تدرأ الخطر عن الهند بالاستيلاء على تلك الممالك بأي حيلة أو خديعة كانت. استلبت من الدولة العثمانية جزيرة «قبريس» بحجة المحافظة على أملاك الدولة في البحر المتوسط، «وما أصدقها وأبرها وما أعظم ما حافظت على أملاك الدولة العثمانية؟!».

«وحقيقة ذلك السلب إنما هو مقدمة لاستلاب ملك مصر وفيه ترعة السويس «باب الهند» والسودان وفيه «مصوع» وسواكن على البحر الأحمر، «باب آخر للهند» وعدن وبوغاز «باب المندب» و«جبل طارق» وكلها أبواب أو كوات وشبابيك للهند والأفغان وإيران، وهما البابان الكبيران العظيمان اللذان سيدخل منهما إلى الهند فتستريح بريطانيا من الهند ويستريح الهنود والممالك الإسلامية الشرقية من الإنجليز وتنام في جزيرة بريطانيا العظمى ناعمة البال ألا يروعها ولا يخيفها «أبواب الهند» إذ يعود البيت إلى صاحبه ويتكفل بحراسة بابه بسيوفه وأسنة حرابه».

«صرفت كل كيدها وبذلت ما عندها من الحيل في الأفغان فلم تفلح حتى طرقتها بستين ألفا من جيوشها المنظمة بأمضى الأسلحة الجديدة ولكن لما كان الأفغانيون قوم حرب يناطحون الموت فقد هبوا ونهضوا نهضة رجل واحد وكشفوا بلاء الإنجليز عن بلادهم، فاضطرت بعد فناء رجالها وأموالها إلى ترك البلاد الأفغانية ورجعت إلى الملاينة والمجاملة شأن الإنجليز إذا رأت من الأمة اتحادا ومقاومة فإنها تولى الأدبار وتترك الديار لأهلها.

وأما العجم فإنها لم تنج من حبالة شرها ومصائد مكرها، فطالما جاملت دولة روسيا على حساب العجم وقسمتها بينهما مناطق «اقتصاد». وكانت إذا ضربت أو عملت على كيد الأفغان لاطفت وتجملت لدولة إيران وإذا جاء دور ملاطفة الأفغان اشتدت على إيران وكلاهما في غفلة عن مصيرهما ولو علموا «ولا بد أن يعلموا بالقريب إن شاء الله» أن ما يصيب الواحد منهم اليوم من المكروه والرزايا لا بد وأن يصيب الآخر في الغد.

من الغرائب ـ وليس من طبيعة الوجود ـ أن يستمر سلاح الخداع والمكر لرقاب الشرقيين قاطعا ولا لجيش الوهم أن يكون للحقائق غالبا. نعم إن للوهم آثارا غريبة خصوصا في الأمم الضعيفة، فطورا يكون مرآة المزعجات ومجلي المفزعات وطورا يكون ممثلا للمسرات حاكيا للمنعشات وهو في جميع أطواره حجاب الحقيقة وغشاء على عين البصيرة ولكن له سلطان على الإرادة وحكم على العزيمة فهو مجلبة الشر ومبعد الخير.

«الوهم يمثل الضعيف قويا والقريب بعيداً والمأمن والمنقذ مهلكًا. الوهم يذهل الواهم عن نفسه ويصرفه عن حسه، يخيل الموجود معدومًا والمعدوم موجوداً. الوهم في كون غير موجود وعالم غير مشهود يخبط فيه خبط المصروع لا يدري ماذا أدركه وماذا تركه. الوهم روح خبيث يلابس النفس الإنسانية وهى في ظلام الجهل. إذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام وتسلطت على الإرادات فتقود الواهمين إلى بيداء الضلالة فيخبطون في مجاهيل لا يهتدون إلى سبيل ولا يستقيمون على طريق. وإذا كان الوهم مولودا فأبواه «الجبن» ومربيه ومنشئه «الجبن» وهو العلة في إخلاد الجمهور الأعظم من بني الإنسان إلى دنيات المنازل وقصورهم عن الوصول إلى معالي الأمور.

و« الجبن» هو الذي يقعد بالنفوس عن العمل وينحدر بها في مزالق الزلل وهو علة العلل ومنشأ يقرن به كل خلل. الجبن هو الذي أوهى دعائم الممالك، وهو الذي قطع روابط الأمم فحل نظامها وهو الذي أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم وأضعف قلوب العالين فسقطت صروحهم، هو الذي يغلق أبواب الخير في وجوه الطالبين ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين ويسهل على النفوس احتمال المذلة ويخفف عليها مضض المسكنة ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل، يوطن النفس على تلقي الإهانة بالصبر والتذليل بالجلد ويوطئ الظهور لأحمال من المكاره والمصاعب أثقل مما يتوهم لو تحلى بالشجاعة والإقدام.

«الجبن» يلبس النفس عاراً دون لبسه، الموت الأحمر عند كل روح زكية وهمة عالية يرى الجبان وعر المذلة سهلاً وشظف العيش في المسكنات نعيمًا، ومن يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام. الجبان يتجرع مرارات الموت في كل لحظة ولكنه راض بكل حال وإن لم يبق له إلا عين تبصر الأعداء وترى الأحياء ونفس لا يصعد إلا بالزفير والصعداء وإحساس لا يلم إلا بألم الحر واللأواء.

«هذه حياته أضاع كل شيء في القناعة بلا شيء! وهو يظن أنه أدرك مبتغاه وحصل على ما يتمناه. الجبن انخذال في النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائم حالها وهو مرض من الأمراض الروحية يذهب بالقوة الحافظة للوجود التي جعلها الله ركنا من أركان الحياة الطبيعية وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع إلى الخوف من الموت.

«الموت مآل كل حي ومصير كل ذي روح، سبيل الموت غاية كل حي! وداعيه لأهل الأرض داع. وليس للموت وقت معروف ولا ساعة معلومة ولكنه بين النشأة وأرذل العمر ينتظر في كل آن ويرتقب في كل لحظة ولا يعلمه إلا مقدر الآجال جل شأنه ويشتد الخوف من الموت إلى حد يورث النفس هذا المرض القاتل «الجبن» فيسبب الغفلة عن حسن المصير والذهول عما أعده الله للإنسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة إذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجله.

«نعم يغفل الإنسان عن نفسه فيظن ما جعله الله واقيًا للحياة ـ وهو الشجاعة والإقدام ـ سببا للفناء. يحسب الجاهل أن في كل خطوة حتفًا، ويتوهم أن في كل خطرة خطرا، مع أن نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الإنسانية وما ناله طلاب المعالي من الفوز بآمالهم وما ذللوا من المصاعب في سيرهم، تكشف له أن تلك المخاوف إنما هي أوهام وأصوات غيلان ووساوس شيطان غشيته فأدهشته وعن سبيل الله صدته ومن كل خير حرمته.

«الجبن» فخ تنصبه صروف الدهر وغوائل الأيام؛ لتغتال به نفوس بني الإنسان وتلتهم به الأمم والشعوب، هو حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله، هو غاية كل رذيلة ومنشأ لكل خصلة ذميمة لا شقاء إلا وهو مبدأه ولا فساد إلا وهو جرثومته ولا كفر إلا وهو باعثه وموجبه، ممزق الجماعات ومقطع روابط الصلات هازم الجيوش ومنكس الأعلام ومهبط السلاطين من سماء الجلالة إلى أرض المهانة. ماذا يحمل الخائنين على الخيانة في الحروب الوطنية؟ أليس هو الجبن؟ ماذا يبسط أيدي الأدنياء لدنيئة الارتشاء؟ أليس هو الجبن؟ ربما تتوهم بعد المثال، فتأمل! فإن الخوف من الفقر يرجع في الحقيقة إلى الخوف من الموت وهو علة «الجبن»؟

وبعد ذلك ـ يسهل عليك أن تعتبر هذا ـ في الكذب والنفاق وسائر أنواع الأمراض الروحية في الإنسان. «الجبن» عار وشنار على كل ذي فطرة إنسانية خصوصًا الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر ويأملون أن ينالوا جزاء لأعمالهم أجرًا حسنًا ومقامًا كريما.

«إن أبناء الملة الإسلامية ينبغي أن يكونوا بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة المهينة « الجبن »؛ فإنها أشد الموانع عن أداء ما يرضي الله، وإنهم بما يعملونه إنما يبتغون رضاه، يعلم من في القرآن هدايته أن الله قد جعل حب الموت علامة الإيمان وامتحن الله به قلوب المعاندين، ويقول في ذم من ليسوا بمؤمنين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ إلى آخر الآيات [النساء: ٧٧].

«الإقدام في سبيل الحق وبذل الأموال والأرواح في إعلاء كلمته ـ أول سمة يتسم بها المؤمنون. لم يكتف الكتاب الإلهي بأن تقام الصلاة وتؤتى الزكاة وتكف الأيدي. وعد ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون والمنافقون بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح في إعلاء كلمة الحق والعدل الإلهي بل عده الركن الوحيد الذي لا يعتد بغيره إذا هو فقد.

«لا يظن أحد أنه يمكن الجمع بين الدين الإسلامي وبين الجبن في قلب واحد. كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الإقدام. المؤمن من يوقن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء ولا يفيده التباطؤ عن أداء الفروض زيادة في الأجل ولا ينقصه الإقدام دقيقة منه. المؤمن من ينظر بنفسه إلى إحدى الحسنيين: إما أن يعيش سعيداً عزيزاً وإما أن يموت شجاعًا شهيداً وتصعد روحه إلى أعلى عليين ويلتحق بالكروبيّين والملائكة المقربين.

«من يتوهم أنه يجمع بين الجبن وبين الإيمان بما جاء به محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) فقد خدع نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه وهو ليس من الإيمان في شيء فمتى طهرت أبناء الملة الإسلامية نفوسها من معرة «الجبن» ونفت عن أذهانها أشباح «الوهم» واعتصموا بحبل الله جميعًا عادوا كما كانوا أول نشأتهم ـ أسودا ـ فاستردوا المفقود وحفظوا الموجود وكان لهم بين الأمم وعند الله المقام المحمود.

«كيف ربح الإنجليز بالحيل والمكر؟ وكيف خسر الشرقيون بالجبن والوهم؟ كان

الإنجليز أمة مجتمعة القوى، مستكملة العدد، مستعدة للفتوحات وذلك في زمان بليت به الأمم الشرقية بتفريق الكلمة واختلاف الأهواء وحجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعوائدهم ـ فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة وكل بديع من الاختراع سحراً وكرامة، فانتهز الإنجليز تلك الفرصة واندفعوا إلى الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه، وما دهموا سكانه إلا ببعض غرائب الصنعة الأوروبية ـ التي أثارت فيهم خواطر الأوهام. ثم زاد الوهم قوة ما نصبوه من حبائل الحيلة والختل، حتى خلبوا قلوب المساكين وأذهلوهم عما في أيديهم، بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم فسلبوا أموالهم وانتزعوا منهم أراضيهم وأجلوهم عن أملاكهم فاستغنت الأمة الإنجليزية بما سلبت وأثرت بما نهبت وترفت بما ملكت!

نعم ذهب الإنجليز إلى الهند في قوى مجتمعة وتسابقوا مع الفرنسيين والهولانديين والبورتغاليين في ميدان الأراضي الهندية الواسعة فحازوا قصب السبق بما امتازوا به من الدهاء والمكر وبما ساعدهم على ذلك من غفلة الهنديين لذاك العهد أو طيب قلوبهم، فمالت النفوس إلى الإنجليز اغترارا بوعودهم وتغلبوا على تلك البلاد واستقلوا بأمرها شيئًا فشيئًا وما أبقوا لغيرهم من الدول إلا مضائق من الأرض لا تذكر. وأول ما استمالوا به القلوب السالمة قولهم: إننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة (فرنسا وهولاندا والبرتغال) فإنها تريد التسلط على ممالككم، أما نحن (الإنجليز) فلا نريد إلا تحريركم واستقلالكم.

«وهكذا ترى الآن للإنجليز في الهند الأصلية والهند الصينية والبرمان سلطة على نحو مائتين وثمانين مليونا من النفوس، جميعها كاره لتلك السلطة الإنجليزية، شاخص ببصرة متطلع للتخلص منها، يفضل أية سلطة سواها ـ ظالمة كانت أو عدلة ـ كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الأمم أنه لا يوجد حكومة في العالم تبلغ في ظلمها مبلغ الإنجليز ولا تصل إلى ما وصل إليه الإنجليز من الكبرياء والجبروت.

ولكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا ومع سعة ديارهم وتباعد أرجائها وشدة ميلهم للتملص من تلك السلطة الظالمة، لا يوجد قوة تقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة المبغوضة إلا خمسون ألف جندى إنجليزى ! تأمل. فأنه لا

يصيب المليون من النفوس إلا أقل من مائتين نفر من الإنجليز . فلو كان ذلك المليون من الناس ذبابا لأصم آذان المائتين بطنينه أو لو كان غنمًا لبقر بطونهم بصغار قرونه!

مع أنه يوجد من الممالك الصغيرة التي لها نوع من الاستقلال وتخشى زوال ما بقي لها ما لو جمعت قواها لبلغت أزيد من ثلاثمائة ألف جندي، هذا فضلا عمن يمكنه حمل السلاح من أهالي البلاد التي دخلت في حوزة الحكومة الإنجليزية وزال استقلالها بالمرة.

فلولا «الوهم» الذي استولى على المشاعر والحواس و«الجبن» الذي أطار النفوس شعاعًا حتى أذهلها عما بين يديها، بل عما هو موجود فيها. إن هذه النفوس الكثيرة العدد، الفائقة القوة وهم في قبضة قوم ضعاف يسومونهم عذاب الذل والهوان فلو لمح أولئك المساكين أنفسهم لمحة اعتبار وأدركوا ما آتاهم الله من القوة الطبيعية لانكشف لهم ضعف الإنجليز وبرز لهم عامل الخلاص متجليا بين أيديهم وملجأ النجاة تحت أرجلهم وعلموا أن استقلالهم لأنفسهم وبلادهم لا يحتاج إلى تجشم تعب ولا تكلف مشقة ولا يدعو إلى بذل أموال وافرة ولا سفك دماء غزيرة أكثر مما سفك جورج واشنطون رجل أمريكا ومحررها من نير الإنجليز!

«يوجد في الدول الأوروبية من يهاب دولة الإنجليز اعتبارا لما في سلطتها من الممالك الواسعة والأمم العظيمة مما لم يلغ عدّه رعية دولة، أو ثلاث دول من أوروبا ويقيس وضعها وقوتها في تلك الأطرافَ القاصية بما يراه في جزائر بريطانيا ويغفل عن مقاومة جزيرة «أيرلاندا» مع قربها من مجمع القوة الإنجليزية، ويظن أن لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك، تساوى قدرتها عليه في بريطانيا أو تقرب منها ولم يلتفت إلى أن جسم الدولة الإنجليزية قد مد في الطول والعرض إلى حد لو حصلت فيه أدنى هزة لتقطعت أو صاله وتبعثرت أجزاؤه وتفرقت قواهم في بسيط الأرض حتى لم يبق لهم في موضع قوة يخشى بأسها ورعاياهم في كل صقع في ضجر وتذمر وتململ لا مزيد عليه، يترقبون في كل آن زحفا من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين. لو التفتت تلك الدولة التي تهاب إنجلترا إلى حقيقة الأمر لما احتاجت إلى دقة الفكر وتأخير الأمر لولا حجاب الوهم!! قاتل الله الوهم.

«والعثمانيون أعظم الدول خطأ إذ ينظرون إلى دولة الإنجليز كما ينظرون إلى دولة الروس من حيث إن إنجلترا تحكم على مائتين وثمانين مليونا من النفوس فيظنون لهذا النظر أن معارضة هذه الدولة ربما تجلب الضرر ولَيتهم مدّوا أنظارهم إلى ما وراء ذلك ليتبين لهم حقيقة قوتها العسكرية ـ مجردة عن المستعمرات ـ وماذا يمكنها أن تسوق من الجنود إلى ميادين القتال ليتضح لهم أن هذه الملايين الكثيرة لا ينبغي أن تحسب في قوة إنجلترا وإنما هي في الحقيقة قوة لأعدائها عليها، وهى في ارتقاب الفرص لخلع طاعتها خصوصًا ثمانين مليونا من المسلمين في حكومة إنجلترا يعدون الدولة العثمانية قبلة لهم وملاذًا يلجأون إليه وهم أول قوم حزبيين في الأقطار الهندية.

«لو علم العثمانيون أن دولة إنجلترا إنما تستميل المسلمين في الهند، بكونها حليفة الدولة العثمانية ونصيرة لها واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلاء أولي الحزم، لما صبروا وتجرعوا مرارة الصبر على تحكمات الإنجليز وحيفهم في أعمالهم وتعديهم على حقوق السلطان خصوصًا في المسألة المصرية التي هي في الحقيقة أهم مسألة عثمانية وإسلامية.

قال : الأسباب التي هيأت سقوط مصر في مخالب الإنجليز غريبة في بابها؛ إذ أصبحت وهى من نفس المصريين وبقوتهم يعدونها خارجة عنهم. نعم إن المصريين كانوا أيام «عرابي» على قسمين قسم يروم حفظ الحالة القديمة والوقوف عند ما يرسم به الخديوي وقسم كان يميل بإحدى جانبيه إلى عرابي ويهاب بالجانب الآخر سلطة الرسم القديم. فكان هذا القسم الثانى في ريبة من أمره ولا عزيمة مع الريب، القسم الأول مخلد إلى الخمول والفشل. فدخل الإنجليز بلا حرب حقيقية بل بنوع من الترهيب وقليل من الترغيب وخفيف من الدسائس صادف قلوبًا مستعدة فأخذ منها مقامًا فانحلت الرابطة وتفرق الناس عن «عرابي» بزوال جانب الميل إليه من قلوبهم.

«ومع ذلك ما كان يعتقد فرد منهم أن الإنجليز يبتغون من البلاد شيئًا، سوى أنهم يؤيدون «الخديوي توفيق باشا» وينقذونه من الثائرين عليه. فتساهل المصريون في الأمر بحسن ظنهم في حكومة الإنجليز مع ما جاءتهم به من الحجة القوية القائمة

على أن صاحب السيادة الشرعية «السلطان» في رضاء عن تصرفها ! بهذا فاز الإنجليز واستقرت أقدامهم. أما وقد مضى الزمان الكافي لظهور غدرهم وسوء نيتهم فلا أظن أنه يوجد من المصريين من يميل إليهم، بل لا يوجد إلا من يبغضهم ويتمنى فناءهم ويود لو يعمل عملا لهلاكهم ! ولكن «الوهم» يجسم المخافة ويكبح العزيمة، إن أهالي مصر كأنهم ذهلوا عن الأسباب التي مكنت الإنجليز من بلادهم. كأنهم يظنون أن المصريين كانوا على كلمة واحدة في مدافعة الإنجليز ثم تغلبت عليهم القوة الإنجليزية وقهرتهم جميعًا.

«كأن المصريين نسوا ما كان بينهم وأن الإنجليز ما دخلوا بلادهم إلا بمعونتهم ولتأييد خديويهم المنصوب بفرمان من سلطانهم، هذا هو الوهم العجيب ! إن الذين كانوا سببًا في تغلب العساكر الإنجليزية وحلولها في وادي النيل، وأنه لولاهم ما استقر لها قدم فيه، يظنون الأن أن تلك العساكر قادرة على قهر الأهالي عمومًا وإخضاعهم لحكومة بريطانيا، كلا ثم كلا وأن بهذا الظن الباطل يستسلمون لأعدائهم كرهًا ويجارونهم في أهوائهم نفاقًا. ولا أدل على سوء نوايا الإنجليز وسوء تدبيرهم وتحويل سعادة ما يحتلونه من البلاد إلى شقاء من النظر إلى مصر بعد أن فوضت إلى نابغة الدهر محمد علي باشا، ثم إلى ما حل فيها من البلاء والشقاء بفضل الإنجليز في سنين قليلة بعد احتلالهم مصر عقب ثورة «عرابي».

«فالنسبة بين العملين موجودة معكوسة؛ وذلك أن مصر بعدما فوضت أمورها إلى محمد علي باشا، لم يمض قليل من الزمن حتى دخلت في طور جديد من أطوار المدنية وظهر فيها شكل من الحكومة النظامية وتقدمت فيه على جميع الممالك الشرقية بلا استثناء.

«نعم نالت مصر في عهد ذاك الرجل العظيم وعهد خلفائه من بعده ما كانت تقف دونه أفكار المفكرين، طرقت أبواب السعادة من كل وجه فتقدمت فيها الزراعة تقدمًا غريبًا واتسعت دائرة التجارة وعمرت معاهد العلم وانتشرت في أرجائها مبادئ المعارف الصحيحة وتقاربت أنحاؤها واتصلت أطرافها بما أنشئ فيها من سكك الحديد وخطوط التلغراف وتعارفت أهاليها وائتلفوا وقوي فيهم معنى الإخوة الوطنية وتواصلوا في المعاملات وتشاركوا في المنافع واعتدلت المشارب

المذهبية حتى كان لهم زمن أحس فيه كل واحد بنسبته من الآخر بأنه «وطني مصري» وارتفعت بذلك أصواتهم بعدما جالت فيه أفكارهم.

«تفجرت من أرض مصر ينابيع الثروة وعمَّت بقاعها وطفحت ففاض خيرها على ما يجاورها من الأقطار الشرقية، بل وصل من نيلها إلى أراضي البلاد الغربية وتوارد إليها الغرباء وقصاد الكسب من كل مكان وما خاب لها قاصد ولا أخفق فيها سعى ساع فأثرى في مغانيها الفقراء وعز بها الأذلاء وصارت قبلة لآمال كثيرين من الغربيين ومحط رحال الراجين من الشرقيين وكل وافد إليها يجد أهلا خيراً من أهله ومسكنا خيراً من سكنه وتكاثرت فيها العناصر الغريبة حتى حاكت برج بابل يوم تبلبلت الألسن. وساد بهاد الأمن وعمت الراحة وضارعت في كل أحوالها نوع ما عليه الممالك الأوروبية العظيمة، وكان المتأمل في سيرها هذا يحكم حكمًا ربما لا يكون بعيداً من الواقع، أن عاصمتها لا بد أن تصير في وقت قريب أو بعيد كرسي مدينة لأعظم الممالك الشرقية بل كان ذلك أمراً مقرراً في أنفس جيرانها من سكان البلدان المتاخمة لها وهو أملهم الفرد كلما ألم خطب أو عرض خطر.

«غير أن الأيام كأنها حسدتها على ما منحته، فعثر العاقل وفرط المالك واغتر المعجب وتهور الغبي وضعف القوي فتقرب البعيد وألحمت إداراة الحكومة بما ليس من نسيج سداها وانتقضت منها أصول على وجه غير مألوف ففتحت للدسائس أبواب وأنساب بين طبقات الناس دهاة سياسة وطلاب غايات فتفرق اتصال وتقطعت أوصال فضعفت السلطة الوازعة ونبذت الطاعة والتهبت نيران الفتن.

«قضاء حل في تلك البلاد كانت أشأم نتائجه دخول الإنجليز إلى مصر لتأييد الخديوي وقمع «الثورة العرابية» والإشفاق على طريق «الهند». احتلت مصر ورأت أن إعادة الأمن وتثبيت الراحة فيها من فرائض ذمتها! فكان من التحريق والتدمير والقتل والشنق والحبس والإبعاد والتغريم وما شاكل ذلك مما يطول شرحه. وعم الهون والذعر كل من عرف اسمه في أهل البلاد ما خلا أشخاصًا قلائل! دخل الإنجليز ـ ولم يمض إلا زمن قليل ـ حتى حكموا بطرد آلاف من الوطنيين الموظفين في دوائر الحكومة وما منهم أحد إلا ويتبعه عائلة وأولاد ولا قوت لهم إلا من مرتب عائلهم وما مرن على عمل للكسب سوى ما نشأ فيه من خدمة الحكومة.

«ألم يمس هؤلاء الفقر؟ ألم يعضهم ناب الجوع؟ ألم يهتك مستورهم؟ ألم يضق ذرعهم؟ ألم يصبحوا كساة بسرابيل الكآبة؟ عراة من أكسية المسرة؟ [1] إن لم يكن كل هذا فقد كان جله وإن صدى أنينهم يتلى في صفحات الجرائد الوطنية العربية والإفرنجية وسيتبع السابقين اللاحقون حتى لا يجد الوطني من المهن إلا ما لا يليق بالإنجليز تعاطيه من سفاسف الأمور ـ كما هو الحال في الهند ـ اضطرب ميزان السلطة العامة لتعاكس قواها المختلفة فاشتبه الأمر على العمال وظنوا أن لا تبعة عليهم فيما يعملون فانطلق ما غل من أيديهم وحكموا أهواءهم في أداء وظائفهم وأدخل في الوظائف والدواوين من ليس بأهل، فخطبوا وخلطوا وصار الحكم في هرج ومرج.

«أفعمت السجون بأعيان الرعية ورفعت أذناب الكرابيج لتشريح أبدانهم واستعملت آلات التعذيب وامتدت مخالب الجور لتجريدهم من بقايا أموالهم وثمرات كسبهم وحدث نوع من الحكم المطلق وشكل من الاستبداد أذاقهم الأمرين وبعث عليهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

«غلقت أبواب العمل من وجوه الرسمية في الإدارات وتعطلت أشغال المحاكم وشخصت الأبصار لعاقبة هذا التنازع بين القوى الحاكمة فاتسع نطاق الفوضى وارتفع حجاب المنعة فإذا الفلاح لا يبالي بعمدته والعمدة لا يبالي بمأمور مركزه والمأمور لا يحترم مديره وسرى التهاون إلى الدوائر العليا وعمت الفوضى وعاد الأمر لقوة الساعد وكثرة الأعوان فعاثت اللصوص وتشكلت منها عصابات وكثر قطع الطرق في أكثر النواحي، وارتفعت الأصوات بالشكوى منهم في عموم الجرائد الوطنية، فوقفت حركة الأعمال العمومية وظهرت الأزمة وبدأت للناس شئون قبضت صدورهم وعدلت بهم عن ضرورات معاشهم وامتنع المدينون من أداء ما عليهم لدائنيهم من التجار والصيارفة فقبض المقرضون أيديهم واحتكروا نقودهم لفقد ثقتهم واشتدت الحاجة وارتبكت الأحوال إلى حد لم يسمع إلا في القصص وروايات القدماء قبل محمد علي باشا. ومطالب الحكومة والزيادة في

---

(١) كل هذه الأحوال يرجع تاريخها إلى ما بعد حلول الإنجليز في مصر عقب الحوادث العرابية المشهورة سنة ١٨٨٢م.

الضرائب والرسوم على أشد الحالات مع الإلحاح في اقتضائها وتحصيلها ، فعم العسر وأحاط الضنك، وتقوضت آلاف من البيوت التجارية وأتربت أيدي الجماهير من عمال الصناعة وأعدم المزارعون قاطبة إلا نزر يسير من حفظة الكنوز والمستأثرين بأموال الكافة نهبًا وسلبًا.

«وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية والأخذ بالشبه وإن ضعفت واتباع بواطل التهم وإن بعدت، واستحالت حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه وبلغ منها مبلغه فلا ترى مارا بطريق إلا وهو يلتفت وراءه لينظر هل تعلق بأثوابه شرطي يقوده إلى السجن أو يقتضي منه فدا، وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر في كل خطوة عثرة وفي كل نهضة سقطة وله من كل شاخص دهشة ومن كل طارق لبابه غشية، أي شقاء ينتظره الحي في حياته أشنع من هذا ؟!

«هذا تنشق له المرائر من أحوال سكان القطر ـ هذا بعض ما يضيق به الصدر وتنقبض له الأنفس مما رزئوا به وترك الأهالي حيارى في أمورهم تائهين عن رشادهم لا يعلمون ماذا يحل وينتهي بهم يذكرون من حكومتهم وأحوالهم السابقة وكانت الدول الأوروبية ـ تضليلا وتغريراً ـ تسميه ضيقًا وعناء واستبدادا وجورا وتمنيهم بالإنقاذ منه فيحنون إليه ويبكون عليه ويودون لو رجعوا إليه ويحسبونه غاية سعادتهم ومنتهى راحتهم بعد هذه الحالة التي هم فيها.

ومختصر القول: إن محمد علي باشا أوصل مصر في زمن قليل إلى أوج السعادة والمجد والإثراء مع الأمن الشامل والعدل الكامل، والإنجليز بفضل احتلالهم أسقطوا مصر إلى حضيض الشقاء والذل والفقر وفقد الأمن ومحض الجور ـ كل ذلك في أقل من سنتين ـ فيا لله ما أعظم الفرق بين الزمنين ونتيجة العملين: عمل محمد علي باشا وعمل السادة العادلين «الإنجليز»!!

* * *

رابطة الدين والوحدة الإسلامية

قال : «ألا فليعلم الشرقيون من هنود ومصريين وغيرهم، ممن سقطوا بين مخالب الإنجليز أن لهذه الدولة خطة تجري عليها ودستورا تعمل به في البلاد وذلك أنها إذا رأت البلاد في قبضة سلطان أو أمير نازلته وضمنت لنفسها الفوز إما بقوة الرجال أو بقوة المال والمكر والاحتيال فلا تبالي بريطانيا بأفراد ولو كانوا سلاطين أو أمراء ولا بجيوشهم وقوادهم وإنما الذي تخشاه وتفرق منه، قيام الأمة بوجهها، هذا هو السلاح الوحيد القاطع لحول بريطانيا وحيلها وهذا الذي رأيناه يخلص البلاد وينجي العباد من نير الإنجليز وقد سبق فذكرنا دخولها لبلاد الأفغان بستين ألفا من الجنود المنظمة وكيف أنها توغلت في البلاد واستولت على المعاقل والحصون، ولكن لما هب الأفغانيون من كل صوب وناحية وصدموها باسم أمة الأفغان لا باسم أمير أو سلطان اضطرت لترك البلاد وولت الأدبار بعد أن صرفت ثلاثين مليونا من الجنيهات، فضلاً عن دماء رجالها ونخبة قوادها.

«أي سلطان كان يمكنه أن يكشف الإنجليز عن مستعمرة «أمريكا» لو لم يصدمها اتحاد الأمريكانيين وينهضون باسم الأمة الأمريكانية مستميتين في طلب استقلالهم نعم لما رأت إنجلترا أن الأمة هي التي تقاومها وتخلع طاعتها أكرهت على العمل بدستورها وجرت على خطتها بترك البلاد لأهلها ودهاة الإنجليز أعقل من أن يتوهموا إمكان إفناء أمة بأسرها تتفق وتستبسل وتطلب الموت في سبيل استقلالها.

«هذا الذي علمناه وشهدت به الحوادث وأيدته الوقائع فإذا اتحد المصريون

ونهضوا كأمة لا ترى بدا من استقلالها ولا تقبل به بديلا وثبتوا على شيء من الجور والحيف والقتل في بادئ الأمر وصبروا ورابطوا وارتبطوا فبشر المصريين بحسن المآل ونيل الاستقلال إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أما الهند فقد بدت طلائع خير تبشر بقرب نهضتها من كبوتها، وتيقظها من غفلتها، وذلك أن الإنجليز قد جروا في الهند على قاعدة «فرِّق تسد» وقد تمكنت من تفريق المسلمين والوثنيين بعضهم عن بعض وغرست في العنصرين بذور البغضاء بالميل تارة إلى جانب المسلمين وتارة إلى الآخرين وكان إيثارها للوثنيين أظهر واعتمادها عليهم بتذليل بعضهم بعضا أقوى، إذ ليس فيهم من البأس والنجدة ما في المسلمين ولا ضاع لهم من العزة والسلطان ما ضاع للمسلمين.

فظل الوثنيون في رضوخ واسترضاء للإنجليز يفرحهم ذلك الإيثار الطفيف في سفاسف الأمور والوظائف ويبعدهم عن المسلمين حتى جاء دور القهر إليهم فأخذت تستلب ملك «نواب» الوثنيين وراجاتهم وتذيق أمراءهم أنواع الذل والهوان وبالإجمال فقد سقطوا تحت مكبس الضغط والتضييق مع إخوانهم المسلمين فالتحمت الأجزاء المتفرقة وتقاربت القلوب المتنافرة وأخذت أفكارهم تجول في المصير وسبل الخلاص ولسوف تعلو به أصواتهم.

آن لنسيم الحياة والنشاط أن يهب على الممالك الشرقية وأهلها فتهب من رقدتها وتستيقظ من غفلتها وسنتها فتجمع كلمتها وتوحد قوتها.

آن للأفغانيين أن يرفعوا أبصارهم ويستقبلوا باليقظة حظهم بفكر ثاقب وعقل رشيد ويتقدموا للاتفاق مع إخوانهم الإيرانيين فليس بينهم ما يصح عليه الاختلاف في المصالح العمومية فالجميع من أصل واحد وتجمعهم رابطة واحدة وهي أشرف الروابط «رابطة الدين الإسلامي».

وليعلموا أن استمرارهم على التخالف جلب ويجلب الضرر عليهم وعلى إخوانهم الفارسيين وعلى إخوانهم المسلمين في الهند وعموم سكنتها. وعلى الفارسيين والأفغانيين أن يراعوا الكلمة الجامعة والصلة الجنسية ولا يجعلوا الاختلاف الفرعي في المذهب سببا في خفض الكلمة الإسلامية وقطع الصلة

الحقيقية فليس من العقل والحزم أن يقام من خلاف جزئي علة لاضمحلال الكل. قد علم كل من القبيلين أن الاختلاف بينهما هو الذي جلب على كل منهما ما جلب، فعلى الأفغانيين أن يجوزوا عن هذا الاختلاف الفرعي إلى الوحدة الأصلية ويمدوا سواعدهم لمحالفة إخوانهم ويجعلوا تلك «الوحدة» سياجا لأوطانهم وعدة لمكافحة أعدائهم ومنبعا فياضا لخير بلادهم وملاذا لجيرانهم ومثالاً تنسج على منواله عموم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها فينالوا شرفا رفيعا ويورثوا أعقابهم مجدا مخلدا.

وليس ببعيد على همم الإيرانيين وعلو أفكارهم أن يكونوا أول القائمين بتجديد «تلك الوحدة الإسلامية» وتقوية الصلات الدينية كما قاموا في بداية الإسلام بنشر علومه وحفظ أحكامه وكشف أسراره. فلقد عملوا وما قصروا بل صرفوا قصارى الجهد في خدمة الشرع الشريف وتوسلوا لذلك بأجل الوسائل. نعم البخاري ومسلم والنيسابوري والترمذي وابن ماجه وأبوداود والبغوي وأبو جعفر البلخي والكليني وغيرهم ممن أنبتتهم أراضي إيران. أبو بكر الرازي الطبيب الشهير والإمام فخر الدين الرازي ممن نشأوا في طهران. أبو حامد الغزالي حجة الإسلام وأبو إسحق الأسفرايني والبيضاوي وخواجة نصير الدين الطوسي والأبهري وعضد الملة والدين وغيرهم من علماء الكلام والأصول ممن تفتخر بهم بلاد فارس وهم فخر المسلمين. أبو علي بن سينا الفيلسوف الشهير وشهاب الدين المقتول ومن كان على شاكلتهم ممن جبلوا من تراب فارس. إن أهل فارس كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربي وضبط أصوله وتأسيس فنونه، منهم سيبويه وأبو علي الفارسي والرضي ومنهم عبد القاهر الجرجاني مؤسس علوم البلاغة لبيان إعجاز القرآن وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية. وصاحب الصحاح الجوهري من إحدى قراهم ومجد الدين الفيروزآبادي من إحدى بلدانهم، الزمخشري جار الله والسكاكي وأبو الفرج الأصفهاني وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم ممن بينوا دقائق القرآن وشيدوا الدين، كلهم من أرض فارس.

الطبري أول المؤرخين والاصطخري والقزويني أول الجغرافيين كانوا من بلاد فارس، الشبلي كان من نهاوند وأبو يزيد البسطامي من بسطام، والأستاذ الهروي

وهو الأستاذ الحقيقي للشيخ الأكبر محي الدين بن العربي كان من هراة وكلها بلاد فارس.

هل ينسى صدر الشريعة وفخر الإسلام البزدوي والآمدي والميرغيناني والسرخسي والسعد التفتازاني والسيد الشريف والإبيوردي وكلهم من أبناء فارس. القطب الشيرازي، والصدر الشيرازي ورأس الحكمة في المتأخرين ميرباقر الداماد، أمير فندركسي وغيرهم كانوا من بلاد فارس.

أي فضل كان ولم يكن لهم فيه اليد الطولى أي مزية منَّ الله بها على الإسلام ولم يكونوا من السابقين لاقتنائها؟ نعم وفيهم جاء قول المصطفى ﷺ «لو كان العلم في الثريا لناله رجال من فارس».

فالفارسيون إذا تذكروا أياديهم في العلم ونظروا إلى آثارهم في الإسلام نهضوا ليكونوا للوحدة الدينية دعامة كما كانوا للنشأة الإسلامية وقاية. فهم بما سبق لهم أحق الناس بالسعي في استرجاع ما كان لهم في فتوة الإسلام، وهم أجدر المسلمين بوضع أساس للوحدة الإسلامية وما ذلك ببعيد على طيب عناصرهم وقوة عزائمهم.

أظن حان وقت ندائهم بالوحدة مع الأفغانيين والتحالف معهم على مقاومة العادين؛ ليكونوا بالاتحاد معهم حصنًا حصينا وحرزا منيعا تقف دونه أقدام الطامعين. أظنهم لم ينسوا أن استيلاء الإنجليز على الممالك الهندية إنما تم بوقوع الخلاف بينهم وبين الأفغانيين. هل يخفى عليهم أن كل مسلم في الهند شاخص بصره إلى طرف بنجاب ينتظر قدومهم إذا اتحدوا مع إخوانهم الأفغانيين. حصلت لهم تجارب كثيرة وشهدوا من مظاهر الحوادث ما فيه أكبر عبرة، فهل يصح بعد هذا أن يستمروا على التجافي والتباعد مع علمهم أن الوحدة منبع الشوكة؟

«هذا آن التآخي والتوافق، هذه أوقات التحالف والتواثق. أحاط الأعداء ببلادهم شرقا وغربا وكل يشحذ سيفه ويسدد سهمه حتى تمكنه الفرصة من شن الغارة على أطراف بلادهم فلا يضيعوا الفرص، وليعلموا أن اتفاق سلطنة الشاه مع إمارة الأفغان توجد قوة إسلامية جديدة في الشرق تسرع للانضمام إليها والاتحاد

معها سائر الطوائف الإسلامية مع أمرائها وحكامها وينبعث فيهم وفي سائر المسلمين حياة جديدة، وتجدد لهم آمال جليلة، وتنعش بذلك أرواح المؤمنين وما أجلها نعمة وأهيبها سطوة وأمنعها قوة، إذا توسط عقد تلك الوحدة الإسلامية صاحب الخلافة العظمى والإمامة الكبرى جلالة السلطان، فيستردوا المغصوب من ملكهم، ويسترجعوا المنهوب من أموالهم، ويستعيدوا مجدهم وما بان من عزهم ويرجعوا الملك الإسلامي كما كان مسيطراً ما بين نقطة الغرب الأقصى إلى أحشاء الصين في عرض ما بين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء، وتعاد السيرة الأولى التي كانت لملوك الإسلام العظام الذين أداروا بشوكتهم أكثر المعمور من الكرة الأرضية، أولئك الذين ما كان يهزم لهم جيش ولا ينكس لهم علم ولا يرد قول على قائلهم، كان الخليفة العباسي إذا نطق بالكلمة خضع لها فغفور الصين وارتعدت منها فرائص أعظم الملوك في أوروبا ، وكم نبغ في القرون الوسطى من أقيال الملوك والسلاطين مثل محمود الغزنوي وملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الأيوبي وفي المشرق مثل تيمور الكوركان وفي الغرب مثل السلطان محمد الفاتح والسلطان سليم والسلطان سليمان.

كانت لأساطيل المسلمين سيادة لا تبارى في البحار الأبيض والأحمر والمحيط الهندي ولها الكلمة العليا فيها إلى زمن غير بعيد، كان مخالفوهم يدينون للكوت فضلهم كما يذلون لسلطان غلبهم والمسلمون هم هم يملئون اليوم تلك الأقطار والأمصار لا يعوزهم للعود إلى ذلك المجد البازخ والعز الشامخ إلا وحدة تتم بإذن الله وفضل يعم بحول الله. وما على الله أمر عسير، وهو جل جلاله على كل شيء قدير نعم المولى ونعم النصير.

* * *

الإعجاز في الإيجاز

منبر الخطبة صوت التعليم والإيقاظ

قال: أرى للبلاغة في القول والإيجاز بالبيان والإعجاز فيه علاقة مع عزة سلطان الأمة وزمن فتوتها، فكم من خطوب ألمت وكادت تثير حروبًا وتحدث شرا مستطيراً أزالته خطبة وحسن بيان بإيجاز وكم من جيش سمع من أميره كلمات فاستمات وذلت عنده الحياة، وكم من أمر خطير ووعظ وتحذير تضمنه كتيب صغير ودونك خطبة الصديق بعد بيعته حيث قال:

«أيها الناس وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة والكذب خيانة. لأغمدن سيفي حتى يستله الحق ولأعملن بالحلم حتى لا تنفع إلا الشدة، الضعيف منكم قوي عندي حتى آخذ الحق له والقوي ضعيف حتى آخذ الحق منه. لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم» إلخ.

ومن مواعظ الصديق لأسامة بن زيد وهو أمير الجيش: «لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخًا كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا وتحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً، وسوف تمرون برهبان قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له...».

ومن بليغ وصاياه، وموجز حكمه ـ رضي الله عنه ـ مما لا يستغنى عنه أمير ولا

قائد جيش ولا عامل ولا ولي أمر ـ مدى الدهر ـ قوله ليزيد بن أبي سفيان: «إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه، واصلح نفسك يصلح لك الناس، وصل الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها. وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم واقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، ولا ترينهم فيروا خللك ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة عسكرك وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرك لعلانيتك فيخلط أمرك. وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتي من قبل نفسك واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عندك الأستار، وأكثر حرسك وبددهم في عسكرك وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير إفراط، واعقب بينهم في الليل واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرهما ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلجن فيها ولا تسرع إليها ولا تخذلها مدفعا ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده ولا تجسس عليهم فتفضحهم ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتف بعلانيتهم ولا تجالس العبَّاثين وجالس أهل الصدق والوفاء وأصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس واجتنب الغلول ـ البخل والشح ـ فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له».

أي خير لم تدل عليه هذه الوصايا؟ وأي شر لم تحذر منه؟ وهل باستطاعة المجلدات أن تقوم بما قامت به هذه الأسطر القليلة العبارة الوجيزة!! مَن من فحول الفصاحة وأقطاب البلاغة وفطاحل فقهاء الأمة وأعلام المجتهدين كانَ يطمع أن يجمع أصول القضاء وأهم فروعه كما جمعه الفاروق في كتابه الصغير المشهور لأبي موسى الأشعري حيث قال له:

«أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدى إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له وآس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك. البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا، ولا يمنعك قضاء

قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم، الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور بنظائرها، واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينه أمدا ينتهي إليه فإن أحضر بينتة أخذت له بحقه وإلا استحللت القضية عليه فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعماء وإياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم فإن استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذكر. . انتهى».

ومن موجز ومعجز وصايا الفاروق لأمراء الجيوش ما قاله لسعد بن مالك بن وهب حينما أمَّره على حرب العراق:

«لا يغرَّنك من الله إن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله، فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكنه يمحو السيئ بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعة الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويذكرون عنده بالطاعة فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ يلزمه فالزمه وعليك بالصبر».

وقد أوصى عتبة بن غزوان حين وجهه إلى البصرة بقوله:

«يا عتبة إني قد استعملتك على أرض الهند وهي حومة من حومة العدو أرجو الله أن يكفيك ما حولها ويعينك عليها. . . . . واتق الله فيما وليت وإياك أن تنازعك نفسك إلى كبر مما يفسد عليك إخوتك، وقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعززت به بعد الذلة وقويت به بعد الضعف تحتي صرت أميرا مسلطا وملكا مطاعا تقول فيسمع منك وتأمر فيطاع أمرك فيا لها من نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك وتبطرك على من دونك، واحتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية ولهي أخوفهما عندي عليك أن تستدرجك وتخدعك فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم أعيذك بالله ونفسي من ذلك، إن الناس أسرعوا إلى الله حتى إذا رفعت لهم الدنيا فأرادوها، فأرد الله ولا ترد الدنيا واتق مصارع الظالمين».

«نعم تسنى للفاروق أن يأتي على خير نتائج الأحكام ومايتنظره الناس على اختلاف طبقاتهم من عدل الحكام بأربع كلمات، حيث قال للمغيرة بن شعبة حينما ولاه: «يا مغيرة ليأمنك الأبرار وليخفك الأشرار».

«ومن معجز الإيجاز، ذلك الكتاب الذي حوى عزل أمير وتولية أمير وعظم الذنب الذي أسند للمعزول ولزوم تسليم العمل للخلف والسرعة بالمجيء، وفي كل ذلك لم يتجاوز السطر وإليك نص الكتاب الذي بعثه المغيرة.

«أما بعد فإنه بلغني نبأ عظيم فبعثت أبا موسى أميرا فسلم إليه ما في يدك والعجل».

وهكذا فإنك ترى في طيات تلك الكلمات الموجزة قد انطوى العدل المطلق ومنها بدأ علم الأخلاق وإليها انتهى مع حفظ وصون الشعور، وإليك ما قاله لعمرو ابن العاص: إن الله خلق الناس أحراراً فلم تستعبدونهم؟

ومن خطبة له: «أيها الناس إني ما أرسل لكم عمالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم وإنما أرسلهم إليكم ليعلموكم ويرشدوكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلي، فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه . . . . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تحمدوهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم».

«لأنه حسب نزول العرب في الغياض يستحلون فيه برد الماء وطيب الهواء وظل الأشجار فيسترخون ما وجدوا في العيش رخاء وتذهب منهم النجدة ويضعف منهم البأس، هذا ما خشى عليهم منه وحسبه ـ رضي الله عنه ـ مضيعة». وكان مع الأصحاب يرمي في نصحه ووصاياه وبسيط أقواله إلى غرض بعيد من الحزم والتيقظ، ذلك أنهم ذكروا رجلاً عنده فقالوا: يا أمير المؤمنين، فاضل لا يعرف من الشر شيئًا، قال: ذاك أوقع له فيه!».

«وما زال معين الحكمة وحسن البيان مع الإعجاز في الإيجاز يجريان مع الدولة صعوداً وارتقاء وانبساطا، حتى إذا أتى دور التقهقر والانحطاط أخذ اللسان وحسن البيان وتلك البلاغة والفصاحة في السقوط والسخافة وفساد التركيب وسقم المعاني وسوء اختيار الألفاظ لدرجة يتعذر على الغالب معها فهم المراد ولا أرى حاجة للإتيان بأمثلة؛ لأننا من المعاصرين لابتلاء اللسان بهذا الداء. قال: خرجت من صلاة الجمعة في المسجد الجامع في البصرة وفي نفسي حسرة أن أسمع الخطيب

أعرب ولو كلمة واحدة في خطبة مكتوبة في يده، فترحمت على سيبويه وعلمت أن كتابه «البحر» هو الذي أغرق البصريين والكوفيين فغاص الإعراب معهم إلى القعر. هذا من حيث الإعراب وأما من حيث المعنى فإلى الله المشتكى.

«منبر الخطبة في المساجد الجامعة شيده المصطفى ﷺ ليرتفع منه صوت التعليم للمسلمين والإيقاظ وتحريك الهمة والحث على جمع الكلمة وما فيه سعادة الدارين يصير إلى ما صار إليه اليوم، وعلى منابر البصرة والكوفة ارتقى مثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وغيره من أكابر الصحابة والتابعين، بحور البلاغة وفحول الفصاحة وحسن البيان، يرتقي ذلك المنبر اليوم أجهل الأعراب والعجم ويخطب الناس وقد ركبوا بعضهم احتشاداً وغص بهم فناء الجامع على رحبه، ولا تكون الخطبة إلا: «إن الورد اللطيف فتح من عرقه الشريف» وهكذا أكثر خطباء المنابر في الأمصار فلا حول ولا قوة إلا بالله».

«ومن العبث القيام لعمل قياس مع السلف الصالح ولو كان القياس مع الفارق فقط لهان الأمر وخف الشر ولكنه العكس التام. فإذا قلنا إن السلف كان لا ينقض عهداً ولا يخلف وعداً وأردنا أن نعلم ما نحن عليه من هذا القبيل، فما علينا إلا أن نعكس الأمر فيكون نحن الخلف «لا نحفظ عهداً ولا نفي وعداً» وهكذا مضاؤهم في العمل وتسويفنا، إيجازهم وتطويلنا، صبرهم وجزعنا، شجاعتهم وإقدامهم وجبننا وإحجامنا، عزة نفسهم وإباءهم ذلنا واستكانتنا... وإلى ما هنالك من المحزنات ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

«تلك آيات الكتاب الحكيم تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، ولا يرتاب فيها إلا القوم الضالون. هل يخلف الله وعده ووعيده وهو أصدق من وعد وأقدر من أوعد هل كذب الله رسله؟ هل ودع أنبياءه وقلاهم؟ هل غش خلقه وسلك بهم طريق الضلال؟ «نعوذ بالله» هل أنزل الآيات البينات لغواً وعبثًا؟ هل افترت عليه رسله كذبًا؟ هل اختلقوا عليه إفكا؟ هل خاطب الله عبيده برموز لا يعلمونها وإشارات لا يدركونها؟ هل دعاهم إليه بما لا يعقلون؟ «نستغفر الله».

«أليس قد أنزل قرآنا عربيا غير ذي عوج، وفصل فيه كل أمر أودعه تبيانا لكل شيء؟ تقدست صفاته وتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

هو الصادق في وعده، ووعيده ما اتخذا رسولا كذبًا ولا أتى شيئا عبثا وما هدانا إلا سبيل الرشاد ولا تبديل لآياته تزول السماوات والأرض ولا يزول حكم من أحكام كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. يقول الله: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ويقول: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون: ٨] وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وقال: ﴿ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا﴾[الفتح: ٢٨].

هذا ما وعد الله في محكم الآيات مما لا يقبل تأويلاً ولا ينال هذه الآيات بالتأويل إلا من ضل عن السبيل ورام تحريف الكلم عن مواضعه. هذا عهده إلى هذه الأمة المرحومة ولن يخلف الله عهده. وعدها بالنصر والعزة وعلو الكلمة ومهّد لها سبيل ما وعدها إلى يوم القيامة، وما جعل لمجدها أمدا ولا لعزتها حدّاً.

هذه أمة أنشأها الله من قلة ورفع شأنها إلى ذروة العلا حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات ودكّت بعظمتها عوالي الراسيات وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات وذابت للرعب منها أعشار القلوب.

«هال ظهورها الهائل كل نفس وتحير في سببه كل عقل واهتدى إلى السبب أهل الحق فقالوا قوم كانوا مع الله فكان الله معهم، جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بكتابه فأمدهم بنصر من عنده. هذه أمة كانت في نشأتها فاقدة الذخائر معوزة من الأسلحة وعدد القتال، فاخترقت صفوف الأمم واختطت ديارها فلا أبراج المجوس وخنادقهم دفعتها ولا قلاع الرومان ومعاقلهم صدتها ولا صعوبة المسالك عاقتها ولا أثر في همتها اختلاف الأهوية، ولا تهيبت نفوسها غزارة الثروة عند من سواها ولا راعها جلالة ملوكهم وقدم بيوتهم ولا تنوع صنائعهم ولا سعة دائرة فنونهم ولا عاق سيرها أحكام القوانين ولا تنظيم الشرائع ولا تقلب غيرها من الأمم في فنون السياسة.

«كانت تطرق ديار القوم فيحقرون أمرها ويستهينون بهم وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة «العرب بعد الإسلام» تزعزع أركان تلك الدول العظيمة وتمحو أسماءهم من لوح المجد، وما كان يختلج بصدر أن هذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الأمم الكبيرة وتمكن في نفوسها عقائد دينها وتخضعها لأوامرها وعاداتها وشرائعها. لكن كان كل ذلك ونالت تلك الأمة المرحومة على ضعفها ما لم تنله أمة سواها.

«نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوفَّاهم أجورهم مجدا في الدنيا وسعادة في الآخرة. هذه الأمة اليوم يبلغ عددها مائتين وثمانين مليونًا ـ على وجه التقريب ـ وأراضيها كما سبق بيانه آخذة من المحيط الأطلنطي إلى أحشاء بلاد الصين تربة طيبة ومنابت خصيبة وديار رحبة، ومع ذلك نرى بلادها منهوبة وأموالها مسلوبة تتغلب الأجانب على شعوب هذه الأمة شعبًا شعبًا، ويتقاسمون أراضيها قطعة بعد قطعة وممالكها مملكة بعد مملكة وولاية بعد أخرى ولم يبق لها كلمة تسمع ولا أمر يطاع حتى أن الباقيين من ملوكها يصبحون كل يوم في ملمَّة ويمسون في كربة مدلهمة ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التي تلم بهم وصار الخوف عليهم أعظم من الرجاء لهم.

«هذه هي الأمة التي كانت الدول العظام يؤدون لها الجزية استبقاء لحياتهم وملوكها في هذه الأيام يرون بقاءهم في التزلف إلى تلك الدول الأجنبية يا للمصيبة! ويا للرزيئة! أليس هذا بخطب جلل؟ أليس هذا ببلاء نزل؟ ما سبب هذا الهبوط، وما علة هذا الانحطاط ؟والسقوط هل نسيء الظن بالوعود الإلهية؟ «معاذ الله» هل نستيئس من رحمة الله ونظن أن قد كذب علينا ؟ «نعوذ بالله» هل نرتاب في وعده بنصرنا بعد أن أكده لنا؟ «حاشاه سبحانه» لا كان شيء من ذلك ولن يكون فعلينا إذن أن ننظر إلى أنفسنا ولا لومنا إلا عليها. إن الله سبحانه وتعالى بحكمته قد وضع لسير الأمم سننا متبعة ثم قال: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٦٢].

«أرشدنا تعالى في محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنها الله على أساس الحكمة البالغة. إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهة وخفض عيش وأمن وراحة حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر وإشراق البصيرة والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة والتدبر في أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار، ثم الفناء لعدولهم عن سنة العدل وخروجهم عن طريق البصيرة والحزم والحكمة، وحادوا عن الاستقامة في العمل والصدق في القول والسلامة في الصدر والعفة عن الشهوات والحمية على الحق والقيام بنصره والتعاون على حمايته، وتركوا الحق ولم يجمعوا هممهم على إعلاء كلمته، واتَّبعوا الأهواء الباطلة وانكبوا على الشهوات الفانية وأتوا عظائم المنكرات. خارت عزائمهم فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة، واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين!!

«هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماءها في التحلي بالفضائل التي أشرنا إليها وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها. سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم ولا تتبدل بتبدل الأجيال كسنَّته تعالى في الخلق والإيجاد وتقدير الأرزاق وتحديد الآجال، علينا أن نرجع إلى قلوبنا ونمتحن مداركنا ونسبر أخلاقنا ونلاحظ مسالك سيرنا لنعلم هل نحن على سير الذين سبقونا بالإيمان؟ هل نحن نقتفي أثر السلف الصالح؟ هل غير الله ما بنا قبل أن نغير ما بأنفسنا وخالف فينا حكمه وبدل في أمرنا سننه، «حاشاه وتعالى عما يصفون». بل صدقنا الله وعده حتى إذا فشلنا وتنازعنا في الأمر وعصيناه من بعد ما أرى أسلافنا ما يحبون وأعجبتنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئا فبدَّل عزنا بالذل وسمونا بالانحطاط وغنانا بالفقر وسيادتنا بالعبودية. نرى الأجانب عنا يغتصبون ديارنا ويستنزلون أهلنا ويسفكون دماء الأبرياء من إخواننا ولا نرى في أحد منا حراكا.

«هذا العدد الوافر والسواد الأعظم من هذه الملة وغيرهم من الشرقيين لا يبذلون في الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئا من فضول أموالهم، يستحبون الحياة الدنيا

ويود كل واحـد منهـم لو يعـيش ألف سنة وإن كـان غـذاؤه الذلة وكـسـاؤه المسكنة ومسكنه الهوان.

«تفرقت كلمـة الشـرقيين عـمومًـا والمسلمين خصـوصًا «وهـم أصـحـاب الملك المسلوب والمال المنهوب شرقا وغربا وكاد يتقطع ما بينهم، لا يحن أخ لأخيه ولا يهتم جار بشأن جاره ولا يرقب أحدنا في الآخر إلا ولا ذمة ولا نحترم شعائر ديننا ولا ندافع عن حوزته ولا نعززه بما نبذل من أرواحنا وأموالنا حسبما أمرنا. أيحسب اللابسـون لبـاس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهـر على الألسنة ولا يمس سـواد القلوب؟ هل يرضى الله عنهم بأن يعبدوه على حرف فإن أصابهم خير اطمأنوا به وإن أصـابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة. نسأل الله الحماية والهداية إلى سواء السبيل فهو حسبنا ونعم الوكيل».

* * *

نهاية الاستعمار

قال: لقد برز الأوروبيون بضروب السياسة لتوسيع ممالكهم وتفننوا بإيجاد الوسائل المؤدية لذلك وكان أسبقهم في الدهاء وأكثرهم في الاستيلاء «الإنجليز»! وهم في مقدمة من رأى من دول الغرب أن فتح البلاد وتملكها بالجيوش والكفاح والقتال من مزعجات الأمور وأن الدخول من باب المكر واللين والخديعة والختل أوفر وأسهل وأقرب وأفعل، فاعتمدت هذا الأخير سلاحا ونالت به نجاحا وفلاحا وتركت الأول وهو «الحرب والقتال» وفتح البلاد غلبًا وقهراً ورجعت للثاني وألبسته من الأسماء طيلسانا لين الملمس هين الملبس ودعته (بالاستعمار) وما يؤخذ من الممالك «مستعمرات» ومن يحكم من الناس فيها بـ«مستعمرين»! وجرت في هذا المضمار فكانت «المجلّى» وحازت قصب السبق وتبعها غيرها من الدول كانوا «السكيت».

«إن هذا (الاستعمار) لغة واصطلاحا مصدرا واشتقاقا لا أراه إلا من قبيل أسماء الأضداد وهو أقرب إلى «الخراب» و«التخريب» وإلى «الاسترقاق والاستعباد» منه إلى «العمار والعمران والاستعمار». لا تسير دول الاستعمار إلا إلى البلاد الغنية في ثروتها ومعادنها وخصب تربتها ومن كان أهلها في الدرك الأسفل من الجهل قد خيم عليهم الخمول، لا يبدون حراكا ولا يقربون عراكا.

«وإذا صادفت دول الاستعمار ـ على طريق الشذوذ ـ في بعض الممالك أو المقاطعات مقاومة من سلطان أو أمير فما هي إلا مناوشة صغيرة حربية مع تلك المعدات الحديثة وقد سقط الملك أو الأمير أسيرا، فسيق مع أهل بيته ذليلا حقيراً وحجر عليه في أضيق البلدان وأبعدها عن العمران وتدخل المملكة أو الجزيرة أو

المقاطعة وتنتظم في سلك المستعمرات فتصبح أعزة البلاد أذلاء ويحل محل الحرية الشخصية الاستعباد وكم الأفواه ، وينتصب الميزان ليحاسب من تطرف عينه من الأهلين أو يشخص ببصره أو يلتفت إلى ورائه ، ليس لأحد من خيرات بلاده شيء وكل الضرائب والضربات والشر والويلات لأهل البلاد وعليهم ، لا يشاركهم بذلك أحد .

«هذا إذا كان الدخول للبلاد «بلعبة حربية» ، وأما إذا دخلوا من باب الانتصار للأمير أو تثبيت الملك أو قمع الثورة وكانوا في ذلك اللباس لباس الأصدقاء ، الأمناء المخلصين أو محبين للشعب ورقيه وتعليمه دروس الحكم الذاتي ليستغنى عنهم ويحكم بلاده بذاته ! ! فهناك تبقى مظاهر الأمور محفوظة وبعض التقاليد التافهة مأمونة يشكلون للأحكام وإدارة مهام البلاد ـ هياكلَ من الناس ويتركون معهم أمير البلاد قبة جوفاء يرجع منها صدى الصوت فقط وليس لهم من الأمر إلا اتباع الأمر لا غير .

ومختصر القول : إن الاستعمار بمعناه الصحيح ومبناه الصريح هو تسلط دول وشعوب أقوياء علماء على شعوب ضعيفة جهلاء ، ولا يخرج عامل الغلب والقهر عما ذكرناه فيما سبق وهو «القوة والعلم» يحكمان ويتحكمان بالضعف والجهل ، سنة ثابتة وقانون متبع في الكون .

ولما كان لحياة الأمم والدول أدوار وآجال ولحدوثها وتكونها وتعاليها ثم توقفها وانحطاطها أسباب وعوامل ، هكذا وجب أن يكون الاستعمار خاضعا لتلك النواميس الكونية ، بمعنى أنه يصل إلى حد محدود وأجل معلوم . انقضاء أجل الاستعمار إنما يتم بزوال الأسباب التي مكنت أهله من التسلط وأكرهت الشعوب على الخضوع لهم . نعم متى ضعف ما كان سببا في الصعود ، يحصل الهبوط والانحطاط ، ومتى زال ما كان سببا في السقوط يحصل الصعود ، دور للحاكم والمحكوم وقاعدة هي بحكم اللازم والملزوم .

«يحصل للضعيف من صدمة القوي دهشة ورجفة ويحدث من آثار العلم على الجاهل «خشية» فيقف بين هاتين القوتين منذهلاً ، حائرًا ، ذليلاً ، صاغراً ، كما هو

الحال مع أهل الاستعمار والمستعمرين، إذ يمر الدور الأول بين تجبر وتكبر وعسف وجور وأهل المستعمرات قد أدهشتهم المفاجأة وأذهلتهم الصدمة فيقابلون كل قول بالسمع والطاعة ويفعلون ما يؤمرون بكمال الخضوع فيصادرون بمعنوياتهم من حرية شخصية وعزة نفسية وحرمة ملية أو جامعة قومية، ثم يأتي دور القضاء على مادياتهم فيحرمون من خيرات بلادهم ومن كسب تجارتهم واستثمار مناجمهم، وبالإجمال الحرمان المطلق من كل خير وإنزال كل شر وضير فيرزحون آخر الأمر تحت أثقال الضرائب وتتحمل أجسامهم ما لا تطيق، فعند الوصول إلى هذا الحد من إرهاف الحد تظهر على الأمة عندئذ بعض آثار الحياة وهو ما يشبه «الاختلاج» فإذا التقوا أفراداً أخذ كل منهم ينظر إلى الآخر فيهزون رءوسهم هزا خفيفا ويفركون أيديهم فركا غير منتظم ويحكّون رقابهم وأرباب اللحى منهم يسلبون لحاهم وينتفون عثنونهم! هذه هي أول مظاهر الشعور ثم تجول الأفكار، وبعده يبدأ الهمس ثم الهدرمة ثم وثم إلى أن يعلو الصوت ويرتفع السوط ويحكم السيف ويأتي من بعده حكم العادل وهو سبحانه ولي المظلومين.

«ولو جاز لدولة أن تشذ فتعامل المستعمرات بشيء من العدل ولم ترهقهم ظلما وتسومهم جورا وعسفا للزم أن يكون ذلك الشذوذ بمعاملة الإنجليز لمستعمرة «أمريكا» وبينها وبينهم من جامعات اللسان والدين والمذهب والأخلاق ما يدعو للعطف ويحمل على الإقلال من العنف، ولكن هيهات!! فليس لقاعدة الاستعمار من شاذ وكلنا يعلم ما عاناه الأمريكانيون من جور الحكومة الإنجليزية وتفننها بأنواع المظالم وسلب أموالهم بأشكال الضرائب وآخر ضريبة أو ضربة نبهت الأمريكانيين ودفعتهم لطرح نير إنجلترا بقوة السلاح ونهوض الأمة ضريبة «ورقة التمغة» وأن صكوك البيع وكافة العقود والعهود إذا لم تكن محررة على تلك الورقة لا يعمل بها.

«وناهيك ما في هذا الحكم من الجور ومن ضياع أملاك وحقوق، نعم لجأ الأمريكيون في بدء أمرهم إلى ما يلجأ إليه الضعيف، إذ بعثوا بالشكوى إلى عاصمة الإنجليز ومجلس أشرافهم عقب أن عقدوا جمعية عمومية في مدينة نيويورك وعقب أن أوسعوا مأمور بيع ورق التمغة ضربًا، واتفقت كلمة الجميع على الرفض وهذا

أول طلائع القوة التي لا ترضخ الإنجليز لقوة سواها وهو اجتماع كلمة «الأمة» خدَّرت أعصاب الأمريكيين بإبطالها ورقة التمغة وبالوقت ذاته أحدثت ما يمكنها من سلب مال الولايات المتحدة فوضعت رسم الجمرك على ما يدخل إليها من الشاى وهذا الرسم أكثر سلبا للمال من التمغة وعمدت للتنفيذ على استعمال القهر والقوة، ولما كانت روح الحياة في الأمريكيين قد دبت وجازت وتخطت دورة «الاختلاج» و«الهمس» ووصلت إلى دور ارتفاع الصوت وسل السيف فرمت بالشاى الوارد إلى البحر ووقفت للقوة الإنجليزية بقوة الأمة الأمريكية وألقت مقاليد أمورها وإدارة حروبها الوطنية إلى بطل حريتهم واستقلالهم «الجنرال واشنطون» العظيم !

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

«قل لي لو ثابر الأمريكانيون دهرا على بث الشكوى من ولاة الإنجليز إلى مجلس وزراء الإنجليز، واستنفدوا المداد، وسودوا ما في الأرض من قرطاس تظلما واستغاثة، هل كان يفيدهم في استقلالهم شيئا، أو يكشف عنهم بلاء استعمار البريطانيين، لا والذي جعل الجنة تحت ظلال السيوف. فقوة كل أمة كامنة في أفرادها لا يظهرها إلا الاتحاد ولا يخفيها إلا التفرق، فمن رام من الأمم استعادة مجدها والتخلص ممن أذلها فليس غير طريق «الاتحاد» ما يوصل إلى الغاية وينقذ من البلاء ولا غير حب الموت ما ينجي من الموت وينيل المرء إحدى الراحتين، فإما أن يعيش بحريته واستقلاله (سعيداً) وإما أن يموت دونهما (بطلاً شهيداً).

«أروني مملكة أو أمة انغمس ملوكها وأمراؤها بالسفه والسرف وعم الجهل طبقات الشعب وتفرقت كلمتهم فاستكانوا للذل والهوان لم تسقط تلك الملوك والأمراء عن عروشها ولم يستعبدها الاستعمار ويحل فيها الدمار!! وهاتوا مملكة أو قارة اتفقت كلمة أهلها وأنفت من الذل ورفضت الاستعباد واستلت السيف وطاب لها الحتف ولم تنل استقلالها والتمتع بحريتها ولو كان المستعمر أعظم الدول قوة واقتداراً.

«هل من حاجة للإتيان بالأدلة وضرب الأمثلة على أن أصغر الأمم ناهضت أعظم الدول وظفرت بحاجتها ونالت حريتها واستقلالها.

«من هم اليونان ـ سكنة ولاية المورة ـ قبل أقل من عصر عندما ناهضت الدولة العثمانية، تلك الدولة التي كانت تحكم ستين مليونًا من النفوس إذ ذاك واليونان إلى اليوم لم يتجاوزوا في متفرق المعمور مليونين؟!

«كم هو عدد الصربيين؟ وهل تجاوزوا بعد استقلالهم مليونين ونصف مليون نسمة تقريبًا؟! ما هو جبل الأسود؟ ومجموع سكانه لم يبلغوا عدد سكان محلة «بك أوغلو» في الأستانة وما هي قوته وجيشه بالنسبة لقوة وجيش الدولة العثمانية! وهكذا القول في بلغاريا، ورومانيا...

«فبعد هذه الأدلة المحسوسة والأمثلة الملموسة، يصح أن يبقى أدنى ريب أن المستعمرات لأي دولة مهما تعاظمت قوة واقتداراً كالثوب العارية لا يلبث حتى يسترد عند طلب صاحبه بالسنن المعروفة والطرق الموصوفة.

«هل يشك المصريون وهم يزيدون عن العشرة ملايين[١] وكلهم أحفاد الغزاة الفاتحين من أعز قبائل العرب وإخوانهم الأقباط أحفاد أولئك الأشداء الذين آثارهم تدل على عظم هممهم أنهم إذا نهضوا لم يظفروا بالاستقلال والحرية وإعادة المجد القديم لذلك القطر السعيد. بلى وإنهم سينهضون إن شاء الله ويعملون متحدين معتصمين بحبل الله وينالون ما يتمنون بحول الله، والله على كل شيء قدير.

* * *

(١) هذا كان عدد سكان القطر يوم كتبت هذه المقالة سنة ١٣١٠هـ ١٨٩٣م.

كيف يعيش المسلمون
في الماضي أو الحاضر والمستقبل ؟

قال : الكون يشهد والآثار تدل ولا من ينكر على أن للعرب وغيرهم من العجم آثارا ومفاخر ، أتت من وراء الهمم وصدق العزائم، ولكنها يالـلأسف دفنت في أجداث الأجداد وجاورت عظام أولئك العظام أعلام المروءة، عصبة الرحمة، أولياء الشفقة، أهل النجدة، أسود الحمية، وغوث المضيم، يوم الشدة ، شوامخ القوة ، رواسي العدل، تلك بعض صفات السلف، عثر عليها الخلف بالنبش وهو في جبانة «الجبن» و«الخمول» وقراها في سطور كتاب حادثات الدهر وأوراق سجل رجال العالم فطفق يفخر ويعدد ويصول ويطول ويقول : نحن من لمعت سيوف أجدادهم بالمشرق وانقضَّت شهبها على المغرب فذلَّت لهم رقاب القياصرة والأكاسرة وخضعت لأمرهم الأمم، خفقت أعلام فتوحاتهم فوق ممالك الأرض فطهروها من جراثيم الظلم والجور وملئوها بالرحمة والعدل وهكذا لا تزال تسمع كلا من العربي والفارسي وغيرهما من الشرقيين يقول نحن أحفاد أولئك الأجداد ونحن سلالة وذرية أولئك الأقيال الأمجاد ونحن ونحن مما يثير الأشجان ويزيد الأحزان. نعم أولئك آباؤنا وأجدادنا قد جاد الزمان بهم فجاءوا ولكن واسوأتاه وامعرتاه! واخجلتاه! إذا هم سألونا عما فعلنا بمخلفاتهم وما أورثوه لنا واستخلفونا عليه من الممالك والأقطار وعظيم المدن والأمصار.

«نعم! أين أنتم أيها الأجداد، الأمجاد، الأنجاد ، القوامون بالقسط، الآخذون بالعدل، الناطقون بالحكمة، المؤسسون لبناء الأمة، ألا تنظرون من خلال قبوركم إلى ما أتاه خلفكم من بعدكم وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم، انحرفوا عن

سنتكم وحادوا عن طريقكم فضلوا عن سبيلكم، استبدلوا كل فضيلة برذيلة وأتوا على كل أمر لله بعكسه، نبذوا حكمة الدين واتباع شرع سيد المرسلين وتفرقوا فرقًا وأشياعًا. الملوك منهم أنزلوا عن عروشهم جورًا وذوو حقوق حرموا حقوقهم ظلمًا، وأعزة باتو أذلة وأجلاء أصبحوا حقراء وأغنياء أمسوا فقراء وأصحاء أصبحوا سقاما وأسود تحولت نعاما فأصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفا وتحترق الأكباد حزنا، أصبحوا فريسة للأمم الغريبة لا يستطيعون ذودا عن حوضهم ولا دفاعا عن حوذتهم، ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل ويوقظ النائم ويهدي الضال إلى سواء السبيل ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ـ .

«نعم! إن للأرواح إشراق بهياكلها الروحانية على ما تلبس من الأجسام الترابية في هذه الدار الفانية ومناجاة لمن فيه ذلك الاستعداد «إذ الإمداد لا يكون إلا على قدر الاستعداد فإذا أصغينا بالحس الروحى إلى ما تريد أن تناجينا به أرواح أجدادنا لوجدناهم يحرقون علينا الأرم ويزعجهم الألم وينادوننا : أيها الأحفاد ، تفتخرون بسيوف لمعت بالمشرق، نعم، وقد تركنا لكم تلك السيوف مشحوذة في أغمادها فهل تقلدتموها ؟ وهل سللتموها بوجه من اكتسح بلادكم وضرب عليكم الذلة والمسكنة تفتخرون بما فتحنا وتركناه لكم من الممالك وما تحملناه في سبيل ذلك من المخاطر والمهالك ولا تخجلون ولا تحزنون وقد سلبتها منكم الأعداء وأنتم من مقاعد جبنكم وذلكم تنظرون ولا تتحركون ولا تنهضون وحتى لا تنطقون.

تفتخرون بصبرنا وثباتنا وإقدامنا وبسالتنا واعتصامنا بحبل الله واتباع سنن نبيه الكريمﷺ وأنتم على عكس الأمر من أخلاق وصفات، وما أبعدكم بهذا عن الفخر وأبعد الفخر عنكم ولأنتم أولى بإطراق الرأس وغض الطرف خجلاً وحياء من الله ومن أرواحنا في الملأ الأعلى التي تبرأ إلى الله من صنعكم وقلة إيمانكم بالله والعمل بما جاء به رسول الله .

«تفتخرون بتمسكنا بأصول الدين وحسن اليقين والتزام الكتاب والسنة والعمل بأحكامهما وأنه قد استحكمت بيننا رابطة الأخوة فكنا كالبنيان المرصوص، نعم ! هكذا كنا، أما أنتم؟! فلم يبق من جامعة بينكم إلا العقيدة الدينية ـ وليس في الجميع ـ مجردة عما يتبعها من الأعمال، انقطع التعارف بينكم وهجر بعضكم بعضا هجرا

غير جميل . علماؤكم وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها لا تواصل بينهم ولا تراسل مع جمودهم ، فالعالم التركي في غيبة عن حال العالم الحجازي ، والعالم الهندي في غفلة عن شئون العالم الأفغاني وهكذا . . بل العلماء ومن أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ولا جامعة تجمعهم ولا صلة إلا ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة بين أحدهم والآخر ، أما في هيئتكم الكلية فلا وحدة لكم بل لا أنساب بينكم ، وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها كأنه جزء منفصل أو عضو مبتور .

«تفتخرون بأنه غلب على صفاتنا التعقل والتروي ، وانطلاق الفكر من الأوهام والعفة والسخاء والقناعة والدماثة ولين الجانب والوقار والتواضع وعظم الهمة والصبر والحلم والشجاعة والإيثار والنجدة والسماحة والصدق والوفاء والأمانة وسلامة الصدر من الحقد والحسد والعفو والمروءة والحمية وحب العدالة والشفقة . نعم منّ الله علينا وهكذا كنا . وأنتم أيها الأحفاد ، ماذا غلب على أكثركم غير السفه والقحة والبذاء والبله والطيش والتهور والجبن والدناءة والجزع والحقد والحسد والكبرياء والعجب واللجاج والسخرية والغدر والخيانة والكذب والنفاق والشح ؟ ! أفبهذه الأخلاق تحبون أن تغلبوا وتعجبوا ، كيف تسلبون أملاككم وتذلون؟ أم بهذا ترومون اللحاق بنا وقد خالفتمونا سيرة وسيرا ، شيما وأخلاقا؟ !

«هذا بعض ما تحس به أرواحنا من مناجاة أجدادنا لنا ، وما أطبق أقوالهم هذه على الحق وما أقربها من الصواب والواقع ، أى بينة لنا على أننا خلف ذلك السلف ، وهل يعقل لو ورثنا أخلاقهم وحافظنا على فضائلهم واقتفينا أثرهم ولم نحد عن سيرهم وسيرتهم ، نعم لو عملنا بعض ذلك هل كان يسهل سلب الميراث منا وأن يستبد بملكنا غيرنا أم بقينا نحن الوارثين؟ !

إن «دعوى» حق الأحفاد في ميراث الأجداد ، هي في محكمة «الكون» والبينة التي يصدر من بعدها الحكم هي إثبات التحلي بفضائل السلف والتخلق بأخلاقهم والنسج على منوالهم والتزام ما لزموه من السنن وجروا عليه بالقول والعمل ، فعسى أن نوفق للإدلاء وبتلك الحجة فتستقيم لنا المحجة ، إذ كفانا من الذل ما لاقينا ومن البلاء ما عانينا .

... و بعد أن سكت جمال الدين برهة قال: من العجيب الغريب وما يدعو إلى الحيرة ما نراه في المسلمين، فهم بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل في ملكهم وولايتهم من البلدان، وكلهم مأمور بذلك لافرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدين في الجنس ولا المختلفين فيه. وهو فرض عين على كل واحد منهم إن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام ومن فروضهم في سبيل الحماية وحفظ الولاية بذل الأرواح والأموال وركوب كل صعب واقتحام كل خطب ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم في حال من الأحوال حتى ينالوا الولاية خاصة لهم دون غيرهم وبالغت الشريعة في طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حد، لو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيره لوجبت عليه الهجرة من دار حربه يحس كل مسلم لهاتف يهتف من بين جنبيه، يذكِّره بما تطالبه به الشريعة وما يفرض عليه الإيمان، وهو هاتف الحق الذي بقي له من إلهامات دينه. ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين في هذه الأيام بعضهم في غفلة عما يلم بالبعض الآخر ولا يألمون لما يألم له بعضهم، فأهل بلوجستان كانوا يرون حركات الإنجليز، وعيثهم في أفغانستان ينظرون إلى ذلك ولا يجيش لهم جأش؟ ولا تبدو لهم نعرة على إخوانهم. والأفغانيون كانوا يشهدون تداخل الإنجليز في بلاد فارس ولا يضجرون ولا يتململون وكلاهما يعلمان ما في بلاد الهند من ظلم وجور وفتك وسلب ولا يتحركون، وإن جنود الإنجليز تضرب في الأراضي المصرية ذهابا وإيابا تقتل، وتفتك ولا ترى نجدة في نفوس إخوانهم المشرفين على مجاري تلك الدماء والناظرين إلى تلك المصائب والبلاء.

نعم هذا ما يجرى من الأمور وساء معه المصير، وإن النفس لتتوق لمعرفة الأسباب وإن كان الإتيان على ذكرها مما يطول فلا بأس من الإلمام بها على وجه الإجمال!

قال: لا ريب أن الأفكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدركات والوجدانات النفسية وإن كانت هي الباعثة على الأعمال وعن حكمها تصدر ولكن «الأعمال» هي التي تثبتها وتقويها وتطبعها في الأنفس وتطبع الأنفس عليها حتى

يصير ما يعبر عنه «بالملكة» و«الخلق» وتترتب عليه الآثار التي تلائمها. نعم، إن الإنسان إنسان بفكره وعقائده، إلا أن ما ينعكس من مرايا عقله من مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشد التأثر، فكل شهود يحدث فكرا وكل فكر يكون له أثر في داعية يدعو إليها وعن كل داعية ينشأ عمل ثم يعود من العمل إلى الفكر، دور يتسلسل. ولا ينقطع الانفعال بين الأعمال والأفكار ما دامت الأرواح في الأجساد وكل قبيل هو للآخر عماد، «آخر الفكر أول العمل وأول العمل آخر الفكر»!

إن للإخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها في الاعتصاب والالتحام، لولا ما تبعث عليه الضرورات وتدعو إليه الحاجات من تعاون الأنسباء وأهل العصبية على نيل المنافع وتضافرهم على دفع المضار.

و بعد كرور الأيام على المضافرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذا يصرفه في آثارها بقية الأجل ويكون انبساط النفس لعون القريب والتأثر لما يصيبه من نكبة أو ضيم جاريا مجرى الوجدانيات الطبيعية كالإحساس بالجوع والعطش والشبع وما أشبه، بل اشتبه أمره على بعض الناظرين فعده «طبيعيا»، فلو أهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها ولم تدع ضرورات الحياة والظروف إلى ما يمكن تلك الصلة ويؤكدها أو وجد صاحب النسب قوة ومظاهرة في غير أهل نسبه أو ألجأته الضرورة إلى ذلك ـ ذهب أثر تلك الرابطة النسبية ولم يتبق منها إلا صورة في الذهن تجري مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات.

و على هذا المثال من رابطة النسب وهي أقوى الروابط بين البشر ـ يكون القول والأمر في سائر الاعتقادات التي لها أثر في الاجتماع الإنساني من حيث ارتباط بعضه ببعض.

إن لم يلازم العقد للرابطة ضرورة أو قوة الداعية إلى عمل تنطبع عليه الجارحة وتمرن عليه ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيأة للروح وشكلا من أشكالها فلن يكون منشئًا لآثاره وإنما يتهيأ له في الصور العلمية رسم يلوح في الذاكرة عند الالتفات، كما هو في المحفوظات كما قدمنا.

بعد تدبر هذه الأصول والنظر فيها بعين الحكمة يظهر لك السبب في سكون المسلمين إلى ما هم فيه مع شدتهم في دينهم. والعلة في تباطئهم عن نصرة إخوانهم وهم أثبت الناس في عقائدهم أنه لم يبق من جامعة بين المسلمين في الأغلب إلا «العقيدة الدينية» مجردة عما يتبعها من الأعمال التي من آثارها جلب المنافع ودفع المضار وما يستلزم ذلك من تعارف وتواصل وتبادل بالشعور والتحسس.

و قد انعكس كل ذلك ولم يبق إلا تقاطع وتدابر وجفاء إلى غير ذلك مما سبق ذكره في حالة الأمة وعلمائها. و كما كانت هذه الجفوة وذلك الهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين، أليس بغريب أن لا يكون سفارة للعثمانيين في مراكش ولا لمراكش عند العثمانيين؟! أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين في المشرق؟!

هذا التدابر والتقاطع وإرسال الحبال على الغوارب عمّ المسلمين حتى صح أن يقال: لا علاقة بين قوم منهم وقوم، ولا بلد وبلد إلا طفيف من الإحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم وربما يتعرفون بمواقع ممالكهم وأمصارهم بالصدفة، إذا التقى بعض ببعض في موسم الحج العام، وهذا النوع من الإحساس هو الداعي إلى الحزن وانقباض الصدر.

كانت الملة كجسم عظيم قوي البنية صحيح المزاج، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه فتداعت للتناثر والانحلال وكاد كل جزء يكون على حدة وبمثل هذه الحال تضمحل هيأة الجسم. بدأ هذا الانحلال والضعف في روابط الملة الإسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما قنع العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضي الله عنهم.

كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة حتى بلغ إلى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت

إلى أقسام: خلافة عباسية في بغداد، وخلافة فاطمية في مصر والمغرب وأموية في أطراف الأندلس.

تفرقت بهذا كلمة الأمة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلافة إلى وظيفة الملك! فسقطت هيبتها من النفوس وخرج طلاب الملك والسلطان يستجمعون لأنفسهم وسائل القوة والشوكة ولا يرعون جانب الخلافة، وزاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائج بينهم بظهور چنكيز خان وأولاده وتيمورلنك وأحفاده وإيقاعهم بالمسلمين قتلا، وإذلالا حتى أذهلوهم عن أنفسهم! فتفرق الشمل بالكلية وانفصمت عرى التئام بين الملوك والعلماء جميعا، وانفرد كل بشأنه وانصرف إلى ما يليه فتبدد الجمع إلى آحاد وافترق الناس فرقا كل فرقة تتبع داعيا إما إلى ملك أو مذهب فضعفت آثار العقائد التي كانت تدعو إلى الوحدة وتبعث على اشتباك الوشيجة وتقوية الرابطة وصار ما في العقول منها صورا ذهنية تحويها مخازن الخيال وتلحظها الذاكرة عند عرض ما في خزائن النفس من المعلومات ولم يبق من آثارها إلا أسفا وحسرة تأخذان بالقلوب عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر إلى المسامع على طول الزمان، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت كما يكون عى الأموات من الأقارب لا يدعو إلى حركة لتدارك النازلة ولا دفع الغائلة.

و كان الواجب على العلماء قياما بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو إليه الدين ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطا لروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة في سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ في جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة، يرجعون إليها في شئون وحدتهم ويأخذون بأيدي العامة إلى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر، ويجمعوا أطراف الوحدة إلى مقعد واحد يكون مركزه في الأقطار المقدسة وأشرفها «معهد بيت الله الحرام» حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العيون والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل وبطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها

ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الأفهام وصيانة الدين من البدع المضرة، فإن إحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف، فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك الأمر ومحو بدعته قبل فشوها بين العامة، وليس بخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الأمة وعلو كلمتها واقتدارها على رفع ما يغشاها من النوازل.

قال: «وإني لآسف غاية الأسف إذ لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة، وهي أقرب الوسائل، وإني لأرجو أن تهبَّ إلى هذه الوسيلة أرباب العزة والحمية ويؤازرهم ملوك المسلمين وعلماؤهم فيؤيدونهم بما يوحد جمعهم ويجمع شتيتهم. وما هو بالعسير أن يبثوا الدعاة إلى ما يبعد عنهم، ويصافحوا بالأكف من هو على مقربة منهم، ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم ودنياهم بالفائدة أو ما يخشى أن يمسهم بضرر، ويكونوا بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة، والرمق باق والآمال مقبلة وإلى الله المصير».

* * *

الشرق والقابتيولاسيون

وسائل النهوض

قيل للسيد جمال الدين: إن في الشرق ناشئة ممن تثقفوا وتعلموا وكتبوا وعلموا مرامي الغرب نحو الشرق وليس هم بالقليل عددهم، فما بالهم لم يؤثروا في صالح المجموع ورقيه وإصلاح الهيئة الاجتماعية من قومهم؟

فقال: إن أشد وطأة على الشرق وأدعى إلى تهجم أولي المطامع من الغربيين وتذليل الصعاب لهم وتثبيت أقدامهم هم أولئك الناشئة الذين بمجرد تعلمهم لغة القوم والتأدب بأسفل آدابهم يعتقدون أن كل الكمال إنما هو فيما تعلمونه من اللسان على بسائطه وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات وقراءة سير ومسير من قطع مراحل من الغربيين في سبيل الأخذ في ترقية أمته بدون أن يسبروا من ذلك غورا أو يفهموا لتدرجهم معنى.

و يعتقد الناشئ الشرقي أن كل الرذائل ودواعي الحطة ومقاومات التقدم إنما هي في قومه، فيجري مع تيار غريب من امتهان كل عادة شرقية ومن كل مشروع وطني يتصدى له فئة من قومه أو أهل بلده ويأنف من الاشتراك في أي عمل لم يشارك فيه الأجنبي ولو اسما ويسارع لتقديس وتصويب كل خطأ يأتيه الغريب ويسهل له كل صعب في مطلبه ويطلعه على هنات قومه وزللهم وموقع الضعف منهم، وبالإجمال يكون الآلة القاطعة الفاعلة للغريب في جسم قومه والوسيلة الممكنة من الاستئثار في البلاد واستعباد العباد بدون أن يشعر أنه سيلاقي شر ما يصنع قبل أمته وينزل في تاريخها مع الأدنياء والخائنين، وإذا أحس البعض في شنيع فعلته فإنما

يؤثر مصلحته الخاصة ونفعه الخسيس المؤقت على صالحه العام مع مجموع من جمعته وإياهم الجامعات الكبرى.

وسواء في الأمر من علم وارتكب تلك الخطيئات أو من أتاها جهلا بغير علم فالشرق والشرقيون ابتلاهم الله «بما فرطوا»حتى بهذه العلة ولا أرى لهم مخرجا من ضيقهم وشقاء من أدوائهم إلا باشتداد الأزمة وقوة الضغط حتى يفقدوا بقية ما ترك لهم من شبه الراحة التى أخلدوا إليها أو سعة العيش الضيق الذي سول لهم الخمول الرضاء به وحتى يزاحموا على ما لا يخطر لهم ببال من دين لا يتمكنون من التعبد به كما يرومون ومن تجارة لا يجدون لها مالا أو مجالا ومن حرية شخصية يفقدونها ومن قهر وإذلال الأعزاء وتعزيز الأذلاء السفهاء وحتى يحيق بالمجموع بلاء يساوي بين الكل ويكون فيه المسلم الشرقي وأخوه المسيحي سواء يظهر في بدء الأمر للأخير «المسيحي» ميزة تقدم على الأول «المسلم» بشيء من تافه الوظائف تنويها بكرامة تدينه بالمسيحية ولمعرفته اللسان. وتمكينا لداعي التنافر وعدم الاتحاد، وكل ذلك إلى حين ومن ثم يرجع الاثنان إلى التساوي في المذلة والهوان.

ثم قال: لقد كثر اختلاف الناظرين في وسائل النهوض من السقوط وتضاربت الآراء فيها وحامت ظنون كثيرة حولها فتفنيدا لباطل الظنون ونفيا لريب المرتابين والواهمين بقرب الوسائل مع بعدها وقلة نفعها، أقول اليوم ما قلته قبل أعوام: أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئا مذكورا ثم انشق عنها عماء العدم فإذا هي بحمية كل واحد منها، كون بديع النظام، قوى الأركان، شديد البنيان، عليها سياج من شدة البأس ويحيطها سور من منعة الهمم، تخمد في ساحاتها عاصفات النوازل وتنحل بأيدي مدبريها عقد المشاكل، نمت فيها أفنان العزة بعدما ثبتت أصولها ورسخت جذورها وامتد لها السلطان على البعيد عنها والداني إليها ونفذت منها الشوكة وعلت لها الكلمة وكملت القوة، فاستعلت آدابها على الآداب وسادت أخلاقها وعاداتها وأحست مشاعر سواها من الأمم بأن لا سعادة إلا في انتهاج منهجها وورود شريعتها وصارت وهي قليلة العدد، كزة الساحات، كأنها للعالم روح وهو لها بدن عامل.

«وبعد هذا المجد كله، ترى بنيانها قد وهي وانتثر المنظوم منها وتفرقت فيها الأهواء وانشقت العصي وتبدد ما كان مجتمعا وانحل ما كان منعقدا وانفصمت عرى التعاون وانقطعت روابط التعاضد وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها ـ ودار كل محيط بشخصه المحدود بنهايات بدنه، لا يلمح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية وهو في غيبة عن أن ضروريات حاجاته ومرافق حياته وكمالاته، لا تنال إلا على أيدي الملتحمين معه بلحمة الأمة وأنه أحوج إلى شد عضدهم من تقوية ساعده وإلى توفير خيرهم من تنمية رزقه وكأنه بهذه الغيبة، في سبات يخيله الناظر إليه صحوا وذبول يظنه المغرور زهوا وأخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشين فأبادها وحدثت لهم قناعة البهم والرضاء بكل ذل.

ولئن تنبه خاطر للحق في خيال أحدهم أو استفزه داع من قلبه إلى ما يكسب ملته شرفا أو يعيد إليها مجدا عدّه هوسا وهذيانا، أصيب به من ضعف في المزاج أو خلل في البنية أو حسب أنه لو أجاب داعي الذمة لعاد عليه بالوبال وأورده موارد الهلكة أو لصار من أقرب الأسباب لزوال نعمته ونكد معيشته وهكذا يحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالاً من اليأس، فتغل يداه عن العمل وتقف قدماه عن السعي ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه ويقصر نظره عن درك ما أتى أسلافه من قبله وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا وقيما على ما أورثوه لأعقابهم ويبلغ هذا المرض من الأمة حدا يشرف بها على الهلاك ويطرحها على فراش الموت فريسة لكل عاد وطعمة لكل طاعم.

نعم رأيت كثيرا من الأمم لم تكن ثم كانت وارتفعت ثم انحطت وقويت ثم ضعفت وعزت ثم ذلت وصحت ثم مرضت. ولكن أليس لكل علة دواء؟ بلى! ما أكثر ما قلت؟! واأسفاه! نعم واأسفاه، ما أصعب الداء وأعز الدواء وما أقل العارفين بطرق العلاج، كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها وهي لم تفترق إلا لأن كلا عكف على شأنه!! أستغفر الله لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالا به ولكنه انصرف لشئون غيره وهو يظنها من شئون نفسه.

نعم ربما التفت كل واحد إلى ما هو في فطرة كل حي من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه وهو لا يدري من أي وجه يحصلها ولا بأية طريقة يؤمن عليها. كيف تبعث

الهمم بعد موتها وما ماتت إلا بعد أن سكنت زمانا طويلا إلى ما ليس من معاليها .

هل من السهل رد التائه إلى الصراط المستقيم وهو يعتقد أن الخلاص في سلوك سواه، خصوصا بعد ما استدبر المقصد كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه، المبتهج بأحلامه وفي أذنه وقر وفي ملامسه خدر .

هل من صيحة تقرع قلوب الآحاد المتفرقة، من أمة عظيمة تتباعد أنحاؤها وتتناءى أطرافها وتتباين عاداتها وطبائعها وتتخالف آراؤها وقد تراكم فوقها الجهل وخيل للعقول أن كل قريب بعيد وكل سهل وعر! وعزة الحق إنه لشيء عسير يعيي في علاجه النطاسي ويحار فيه الحكيم البصير !

هل يمكن تعيين الدواء إلا بعد الوقوف على الداء وأسبابه الأولى والعوارض التي طرأت عليه. إن كان المرض في أمة فكيف يمكن الوصول إلى علله وأسبابه إلا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من تنقل الأحوال وتنوع الأطوار أيمكن لطبيب يعالج شخصا بعينه أن يختار له نوعا من العلاج قبل أن يعرف ما عرض له من قبل في حياته، ليكون على بينة من حقيقة المرض، وإلا فإن كثيرا من الأمراض تتولد جراثيمها في طور من أطوار العمر ثم لا تظهر إلا في طور آخر لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها ، إنه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد سنون عمره محدودة وعوارض حياته محصورة فكيف بمن يريد مداواة ملة طويلة الأجل وافرة العدد؟! لهذا يندر في أجيال وجود بعض رجال يقومون بإحياء أمة أو إرجاع شرفها ومجدها إليها وإن كان المتشبهون بهم كثيرين وكما أن المتطبب القاصر في الأمراض البدنية لا يزيد علاجه المرض إلا شدة، لولا مساعدة الصدفة والاتفاق أحيانا ، بل ربما يفضي بالمريض إلى الموت، كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الأمم على غير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها ووجوه العلة فيها وأنواعها وما يكتنف ذلك من العادات وما يوجد في أفرادها من المذاهب والاعتقادات وحوادثها المتتابعة على اختلاف مواقعها من الأرض ومكانتها الأولى من الرفعة ودرجتها الحالية من الضعة وتدرجها فيما بين المنزلتين فإن أخطأ طالب إصلاحها في اكتناه شيء مما ذكرنا تحول داء والوجود فناء .

فمن له حظ من الكمال الإنساني ولم يطمس من قلبه موضع الإلهام الإلهي، لا يجترأ على القيام بما يسمونه «تربية الأمم» وإصلاح ما فسد منها وهو لا يحس من

نفسه أدنى قصور في أداء هذا الأمر العظيم علما وعملا، نعم يكون ذلك من محبي الفخفخة الباطلة وطلاب العيش في الوظائف التي ليسوا من حقوقها في شيء .

ظن قوم في زماننا أن أمراض الأمم تعالج بنشر الجرائد وأنها تكفل إنهاضها وتنبيه الأفكار وتقويم الأخلاق. كيف يصدق هذا الظن وإنا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لا يقصدون بما يكتبون إلا نجاح الأمة مع التنزه عن الأغراض فبعد أن عم الذهول واستولت الدهشة على العقول وقل القارئون والكاتبون فلا تجد لها قارئا ولئن وجدت القارئ فقلما تجد الفاهم والفاهم قد يحمل ما يجده على غير ما يراد منه، لضيق في التصور أو ميل مع الهوى فلا يكون منه إلا سوء التأثير فيشبه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر أضعافا. على أن الأمة إذا كانت في درك الهبوط فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع ما فيها مع قصر المدة وتدفق سيول الحوادث ؟! إن هذا وحقك لعزيز!

ويظن قوم آخرون أن الأمة المنبعثة في أقطار واسعة من الأرض مع تفرق أهوائها وإخلادها إلى ما دون رتبتها بدرجات ورضاها بالدون من العيش والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا من مشربها، بل لمن كان خاضعا لسيادتها راضخا لأحكامها ، مع هذا كله إنه يتم شفاها من هذه الأمراض القاتلة بإنشاء المدارس العمومية دفعة واحدة في كل بقعة من بقاعها وتكون على الطراز الجديد المعروف بأوروبا حتى تعم المعارف جميع الأفراد في زمن قريب ومتى عمت المعارف كملت الأخلاق واتحدت الكلمة واجتمعت القوة. وما أبعد ما يظنون، فإن هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوي قاهر، يحمل الأمة على ما تكره أزمانا حتى تذوق لذته وتجني ثمرته ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائبا عن سلطته وقائما مقامها في تنفيذ ما أراد من خيرها. ويلزم هذا الأمر ثروة وافرة تفي بنفقات تلك المدارس وهي كثيرة وموضع كلامنا في الضعف ودوائه، فهل من الضعف سلطة تقهر وثروة تغني! ولو كان للأمة هذان، لما عدّت من الساقطين فإن قالوا يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات وافقناهم على الإمكان لولا ما يكون وما هو كائن من طمع الأقوياء حتى لا يدعوا لهم سبيلا لأن يستنشقوا نسيم القوة، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر .

على أنا لو فرضنا مسالمة الدهر ومنحت الأمة مدة من الزمن تكفي لبث تلك العلوم في بعض الأفراد والاستزادة منها شيئا فشيئا، فهل يصح الحكم بأن هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية وأن ما يصيبه البعض منها يهيئة للكمال اللائق به ويمكنه من القيام بإرشاد الباقي من أبناء أمته .

واعجبا! كيف يكون هذا والأمة في بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها لا تدري كيف بذرت بذورها وكيف نبتت واستوت على سوقها وأثمرت وأينعت وبأي ماء سقيت وبأية تربة غذيت ولا وقوف لها على الغاية التي قصدت منها في مناشئها ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات وإن وصل إليها طرف من ذلك فإنما يكون ظاهرا من القول، لا نباء عن الحقيقة. فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الأفراد بتلك العلوم وسوقها إلى الأذهان المشحونة بغيرها يقوّم من أفكارهم ويعدّل من أخلاقهم ويهديهم طرق الرشاد ويعمل في إفادة إخوانهم .

لعل الأقرب أن ناقلي تلك العلوم وهم من أمة هذا شأنها، مع ما ينعكس إليهم من الأوهام المألوفة فيها وما رسخ في نفوسهم على عهد الصبا وما يعظمونه من أمر الأمة التي تلقوا عنها علومهم يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعهم إلا فسادا .

ماذا يكون من أولئك الناشئين في علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم ولو صدقوا في خدمة أوطانهم، يكون منهم قذف ما في خزائن خواطرهم يؤدون ما تعلموه كما سمعوه، لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الأمة وطباعها وما مرنت عليه من عاداتها فيستعملونه على غير وضعه ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه وغفلتهم عن آتيه، يظنونه على شكل ما بلغهم هو الكمال لكل نفس والحياة لكل روح، فيرومون من الصغير ما لا يرام إلا من الكبير ـ وبالعكس ـ غير ناظرين إلا إلى صور ما تعلّموه ولا مفكرين في استعداد من يعرض عليهم وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد أو يزيدها خبالا وضعفا وما هذا إلا لكونهم ليسوا أرباب تلك العلوم وإنما هم حملَة نقَلة .

فهؤلاء الناشئون، إلا من وفقه الله منهم بعنايته الإلهية، يكون مثلهم كمثل والدة حنون، يلذ لها غذاء فتفيض منه على طفلها وهو رضيع ليساهمها في اللذة وسنُّه سن اللبان لا يقبل سواه فيسرع إليه المرض وينتهي به التلف فتكون منزلتهم من

الأمة منزلة الآلة المحللة يشتتون بقية الجمع ويبددون أخريات الالتئام، إن كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط فهؤلاء المغرورون يصدمونهم بما يذهلهم عنها وربما لا يقصدون إلا خيرا إن كانوا من المخلصين ويوسعون بذلك الخروق حتى تعود أبوابا ويباعدون ما بين الضفاف حتى تصير ميادين لتداخل الأجانب فيهم تحت اسم النصحاء وعنوان المصلحين وطلاب الإصلاح ويذهبون بأمتهم إلى الفناء والاضمحلال وبئس المصير .

شيد العثمانيون والمصريون، عددا من المدارس على النمط الجديد وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد الغربية؛ ليحملوا إليهم ما يحتاجون له من العلوم والمعارف والصنائع والآداب وكل ما يسمونه «تمدنا» وهو في الحقيقة «تمدن» للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني!

هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك؟ ـ وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ـ هل صاروا أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة؟ هل نجوا بها من ورطات ما يلجئهم إليه الأجانب بتصرفاتهم؟ هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور؟ هل نالوا بها من المنعة ما يدفع غارة الأعداء عليهم؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف في الأفكار حدا يزحزح عزائم الطامعين عنهم؟ هل وحدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية التي تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتسعى إليها وتطلبها ولو تجاوزت محيط الحياة الدنيا ولو بادت في سبيلها خلفها وارث على شاكلتها كما كان في كثير ممن عز من الأمم .

نعم، ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية! وما شاكلها ويصوغونها في عبارات متقطعة، بتراء لا تعرف غايتها ولا تعلم بدايتها ووسموا أنفسهم، زعماء الحرية أو بسمة أخرى من السمات ووقفوا عند هذا الحد .

ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم فقلبوا أوضاع المباني والمساكن، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية وعدّوها من مفاخرهم وعرضوها معرض المباهاة، فنسفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم واعتاضوا

أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره فأماتوا أرباب الصنائع من قومهم وأهلكوا العاملين في المهن، لعدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ما تستدعيه تلك العلوم الجديدة من الحاجيات الجديدة، وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد وثروتهم لا تسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة. وهذا جدع لأنف الأمة يشوه وجهها ويحط بشأنها، وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفاجأتهم قبل أوانها.

علمتنا التجارب ونطقت مواضي الحوادث بأن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء إليها وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم واحتقار من لم يكن على مثالهم شؤما على أبناء أمتهم يذلونهم ويحقرون أمرهم ويستهينون بجميع أعمالهم وإن جلّت، وإن بقي في بعض رجال الأمة بقية من الشمم أو نزوع إلى معالي الهمم انصبوا عليه وأرغموا من أنفه حتى يمحى أثر الشهامة وتخمد حرارة الغيرة ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات يمهدون لهم السبل ويفتحون الأبواب ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلاً لغيرهم ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم.

ولا أخشى لوما إذا قلت لو كان في البلاد الأفغانية عدد قليل من تلك الطلائع عندما تغلّب الإنجليز على بعض أراضيها، لما بارحوها أبد الآبدين لأن نتيجة العلم عند هؤلاء «الناشئة المقلّدين» ليست إلا توطيد المسالك والركون إلى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم فيبالغون في تطمين النفوس وتسكين القلوب، حتى يزيلوا الوحشة التي قد يصون بها الناس حقوقهم ويحفظون بها استقلالهم، ولهذا متى طرق الأجانب أرضا لأية أمة، ترى هؤلاء المتعلمين فيها أول ما يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدومهم ويكونون بطانة لهم ومواضع ثقتهم ـ كأنما هم منهم ـ ويعدون الغلبة الأجنبية في بلادهم ـ أعظم بركة عليهم وعلى أعقابهم.

فما الحيلة؟ وما الوسيلة؟ «فالجرائد» بعيدة الفائدة، ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها و«العلوم الجديدة» ونقلها «بالناشئة» لسوء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها والوقت ضيق!! والخطب شديد!!

أي جهوري من الأصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات؟! أي قاصفة تزعج الطباع الجامدة وتحرك الأفكار الخامدة! أي نفخة تبعث هذه الأرواح في أجسادها وتحشرها إلى مواقف صلاحها وفلاحها .

الأقطار فسيحة الجوانب، بعيدة المناكب، المواصلات عسرة بين الشرقي والغربي والجنوبي والشمالي، الرءوس مطرقة إلى ما تحت القدم أو منفضّة إلى ما فوق السماء، ليس للأبصار جولان إلى الأمام والخلف واليمين والشمال ولا للأسماع إصغاء ولا للنفوس رغبات، ولكن للأهواء تحكم وللوساوس سلطان؟!

ماذا يصنع المشفقون على الأمة والزمن قصير؟! ماذا يحاولون والأخطار محدقة بهم؟! بأي سبب يتمكنون ورسل المنايا على أبوابهم؟!

لا أطيل بحثا ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان ولكني استلفت نظرك إلى سبب يجمع الأسباب ووسيلة تحيط بالوسائل ـ وقد مر ذكرها معنا فيما سبق ـ أرسل فكرك إلى نشأة الأمة التي خملت بعد النباهة وضعفت بعد القوة واسترقت بعد السيادة وضيمت بعد المنعة واطلب أسباب نهوضها الأول حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل فقد يكون ما جمع كلمتها وأنهض همم آحادها ولحم ما بين أفرادها وصعد بها إلى مكانة تشرف منها على رءوس الأمم وتسوسهم وهي في مقامها بدقيق حكمتها إنما هو : دين قويم الأصول محكم القواعد، شامل لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، مزك للنفوس، مطهّر للقلوب من أدران الخسائس، منوّر للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مباني الاجتماعات البشرية وحافظ وجودها ويتأدّى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية .

فإن كانت هذه شرعة تلك الأمة ولها وردت وعنها صدرت، فما تراه من عارض خللها وهبوطها عن مكانتها إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريا

وحدوث بدع ليست منها في شيء أقامها المعتقدون مقام الأصول الثابتة وأعرضوا عما يرشد إليه الدين وعما أتى لأجله وما أعدته الحكمة الإلهية له حتى لم يبق منه إلا أسماء تذكر وعبارات تقرأ مجردة فتكون هذه المحدثات حجابا بين الأمة وبين الحق الذي تشعر بندائه أحيانا بين جوانحها .

فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته وإرشاد العامة بالمواعظ الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق وإيقاد نيران الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمة ولا سبيل لليأس والقنوط فإن جراثيم الدين متأصلة في النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة والقلوب مطمئنة إليه وفي زواياها نور خفي من محبته، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسري نفسها في جميع الأرواح لأقرب وقت. فإذا قاموا لشئونهم ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم، فلا يعجزهم أن يبلغوا في سيرهم منتهى الكمال الإنساني ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططا وجعل النهاية بداية وانعكست التربية وانعكس فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ولا يزيد الأمة إلا نحسا ولا يكسبها إلا تعسا .

من يعجب من قولي إن الأصول الدينية الحقة، المبرأة عن محدثات البدع، تنشئ للأمم قوة الاتحاد وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدنية فإن عجبي من عجبه أشد، ودونك تاريخ الأمة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات وإتيان الدنايا والمنكرات، حتى جاءها الدين فوحّدها وقواها وهذبها ونوّر عقلها وقوّم أخلاقها وسدد أحكامها فسادت على العالم وساست من تولته بسياسة العدل والإنصاف وبعد أن كانت عقول أبنائها في غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها، نبهّتها شريعتها وآيات دينها إلى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها ونقلوا إلى ديارهم طب بقراط وجالينوس وهندسة إقليدس وهيئة بطليموس وحكمة أفلاطون وأرسطو وما كانوا قبل الدين في شيء من هذا .

ولقائل يقول ها هي دولة اليابان وقد ارتقت بتقليد الغربيين وبدون توسط الدين فالجواب : نعم إن الدولة اليابانية وهي أمة شرقية ، لا تختلف عن أهل الصين في شيء لا في المذهب والإقليم ولا في العوائد والأخلاق واللسان وقد عزّت ونمت وارتفعت وما كان الفاعل في كل ذلك إلا أخذها بالأحسن والسير في تقليد المرتقين في المدنية على أحسن خططهم وانتهاج أقوم صرطهم ومناهجهم ، تركوا عبادة الأوثان وصحتها أو عدمه جانبا وجروا وراء العلم الدنيوي فقلدوا أعظم الأمم تقليدا صحيحا وأدخلوا على بلادهم قواعد المدنية السالمة والموافقة لمجموعهم ونبذوا ما كان مألوفا فى الغرب ولا يوافق طباعهم في شرقهم وتذرعوا في التدريج واتخذوا سنن الارتقاء سلما لقومهم واهتموا في المولود الحديث ليجعلوه وليكون ـ سواء فيه الأنثى والذكر ـ مخلوقا يابانيا نافعا لقومه أولا ـ وبالتالي للإنسانية ـ فظفروا ببغيتهم ووجدوا ضالتهم بأقرب الأوقات وأقصر الأزمنة .

أما القول بأن ارتقاء تلك الأمة الشرقية قد تم بدون توسط الدين وفعله! فالجواب : نعم إن اليابان لم ينتفعوا بالوثنية من حيث هي دينهم ، ذلك لأن الديانة الوثنية وإن كانت لا تخلو من آداب وأخلاق ، فليس في أصولها ما ينفع في أحكام أمور الدنيا وما يحتاجه الإنسان من مطالب المدنية والدين ولو كان في أصوله كل ما يدعو إلى السعادة وفي قواعده ما ينهض ويصعد إلى ذرى المجد ، إذا بقي عقيدة مجردة عن الأعمال فلا يحدث عنه أثر ولا ينتفع المتسمون به ، بل بتركهم الأعمال بتلك الأصول يتدهورون من شاهق عز إلى حضيض ذل وفيما سبق من القول في هذا المعنى كفاية .

والدين الذي في أصوله ما ينفع في الأمور الدنيوية أيضًا ، لا بد وأن يكون من جملة أصوله الحث على التحلي بالفضائل والاستكثار من مكارم الأخلاق والصفات الحميدة والاستزادة من نافع العلوم والفنون . ـ نعم ـ جاء في القرآن الكريم حثا على العلم وبيانا لجليل فضله أن منع أن يكون غير العالم عاقل فقال : ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾[العنكبوت : ٤٣] ومنع المساواة بين العالم والجاهل فقال : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٩]، وقد مر ذكر ذلك ، وقال المصطفى ﷺ : «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » وأمثال ذلك كثير .

ومما ساعد الأمة اليابانية على رقيها وخلّص سيرها من العرقلة، موقعها ومجتمع جزائرها في أقصى الشرق فوجدت من الدهر مسالمة وعن أنظار أولي المطامع من الغربيين بعدا، ينضم إلى ذلك سبب من أكبر الأسباب وعامل من أقوى العوامل ألا وهو ميل الإمبراطور «الميكادو» إلى تقييد حكومته بالدستور وقبوله الشورى عن طيب خاطر وسعيه بإخلاص وراء ذلك فقد بعث من أفراد أسرته وعقلاء رعيته بعثات لأوروپا لدرس أشكال وقواعد الحكم النيابي الدستوري، حتى أن إمبراطور النمسا، «فرنسوا جوزف» لم يتمالك نفسه فقال لابن عم الميكادو وهو على مائدته في فينا: «يا عجبا من إمبراطوركم، كيف يسعى لإيجاد الحكم الدستوري النيابي في مملكته ونحن في أوروپا لو أمكننا التخلص من تحكم النواب في البلاد! أجابه البرنس الياباني: إن جلالة الميكادو ـ معناه العادل ـ يحب أربعة أشياء: «يحب بلاده أولا ورعيته ثانيا ويحب العدل ثالثا وراحة نفسه رابعا. وما وجد ما ينيله ما يحب إلا «بالحكم الدستوري النيابي» واشتراك الأمة بإنهاض نفسها وصون ملكها».

نعم، إن مصدر الشقاء ومنبع البلاء في الشرق وممالكه إنما كان من الامتيازات الأجنبية «قابيتو لاسيون» تلك الامتيازات التي سبق فذكرنا كيف كان بدء أمرها وكيف أخذت في الشرق الأقصى، الصين واليابان، والشرق الأدنى، البلاد العثمانية وفارس وكيف أعطيت على سبيل الرحمة أولا ثم عادت نقمة أخيراً .

وعلمت اليابان، أن لا قوة مع الجهل ولا ضعف مع العلم. فكتمت غيظها وتحملت جور الغربيين وامتيازاتهم وانصرفت للأخذ بالتقليد الصحيح وثابرت على بعث البعثات العلمية اليابانية لأوروپا «بالمئات» وقسمتهم شعبا على شعب العلوم والفنون من مالية وسياسية وعلمية وزراعية وطب وهندسة . . . . إلخ.

فلم يمض على سعي اليابان هذا ربع جيل، حتى انتظمت محاكمهم وعم العلم الصحيح في ناشئتهم وعرف القسم المنوّر فيهم ما يجب أن يعمله ويعلمه للطبقات الأخرى من قومه في المدارس الوطنية اليابانية .

فتهيأ لهم بذلك المسعى هيئة اجتماعية وقومية صحيحة ومدنية لم يترك معها مجال للمكابرين من الغربيين «الإفرنج» أن يدّعوا أو يفتروا عليهم بأنهم «شرقيين»

ولا يحسنون أمر الإدارة أو معرفة الحقوق العمومية أو العدالة المطلقة البشرية، بل بالعكس، ظهر أن محاكم «القونصلاتات» وتلك الامتيازات الأجنبية، من محاكمة الجاني القاتل الأوروبي تجاه قنصله والمفلس الاحتيالي الإفرنجي تجاه محكمة دولته «القنصلية» أبعد بمراحل عن عدل محاكم اليابان وقصاصاتهم العادلة ونزاهة حكام اليابان وصدق وجدانهم وعدم تسلط أي قوة من أموال أو جاه أو نفوذ عليهم بعكس القناصل والمحاكم القنصلية هناك، فأجمع رأي معتمدي دول أوروبا بطلب عموم الرعايا أن يطلبوا من الميكادو قبول طلبهم بإلغاء الامتيازات «قابيتولاسيون» وأن تفصل قضاياهم ويجازي مجرموهم في محاكم اليابان فترددت حكومة الميكادو في قبول مطلب السفراء هذا ولم تقبل فصل قضايا الأجانب في محاكمها محتجة أن حكامهم إنما يسع وقتهم فصل قضايا اليابانيين فقط ولا متسع لهم لإضاعة الأوقات بشئون الأجانب وأشارت تشفيا بلزوم احتفاظهم بامتيازاتهم فاشتدت الدول وطال الأخذ والرد حتى قبلت اليابان أخيراً بتشميل عدلها للأجانب وبلغوا امتيازاتهم .

وقد كان في خدمة اليابان عدد من الإخصائيين الأجانب في شعبات إداراتها لسنين محدودة، برواتب معينة وكانت كلما أتم الياباني عمله في شعبة من الشعب وعاد لوطنه أرفقوه بذلك الإخصائي فكان في دقائق تلك الشعبة وما تحتاجه من علم وفهم وعمل، يبرّز الياباني على رئيسه الإفرنجي حتى خجل أولئك الرؤساء المأجورون من أنفسهم وطلبوا إعفاءهم من الخدمة قبل انقضاء الأجل المعقود ورضوا بحرمانهم من الرتب، باعتراف أن الياباني أقدر منهم على أداء وظائفهم وما جلبوا لأجله واستؤجروا له ـ هكذا ـ تم لليابان الفوز بالتقليد النافع وجلب المفيد اللازم من العلوم والفنون والصنائع وبرزت بين صفوف الدول العظام دولة شرقية لها من بأسها منعة ومن علمها واتحادها قوة تخشى وحدٌ يتقى .

والناس أبناء ما يحسنون . ولله في خلقه شئون .

آثار القوّة والضعف
في الحياة

قال : خضعت الموجودات في الكائنات إلى ناموس عظيم وهو «القوة» فظهرت آثارها في الحيوان والنبات والجماد وفي الأفلاك وكان لكل منها حركات اضطرارية ووظائف تأتيها طوعا أو كرها . فبالقوة يستجلب الإنسان المنافع لذاته ويدفع المضار عنها وبالقوة، المعبر عنها «بالجاذبية» حفظ نظام هذا الكون العظيم الشاسع الأطراف وما نشاهده من توالي الليل والنهار وحركة سائر الأجرام السماوية وما على وجه الأرض من المواد المختلفة كثافة وثقلا وتحول الكثيف إلى لطيف وبالعكس ـ كل ذلك وغيره من دائم النظام ـ إنما هو ناتج عنها ـ أي القوة ـ وهي التي لا يمكن تصور المادة مجردة منها ولا تصورها مجردة من المادة وهي الحافظة لنظام ما بين أيدينا وما يحيط بنا ويظللنا من العوالم المستقرة والسابحة في الفضاء .

ثم إذا أخذنا «النبات» رأينا أثر القوة أشد وضوحا فيه فإنك إذا غرست نباتات عديدة في بقعة واحدة من الأرض ليس فيها من الغذاء ما يكفي الجميع، ترى تلك الأحياء النامية تتنازع فيما بينها ولا يمضي زمن حتى يبلغ البعض أشده من النمو والبعض الآخر قد أدركه الاضمحلال فيبس ولا ريب أن تلك الناميات، تنازعت على ما كان من الغذاء ففازت به القوية فاغتذت ونمت وحرمت منه الضعيفة فزادت ضعفا وتمكن منها حتى قضى عليها وأدركها الفناء قبل القوية .

ومن تأمل بأعضاء النبات، يرى بينها ما جعل للدفاع وما جعل لاستجلاب الأقوات مجهزا بأسنة من الشوك تدفع بها عنها أذى المعتدين ومنها ما هو مجهز

بأعضاء مخصوصة لافتراس بعض الحشرات التي تقتات بها وهي بتلك القوى تجلب النفع وتدفع الضر .

أما عالم الحيوان ولاسيما الإنسان، فأثر القوة فيه أشد وضوحا من الجميع لأنك لو نظرت في أعضائه عضوا عضوا، بل لو أخذت كرة من كريات دمه لرأيت تنازعا دائما وتسابقا إلى الغذاء مما بينها فيغلب القوي منها الضعيف. فالقوة مظهر الحياة والبقاء، والضعف مجلى الخفاء والفناء فحيثما وجدت القوة في تلك المواليد ظهرت معها ويجنبها علامات الضعف والاضمحلال لغيرها .

ولا تظهر وتتعين القوة إلا بإضعافها الغير وتسخيرها لها وما كان قوة في طبقة بعض الأحيان يكون ضعفا مع الأقوى منها وهي والحالة هذه «نسبية» ـ فالنبات المغروس في بقعة واحدة لا تظهر على البعض منه علامات الضعف ـ بالذبول والموت والاضمحلال بيبسه ـ إلا بوجود نبات أقوى منه ينازعه أسباب حياته ووجوده ولا يبالي القوي منه بذبول وذهاب نضارة من جاوره من فصائله. وهكذا نرى القوة في كل الطبقات الحية، مظهرا للتبجيل والإعجاب على علاتها وظلمها لمن هو أضعف منها.

فإذا دخلت جنة أو روضة ورأيت أزهارا نضرة وبجنبها حشائش وبقايا أزهار ذابلة، إنما تعجب بالزاهي النضر البهج من الأزهار ولا يلفتك ما حواليها من الذابل ـ الذي إنما ـ اضمحل وذهبت نضرته بالنسبة لغلبة القوى ونزاعه له وانتزاعه منه أسباب حياته. وهكذا في الجماد وكذلك بنتيجة البحث في عمل الحيوان وأرقاه الإنسان .

تأمل في الأمم المهضومة والمتنازع في هضمها أو المهيئة للهضم والازدراء والابتلاع كم ترى في شئونها وإبّان سيرها وتدهورها وانجرارها نحو المحو والفناء من المشاهد المؤثرة إذ تراها كصاحب بيت قبل ضيفا على الرحب والسعة، ثم ما لبث ذلك الضيف إلا وتداخل في شأن بناء البيت ثم في أثاثه، ثم في مصرفه، فحالته الروحية فعادته، فلسانه وبأخلاقه ومميزاته حتى يضطره أخيراً لعمل ما لا يحب ويكرهه على إتيان ما لا يريد ويجبره على غير ما يلائم طباعه وحياته.
ومختصر كل ذلك وآخره «الاستعباد» وهو الموت الأحمر لكل حر والفناء إلى كل ذي حياة ونفس أبية .

فإذا رأيت تلك الأمم الضعيفة مع الأقوياء، على تلك الحال من محو وفناء وليس فيهم غير بقية رمق ولا ما يدل على آثار أسلافهم العظام فيهم، إلا ذل عجيب بعد العز وفقر مدقع بعد الغنى واستباحة بعد المنعة فربما تأسف وتحزن أسفك وحزنك على زهر رياض ذبلت ويبست وكنت تعهدها زاهية زاهرة .

فيا ليت من بلي من أممنا الشرقية بذلك البلاء، ينحطون من مرتبة الحيوان إلى عالم النبات «المجهز بأسنة من الشوك» فيدفعون عنهم أذى المعتدين ويحفظون كيانهم من طمع الطامعين!!

حجة الإنجليز على امتلاك الهند إنها ـ أي الهند ـ غنية وذات ثروة طبيعية وموقعها في آسيا لا مثيل له، فعلى هذا ولهذه الأسباب أصبح امتلاك الهند لازما لبريطانيا! وابتذاذ أموال الهند وثروتها تحتاجه الإمبراطورية!

هذا هو الحق! الذي تدعيه الإنجليز في الهند!! وهل من حاجة للقول إنه «أقبح الأباطيل»؟ وإنه ليس لمبطل مطمع في باطل أشنع منه وأفظع! ما الذي صيّر هذا الباطل حقا للإنجليز؟ أليس إلا «القوة»؟

وما الذي صيّر حق الهنود الصريح وحجتهم الدامغة، بإنه إذا كانت ثروة بلادنا وأموالنا لازمة للإنجليز فهي لنا ألزم، باطلا؟ أليس هو إلا الضعف ؟!

ولولا الضعف في الهنود ـ والقوة في الإنجليز ـ لكان الأولى أن يملك الثلاثمائة مليون هندي ويستعمروا جزيرة بريطانيا العظمى وهم لا يزيدون على الأربعين مليونا!

وهكذا القول في المراكشيين وقد اكتسح بلادهم الإسبان بحجة القرب منهم ـ ولزوم تلك المملكة لإسبانيا! ـ وكان الحق أن يفتتح المراكشيون بلاد الإسبان بنفس الحجة وبالحق المكتسب من ابن نصير وطارق وآثار أولي الهمم من أعزة العرب في تلك الأقطار القائمة لليوم شاهدة ولسوف يعيد الله بالرجوع إلى أحكام كتابه، ما فقد من ملك وبان من عز وتقوض من مجد وسلطان إلى أصحاب الحق من المسلمين، إذ قال وقوله الحق : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم : ٤٧].

أسباب انحطاط المسلمين

نعم كان لجمال الدين سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وإبرازها في صورها اللائقة بها وله قوة في حل المشكلات وما يعضل فيها وما على المستشكل في أمر ما إلا أن يلقيه عليه فإذا هو بمقال وجيز بليغ، منه قد فكك عقد المشكل وكشف ستر الغموض عنه فظهر المستور واضحا والمشكل منحلا من ذلك، إنه زار جمال الدين ذات يوم جماعة من أهل الفضل في ساعات مختلفة وكأنهم كانوا على موعد أو اتفاق أن يستوضحوا السيد عن مشكلة ما، يري في الملّتين النصرانية والإسلامية من إعداد الأولى عدة الحرب وطلب الغلب، على عكس الثانية مما هو مخالف ما في أصول الديانتين حتى إن الناظر في أهل الملّتين يحكم أن كلا منهما عمل بما في كتاب الآخر فالنصارى عملت بما جاء في القرآن والمسلمون عملوا بما جاء في الإنجيل، فكان جواب السيد لآخر من دخل عليه وسأل ما سأله الزائرون السابقون: أكنتم على موعد واتفاق؟ أجابوا: كلا! ، فعجب من توارد خواطرهم وقال:

لقد استوقفني ما استوقفكم ودعاني لحل إشكال ما حيَّرني قبلكم واليوم يحيركم، إلى تحرير مقال قبل أحد عشر عاما ومقدمته:

إن الله خلق الإنسان عالما صناعيا ويسَّر له سبيل العمل لنفسه، وهداه للإبداع والاختراع، وقدّر له الرزق من صنع يديه بل جعله ركن وجوده ودعامة بقائه ـ فهو على جميع أحواله ـ من ضيق وسعة وخشونة ورفاهة وتبد وحضارة، صنيعة أعماله وسرابيله وما يقيه الحر والبرد من عمل يديه نسجا أو خصفا وأكنانه ومساكنه ليست إلا مظاهر تقديره وتفكيره وجميع ما يتفنن فيه من دواعي ترفه ونعيمه إنما هي صور أعماله ومجالي أفكاره ولو نفض يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان

وبسط أكفه للطبيعة ليستجديها نفسا من حياة ـ لشحَّت به عليه بل دفعته إلى هاوية العدم ـ وهو في صنعه وإبداعه محتاج إلى أستاذ يثقفه وهاد يرشده فكما يعمل لتوفير لوازم معيشته وحاجات حياته ـ يعمل ليتعلم ويعلم كيفَ يعمل وليقتدر على أن يعمل، فصنعته أيضًا من صنعه فهو في جميع شئونه الحيوية «عالم صناعي» كأنه منفصل عن الطبيعة، بعيد من آثارها حاجته إليها كحاجة العامل لآلة العمل، هذا هو الإنسان في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه .

دعه في هذه الحالة وخذ طريقا من النظر إلى أحواله النفسية من الإدراك والتعقل والأخلاق والملكات والانفعالات الروحية، تجده فيها أيضًا «عالما صناعيا شجاعته وجبنه، جزعه وصبره، كرمه وبخله، شهامته ونذالته، قسوته ولينه، عفته وشرهه وما يشابهها من الكمالات والنقائص جميعها تابع لما يصادفه في تربيته الأولى وما يودع في نفسه من أحوال الذين نشأ فيهم فمرامي أفكاره ومناهج تعقله ومذاهب ميله ومطامح رغباته ونزوعه إلى الأسرار الإلهية أو ركونه إلى البحث في الخواص الطبيعية وعنايته باكتشاف الحقيقة في كل شيء أو وقوفه عند بادئ الرأي فيه وكل ما يرتبط بالحركات الفكرية، إنما هي ودائع اختزنها لديه الآباء والأمهات والأقوام والعشائر والمخالطون .

أما هواء المولد والمربي ونوع المزاج وشكل الدماغ وتركيب البدن وسائر الغواشي الطبيعية فلا أثر له في الأعراض النفسية والصفات الروحانية إلا ما يكون في الاستعداد والقابلية على ضعف في ذلك الأثر، فإن التربية وما ينطبع في النفس من أحوال المعاشرين وأفكار المثقفين تذهب به كأن لم يكن أودع في الطبع شيء نعم إن أفكارا تتجدد ومعقولات عن أخرى تتولد وصفات تسمو وهمما تعلو حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين ويظن أن هذا من تصرف الطبيعة لا من آثار الاكتساب ولكن الحق فيه أنه ثمرة ما غرس ونتيجة ما كسب فهو مصنوع يتبع مصنوعا، فالإنسان في عقله وصفات روحه «عالم صناعي» كما قلنا .

هذا مما لا يرتاب فيه العقلاء والسذج ولكن هل تذكرت مع هذا أن الأعمال البدنية إنما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية وأن الروح هي السلطان القاهر على البدن ؟ أظنك لا تحتاج فيه إلى تذكير لأنه مما لا يغرب عن الأذهان. إنما قبل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين ولا أظن منكرا يجحدها .

إن الدين وضع إلهي ومعلمه والداعي إليه البشر، تتلقاه العقول من المبشرين، المنذرين فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحي ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين وهو عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب ويرسخ في الأفئدة وتصبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات وتتمرن الأبدان على ما ينشأ عنه من الأعمال عظيمها وحقيرها فله السلطة الأولى على الأفكار وما يطاوعها من العزائم والإرادات فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به بدنها وكأنما الإنسان في نشأته لوح صقيل وأول ما يخط فيه رسم الدين، ثم ينبعث إلى سائر الأعمال بدعوته وإرشاده وما يطرأ على النفوس من غيره فإنما هو نادر شاذ حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات، بل تبقى طبيعته فيه كأثر الجرح و«الندبة» في البشرة بعد الاندمال .

وبعد هذا، فموضوع بحثنا الآن «الملة المسيحية» و«الملة الإسلامية» ـ وهو بحث طويل الذيل ـ وإنما نأتي فيه على إجمال ينبئك عن تفصيل .

إن الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والمياسرة في كل شيء وجاءت برفع القصاص واطِّراح الملك والسلطة ونبذ الدنيا وبهرجها، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين لها وترك أموال السلاطين للسلاطين! والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية بل والدينية. ومن وصايا الإنجيل: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر! ومن أخباره أن الملوك إنما ولايتهم وحكمهم على الأجساد ـ وهي فانية ـ والولاية الحقيقية الباقية على الأرواح وهي لله وحده .

فمن يقف على مباني هذه الديانة ويلاحظ ما قلنا من أن الدين صاحب الشوكة العظمى على الأفكار مع ملاحظة أن لكل خيال أثرا في الإرادة يتبعه حركة في البدن على حسبه، يعجب كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي المنتسبين في عقائدهم إليه فإنهم يتسابقون في المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورفه العيش فيها ولا يقفون عند حد في استيفاء لذاتها ويسارعون إلى افتتاح الممالك والتغلب على الأقطار الشاسعة ويخترعون كل يوم فنا جديدا من فنون الحرب ويبدعون في اختراع الآلات الحربية القاتلة والمدمرات المهلكة ويستعملها بعضهم في بعض ويصولون بها

على غيرهم ويبالغون في ترتيب الجيوش وتدبير سوقها في ميادين القتال ويصرفون عقولهم في أحكام نظامها ـ حتى وصلوا غاية ـ صار الفن العسكري من أوسع الفنون وأصعبها، على أن أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية حتى بحفظ أملاكهم فضلا عن الالتفات إلى طلب غيرها وقتل الأمم لأخذها من أيديهم!

والديانة الإسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة ورفض كل قانون يخالف شريعتها ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها «صاحب الولاية» على تنفيذ أحكامها فالناظر في أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل يحكم حكما لا ريب فيه بأن المعتقدين بها لا بد أن يكونوا أول قوّة حربية في العالم وأن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات الحربية وإتقان العلوم العسكرية والتبحر فيها وما يلزمها من الفنون الطبيعية والكيمياء وجر الأثقال والهندسة وغيرها ومن تأمل آية: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] أيقن ان من صبغ بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة وطلبها واتخاذ كل ما يسهل له الوصول إليها وبذل الجهد والسعي بقدر الطاقة البشرية في سبيلها، فضلاً عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه، من لاحظ أن الشرع الإسلامي حرّم المراهنة إلا في «المسابقة والرماية»، انكشف له مقدار رغبة الشارع في معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليها. ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الأوقات إذ يراهم يتهاونون بالقوة، ويتساهلون في طلب لوازمها، وليست لهم عناية بالبراعة في فنون القتال ولا في اختراع الآلات حتى فاقتهم الأمم فيما كان من واجباتهم عمله والتخلق به واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون إليه من تلك الفنون والآلات وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفيهم واستكانوا لها ورضخوا لأحكامها ومن وازن بين الديانتين حار فكره كيف اخترع مدفع كروب والمتراليوز وغيرهما بأيدي أبناء الديانة الأولى قبل الثانية! وكيف وجدت بندقية مارتين في ديار الأولين قبل وجودها عند الآخرين وكيف أحكمت الحصون ودرعت البواخر ومخرت كالرواسي وأخذت مغالق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم، دون أهل الغلبة والحرب .

لمَ لا يحار الحكيم وإن كان نطاسيا؟! لم لا يقف الخبير البصير دون استكناه الحقَيقة؟! هل القرون الخالية والأحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في نفوس المتمسكين بعراهما؟! هل نبذت كل ملة من الملتين عقائد دينها ظهريا من أجيال بعيدة؟ هل اقتصر النصارى في دينهم على الأخذ بشريعة موسى فقط واقتفاء سيـرة يوشع بن نون؟ هل تخللت آيات الإنجيل من حيث لا يدري بين الخطب والمواعظ التي تتلى على منابر المسلمين أو ألقى شيء منها في أماني معلميهم وناشري شريعتهم عندما يتربعون في محافل دروسهم؟ هل تبدلت سنة الله في الملتين؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما؟ هل استبدت الأبدان فيهما على الأرواح أو انفلتت الأفكار من سلطة الدين أو تعاصت النفوس عن الانتعاش بنقشته وهو أول حاكم عليها وأقوى مؤثر فيها؟ هل تتخلف العلل عن معلولاتها وهل تنقطع النسب بين الأسباب ومسبباتها؟! ماذا عساه يرشد العقول إلى كشف المساتير وحل المعميات؟!

أينسب هذا إلى اختلاف الأجناس وكثير من أبناء الملتين يرجعون إلى أصول واحدة ويتقاربون في الأنساب الدانية؟ أينسب إلى اختلاف الأقطار، وكثير من القبيلين يتشابهون في طبائع البلدان ويتجاورون في مواقع الأمكنة؟ ألم يصدر من المسلمين وهم في شبيبة دينهم أعمال بهرت الأبصار وأدهشت الألباب؟ ألم يكن منهم مثل فارس والعرب والترك الذين دوّخوا الممالك واستولوا على كرسي السيادة فيها، نعم كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية أشباه المدافع، ففزع لها المسيحيون وغابوا عن معرفة أسبابها .

ذكر ملكام سرجم ـ الإنجليزي ـ في تاريخ فارس أن السلطان محمود الغزنوي كان يحارب وثنيي الهند بالمدافع وكانت أهم الأسباب في انهزامهم بين يديه سنة ٤٠٠ من الهجرة .

فأي عون من الدهر أخذ بأيدي الملة المسيحية فقدمها إلى ما لم يكن في قواعد دينها؟ وأي صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخرتهم عن تعاطي الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم؟ مقام للحيرة وموضع للعجب! ولا بد لهذا التخالف من سبب ـ نعم ـ وتفصيله يطول ولكن نجمل على ما شرطنا :

إن الدين المسيحي إنما امتد ظله وعمت دعوته في الممالك الأوروبية من أبناء الرومانيين وهم على عقائد وآداب وملكات وعادات ورثوها عن أديانهم السابقة، وعلومهم وشرائعهم الأولى وجاء الدين المسيحي إليهم مسالما لعوائدهم ومذاهب عقولهم وداخلهم من طرق الإقناع ومسارقة الخواطر لا من مطارق البأس والقوة، فكان كالطراز على معارفهم ولم يسلبهم ما ورثوه عن أسلافهم ومع هذا فإن صحف الإنجيل، الداعية للسلامة والسلم لم تكن لسابق العهد مما يتناوله الكافة من الناس، بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين، ثم إن الأحبار الرومانيين لما أقاموا أنفسهم في منصب التشريع وسنوا محاربة الصليب ودعوا إليها دعوة الدين التحمت آثارها في النفوس بالعقائد الدينية وجرت منها مجرى الأصول ولحقها على الأثر تزعزع عقائد المسيحيين في أوروبا وافترقوا شيعا وذهبوا مذاهب، تنازع الدين في سلطته وعاد وميض ما أودعه أجدادهم في جراثيم وجودهم ضراما، وتوسعوا في فنون كثيرة وانفسح لهم مجال الفكر ـ وأكثر ما أفادهم زحفهم إلى الشرق للحرب الصليبي، واقتباسهم أشياء كثيرة وعودتهم بها إلى المغرب، ومن هناك أخذت براعتهم في الفن العسكري واختراع الآلات الحربية والدفاع تسابق براعتهم في سائر الفنون .

أما المسلمون، فبعد أن نالوا في نشأة دينهم ما نالوا وأخذوا من كل كمال حربي حظا وضربوا في كل فخار عسكري بسهم، بل تقدموا سائر الملل في فنون المقارعة وعلوم النزال والمكافحة ظهر فيهم أقوام بلباس الدين! وأبدعوا فيه البدع وخلطوا بأصوله ما ليس منها فانتشرت بينهم قواعد «الجبر» وضربت في الأذهان، حتى اخترقتها وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال. هذا ما أدخله الزنادقة فيها بين القرن الثالث والرابع الهجري وما أحدثه السوفسطائية الذين أنكروا مظاهر الوجود وعدّوها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق وما وضعه كذبة النقل من الأحاديث، ينسبونها إلى صاحب الشرع ويثبتونها في الكتب وفيها السم القاتل لروح الغيرة، وإن ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفا في الهمم وفتورا في العزائم. وتحقق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل لم يرفع تأثيره عن

العامة، خصوصا بعد حصول النقص في التعليم والتقصير في إرشاد الكافة إلى أصول دينهم الحقة ومبانيه الثابتة التي دعا إليها النبي وأصحابه فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم إلا منحصرة في دوائر مخصوصة وبين فئة معينة .

لعل هذا هو العلة في وقوفهم، بل الموجب لتقهقرهم وهو الذي نعاني من عنائه اليوم ما نسأل الله السلامة منه .

إلا أن هذه العوارض التي غشيت الدين وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته وإن كان حجابها كثيفا لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يحرموها بالمرة تدافع دائم وتغالب لا ينقطع والمنازعة بين الحق والباطل، كالمدافعة بين المرض وقوة المزاج، وحيث إن الدين الحق هو أول صبغة صبغ بها نفوسهم ولا يزال وميض برقه يلوح في أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة، فلا بد يوما أن يسطع ضياؤها ويقشع سحاب الغفلة، وما دام القرآن يتلى بين المسلمين، وهو كتابهم المنزل وإمامهم الحق وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ومغالبة المعتدين وطلب المنعة من كل سبيل، لا يعين لها وجها ولا يخصص لها طريقا فإننا لا نرتاب في عودتهم إلى مثل نشأتهم ونهوضهم إلى مطالبة الزمان ومقاضاته ما سلب منهم، فيتقدمون على من سواهم في فنون الملاحمة والمنازلة والمصاولة حفظا لحقوقهم وضنا بأنفسهم عن الذل وملتهم عن الضياع . وإلى الله تصير الأمور .

* * *

«نقاش حول»
الجبرية والمعتزلة
مسألة القضاء والقدر
و التعصب

مر معنا فيما سبق من القول في سيرة جمال الدين وصفاته أن الناس قد تخالفوا في أمره وتباعد ما بينهم في معرفة حاله وتباينت صوره في مخيلات اللاقفين لخبره، حتى كأنه حقيقة كلية! تجلت في كل ذهن بما يلائمه أو قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله والرجل في صفاء جوهره وزكاء مخبره لم يصبه وهم الواهمين ولم يمسسه حزر الخرّاصين.

نعم تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة إلى رأيه وكذلك المباحث التي كان يدور بها لسانه أثناء مناظراته الجدلية في بيان عقائد المعطلين، وكان المراد منها إظهار حقائق النحل والبدع، بمعزل عن الاعتقاد بها والجنوح إليها، بل مع تعقيبها بالرد عليها وإقامة الحجج على بطلانها. يؤيد هذا قول جمال الدين في «الأستانة» لأحد المتلبسين بلباس العلماء من عمة كالبرج! وجبة كالخرج! يا هذا، أضعتم حقائق الدين بين سوء معقولاتكم وعدم تفهم منقولاتكم!

وكان السبب في هذا، أن الرجل دخل إلى مجلس جمال الدين وجلس في مكان رفيع فيه! من غير أن يدعى إليه فتركه السيد إجلالا لطيلسانه وعملا بعادته باحترام زائريه ولما كان البحث في ذلك المجلس دائرا على ما قالته المعتزلة وما سبَّبه

اجتهاد القدرية والجبرية، اندفع الشيخ المعمم مقاطعا لكل بحث وقول متصديا لشرح تلك الخلافات والنظريات التي عجزت عندها الفطاحل وتجردت لها فحول علماء الكلام فتركه جمال الدين يخوض ويهرف بما لا يعرف، مظهرا له ارتياحا لكي يفرغ جعبته ويستنفد ما عنده فطمع الشيخ. وأول صولة صالها على جار الله الزمخشري فطعن به ما شاء أن يطعن إلى أن قال: هذا الرجل الزمخشري كل من قرأ كتابه الكشاف، يخرج من عداد أهل السنة ويكون من الملحدين!

فتنفس عند ذلك جمال الدين الصعداء وظهرت على وجهه علامات الامتعاض والتأثر، على خلاف المعهود فيه مع زائريه فقال: يا حضرة الشيخ، هل لك أن ترشدنا إلى مواقف الزلل التي ارتكبها جار الله الزمخشري فنتجنبها وإلى ما ارتكبه من الشطط الذي أدى به على زعمك إلى الإلحاد؟ قال الشيخ: يكفي أنه من المعتزلة وأنه من المدافعين في تفسيره عن مذهب الجبرية! ويكفي لتكفيره أن العلامة ابن خلدون قال في مقدمته: يجب أن لا يقرأ كتاب التفسير للزمخشري. وكل عالم يخالف ابن خلدون في اجتهاده هذا، يكون مارقا من الدين! مضلا ومضللا للمسلمين!

عند ذلك وقف جمال الدين ومشى، حتى وقف تجاه الشيخ وقال له:

يا حضرة الشيخ إذا أجبتني الآن معنى الاعتزال من حيث الاشتقاق والمذهب، ومعنى الإلحاد لغة وفقها، ومعنى الجبر والجبرية والقدر والقدرية لغة وفقها، إذا أجبت على ذلك ناقشتك فيمن هو المصيب أأنت أم جار الله الزمخشري؟

فأجاب الشيخ بالجرأة المعهودة فيمن يتلقفون بعض جمل من مختلف العلوم ويتصدرون في المجالس لسردها فيوهمون السذج والبسطاء أن الواحد منهم ارتشف وارتوى من العلم المحيط وأصبح من المتبحرين اللاإراديين وجاز مراتب الوارثين المحققين!! فقال: لا يهمني يا حضرة السيد، ألا أفقه معاني ما سألتني عنه لغة وفقها ويكفي أن أقول لك تحديثا بنعمة الله إنني من كبار مدرسي السليمانية وقد أتممت دراسة كل العلوم العقلية والنقلية والخلافيات وما قاله علماء الكلام وعلمت أن الجبرية والمعتزلة والقدرية، يقولون بأن كل أفعال العبد مسندة إلى الله وبتقدير

منه ليس للعبد أدنى تأثير فيها، بل هو بمنزلة الجمادات حتى أن الكفر والمعاصي بتقدير الله ـ نعوذ بالله من الشيطان الرجيم ـ! هذا يا حضرة جمال الدين مذهب من ذكرت وفي مقدمتهم الزمخشري المارق، المضل!

كان الشيخ عند إيراده ما تقدم من القول على غاية من الحدة تتحرك يداه وأصابعه وعيناه فتحا وإغماضا وحاجباه ارتفاعا وانحناء وجمال الدين يحدق بوجهه ويراقب حركاته بكمال الهدوء ومنتهى السكينة، ولما رأى أن جمال الدين أطال السكوت، تبين على وجه الشيخ علامات السرور بالظفر! عندئذ قال جمال الدين: يا حضرة الشيخ، إذا قال لك الزمخشري إن حجتي بإسناد أفعال العبد إلى الله سبحانه مأخوذ من صريح النص: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣, ٢٤]، و﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]، و: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، و: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] و: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]! ـ وإذا قال لك الزمخشري: إن الكفر والإيمان بتقديره تعالى الواحد الأحد والقاهر فوق عباده وأورد عليك حجة من القرآن بقوله لرسوله المصطفى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦]. ماذا عندك يا شيخ من الحجة على الزمخشري في مذهبه هذا ومستنده القرآن الكريم؟!

ثم إذا قال لك الزمخشري: إن أفعال العبد راجعة إلى الله بدليل قول المصطفى ﷺ: «الشقي من بطن أمه والسعيد من بطن أمه وكل ميسر لما خلق له»، وقوله في الحديث الطويل: «لو اجتمع أهل السماء والأرض على أن يضروك بشيء لم يضرك الله به ما أضروك ولو اجتمعوا» أو كما قال: «ما نفعوك جفت الأقلام وطويت الصحف. . . إلخ». ثم يا حضرة الشيخ، لو قال لك الزمخشري إن أعمال التقوى والفجور من العبد، مرجعها أيضًا إلى الله سبحانه القاهر فوق عباده وأورد لك حجة من القرآن أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨]، وإذا قال لك إنه لا يصح إيمانك إلا أن تؤمن أيضًا بالقدر وإن خيره وشره من الله تعالى. ولله الخلق والأمر وإلى الله ترجع الأمور

و . . و . . و . . مما تكرر وروده في القرآن والحديث ، ماذا يكون جوابك وما عندك من الدفع ؟ ؟

ثم قال : يا حضرة الشيخ ، كنت فيما مضى من حياتي وفي أول نشأتي أثناء جريي وراء العلماء للاستفادة من منقولاتهم ومعقولاتهم ـ أمرّ على مقامات ـ أغربها وأدهشها أنني عندما كنت أستفيد جملة من شيخي ، يهجم عليّ الغرور ، فأتهجم على أستاذي بتنقيد كلماته ولو من قبيل الصرف والنحو ! الذي تعلمته منه وعهدي إذ ذاك فيه حديثا فأخطئه أحيانا بالعلمية والعجمة ووزن الفعل إذا هو لم يراع حقهم في كلامه ، ثم كانت تأخذني عزة الغرور من الجهل فأستكبر من سؤاله عما جهلته من مثل الفرق بين مذهب القدرية والجبرية والمعتزلة ، حتى إذا كنت يوما في حلقة درسه وكان أحد رفاقي يشاكلني إذ ذاك في الغرور ، فخلط بحضرة أستاذنا بين مذهب الخوارج والقدرية والجبرية والمعتزلة وجعلهم شيئًا واحداً غير مميز بين فرقة وأخرى قال الأستاذ بلهجة ناصح : أولادي الأعزاء ، خذوا العلم عمن أدبه العلم ، فأحنى ظهره إجلالا له وأفضى ببصره بساطع نوره وخفف صوته خشية أن يسكته من هو أعلم منه وفوق كل ذي علم عليم ، أما المعتزلة فليس من العدل أن ننظر إلى كل مذهبهم بعين السخط ولا أن نقبل مرتآهم بعين الرضى ؛ إذ فيهم من أجلة العلماء والأئمة من يطأطئ الخلف رأسه اجلالا لهم ، فواصل ابن عطاء الذي اعتزل مجلس أستاذه الحسن وجلس عند اسطوانة من أسطوانات المسجد النبوي وعلم بالمنزلتين وقال : إن لكل شكل مبتدأ ومنتهى وبينهما وسط لا محالة ، فبين الكفر المطلق والإيمان المطلق منزلة متوسطة لا يصح معها الإطلاق بمعنى أن صاحب الكبيرة ـ أي الذنب العظيم ـ لا يصح الحكم عليه لا بالكفر المطلق ولا بالإيمان المطلق ، بل يجب وضعه في المنزلة المتوسطة .

قال الأستاذ : هذا نظر لا يصح نبذه ظهريا أو عدم الاعتداد به وقد قال الشارع الأعظم ﷺ : «من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة» .

أما نظر المعتزلة ، وما قيل عنهم أو قالوا به إنهم اعتزلوا فئتي الضلالة وهما الخوارج وأهل السنة ، فأرى في هذا شططا وهو ما أدى إلى تفرغ العلماء لقدح زناد

فكرهم بإيراد الحجج نفيا أو إثباتا لأمور في الفروع كان الأولى الاقتصاد بها والوقوف عند حدود ما تتم معه الفائدة من فهم مقاصد الشارع منفع الخلق في أمور العبادات والمعاملات .

ثم قال : إن مذهب الجبرية ـ وهي من أكبر الفرق الإسلامية في وقتها وأكثرها جدلا ـ لم يكن في ما ارتأته محض الحق أو ما يجوز الأخذ به للمسلمين كافة ؛ لأن في مباحثهم وأسس مذهبهم بإسناد أفعال العبد كلها إلى الله تعالى وجحودهم الجزء الاختياري والكسبي مذلة إقدام لضعفاء العقول قصار النظر في الأمة ولا يسلم إلا الثابتون في إيمانهم ، الراسخون في عقيدتهم ؛ إذ في تلك المباحث عقبات كئود ومقامات تشبه في اجتيازها هول الصراط وهي إلى العلم الروحاني أقرب منها إلى العلم الجسماني .

وأما ما ورد عن لسان الجبرية ووافقت به المعتزلة في بحثهم عن قول الإنسان «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» هذه الاستعاذة من الشيطان إن كانت كي لا يوسوس للإنسان حتى لا يعصي الله ويعصمه منه ، فإما أن يكون الباري تعالى عالم بالمحدثات كلها ، وسبق في قضائه الأزلي منع الشيطان أو عدم منعه ، فإن كان الأول وهو المنع للشيطان بالزجر الإلهي ، وقهره ألا يفعل وألا يوسوس ، كان الشيطان أحقر من أن يخالف أمر الله وكانت الاستعاذة لا معنى لها وإن كان الشيطان مأمورا أن يوسوس للإنسان بأمر الله ، كان الشيطان مسلطا ومدفوعا بأمر لا مرد له ، فلا نفع ولا فائدة من الاستعاذة . . . الخ . وإن الله إنما يريد إصلاح العبد ، ولا يريد إلا الخير لعباده وما ربك بظلاّم للعبيد . .

كل مثل هذه الشبهات والخواطر ، لا يجوز الأخذ بها على ظاهرها ، لأن لها من المقامات كما ذكرنا ، لا تحصل ولا يمكن الوصول إليها إلا بمجاهدات نفسية وإمداد ليدخل وراء الشارع الأعظم إلى حضرة «لا إله إلا الله» ولا فاعل إلا الله . بدليل قول المصطفى ﷺ «أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من غضبك ، وأعوذ بك منك ولا أحصي ثناء عليك أنت كما أنت وكما أحصيت على نفسك» . هذا المقام الأسمى من المقامات المحمدية ، التي علم بها بعالم الشهود لمقام التعينات ، إن الله تعالى هو الفاعل المختار لا ربّ سواه .

ولسان حال الربوبية ينادي إذا نفخ في ترابهم نسمة من روحه فتألهوا بها مع هيكلهم الترابي مفتقراً على بارئ النسم وقد أنشأهم من العدم. وحاموا جهلا وغررا حول إدراك تلك القوة التي تناديهم من فوق عظم يحيط رءوسهم ويضغط على أدمغتهم حتى لا تتعالى فوق قدرها ولا تتجاوز إلا ما كان من القدر المعلوم .

قال الأستاذ «علي منلا خان» : أما القضاء والقدر، فيجب التنبه فيهما إلى معنى التعريفات إذ كثيرا ما يظنون القضاء والقدر شيئًا واحداً بالمعنى والمبنى. وخير التعاريف : أن القضاء هو ما قضى به الخالق سبحانه جملة في اللوح المحفوظ بالتعينات الأزلية والقدر ما تنزل على الأرض بالتدريج من ذلك المجموع واحدا فواحدا، حادثا فحادثا بشخص معلوم، في زمن محدود، بسبب معين، كموت زيد في المرض الفلاني بالعلة الفلانية.

هذا ما قاله أستاذنا وأظن أن كل ذلك يا حضرة الشيخ هو من منسياتك في السليمانية! فما عندك من الدحض والدفع لتقولات الزمخشري ومذاهب الجبرية والمعتزلة والقدرية؟

فبهت الشيخ بهتة رجل ظهر على وجهه أنه لم يفقه كل ما قيل ولم يحب أن يظهر على نفسه العجز فجمع نفسه واعتصم بالجرأة وقال : يا حضرة السيد، إن ابن خلدون أعلم مني ومنك وهو الذي حذّر من قراءة تفسير الزمخشري فما قولك أنت بتحذير ابن خلدون؟!

فطلب جمال الدين مقدمة ابن خلدون وقرأ فصل التفاسير حتى وصل إلى ذكر الزمخشري وإذا هو يقول بالحرف الواحد : «إن خير ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكامنه مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة، وإذا كان الناظر فيه واقفا على المذاهب السنية، محسنا للحجاج فيها فلا جرم أنه مأمون من غوائله فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه. . . ». هذا ما قاله ابن خلدون يا حضرة الشيخ ومنه يعلم أن الشرط الأعظم الذي وضعه ابن خلدون لمن يحب أن يستفيد

من تفسير الزمخشري، أن يكون ذا قدم ثابت في العقائد وعلم راسخ في حقائق العبادات، عندئذ يستفيد ما شاء أن يستفيد من تفسير الزمخشري لأنه «أبدع ما شاء أن يبدع».

هذا ما كان يا حضرة الشيخ في شأن ما قاله ابن خلدون، فما عندك بما بقي من المطاعن؟

قال الشيخ: «يا حضرة السيد جمال الدين، «أنت والزمخشري ومن نحى نحوكم من علماء المنطق يصعب على مثلي مجادلتكم وإذا عجزت عن إيراد الحجة فلا يستفاد من عجزي ثبوت مذهب الجبرية الذي وافق المعتزلة على أهمها تقول الجبرية والمعتزلة إن الاستعاذة من الشيطان لا فائدة منها كما ذكر ذلك عن لسان الزمخشري وأمثاله».

وقد ورد في صريح النص: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ فهل يصح اجتهاد في مورد النص؟ وهل لم يثبت من قول ابن خلدون أن تفسير الزمخشري مخوف ومحظور على أهل السنة مطالعته؟

أجاب جمال الدين: يا حضرة الشيخ، إنني للآن ما أعلنت ولا صرحت عن مذهبي في هذه الجدليات ولكن أوردت أقوال أهل تلك البدع والنحل على علاتها وأحببت البحث معك لكي أسبر غورك ومبلغ ما عندك من الحجج التي اعتمدتها أهل السنة وما يدحض حجج أهل الاعتزال والجبرية، وهما لم يخرجا في ظاهر اجتهادهما عن العتاب وقد أطلقوا للعقل سراحه معتمدين على قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، و﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، والعقل يا حضرة الشيخ يسع التكليف قبل ورود الشرع وهو، أي العقل، أعظم من كل خلق.

الاستعاذة من الشيطان تقول الجبرية وغيرهم إنه من الأمور التي يحق للعقل الإنساني أن يبحث فيه من وجوه. أولا: هل فوق الشيطان من هو أقدر منه؟ ثانيا: هل أن القوة القادرة والقاهرة للشيطان محيطة بالمحدثات أو غير محيطة، عالمة أو غير عالمة؟

والجواب يا حضرة الشيخ لا بد أن يكون الله سبحانه وتعالى أقدر من الشيطان وأنه سبحانه محيط بكل الحوادث أليس كذلك؟ قال الشيخ : نعم .

قال : إذًا إذا قال الشيطان يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ـ يارب ـ وسوست لزيد من الناس بأن يفعل الشيء الفلاني وهو من المسطور في لوحك المحفوظ وكتابك المسطور الذي سبق قضاؤك به ، فأي سلطان لي على محو قضائك؟ وأي حول لي على عدم تنفيذ إرادتك ، جعلتني مرجوما ملعونا فإن كان ذلك بسبب جرم صدر مني من غير سبق علم لك ولا إرادة ولا قضاء فيه ، تعالت عظمتك وجلت قدرتك أن يكون لك شريك في الملك وأنت وحدك لك الخلق والأمر . وإن كان رجمي وجعلي ملعونا بغير ذنب صدر مني فحكمك إذًا عليّ أيها العادل محض الظلم ، حالة كوني لم أخرج من عداد عبادك وقلت وقولك حق ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت : ٤٦] .

وإن كنت سلّطت عليّ شيطانا آخر لأكون من جنده لإغواء عبادك ـ فمن غيرك المسلط له ـ وليس لغيرك سلطان مطلق لا في السموات ولا في الأرض قل ﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن : ٣٣] .

وإذا امتنع التسلسل بالشياطين ـ وهو ممتنع لا محالة ـ لأنه لا بد أن يصل إلى آخر ليس بعده آخر ـ فما تقول يا حضرة الشيخ بقول هؤلاء الجبرية والمعتزلة؟

قال الشيخ : يا حضرة السيد ، كل هذه المغالطات والسفسطات من المعتزلة والجبرية ، قرأتها أساتذتنا في مطولات التفاسير ، مثل الفخر الرازي ، وشرح الكشاف لابن الطيبي وقد دحضت علماء أهل السنة وفندت مزاعمهم وأثبتت فساد حججهم ومع كوني أعجميا عن اللسان وبعيدا عن الحجاج ، يمكنني ببسيط العقل وقلة النقل أن أرد كل ما جاء من علماء وأئمة المعتزلة والجبرية بسؤال واحد وهو :

أما أن الأديان ـ ومنها الإسلام بما ورد فيها من التكليف ـ حق واجب الاتباع وعلى أتباعه يكون الثواب وعلى مخالفته يقع العقاب . وأما إذا صح مذهب الجبرية والمعتزلة ـ بأن كل أفعال العبد من خير وشر وإقرار بوحدانية أو شرك وفسق أو

فجور أو سرقة أموال وقتل أنفس أو ما هنالك من الموبقات والشرور، كل ذلك يفعله العبد بأمر من الله وعملا بقضائه وقدره ومتى صح إطاعة العبد لربه بأفعاله هذه، صح له أن يطلب من الله مثوبة على إطاعته لأمره وقضائه بفعل القتل والسرقة والكفر . . . إلخ، كما يطلب من أطاعه بأداء الزكاة والفروض وعمل الخيرات وما هناك من أعمال الخير والبر التي وعد بالثواب عليها المتقون .

فيا حضرة السيد أنت تقول إنك من أبناء نبي هذه الأمة ولك شهرة طائرة بين المسلمين . منهم من يقول عنك إنك من خيرة العلماء الواقفين على حقائق ودقائق الشرع وأحكامه، ومنهم من يقول إنك مارق من الدين لا اعتقاد لك بالأديان! ولا بمن أتى بها من الرسل! وقد حملتني من الأسئلة عن لسان الزمخشري وعن واصل ابن عطاء المعتزلي وعن مذهب الخوارج السبعة من إباضية وصفرية وغيرهما أسئلة ما كنت قبل وجودي في مجلسك أعلم شيئا عن مذاهبهم بالتفصيل، فالآن إذا شئت أن تفصح لي أولا عن مذهبك الخاص؛ لأكون اما متبعا لك إذا وجدته موافقا لنفسي وإما أن أتجنبك؛ لأن شبهات أهل الجبر وحججهم واستنتاجاتهم مما يضل العقل في سبيل ردها، خصوصا إذا كان ضعيفا مثلي والقرآن والتكليف الشرعي يعارضهم والحجج مع أهل السنة على ما أرى ضعيفة، ومختصر القول يا جمال الدين :

إما دين متبع بكل ما ورد فيه من أمر أو نهي، أو جبر لا لزوم للتكليف معه لا بأمر ولا بنهي! هذا هو الإشكال في سبيل أمثالي من الأمة، فإن استطعت يا حضرة السيد أن تكشف لنا النقاب وتذلل لنا الصعاب وترينا حقيقة تزيل من نفوس مرضاء القلوب، قصار النظر ما يعتريها من الارتياب فافعل ولك الشكر وجزيل الأجر .

قال جمال الدين : أيها الشيخ المحترم، إن موقفك اليوم كان عين موقفي تجاه أستاذنا «علي منلا خان» إذ كانت تشد إليه الرحال لحل المشكلات والمعضلات من أقطار الهند وبلاد الأفغان وإني لأذكر لك ما قاله وما أجاد به وأفاد في هذا الموضوع الخطير .

قال : أيها الأعزاء! إن دين الإسلام المأخوذ عن القرآن قد أجاز وأباح الجدل

بالتي هي أحسن ومنع المخاشنة به وما أحسن الجدل إذا كان المراد منه استجلاء الحقيقة بعيدا عن التعنت.

تنبهوا أيها الأعزاء لأمر غاية في الخطر والدقة لفهم كتاب الله وما أتى به من التكليف بنهي أو أمر، فالتكليف وقع على الإنسان دون سائر الحيوانات وفي أولئك الحيوانات من الصفات ما يضارع الإنسان ويشاكله إذا لم نقل يفوقه بعضهم حسا وشعورا ووفاء وصبرا إلى آخر ما هنالك من الصفات العالية، ولكن لم يقع عليها التكليف، ولماذا؟ نعم لماذا جعلها مع تلك الصفات مسخَّرة للحيوان الإنساني وهو أضعف من أكثرها بنية وأقل صبرا وأشد منها عتوا وأكفرها نعما وأقربها جزعا إذا مسه شيء من الضر.

قدرة سخرت للإنسان ما في الأرض جميعا وجعلت آلة التسخير لتلك الموجودات «روحانية عقله» ليتصرف بها ويسخر بها من دونه من جماد وحيوان ونبات، خلق ذلك الإنسان بأحسن تقويم وعلى شبهه وأمثاله وجعله خليفة عنه في الأرض.

فآله علم بكل المحدثات وقضى قضاءه وقدّر قدره وأعطى الإنسان جزءا من ألوهية، يسخِّر بها ما في الأرض من حيوان وغيره ويتصاعد إلى ما فوقه من العلويات، وأعطى روحه شيئا من الإحاطة بغيبه في موته الصغير، وهو نومه، ذلك الإنسان! ذلك الجرم الصغير! الذي انطوى فيه العالم الأكبر! حقيق وجدير أن يفقه أقل مراتب الترجيح؟

أيُّنا أيها الأعزاء إذا وقف على مال لا صاحب له لا يتردد بين أخذه أو تركه، فإذا ترجح لديه تركه وقع فعل الترك وإن ترجح له أخذه وقع فعل الأخذ لا محالة. فعلى هذا الترجيح الذي يقع به الفعل أو الترك، على ذلك المرجح يقع الثواب أو العقاب!!

فكل أمر يحدث للإنسان فكرا ويقترن فعله مع زمن ويكون للإنسان آن ولو غير منفصل لأعمال الفكر «ولو بسرعة البرق» في الفعل أو في الترك وكلما دخل ويدخل تحت هذا القيد من أفعال الإنسان، يكون مؤاخذا به وأمور لا دخل لترجيح

البشر فيها ولا أدنى تأثير في عملها أو تركها ففيها نظر، ذلك ما شوش على أهل الخير في فهمها وعدم التفريق بينها وبين ما للإنسان من الترجيح فيها وهو ما يسمونه بالكسب أو الجزء الاختياري وضرب لنا المثل الآتي فقال:

القتل المحرم في الشرائع - وهو قتل النفس - على مطلق المعنى ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ولكن أتى التفصيل في الشرع أن القتل على أنواع، فقاتل العمد، يقتل، وقاتل معذور يعفى. ثم أتى على أنواع المعذرة وجل ما ورد في العمد أن القاتل لا بد أن يسبق فعله التصور والتصمم ويكون له فرصة يفتكر فيها بالإقدام على فعل القتل ويتردد بين ذلك الإقدام أو الإحجام ثم وهو بين ترجيح الفعل أو ترجيح الترك يترجح له جانب العمل فيقع الفعل بترجيحه وهو فعل القتل فيقتل بذلك الترجيح الذي يقولون عنه أنه «العمد».

ورجل يستأجر آخر في منجم من مناجمه فتقع عليه صخرة فتميته أو تنطلق رصاصة من بندقية فتصيب مارا فتقتله، هذا المستأجر ومطلق الرصاصة لا يطالبهما الشرع لا بديَّة ولا ينظر إليهما بنظر قتلة، ولماذا؟ والنتيجة من حيث هي قتل لنفس بشرية «واحد»!، ذلك لأن في الأمر الأول - وهو القتل عمدا - وقد ترجح أحد طرفي الفعل أو الترك فرجح الفاعل أحدهما فوجب أن يقع عليه ما يقع من ثواب وعقاب، وأما القتل الثاني فإن صاحب المنجم ومطلق الرصاصة ليس لهما أدنى دخل لا في ترجيح القتل ولا في عدمه، فكان هنالك محض القدر الذي ليس للبشرية دخل فيه.

هذا يا حضرة الشيخ، ما قاله أستاذنا «علي منلا خان» وإليه انتهت الرياسة في المعقول والمنقول ومع ذلك لم يسلم من تصلف وتعنت بعض تلاميذه إذ قال أحدهم: مولانا، إذا سلمنا بالترجيح وأن المرجح هو الذي يقع عليه بترجيحه العقاب، فهل المرجح هو الإنسان بدون أن يكون للإله دخل في الترجيح؟ وهل هو الإنسان في الظروف التي أشرت إليها هو خالق لأفعال نفسه بدون أمر الخالق؟!

وعلى هذا أجاب الأستاذ قائلا: إن ما سبق من القول في هذا المعنى كفاية

ومختصرها أن أفعال العبد التي يقع الترجيح فيها معدودة، محدودة وهي التي جاء التكليف بها وحظر الشرع عملها وأوجب العقاب عليها، فالشارع الأعظم أتى مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل وكان شرعه أوضح وأصرح وأقرب تناولا للفطرة ولاستنتاج العقل السليم .

فالمنهي عنه في الشرائع كلها ما خرج عن: لا تقتل، لا تسرق، لا تزن . . . إلخ ما هو معلوم عند أهل الكتاب وصدقت عليه الحنيفية البيضاء وأوجبت عقابا لمن خالف النهي فيها. وكل تلك المنهيات لم تخرج عن كونها أفعالا إنما يأتيها الإنسان بعد التصور والتردد بين فعلها أو تركها، والفعل في القتل العمد والسرقة لمال الغير مع تحين زمن السرقة وإعداد المفاتيح وآلات السرقة، لا بد أن يكون بترجيح الإنسان، ولا منكر لذلك إلا مكابر ومتعنت إذا رجع إلى نفسه علم علم اليقين أنه المؤاخذ بما رجح من عمله .

وما خرج عن دائرة ترجيح العبد، بلا تخرص ولا سفسطة فأنا أقول لكم: إن الله سبحانه لا يسأله عنه، ولا يعاقبه عليه. وكذلك ما أتت به الرسل من التشريع فإنها وافقت حكمة الله فيما يستطيع العبد أن يعمله وما هو خارج عن استطاعته فلا عقاب عليه فيه .

وليس في كل التكليفات الشرعية ـ من أمر أو نهي ـ فيهما ثواب أو عقاب إلا ولترجيح الإنسان فيهما كل الدخل، ثم قال مكررا: السارق بعد أن يعد آلة السرقة ويفتح المغلقات ويأخذ ما فيها من متاع ونقود، إذا وقع في يد القضاء يقول: «قدر الله»! وهكذا القول في الزاني بعد أن يعمل لاستهواء واستغواء المعصومات، إذا افتضح أمره يقول: «قدر الله»! والحقيقة في كل تلك الأفعال شعور ذلك المرجح وهو الإنسان، إن ما فعله قبيح ولو عومل بمثل ما عامل به الغير فسرقوا له ماله أو فضحوا له عرضه أو قتلوا من يهمه لأكبر الأمر ولطلب تشديد العقوبة على من فعل ولو كان من أكبر الجبريين لرجع عن جبره وقال بالجزء الاختياري والكسبي طالبا عقاب المجرم!

ثم اختتم الأستاذ مقاله قائلا: أيها الأعزاء، ما خلق الله خلقا أشرف من

«العقل» الذي وهبه لخليفته في الأرض وهو «الإنسان» فسخَّر له ما في السموات وما في الأرض، فجدير ألا يجعل لحيوانية قوامها التراب أن تتغلب على تلك «الروح» ذات العلاقة في الملأ الأعلى، لأمور كل نتائجها ندم وملذات حقيقتها دفع ألم! ويا ليت تلك الآلام تزول بعد الموت هيهات!

ولا يرتاب أحد منكم أن الشارع الأعظم ﷺ قد تحرى الأنفع والأصلح للأمة، فنهى عما نهى عنه للخير المطلق وأمر بما فيه الأليق. هذا بقطع النظر عن الثواب الأخروي أو العقاب الدنيوي!!

قال الشيخ: يا حضرة السيد إن أقوال مولانا أستاذكم «علي منلا خان» التي أنرت بها عقولنا وشرحت بها صدورنا، لهي خير ما سمعته للآن وأعظم ما تأثرت به نفسي، بقي شيء مهم ألا وهو تهجم المتفرنجين من المسلمين وموافقتهم للأعداء في الأخذ على الدين الإسلامي وأهله، وأن سبب انحطاطهم وتقهقرهم وفقدان ما كان لهم من عزة السلطان ونفوذ الكلمة وتسخير معظم الأرض إن هو إلا لاعتقادهم «بالقضاء والقدر» واستسلامهم لهذه العقيدة، حتى آل أمرهم إلى ما آل إليه مما نراه من ذل واستعباد . . . إلخ!!

فما رأي السيد في هذا؟ أجزل الله ثوابه ونفع بعلومه.

فتبسم جمال الدين وقال: أراك يا حضرة الشيخ تحسن النطق بالعربية! وأظن أنك تحسن فهم ما تقرأ وغدا إن شاء الله أعطيك مقالا مطبوعا في بحث «القضاء والقدر» طبع ونشر في مدينة باريس قبل أحد عشر عاما، نقرأه سويا حتى إذا أشكل أمر تعاونا على حله إن شاء الله.

. . . وفي الغد كان الشيخ أول زائر تربع في حجرة الاستقبال واستنجز السيد وعده ـ فلبَّاه ـ وألقى علينا وعليه ما يأتي:

قضت سنة الله في خلقه بأن للعقائد القلبية سلطانا على الأعمال البدنية، فما يكون من صلاح أو فساد فإنما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها، ورب عقيدة واحدة تأخذ بأطراف الأفكار فيتبعها عقائد ومدركات أخرى ثم تظهر على البدن بأعمال

تلائم أثرها في النفس، ورب أصل من أصول الخير وقاعدة من قواعد الكمال إذا عرضت على الأنفس في تعليم أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على السامع فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة والاعتقادات الباطلة، فيعلق بها عند الاعتقاد شيء مما تصادفه، وفي كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ في الفهم، أو على خبث في الاستعداد فتنشأ عنها أعمال غير صالحة وذلك على غير علم من المعتقد، كيف اعتقد ولا كيف يصرفه اعتقاده، والمغرور بالظواهر يظن أن تلك الأعمال إنما نشأت عن الاعتقاد بذلك الأصل وتلك القاعدة ومن مثل هذا الانحراف في الفهم، وقع التحريف والتبديل في بعض أصول الأديان غالبا، بل هو علة البدع في كل دين على الأغلب وكثيرا ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الأعمال، حتى أفضى بمن ابتلاهم الله به إلى الهلاك وبئس المصير، وهذا ما يحمل بعض من لا خبرة لهم على الطعن في دين من الأديان أو عقيدة من العقائد الحقة استنادا إلى أعمال بعض السذج المنتسبين إلى ذلك الدين أو العقيدة. من ذلك عقيدة «القضاء والقدر» التي تعد من أصول العقائد في الديانة الإسلامية الحقة، كثر فيها لغط المغفلين من الإفرنج وظنوا بها الظنون وزعموا أنها ما تمكنت من نفوس قوم إلا وسلبتهم الهمة والقوة وحكَّمت فيهم الضعف والضعة ورموا المسلمين بصفات ونسبوا إليهم أطوارا ثم حصروا علتها في الاعتقاد «بالقدر» فقالوا إن المسلمين في فقر وفاقة وتأخر في القوى الحربية والسياسية عن سائر الأمم، وقد فشى فيهم فساد الأخلاق فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض وتفرقت كلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلة وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة، ولكن متى أمكن لأحدهم أن يضر أخاه لا يقصر بل يسرع في إلحاق الضرر به، فجعلوا بأسهم بينهم والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى، رضوا بكل عارض واستعدوا لقبول كل حادث وركنوا إلى السكون في كور بيوتهم، يسرحون في مرعاهم ثم يعودون إلى مأواهم، الأمراء فيهم يقطعون أزمنتهم في اللهو واللعب ومغاطاة الشهوات، وعليهم فروض وواجبات تستغرق أعمارهم في أدائها ولا يؤدون منها شيئًا، يصرفون أموالهم فيما يقطعون به زمانهم إسرافا وتبذيرا، نفقاتهم واسعة ولكن لا

يدخل في حسابها شيء يعود على ملتهم بالمنفعة، يتخاذلون ويتنافرون وينيطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية، فرب تنافر بين أميرين يضيع أمة كاملة، كل منهما يخذل صاحبه ويستعدي عليه جاره فيجد الأجنبي فيهما قوة فانية وضعفا قاتلا فينال من بلادهما ما لا يكلفه عددا ولا عدة، شملهم الخوف وعمهم الجبن والخور، يفزعون من الهمس ويألمون من اللمس، قعدوا عن الحركة إلى ما يلحقون به الأمم من العزة والشوكة وخالفوا في ذلك أوامر دينهم مع رؤيتهم لجيرانهم، بل الذين تحت سلطتهم يتقدمون عليهم ويباهونهم بما يكسبون. وإذا أصاب قوما من إخوانهم مصيبة أو عدت عليهم عادية لا يسعون في تخفيف مصابهم ولا ينبعثون لمناصرتهم ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لا جهرية ولا سرية يكون مقاصدها الغيرة وتنبيه الحمية ومساعدة الضعفاء وحفظ الحق من بغي الأقوياء وتسلط الغرباء!

هكذا نسبوا إلى المسلمين هذه الصفات وتلك الأطوار وزعموا أن لا منشأ لها إلا اعتقادهم «بالقضاء والقدر» وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الإلهية وحكموا بأن المسلمين إذا داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة ولن ينالوا عزا ولن يعيدوا مجدا ولا يأخذون بحق ولا يدفعون تعديا ولا ينهضون بتقوية سلطان أو تأييد ملك ولا يزال بهم الضعف يفعل في نفوسهم ويركس من طباعهم حتى يؤدي بهم إلى الفناء والزوال ـ والعياذ بالله ـ يفني بعضهم بعضا بالمنازعات الخاصة وما يسلم من أيدي بعضهم يحصده الأجانب.

واعتقد أولئك الإفرنج أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين بأن الإنسان مجبور محض في جميع أفعاله وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء، يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل! ومتى رسخ في نفوس قوم أنه لا اختيار لهم في قول ولا عمل ولا حركة ولا سكون وإنما جميع ذلك بقوة جابرة وقدرة قاهرة؛ فلا ريب تتعطل قواهم ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى وتمحى من خواطرهم داعية السعي والكسب وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم.

هكذا ظنت طائفة من الإفرنج وذهب مذهبها كثيرون من المتفرنجين وغيرهم من ضعفاء العقول في المشرق ولست أخشى أن أقول: كذب الظان وأخطأ الواهم

وأبطل الزاعم وافتروا على الله والمسلمين كذبا ، لا يوجد مسلم في هذا الوقت من سني وشيعي وزيدي وإسماعيلي ووهابي وخارجي يرى مذهب الجبر المحض ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة ، بل كل هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءا اختياريا في أعمالهم ويسمى «بالكسب» وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الإلهية والنواهي الربانية الداعية إلى كل خير ، الهادية إلى كل فلاح وأن هذا النوع من الاختيار وهو مورد التكليف الشرعي وبه تتم الحكمة والعدل .

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت إلى أن الإنسان مضطر في جميع أفعاله اضطرارا لا يشوبه اختيار ، وزعمت أن لا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ ! وبين أن يتحرك بقفقفة البرد عند شدته ومذهب هذه الطائفة يعدّه المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة وقد انقرض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبق لهم أثر وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون .

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع ، بل ترشد إليه الفطرة ، وسهل على من له فكر أن يلتفت إلى كل حادث له سبب يقارنه في الزمان وأنه لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضر لديه ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها وإن لكل منها مدخلا فيما بعده ذلك بتقدير العزيز العليم .

وإرادة الإنسان إنما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة وليست الإرادة إلا أثرا من آثار الإدراك والإدراك أثر من انفعال النفس بما يعرض على الحواس وشعورها وبما أودع في الفطرة من الحاجات فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والإرادة ما لا ينكره أبله فضلا عن عاقل وإن مبدأ هذه الأسباب التي ترى في مظاهر مؤثرة إنما هو تأييد مدبر الكون الأعظم الذي أبدع الأشياء على وفق حكمته وجعل كل حادث تابعا لشبهه كأنه جزء له خصوصا في العالم الإنساني .

ولو فرضنا أن جاهلا ضل عن الاعتراف بوجود إله صانع للعالم ، فليس في إمكانه أن يتملص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية في الإرادات البشرية ، فهل يستطيع إنسان أن يخرج بنفسه عن هذه السنة التي سنها الله

في خلقه؟ هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق فضلا عن الواصلين وإن بعضا من حكماء الإفرنج وعلماء سياستهم التجئوا إلى الخضوع لسلطة القضاء وأطالوا البيان في إثباتها ولسنا في حاجة إلى الاستشهاد بآرائهم .

إن للتاريخ علما فوق الرواية ، عنى بالبحث فيه العلماء من كل أمة وهو العلم الباحث عن سير الأمم في صعودها وهبوطها وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها وما ينشأ عنها من التغيير والتبديل في العادات والأخلاق والأفكار ، بل في خصائص الإحساس الباطن والوجدان وما يتبع ذلك كله من نشأة الأمم وتكوّن الدول أو فناء بعضها واندراس أثره .

هذا الفن الذي عدوه من أجلّ الفنون الأدبية وأجزلها فائدة ، بناء البحث فيه على الاعتقاد «بالقضاء والقدر» والإذعان بأن قوى البشر في قبضة مدبر الكائنات ومصرف للحادثات ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ولا ضعف قوي ولا انهدم مجد ولا تقوض سلطان .

الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر ، يتبعه صفة الجرأة والإقدام وخلق الشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك التي ترجف لها قلوب الأسود وتنشق منها مرائر النمور .

هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الأهوال ويحليها بحلى الجود والسخاء ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الأرواح والتخلي عن نضرة الحياة ، كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذي يعتقد بأن الأجل محدود والرزق مكفول والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته والقيام بما فرض الله عليه من ذلك وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق ، وتشييد المجد على حسب الأوامر الإلهية وأصول الاجتماعات البشرية .

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قوله الحق ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤]. اندفع المسلمون في أوائل نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها ويتسلطون عليها فأدهشوا العقول وحيروا الألباب بما دوّخوا من الدول وقهروا من الأمم وامتدت سلطتهم من جبال بيريني الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا إلى جدار الصين كما سبق القول مع قلة عَددهم وعددهم وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة وطبائع الأقطار المتنوعة، أرغموا الملوكَ وأذلوا القياصرة والأكاسرة في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة! إن هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات!

دوّخوا بلادا ودكدكوا أطوادا ورفعوا فوق الأرض أرضا ثانية من القسطل وطبقة أخرى من النقع وسحقوا رءوس الجبال تحت حوافر جيادهم وأقاموا بدلها جبالا وتلالا من رءوس النابذين لسلطانهم وأرجفوا كل قلب وأرعدوا كل فريصة وما كان قائدهم وسائقهم إلى جميع هذا إلا الاعتقاد «بالقضاء والقدر»!

هذا الاعتقاد هو الذي ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش من الأعداء يغص بها الفضاء ويضيق بها بسيط الغبراء فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على أعقابهم.

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق وانقضت شهبها على المتهجمين للحروب من أهل المغرب وهو الذي حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق في سبيل إعلاء كلمتهم لا يخشون فقرا ولا يخافون فاقة!

هذا الاعتقاد هو الذي سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون في حجورهم إلى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم كأنما يسيرون إلى الحدائق والرياض، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أمانا من كل غادرة وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة، وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج إليه ولا يفرق النساء والأولاد عن الرجال والكهول إلا بحمل السلاح ولا تأخذ الناس رهبة ولا تغشى الأولاد مهابة.

هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم إلى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ويبدد أفلاذ الأكباد، حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف به في قلوب أعدائهم فينهزمون

بجيش الرهبة قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم، بل قبل أن تصل إلى تخومهم أطراف جحافلهم!!

أقول ولا أخشى واهما ينازعني فيما أقول إنه من بداية تاريخ الاجتماع البشري إلى اليوم ما وجد فاتح عظيم ولا محارب شهير نبت في أوسط الطبقات ثم رقي إلى أعلى الدرجات فذللت له الصعاب وخضعت الرقاب وبلغ من بسطة الملك ما يدعو إلى العجب ويبعث الفكر لطلب السبب إلا كان معتقدا «بالقضاء والقدر» .

سبحان الله! الإنسان حريص على حياته، شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجبلة فما الذي يهوّن عليه اقتحام المخاطر وخوض المهالك ومصارعة المنايا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر وركون قلبه إلى أن المقدَّر كائن ولا أثر لهول المظاهر!!

أثبتت لنا التواريخ أن كورش الفارسي «كيخسرو» وهو أول فاتح يُعرف في تاريخ الأقدمين ما تسنى له الظفر في فتوحاته الواسعة إلا لأنه كان معتقدا بالقضاء والقدر، فكان لهذا الاعتقاد لا يهوله هول ولا توهن عزيمته شدة، وإن إسكندر الكبير المكيدوني كان ممن رسخت في نفوسهم هذه العقيدة الجليلة، وجنكيزخان التتري صاحب الفتوحات المشهورة كان من أرباب هذا الاعتقاد، وكان نابليون الأول بونابرت الفرنسي من أشد الناس تمسكا بعقيدة القضاء وهي كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيفة الكثيرة فيتهيأ له الظفر وينال بغيته من النصر ويقتحم المهالك ويتعرض للموت ولا يبالي، فنعم الاعتقاد الذي يطهر النفوس الإنسانية من رذيلة الجبن وهو أول عائق للمتدنس به عن بلوغ كماله في طبقة أيا كانت نعم إنا لا ننكر أن هذه العقيدة قد خالطها في نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر وربما كان هذا هو السبب في رزيئتهم ببعض المصائب التي أخذتهم بها الحوادث في العصور الأخيرة، ورجاؤنا في الراسخين من علماء العصر أن يسعوا جهدهم في تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع ويذكروا العامة بسنن السلف الصالح وما كانوا يعملون وينشروا بينهم ما أثبتته الأئمة ـ رضي الله عنهم ـ كالشيخ الغزالي وأمثاله من أن التوكل والركون إلى القضاء إنما طلبه الشرع منا في العمل لا في البطالة والكسل وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا ونتبذ ما أوجب علينا بحجة التوكل عليه، فتلك حجة المارقين عن

الدين، الحائدين عن الصراط المستقيم ولا يرتاب أحد من أهل الدين الإسلامي في أن الدفاع عن الملة في هذه الأوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف وليس بين المسلمين وبين الالتفات إلى عقائدهم الحقة التي تجمع كلمتهم وترد إليهم عزيمتهم وتنهض همتهم لاسترداد شأنهم الأول إلا دعوة خير من علمائهم وأن جميع ذلك موكول إلى ذمتهم.

أما ما زعموه في المسلمين من الانحطاط، والتأخر فليس منشؤه هذه العقيدة ولا غيرها من العقائد الإسلامية ونسبته إليها كنسبة النقيض إلى نقيضه بل أشبه ما يكون بنسبة الحرارة إلى الثلج والبرودة إلى النار.

نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر وثمل من العز والغلب وفاجأهم وهم على تلك الحال صدمتان قويتان صدمة من طرف الشرق وهي غارة التتار من چنكيز خان وأحفاده وصدمة من جهة الغرب وهي زحف الأمم الأوروپية بأسرها على ديارهم وإن الصدمة في حال النشوة تذهب بالرأي وتوجب الدهشة والسبات بحكم الطبيعة وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة ووسد الأمر فيهم إلى غير أهله وولي على أمورهم من لايحسن سياستها فكان حكامهم وأمراؤهم من جراثيم الفساد في أخلاقهم وطباعهم وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم فتمكن الضعف من نفوسهم وقصرت أنظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيات التي لاتتجاوز لذته الآنية، وأخذ كل منهم بناصية الآخر يطلب له الضرر ويلتمس له السوء من كل باب لا لعلة صحيحة ولا داع قوي، وجعلوا هذا ثمرة الحياة فآل الأمر بهم إلى الضعف والقنوط وأدى إلى ما صاروا إليه.

ولكني أقول وحق ما أقول إن هذه الملة لن تموت ما دامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم ورسومها تلوح في أذهانهم وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم وكل ما عرض عليهم من الأمراض النفسية والاعتلال العقلي فلا بد أن تدفعه قوة العقائد الحقة ويعود الأمر كما بدأ، وينشطوا من عقالهم ويذهبوا مذاهب الحكمة والتبصر في إنقاذ بلادهم وإرهاب الأمم الطامعة فيهم وإيقافها عند حدها.

وما ذلك ببعيد والحوادث التاريخية تؤيده فانظر إلى العثمانيين الذين نهضوا بعد تلك الصدمات القوية «حروب التتار والحروب الصليبية» وساقوا الجيوش إلى أرجاء العالم واتسعت لهم ميادين الفتوحات ودوخوا البلاد وأرغموا أنوف الملوك ودانت لسلطانهم الدول الإفرنجية حتى كان السلطان العثماني يلقب بين الدول «بالسلطان الأكبر»!

ثم ارجع البصر تجد هزة في نفوسهم وحركة في طباعهم أحدثها فيهم ما توعدتهم به الحوادث الأخيرة من رداءة العاقبة وسوء المنقلب حركة سرت في أفكار ذوي البصيرة منهم في أغلب الأنحاء شرقا وغربا، وتألفت من خيارهم عصبات للحق كتبت على نفسها نصرة العدل والشرع والسعي بغاية الهمة لبث أفكارها وجمع الكلمة المفترقة وضم الشتات المتبددة، وجعلوا من أصغر أعمالهم نشر جريدة عربية لتصل بما يكتب فيها بين المتباعدين منهم وتنقل إليهم بعض ما يضمره الأجانب لهم، وإنا نرى عدد «الجمعية الصالحة»[1] يزداد يوما بعد يوم، نسأل الله

---

(١) إن الذي عناه جمال الدين بـ: «الجمعية الصالحة ورجالها» في مقاله هذا الذي كتب في باريس سنة ١٣٠١هـ وسنة ١٨٨٤م هم رجال «تركيا الفتاة»، وكان السيد قد اجتمع ببعض رجال تلك الجمعية في باريس وأطلعوه على خطتهم وما يحاولونه من إصلاح المملكة العثمانية وجمع كلمة الأمة على النهوض بالملك الإسلامى، ودرأ المخاطر الأوروبية عن الممالك الإسلامية الشرقية وتنبيه الخواطر الغافلة لما تنويه إنجلترا خصوصا من الشر والكيد للمسلمين فراق ذلك للسيد واستحسنه وشجع القائمين بتلك الفكرة والساعين وراء تلك الغاية الشريفة ــ التي هي من أسمى أغراض جمال الدين وما يسعى في سبيله ويعمل على تحقيقه. ويرجع تاريخ «جمعية تركيا الفتاة» في أقرب العهد إلى أحرار الأتراك الذين ذهبوا إلى أوروبا مهاجرين مغاضبين في عهد سلطنة المرحوم السلطان عبدالعزيز، وكان على رأسهم والآخذ بنصرتهم مصطفى فاضل باشا المصرى ولفيف الأحرار إذ ذاك كان من خيار الفضلاء والمفكرين من العثمانيين الأتراك، منهم ضيا باشا المؤرخ والشاعر نامق كمال بك ومحمد بك ونورى بك ورشاد باشا وغيرهم، ولهذه العصبة مجاهدات جليلة في سبيل إصلاح المملكة ومقالات مؤثرة أبدعوا في تحريرها وتفننوا في وسائل إدخالها حتى كانوا يطبعونها في آخر العهد على أثواب الأقمشة القطنية وغيرها، ثم توسط نابليون الثالث الأمر بين السلطان عبد العزيز والبرنس مصطفى باشا فاضل ومن معه من الأحرار آخذا موثقا من جلالة السلطان أن يعمل على ما يرومونه من الإصلاح بعد عودتهم إلى الأستانة وقد تمنع الأحرار في بادئ الأمر ولم يقبلوا بالعودة من غير ضمان وثيق ثم عادوا وكان من أمرهم مما يطول شرحه وما هو معلوم عند بقية قدماء الرجال من العثمانيين الباقين في قيد الحياة اليوم وما تركوه في صدور الأخلاف!

تعالى نجاح أعمالها وتأييد مقصدها الحق ورجاؤنا من كرمه أن يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقيين عموما وللمسلمين خصوصا. (انتهى)!

ثم قال: هذه العقيدة «القضاء والقدر» التي تعد من أصول العقائد في الدين الإسلامي - كيف انقلبت حقيقتها مع جهلة الأفرنج ومن تابعهم من المغفلين وضعفاء العقول من المتفرنجين في الشرق وكيف استنتجوا منها نتيجة لم تكن من لوازمها بل هي في الحقيقة من نقيضها وبعد أن كانت تلك العقيدة الشريفة مما تحمل معتقدها على التحلي بأكمل الصفات من جرأة وإقدام والتخلق بخلق البسالة والشجاعة واقتحام المهالك واحتمال المكاره والجود والسخاء واحتقار الموت في سبيل الحق وطلب المجد رأوا ما في المسلمين اليوم من فقر وفاقة وضعف واستكانة إلى الذل وغير ذلك من المذام فنسبوها إلى اعتقاد المسلمين بالقضاء والقدر - والعقيدة مع المسلمين فيما لو عملوا بها براء مما ينسبونه إليهم ـ ولكن من سنن الوجود ومقتضيات انحطاط الأمم ولوازم تقهقرها أن ترمي بكل شائنة وتسلب من كل فضيلة فتعود حسناتها سيئات ويعد كل وصف كمالي لها نقصا وبالاختصار تسلب كل ما عندها من المحاسن وتلبس ما في الغير من المساوئ - سواء في ذلك العقائد وجميل الصفات ـ من ذلك القبيل « التعصب» وهو لفظ شغل مناطق الناس خصوصا في البلاد الشرقية تلوكه الألسن وترمي به الأفواه في المحافل والمجامع حتى صار متكئا للمتكلمين يلجأ إليه العي والجامد البليد. أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير، فقلما تكون عبارة إلا وهو فاتحتها أو حشوها أو خاتمتها يعدون مسماه علة لكل بلاء ومنبعا لكل عناء ويزعمونه حجابًا كثيفًا وسدا منيعًا بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح ويجعلونه عنوانا على النقص وعلما للرذائل.
والمتفرنجون الذاهبون في تقليدهم الأعمى مذاهب الخلط والخبط لا يميزون بين حق وباطل، هم أحرص الناس على التشدق بهذا البدع الجديد، فتراهم في بيان مفاسد التعصب يهزون الرءوس ويعبثون باللحى ويبرمون السبال وإذا رموا به شخصا للحط من كرامته أردفوه للتوضيح بلفظ إفرنجي «فناتيك»! وإن عهدوا بشخص نوعا من المخالفة لمشربهم عدوه متعصبا وهزئوا به وغمزوا ولمزوا وإذا رأوه عبسوا وبسروا وشمخوا بأنوفهم كبرا وولوه دبرا ونادوا عليه بالويل والثبور!

ماذا سبق إلى أفهامهم من هذا اللفظ وماذا اتصل بعقولهم من معناه حتى خالوه مبدءا لكل شناعة ومصدرا لكل نقيصة وهل لهم وقوف على شيء من حقيقته.

«التعصب» قيام بالعصبية والعصبية من المصادر النسبية نسبة إلى العصبة وهي قوم الرجل الذين يعززون قوته ويدفعون عنه الضيم والعداء فالتعصب وصف للنفس الإنسانية تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه ووجوه الاتصال تابعة لأحكام النفس في معلوماتها ومعارفها.

هذا الوصف هو الذي شكل الله به الشعوب وأقام بناء الأمم وهو عقد الروابط في كل أمة، بل هو قوة المزاج الصحيح - يوحد المتفرق منها تحت اسم واحد وينشئها بتقدير الله خلقا واحدا، كبدن تألف من أجزاء وعناصر تدبره روح واحدة فتكون كشخص يمتاز في أطواره وشئونه وسعادته وشقائه، عن الأشخاص.

وهذه الوحدة هي مبعث المباراة بين أمة وأمة وقبيل وقبيل ومباهاة كل من الأمتين المتقابلتين بما يتوافر لها من أسباب الرفاهة وهناء العيش وما تجمعه قواها من وسائل العزة والمنعة وسمو المقام ونفاذ الكلمة، والتنافس بين الأمم كالتنافس بين الأشخاص وهو أعظم باعث على بلوغ أقصى درجات الكمال في جميع لوازم الحياة بقدر ما تسعه الطاقة.

التعصب روح كلي مهبطه هيئة الأمة وصورتها وسائر أرواح الأفراد حواسه ومشاعرها، فإذا ألم بأحد المشاعر ما لا يلائمه من أجنبي عنه انفعل الروح الكلي وجاشت طبيعته لدفعه فهو لهذا مثار الحمية العامة ومسعر النعرة الجنسية، هذا الذي يرفع نفوس آحاد الأمة عن معاطاة الدنايا وارتكاب الخيانات فيما يعود على الأمة بضرر أو يؤول بها إلى سوء العاقبة وأن استقامة الطباع ورسوخ الفضيلة في أمة، تكون على حسب درجة التعصب فيها، والالتحام بين أفرادها يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم في بدن حي، لا يجد الرأس غنى بارتفاعه عن القدم ولا يرى القدمين في تطرفهما انحطاطا في رتبة الوجود وإنما كل يرى ويجد ويعمل وظائفه لحفظ البدن وبقائه.

كلما ضعفت قوة الربط بين أفراد الأمة بضعف التعصب فيهم استرخت الأعصاب ورثت الأطناب ورقت الأوتار وتداعى بناء الأمة إلى الانحلال كما يتداعى بناء البنية البدنية إلى الفناء، بعد هذا يموت الروح الكلي وتبطل هيئة الأمة وإن بقيت آحادها فما هي إلا كالأجزاء المتناثرة إما تتصل بأبدان أخرى بحكم ضرورة الكون وإما أن تبقى في قبضة الموت إلى أن ينفخ فيها روح النشأة الآخرة.

سنة الله في خلقه إذا ضعفت العصبية في قوم رماهم بالفشل وغفل بعضهم عن بعض وأعقب الغفلة تقطع في الروابط وتبعه بقاطع وتدابر فيتسع للأجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم، ولن تقوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بإفاضتهم روح التعصب في نشأة ثانية. نعم إن التعصب وصف كسائر الأوصاف له حد اعتدال وطرف إفراط وتفريط، واعتداله هو الكمال الذي بينا مزاياه والتفريط فيه هو النقص الذي أشرنا إلى رزاياه والإفراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء. فالمفرط في تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة وينظر إلى الأجنبي عنه كما ينظر إلى الهمل من السوائم لا يعترف له بحق ولا يرعى له ذمة، فيخرج بذلك عن جادة العدل فتنقلب منفعة التعصب إلى مضرة ويذهب بهاء الأمة بل يتقوض مجدها. فإن العدل قوام الاجتماع الإنساني وبه حياة الأمم وكل قوة لا تخضع للعدل فمصيرها إلى الزوال وهذا الحد من الإفراط في التعصب هو الممقوت على لسان الشارع ﷺ في قوله «ليس منا من دعا إلى عصبية» الحديث.

التعصب كما يطلق ويراد منه النعرة على الجنس مرجعها رابطة النسب والاجتماع في منبت واحد، كذلك توسع أهل العرف فيه فأطلقوه على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضا والمتنطعون والمغفلون من المتفرنجين يخصون هذا النوع من التعصب بالمقت ويرمونه بالذم، ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل أو يتفق مع الحزم فإن لحمة يصير بها المتفرقون إلى وحدة تنبعث عنها قوة لدفع الغائلات وكسب الكمالات لا يختلف شأنها ولا فرق أصلا إذا كان مرجعها الدين أو كان مرجعها النسب، وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين في أقوام مختلفة من البشر وعن كل منها صدرت في العالم آثار جليلة

يفتخر بها الكون الإنساني وليس يوجد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة القريب عن قريبه ومعاونته على حاجات معيشته وبين ما يصدر من ذلك عن المتلاحمين المتصلين بصلة المعتقد ورابطة المشرب. فتعصب المشتركين في الدين المتوافقين في أصول العقائد بعضهم لبعضهم إذا وقف عند الاعتدال ولم يدفع إلى جور في المعاملة ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم أو نقض لذمته فهو فضيلة من أجل الفضائل الإنسانية وأوفرها نفعا وأجزلها فائدة، بل هو أقدس رابطة وأعلاها، إذا استحكمت صعدت بذوي المكانة فيها إلى أوج السيادة وذروة المجد خصوصا إن كانوا من قوم قوي فيهم سلطان الدين واشتدت سطوته على الأهواء الجنسية حتى أشرف بها على الزوال كما في أهل الديانة الإسلامية كما أشرنا إليه في غير مقال سبق.

ولا يؤخذ علينا في القول بأنه من أقدس الروابط فإنه كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة ويصل ما بينهم في المقاصد والعزائم والأعمال كذلك يمحو أثر المنابذة والمنافرة بين القبائل والعشائر، بل الأجناس المتخالفة في المنابت واللغات والعادات بل المتباعدة في الصور والأشكال ويحول أهواءها المتضاربة إلى قصد واحد وهو تأصيل المجد وتأييد الشرف وتخليد الذكر تحت الاسم الجامع لهم.

هذا الأثر الجليل أبرزه قوة التعصب الديني وشهد عليه التاريخ بعد ما أرشد إليه العقل الصحيح وما كانت رابطة الجنس لتقوى على شيء منه.

تشدق جماعة من متزندقة هذه الأوقات في بيان مفاسد التعصب الديني وزعموا أن حمية أهل الدين لكشف ما يغشى إخوانهم من ضيم وتضافرهم لدفع ما يلم بدينهم من عوامل الوهن والضعف هو الذي يصدهم عن السير إلى كمال المدنية ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة ويرمي بهم في ظلمات الجهل ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم في دينهم ومن رأى أولئك المتفتقين أن لا سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح إلا بانحلال العصبية الدينية ومحو أثرها وتخليص العقول من سلطة العقائد وكثيرا ما يرجعون بأهل الدين الإسلامي ويخوضون في نسبة مذام التعصب إليهم.

كذب الخراصون إن الدين أول معلم وأرشد أستاذ وأهدى قائد للأنفس إلى اكتساب العلوم والتوسع في المعارف وأرحم مؤدب وأبصر مروّض، يطبع الأرواح على الآداب الحسنة والأخلاق الكريمة ويقيمها على جادة العدل وينبه منها حاسة الشفقة والرحمة خصوصا دين الإسلام فهو الذي رفع أمة كانت من أعرق الأمم في التوحش والقسوة والخشونة وسمى بها إلى أرقى مراقي الحكمة، والمدنية في أقرب مدة وهي «الأمة العربية»

قد يطرأ على التعصب الدينى من التغالى والإفراط مثلما يعرض على التعصب الجنسي فيفضي إلى ظلم وجور وربما يؤدي إلى قيام أهل الدين لإبادة مخالفيهم ومحق وجودهم كما قامت الأمم الغربية واندفعت إلى بلاد الشرق لمحض الفتك والإبادة لا للفتح ولا للدعوة الدينية، وذلك في الحرب الهائلة المعروفة بحرب«الصليب» وكما فعل الإسبانيون بمسلمى الأندلس، وكما وقع قبل هذا وذاك في بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحي، فإن صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود في القدس وأحرقهم. إلا أن هذا العارض لمخالفته لأصول الدين، قلما تمتد له مدة، ومن ثم يرجع أرباب الدين إلى أصوله القائمة على قواعد السلم والرحمة والعدل.

أما أهل الدين الإسلامى فمنهم طوائف شطت في تعصبها في بعض الأجيال الماضية إلا أنه لم يصل بهم الإفراط إلى حد يقصدون فيه الإبادة وإخلاء الأرض من مخالفيهم في دينهم وما عهد ذلك في تاريخ المسلمين بعد ما تجاوزوا حدود جزيرة العرب ـ ولنا الدليل الأقوم على ما نقول ـ وهو أن وجود الملل المختلفة في ديارهم إلى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم سلطوا عليها وهم في عنفوان القوة وتلك الملل في وهن الضعف.

نعم كان للمسلمين ولع بتوسيع الممالك وامتداد الفتوحات وكانت لهم شدة على من يعارضهم في سلطانهم، إلا أنهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الأديان ويرعون حق الذمة ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه ويدفعون عنه غائلة العدوان، ومن العقائد الراسخة في نفوسهم أن من رضي بذمتنا فله ما لنا وعليه ما علينا، ولم يعدلوا في معاملتهم لغيرهم عن أمر الله في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾[النساء : ١٣٥]، اللهم إلا ما لا تخلو عنه الطبائع البشرية ومن نشأة المسلمين إلى اليوم لم يدفعوا أحدا من مخالفيهم عن التقدم إلى ما يستحقه من علو الرتبة وارتفاع المكانة، ولقد سمى في دول المسلمين على اختلافها إلى المراتب العالية كثير من أرباب الأديان المختلفة وكان ذلك في شبيبتها وكمال قوتها وكان من يصطنعونه على ما يرام من الإخلاص لا يحاولون كيدا لسلطان المسلمين ولا يعملون الغوائل لملكهم ولم يزل الأمر على ما كان مع تغير أخلاق المصطنعين، وسوء نواياهم وفي الظن أن الأمم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل والمسامحة إلى اليوم، فبعدا لقوم يظنون أن المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفيهم من حقوقهم!!

لم يسلك المسلمون مسلك الإلزام بدينهم والإجبار على قبوله مع شدة بأسهم في بدايات دولهم وتغلغلهم في افتتاح الأقطار واندفاع هممهم للبسطة في الملك والسلطة، وإنما كانت لهم دعوة يبلغونها فإن قبلت وإلا استبدلوها برسم مالي يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقه الإسلامى.

هذا على خلاف متنصرة الرومانيين واليونانيين أيام شوكتهم الأولى فإنهم ما كانوا يطئون أرضا إلا ويلزمون أهلها بخلع أديانهم والتدين بدين أولئك المتسلطين كما فعلوا في بعض أنحاء الشرق بل وفي البلاد الإفرنجية نفسها ومع المخالفين بالمذهب مثل أتباع «لوتير» في بداية مذهبه البروتستانتي.

هذا فصل من الكلام ساق إليه البيان وفيه تبصرة لمن يتبصر وتذكرة لمن يتذكر ثم أعود بك إلى سابق الحديث فيما كنا بصدده هل لعاقل لم يصب برزيئة في عقله أن يعد الاعتدال من التعصب الديني نقيصة؟! وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسي[1] إلا بما يكون به التعصب الديني أقدس وأطهر وأعم فائدة؟! لا نخال عاقلا يرتاب في صحة ما قررنا، فما لأولئك القوم يهذرون بما لا يدرون؟أى أصل من أصول العقل يستندون إليه في المفاخرة والمباهاه بالتعصب الجنسي فقط واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل ويعبرون عنه بـ «محبة الوطن»؟ وأي قاعدة من قواعد

---

(١) المراد من التعصب الجنسي في كلام السيد هو التعصب العرقي أو العنصري والقومي.

العمران البشري يعتمدون عليها في التهاون بالتعصب الديني المعتدل وحسبانه نقيصة يجب الترفع عنها؟؟

نعم إن الإفرنج تأكد لديهم أن أقوى رابطة بين المسلمين إنما هي الرابطة الدينية وأدركوا أن قوتهم لا تكون إلا «بالعصبية الاعتقادية» ، ولأولئك الإفرنج مطامع في ديار المسلمين وأوطانهم ، فتوجهت عنايتهم إلى بث هذه الأفكار الساقطة بين أرباب الديانة الإسلامية ، وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم حبالها ليقضوا بذلك بناء الملة الإسلامية ويمزقونها شيعا وأحزابا ، فإنهم علموا كما علمنا وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا في دينهم واعتقادهم ، وتسنى للمفسدين نجاح في بعض الأقطار الإسلامية وتبعهم بعض الغافلين من المسلمين جهلا وتقليدا فساعدوهم على التنفير من العصبة الدينية بعد ما فقدوها ولم يستبدلوها برابطة الجنس التي يبالغون في تنظيمها واحترامها حمقا منهم وسفاهة ، فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيئ لنفسه مسكنا سواه فاضطر للإقامة بالعراء معرضا لفواعل الجو وما تصول به على حياته!

من هذا ما سلك الإنجليز في الهند لما أحسوا بخيال السلطنة يطوف على أفكار المسلمين منهم ـ لقرب عهدهم به ـ وفي دينهم ما يبعثهم على النهوض إلى استرداد ما سلب منهم . وأرشدهم البحث في طبائع الملل إلى أن حياة المسلمين قائمة على الوصلة الدينية ، وما دام الاعتقاد المحمدي والعصبة الملية سائدة فيهم فلا تؤمن بعثتهم إلى طلب حقوقهم ، فاستهووا طائفة ممن يتسمون بسمة الإسلام ويلبسون لباس المسلمين وفي صدورهم غل وفي قلوبهم زيغ وزندقة وهم المعروفون في البلاد الهندية بـ«النيجرية» أى الدهريين ، فاتخذهم الإنجليز أعوانا لهم على فساد عقائد المسلمين وتوهين علائق التعصب الدينى ؛ ليطفئوا بذلك نار حميتهم ويخمدوا نائرة غيرتهم ويبددوا جمعهم ويمزقوا شملهم ، وساعدوا تلك الطائفة على إنشاء مدرسة كبيرة ونشر جريدة لبث هذه الأباطيل بين الهنديين حتى يعم الضعف في العقائد وترث أطناب الصلاة بين المسلمين فيستريح الإنجليز في التسلط عليهم وتطمئن قلوبهم من جهتهم كما اطمأنت من جهة غيرهم . وغر أولئك الغفل المتزندقين أن رجال دولة بريطانيا يظهرون لهم رعاية صورية ويدنونهم من بعض الوظائف الخسيسة . تعس من يبيع ملته بلقمته وذمته برذال العيش .

هذا أسلوب من السياسة الأوروبية أجادت الدول اختباره وجنت ثماره فأخذت به الشرقيين لتنال مطامعها فيهم، فكثير من تلك الدول نصبت الحبائل في البلاد العثمانية من مصرية وغيرها من الممالك الإسلامية ولم تعدم صيداً من الأمراء والمنتسبين إلى العلم والمدنية الجديدة.

و استعملتهم آلة في بلوغ مقاصدهم من بلادهم وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الإسلام أن يميلوا مع هذه الأهواء الباطلة ولكن نعجب من أن بعضا من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم في إيمانهم يسفكون الكلام في ذم التعصب الدينى ويجهرون في رمي المتعصبين بالخشونة والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم، ويفسدون شأنهم ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المارقين يطلبون محو التعصب المعتدل وفي محوه محو الملة ودفعها إلى أيدي الأجانب يستعبدونها ما دامت الأرض أرضا والسماء سماء.

و الله ما عجبنا من هؤلاء! وهؤلاء بأشد من العجب لأحوال الغربيين من الأمم الإفرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الأفكار بين الشرقيين ولا يخجلون من تشنيع التعصب الديني ورمي المتعصبين بالخشونة.

الإفرنج أشد الناس في هذا النوع من التعصب وأحرصهم على القيام بدواعيه الأساسية في حكوماتهم السياسية ـ الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم ـ وإذا عدت عادية مما لا يخلو منه الاجتماع الإنساني على واحد منهم ممن هو على دينهم ومذهبهم في ناحية من نواحي الشرق الأقصى سمعت صياحا ونواحا وعويلا وهيصات وأنباء تتلاقى في جو بلاد المدنية الغربية وينادى جميعهم : ألا قد ألمت ملمة ! وحدثت حادثة مهمة ! فاجمعوا الأمر وخذوا الأهبة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثلها حتى لا تنخدش الجامعة الدينية، وتراهم على اختلاف في الأجناس وتباغضهم وتحاقدهم وتنابذهم في السياسات وترقب كل دولة منهم لعثرة الأخرى حتى توقع بها السوء. يتقاربون ويتآلفون ويتحدون في توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاكلهم في الدين وإن كان في أقصى الصين أو قاصية من الأرض ولو تقطعت بينه وبينهم الأنساب الجنسية.

أما لو فاض طوفان الفتن وطمَّ وجه الأرض وغمر البسيطة من دماء المخالفين لهم في الدين والمذهب، فلا ينبض لهم عرق ولا يتنبه لهم إحساس بل يتغافلون عنه ويذرونه وما يجرف حتى يأخذ مده الغاية وحدّه النهاية ويذهلون عما أودع في الفطرة البشرية من الشفقة الإنسانية والمرحمة الطبيعية كأنما يعدون الخارجين عن دينهم من الحيوانات السائمة والهمل الراعية وليس من نوع الإنسان الذي يزعم الأوروبيون أنهم حماته وأنصاره، وليس هذا خاصا بالمتدينين منهم بل الدهريين ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين في تعصبهم الدينى ولا يألون جهدا في تقوية عصبتهم وليتهم يقفون عند الحق ولكن كثيرا ما تجاوزوه.

أما أن شأن الإفرنج ـ وأخصهم الإنجليز ـ في تمسكهم بالعصبية الدينية لغريب! يبلغ الرجل منهم أعلى درجة في الحرية الفكرية حتى يرفعوه إلى الرئاسة على الأحزاب «كغلادستون» وأضرابه، ثم لا نجد كلمة تصدر عنه إلا وفيها نفثة من روح أحد القديسين! ولايقدم على عمل مهم، قبل أن يعمل خيرة «استخارة»! في الإنجيل. أنظر إلى كتب غلادستون وخطبه السابقة.

فيا أيتها الأمة المرحومة، هذه حياتكم فاحفظوها ودمائكم فلا تريقوها وأرواحكم فلا تزهقوها وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت! هذه هي روابطكم الدينية لا تغرنكم الوساوس ولا تستهوينكم الترهات ولا تدهشكم زخارف الباطل، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها التركي بالعربي والفارسي بالهندي والمصري بالمغربي وقامت لهم مقام الرابطة النسبية، حتى أن الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر وإن تناءت دياره وتقاصت أقطاره، هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله إليكم ومنها عزتكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم فلا توهنوها!

و لكن عليكم في رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل! العدل! العدل! فالعدل أساس الكون وبه قوامه، ولانجاح لقوم يزدرون العدل بينهم وعليكم أن تتقوا الله وتلزموا أوامره في حفظ الذمم ومعرفة الحقوق لأربابها وحسن المعاملة وإحكام الألفة في المنافع الوطنية وتأكيد الروابط بينكم وبين أبناء وطنكم وجيرانكم من

أرباب الأديان المختلفة، فإن مصالحكم لا تقوم إلا بمصالحهم، كما لا تقوم مصالحهم إلا بمصالحكم، كونوا في الوطنية إخوانا تكونوا لبعضكم أعوانا وسدا منيعا في وجه من يطمع فيكم جميعا، ولا تجعلوا عصبة الدين وسيلة للعدوان وذريعة لانتهاك الحقوق فإن دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدكم عليه بأشد العقاب. هذا ولا تجعلوا عصبتكم قاصرة على مجرد ميل بعضكم لبعض، بل تضافروا بها على مباراة الأمم في القوة والمنعة والشوكة والسلطان ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الإنسانية، اجعلوا عصبتكم سبيلا لتوجيه كلمتكم واجتماع شملكم وليأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوة النقص إلى شاهق الكمال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

* * *

.. ما انتهى السيد جمال الدين من هذا المقال حتى تناول من جنبه كتابا وأخذ يقلب صفحاته، فعرفت أنه مجموعة «الرياض المصرية» التي كنت قدمتها له قبل حين فقال: يا شيخ بني مخزوم، لقد شرحت نظري في رياضك فما وقع منها إلا على ما يستحسن في بابه وأكثر ما أجدت فيه وأحسنت عنوانا ومعنى مقالتك «تحرير الأرقاء وإسارة الأحرار»فوعزة الحق، ما عدوت ما في نفسي فيما قلته بل شفيت منها غليلا إذ جلوت حقيقة طالما تخوفت على الشرقيين أن تحجب عنهم أو أن يجهلوها ويتلو تلك المقالة «محاورة بين الشرق والغرب». فإذا أسعفك الزمن وسلمت مع تلك «الخاطرات» من المخاطر وقدمت على طبعها فاضمم المقالتين إلى الكتاب ففيهما خير عبرة وذكرى.

ثم قال: أظنك وسمت المجلة باسم «الرياض» نسبة لوزير مصر «رياض باشا»؟ فقلت: نعم، إذ كان لدولته عناية خاصة بالمجلة وصاحبها. فقال: نعم الوزير الكبير رياض باشا، ونعم الوطني الغيور هو. فكم له في خدمة بلاده من مَواقف لا يشبهها في المتانة إلا الهرَمان ومن صائب الرأي وثاقب الفكر ما تنجلي به غياهب المشكلات وتحل به عقد المعضلات، منها وقوفه وحيدا بدون مناصرة أحد زملائه في وجه نوبار باشا وسياسته وهو على منصة رياسة وزراء مصر وإعماله على إحباط مساعيه

ومساعي أوليائه «الإنجليز» في الكيد لمصر وامتلاكها ومصادمته إلى اللورد دوفرين وأنظمته التي جرّت على مصر الويلات وسببت فيها تلك الاختلالات. وإني لأذكر ما قاله رياض باشا في المجلس الذي انعقد في حينه في سراي الخديوي توفيق باشا بالقاهرة، وحضره نظار الحكومة المصرية إذ ذاك ودُعي إليه شريف باشا ورياض باشا وسلطان باشا وعمر باشا ولطفى باشا وخيري باشا وثابت باشا، «إنه لا يرجى إصلاح ما دام العمل جاريا على ما وضعه اللورد دوفرين مما سماه نظاما وإنه لا ثقة له ـ أي لرياض باشا ـ بأصل من أصول ذلك النظام وليس في الإمكان إجراء ولا واحد منها ، وإن الأغلاط التي كانت منشأ للضعف والاختلال لم يرتكبها إلا دولة الإنجليز وإن ما نراه من الفوضوية وارتكاب المنكرات وكثرة التعدي والسرقات لم تكن له علة إلا السياسة الإنجليزية، فعلى إنجلترا أن تعالج هذا الداء «تسكين فتنة المهدي في السودان وإرسال عساكر مصرية مع الإنجليز أو ترك السودان» وليس ذلك علينا ولقد قلت هذا مرارا وبلغته للورد دوفرين وشريف باشا ـ ثم قال: «إني لا أفهم لفظ «برتكتورا» ـ حماية؟ ـ ولا أعلم ماذا يراد منه، ولكنى لا أرى وسطا بين أمرين: إما ضم البلاد إلى الحكومة الإنجليزية فتستلم إنجلترا إدارة أمورها وتتولى شئونها كلية كانت أم جزئية ـ، وهذا الذي أفهمه من تلك العبارات، وإما ترك البلاد لأهلها، فيأخذ بزمام السلطنة فيها رجال من أهلها وإليهم الحل والعقد في إدارتها، فانتحلوا ـ يخاطب نوبارا ـ مذهبا من المذهبين، فإن القول بوسط بينهما ضرب من الجنون»!

و ليس بعجيب أن يصدر مثل هذا الكلام من رياض باشا فهو رجل ذو حياة وطنية وشعور بما يلزم لحفظ حياته هذه وهي أشرف أنواع الحياة، فإن تكلم فإنما ينشر الكلام منه إرادة ناشئة عن فكر ثاقب يثيره قوة حيوية، وقد أجمعت الجرائد الفرنسية وهي تتبع الحوادث المصرية بالثناء على رياض باشا وأتت من وصفه على أفضل ما يوصف به رجل في أمته ومما ذكرت من صفاته: أنه أقوم أمير في الديار المصرية وأشدهم حرصا على الاستقامة، وأنه أبصر أهل بلاده بعواقب الحوادث التى ألمت بمصر وما تؤول إليه. وكان يرى من بداية تلك الحوادث أنه سيكون مصيرها إلى ما لا خير فيه للبلاد، وسكتت تلك الجرائد عما يتعلق ببقية أعضاء

المجلس وكان الأمل أن يوجد من طراز رياض باشا كثير في الأقطار المصرية يصدعون بما يصدع به خصوصا بعد ما نازلتهم الحوادث المريعة ومثّلت لهم مستقبل بلادهم في مرآة حاضرها. ولقد أدى الرجل حقا واجبا عليه. والقائم بأداء الفريضة قد يشكر إذا أهملها المكلفون بها وقد صيروها في عداد النوافل، ولكن قد أخذنا العجب في حينه ويأخذنا كلما تذكرنا من بقية أعضاء ذلك المجلس الموقر كيف أحجموا أو تلكأوا أو سكتوا وكيف وسعتهم القدرة على إمساك ألسنتهم عن التعبير بما في ضمائرهم

إنا لا نعلم أحدا منهم تجنس بالجنسية الإنجليزية وحاشا جميعهم من ذلك ولا يختلج في صدورنا أن مصريا، أو تركيا أو عراقيا، أياً كان يميل ميلا صادقا إلى تسلط الأمم الأجنبية على بلاده أو يخلص في خدمة الإنجليز ومجاراة رغائبهم إخلاصا صحيحا، خصوصا أولئك الأمراء، بل لو كشف الحجاب عن قلب كل واحد منهم لرأيناه ذائبا من الأسف مما حل في بلاده، وفانيا من الحزن على ما نزل بوطنه من تردد جيوش الأجانب بين أطرافه ومضمحلا من الكدر على ما عقبه حلول القوة الأجنبية من انقباض النفس وانقطاع الآمال وتعمم الاختلال وشمول الفقر والفاقة وبطلان حركة الأعمال، بل لو شاء القلم أن يعبر عن حالة الأمير منهم عندما يطرق آذانه أخبار التصرف الإنجليزى في إدارات حكومته وكف أيدي الموظفين من أبناء ملته عن أداء ما يجب عليه لبلادهم وبسطة أيدي أولئك الأجانب في إنفاق الأموال من ماله ومال عياله وأقاربه وأحبائه وجميع مواطنيه بدون حق شرعي ولا مصلحة وطنية أو عندما يرى غنيا أعدم وعزيزا ذل وكاسيا عري وحيا أشرف على الهلاك من ضغط المظالم، ولو نهضت قوة البيان لشرح ما يظهر على وجهه من ألوان الكمودة وفي أعضائه من أنواع الرعدة وما ينبض به قلبه وما يحدثه فكره من هواجس الهموم وخواطر الغموم لما استطاع القلم تعبيرا ولوقفت قوة البيان دون الإتيان على قليل من كثير. هذا هو الذي لا يبرأ منه أحد منهم، ولو أقام على البراءة ألف برهان كيف لا؟! وهم يعلمون أن عزتهم وسيادتهم وما بلغوا من مراتب الشرف والرفعة إنما كان بقيامهم على أعمال البلاد وأهليتهم لاستلام مهامها واستعدادهم لإدارة شئون الرعية وهم على يقين بأنه لو ساد في ديارهم أجنبي فلا

داعي يبعثه إلى حفظ ما لهم من الشرف والسيادة بل له من البواعث القوية ما يحمله على تذليلهم وإهباطهم إلى أحط المنازل؛ ليخلفهم على مثل ما كانوا عليه أو أعلى. فما الذي أمسك بألسنتهم عن الكلام؟! هل الخوف؟! فمن أى شيء يخافون؟ وما الذي يخشونه على أرواحهم أو على بلادهم إذا قالوا حقا وثبتوا عليه؟ ماذا يصنع بهم الإنجليز إذا علموا صدقهم في محبة أوطانهم واتفاق كلمتهم على الرغبة في إنقاذها؟ هل علموا من عدل الإنجليز أنهم يؤاخذون الناس على إبداء آرائهم إذا دعوا إلى المشورة! إن كان هذا فما يبتغون من الحياة! هل ظنوا أن الإنجليز إذا أحسوا باتفاق في الآراء على مصلحة من مصالح البلاد ـ وإن كانت في خروجهم من مصر ـ يستطيعون تحت أعين أوروبا وسلطان العدل أن يوصلوا ضررا إلى المتفقين وهم أمراء البلاد وأعيانها؟ إن رياض باشا وحده لم يخش من إظهار فكره فماذا كان يضر الأمراء الوطنيين لو عززوه أو كاتفوه على مثل رأيه؟ قد علم العقلاء من كل أمة أن أشباه هذه الحوادث تكون سببا في اجتماع الكلمة واتحاد الرأي على مصادمتها، وما نراه اليوم وفي كل زمن من سعادة الأمم العظيمة إنما كان منشؤه ملمَّات الشقاء التي أنستهم وتنسيهم الضغائن والأحقاد وحملتهم على ترك المنافرات الخصوصية وأخذ كل بيد أخيه لدفع ما يخشى منه على بناء الأمة أن ينصدع وأساس الملة أن ينقلع، وما سمعنا من أمة اتفقت فخابت ولا ملة افترقت فنجحت؟

ألا فليعلم الأمراء أن أوروبا واقفة بالمرصاد لإنجلترا تترقب لها الزلل وتتمنى لها الغلط وأن جميع الأسماع في الممالك الأوروبية مصغية لكلمة يتفق عليها وجهاء المصريين ـ وهى: إننا قادرون على إصلاح شئوننا ولانريد قوة أجنبية تحل في ديارنا، امتدت أعناق السياسيين في أوروبا وانحنت إلى المصريين ليسمعوا منهم كلمة حتى كلَّت رقابهم والتوت أعصابها والمصريون يشحُّون بها عليهم، ماذا يخشى المصريون وأمراؤهم من قول الحق؟ إن الأمم اليوم لا تطلب منها إشهار السلاح ولا بذل الأرواح ولكن تطلب منهم قولا صريحا ولا يجلب إليهم ضررا ولا يقرب منهم خطرا! . . . لا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

...هذا ما أعاد ذكره السيد جمال الدين وهى من الحوادث التي ترجع في تاريخها إلى سنة ١٨٨٤ .

وكان لجمال الدين نظرية بلغت به درجة اليقين أنه ما دام الشرق شرقا وأهله على ما هم عليه من الجمود والخمول والجهل وتفرق الكلمة وترك العمل بحكمة الدين وما دام الغرب غربا وأهله في تلك القوة من العلم وضيق المحيط والتشبع من المطامع، فالحوادث والكوارث تتكرر متشابهة لا تختلف في النتائج وإن اختلفت فإنما الاختلاف يكون في الأمكنة والأزمنة وأسماء الأشخاص، وكان لجمال الدين عناية خاصة في مصر وحوادثها يهتم لأقل حادث يحدث فيها وينظر إلى أصغر رزيئة ترزأ فيها مصر بعين الإعظام ويعتقد أن ما أصاب باب الحرمين«مصر» أو يصيبها سوف يجرأ الأجانب على تطبيقه في غيرها من الأقاليم الإسلامية الشرقية .

سمت بجمال الدين الهمة ـ كما ذكرنا من قبل ـ فشخص إلى مدينة باريس موئل الأحرار من الأمم واستلحق به صديقه الأستاذ الشيخ محمد عبده وأخذ يرقب دسائس الإنجليز ومكايدها لمصر خصوصا وللشرقيين عموما فيكشف الأستار عن خفي المقاصد ويحذر ببليغ القول وساطع البرهان من الوقوع في المصائد البريطانية وصنائعهم، مثل نوبار باشا الأرمني، فكانت لا تفوته حركة عداء ولو خفت إلا ويقف في وجهها ويهتك سرها، من ذلك لما بلغه تعطيل نوبار باشا لجريدة الأهرام عام ١٨٨٤ وهو من الأمور المألوفة في حكومات الشرق الساقطة تحت إشراف الغربيين وأخصهم الإنجليز، ولكن جمال الدين لم ينظر للأمر بنظر الاستخفاف بل سفَّه رأي نوبار باشا وأفرد لذلك مقالا تحت عنوان«جريدة الأهرام» و(أشار بنقله) قال: اشتد عليها غضب نوبار باشا فأصدر أمره بتعطيلها شهراً وقفل مطبعتها. قيل في السبب أنه نشر رسائل مدير الجريدة وهو في لوندرا على ما فيها من بيان بعض مساوئ السياسة الإنجليزية على خلاف رغبة الباشا، وقيل إن السبب نشر الشكر الذي قدم إلى المدير والمحرر من أعيان البلاد، دلالة على استحسان مشرب الجريدة ـ وهو استقباح سياسة الإنجليز ـ ولكن كتب إلينا من مصدر خاص أن هذه المسائل العمومية لا تهم نوبار باشا إلا إذا مست مصلحته الخاصة، فالسبب الحقيقي هو أن المنهج المستقيم الذي سلكته الأهرام دعا إلى ذكر بعض الرجال الوطنيين مثل رياض

باشا وشريف باشا مع وصفهما بالوطنية وعلو الهمة وكمال الغيرة، نوبار باشا ساع إلى أمر مهم وهو ما ذكرناه ونشرته بعدنا جريدة الدبا وسائر الجرائد الإنجليزية . . . أن يكون ولي القاصر «عباس» بعد خلع أبيه، فينال بسطة في السلطة وإطلاقا في الأمر والنهي وعلم أن هذا وقت الفرصة لحرص الحكومة الإنجليزية على تملك مصر، وهي محتاجة في ذلك إلى كل من ليس له وطن ولا دين ولا جنس في مصر فهي إذا في أشد الحاجة لنوبار باشا وتوفيق باشا، قبة جوفاء لا يرجع منها إلا صدى الأصوات، إن قلت لا، فلا! أو قلت نعم، فنعم! ـ فهو في غضبه ورضاه تابع لما يلقى إليه، فعلم نوبار باشا أن خديويا مثل هذا يمكن أن يكون واسطة في تمكين الإنجليز من مصر من حيث لا يشعر، وبتقديم هذه الخدمة لهم، يبني لنفسه من العزة قصرا شاهقا! فكيف يطيب لنوبار مع هذا السعي أن يسمع ذكر رياض باشا وشريف باشا مع وصفي الوطنية وعلو الهمة؟ يخاف أن الإكثار من ذكر هؤلاء الرجال ربما يحرك الخواطر الوطنية فيندفع منها سيل يهدم كل ما يبنيه. إن صاحب الأهرام أكثر من ذكر الوطن والوطنيين ـ ونوبار باشا أبعد الناس عنهما لهذا أغضبه ذكرها ـ كلما ذكر لفظ الوطن أو الملة أو الجنس أو الأمة سواء كان في مقال عام أو في جانب شخص خاص، حسب نوبار باشا أن في الكلام تهكما به واستهزاءً ولا عجب من نوبار[1] أن ظن ما ظن أو فعل ما فعل، فالرجل ليس بمصري ولا عربي ولا مسلم، فبأى ثمن بخس باع به مصر! فهو الرابح إذ لا يخسر ملة ولا وطنا ولا جنسا كما سبق وذكرنا.

قيل إن نوبار يطلب إبعاد الزبير باشا من مصر، فإن نال مطلبه لم يبعد أن يطلب لشريف باشا ورياض باشا وكل ذي شهامة أو فكر في مصر، .مثل ما طلب للزبير، وتكون «الحكومة النوبارية»حكومة هندية! ـ وهل يبعد مثل هذا على نوبار؟ ـ إن الذي يؤيد ما روي لنا في سبب قفل الأهرام هو أن نوبار باشا ما تحرك لحجز العروة الوثقى عن دخول مصر، إلا عندما ذكر الإسلام والمسلمين! فيها! فذلك ينذرنا بقفل الأزهر بأمر نوبار باشا!

---

(١) تكرر ورود هذه العبارة ـ وأمثالها ـ وذكرنا ذلك في حينه لجمال الدين فأشار بلزوم إثباتها ولو تكررت ويعتبرها من التكرار المفيد وأنها بالأذهان أعلق وللأخلاف أنفع .

إني أتعجب، وكل ذي إحساس يتعجب من سكان الديار المصرية من المصريين والأتراك والحجازيين واليمانيين، ألا يوجد بين هؤلاء فتى يشمر عن ساعده ويتقدم بصدره ويخطو خطوة إلى هذا الوزير الأرمني، فيبطل هذا الصفقة وينقض هذه البيعة ويكشف له وللمغرورين من أمثاله حقيقة الوطنية ويرفع الحجاب عن واجبات الملية؟! لا حول ولا قوة إلا بالله.

إن المولعين بحب الحياة يقضونها في الذل من خوف الذل ويعيشون من خوف العبودية في العبودية، ويجرعون مرارات سكرات الموت في كل لحظة خوفا من الموت! فلا الدين يسوقهم إلى مرضاة الله ولا الحمية الوطنية تدفعهم إلى ما به فخار بني الإنسان.

* * *

مصـــر

باب الحرمين الشريفين

قال : خفيت مذاهب الطامعين أزمانا ثم ظهرت وبدأت على طرق ربما لا تنكرها الأنفس ثم التوت . أوغل الأقوياء من الأمم في سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر وسحروا ألبابهم حتى أذهلوهم عن أنفسهم، وخرجوا بهم عن محيط النظر وبلغوا بهم من الضيم حدا لا تحتمله النفوس البشرية .

ذهب أقوام إلى ما يسوله الوهم ويغري به شيطان الخيال، فظنوا أن القوة الآلية وإن قل عمالها، يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وإن اتفقت آحادها، بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير في النزر اليسير! وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان، فإن تقلبات الحوادث في الأزمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه إن جاز أن عشيرة قليلة العدد فنيت في سواد أمة عظيمة ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها فلم يجز في زمن من الأزمان إمحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها في العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة وإن بلغت القوة أقصى ما يتصوره الخيال!

و الذي يحكم به العقل السليم ويشهد به سير الاجتماع الإنساني، من يوم علم تاريخه إلى اليوم، أن الأمم الكبيرة إذا عراها ضعف لافتراق في الكلمة أو غفلة عن عاقبة لا تحمد أو ركون إلى راحة لا تدوم أو افتتان بنعيم يزول، ثم صالت عليها قوة أجنبية أزعجتها ونبهتها بعض التنبيه، فإذا توالت عليها وخزات الحوادث وأقلقتها آلامها، فزعت إلى استبقاء الموجود ورد المفقود ولم تجد بدا من طلب النجاة من أي سبيل، وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية وهي ما تكون بالتئام أفرادها والتحام آحادها، وإن الإلهام الإلهي والإحساس الفطري والتعليم الشرعي، كل ذلك يرشدها إلى أن لا حاجة لها إلى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شيء عليها .

إن النفوس الإنسانية وإن بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت إذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم إلا إلى حد يدخل تحت الطاقة، ويسعه الإمكان، فإذا تجاوز الاستطاعة، كرت النفوس إلى قواها واستأسد ذئبها وتنمر ثعلبها والتمست خلاصها ولن تعدم عند الطلب رشادا.

ربما تخطئ مرة فتكون عليها الدائرة، لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط والاحتراس من الوقوع في مثله فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة. وإن الحركة التى تنبعث لدفع ما لا يطاق إذا قام بتدبيرها قيِّم عليها ومدبر لسيرها، لا يكفي في توقيف سريانها أو محو آثارها قهر ذلك القيِّم وإهلاك ذلك المدبر، فإن العلة مادامت موجودة لا تزال آثارها تصدر عنها فإن ذهب قيِّم خلفه آخر أوسع منه خبرة وأنفذ بصيرة وأمضى عزما.

نعم يمكن تخفيف الأثر، أو إزالته بإزالة علته ورفع أسبابه.

جرت عادة الأمم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها في الأخلاق والعادات والمشارب، وإن لم يكلفها بزائد عما كانت تؤديه لمن هو على شاكلتها، فكيف بها إذا حملها ما لا طاقة لها به؟ لا ريب أنها تستنكره وتستكبره وكلما أنكرته بعدت عن الميل إليه وكلما تباعدت منه لكونه غريبا تقرب بعضها من بعض، فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة، وما كان ذلك بغريب!

إن مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسي الأمم ما بينها من الاختلاف في الجنسية والمشرب فترى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر ألزم من التحزب للجنس والمذهب، وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية إلى الاتفاق أشد من دعوتها إليه للاشتراك في طلب المنفعة.

أبعد هذا يأخذنا العجب إذا أحسسنا بحركة فكرية في أغلب أنحاء الشرق في هذه الأيام؟[1] ولسوف تقوى تلك الحركة ويتسع نطاقها كلما تمادى الطامع واستطال بقوته على هضم حقوق الشرقيين في عقر دارهم وضيّق عليهم، فيطلب كل واحد خلاصا، ويبغى نجاة وينتحل لذلك من الوسائل والأسباب ما يصل إليه

(١) هذا المقال لجمال الدين ردده في الأستانة سنة ١٣١١هـ وسنة ١٨٩٤م، وكان سبق وقاله في باريس سنة ١٣٠١هـ سنة ١٨٨٤م.

فكره على درجته من الجودة والسقم، وإن العقلاء في كثير من أصقاعه يتفكرون في جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل.

بلى كان هذا الأمر ينتظره المستبصرون وإن عمي عنه الطامع وليس في الإمكان إقناع الطامعين بالبرهان ولكن ما يأتي به الزمان على عاداته في أبنائه، بل ما يجري به القضاء الإلهي من سنة الله في خلقه، سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون.

بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته ووصل العدوان فيهم نهايته وأدرك المتغلب منهم نكايته خصوصا في المسلمين منهم فمنهم ملوك أنزلوا عن عروشهم جورا وذوو حقوق في الإمرة حرموا حقوقهم ظلما، وأغنياء أمسوا فقراء... إلخ.. حتى لم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مسها الضر من إفراط الطامعين في أطماعهم، ها هي الحوادث التي بذرت بذورها في الأراضي المصرية بأيدى ذوى المطامع فيها، حملوا إلى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولها وشدوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها وألزموها ما ليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها وخفضوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة، ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع، فكانت الحركة العرابية العشواء فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين فاندفع بهم سيل المصاعب بل طوفان المصائب على تلك البلاد وظنوا بلوغ الإرب ولكن أخطأ الظن وهمُّوا بما لم ينالوا.

لم تكد تخمد تلك الحركة في بادئ النظر حتى خلفها حركة أخرى وفتح باب كان مسدودا وقام قائم بدعوة لها المكانة الأولى في نفوس المسلمين ـ دعوة المهدية ـ والمهدي فإن خمدت هذه ـ وستخمد ـ ستعقبها من الحركات في مستقبل الأيام ما لا يمكن إخمادها وتعميمهم الحيرة فيعجزون عن تلافيها! نعم إنهم غرسوا في مصر غرسا إلا أنهم سيجنون منه حنظلا ويطعمون منه زقوما، لا جرم هذه هي العواقب التي لا محيص عنها لمن يغالي في طمعه ويغلغل في حرصه، ولو أنهم تركوا البلاد لأهلها وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء والقادرين عليه، العارفين بطرق مدافعته به أو اقتناء فائدته لحفظوا بذلك مصالحهم ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة بدون أن تزلَّ بهم القدم.

غير أنهم ركبوا الشطط وغرهم ما وجدوا من تفرق الكلمة وتشتت الأهواء وهو أنفذ عواملهم وأقتلها وما علموا أنه وإن كان ذريع الفتك إلا أنه سريع العطب وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحدة يسدد لقلوب المعتدين، فإن بلاء الجور إذا حل بشطر من الأمة وعوفى منه باقيها كانت سلامة البعض تعزية للمصابين وحجاب غفلة للمسالمين يحول بينهم وبين الإحساس بما أصاب إخوانهم أما إذا عم الضرر فلا محالة يحيط بهم الضجر ويعز عليهم الصبر، فيندفعون إلى ما فيه خيرهم ولا خير فيه لغيرهم.

إن الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموما، إن مصر تعتبر عندهم من الأراضي المقدسة ولها في قلوبهم منزلة لا يحلها سواها، نظرا لموقعها من الممالك الإسلامية ولأنها باب الحرمين الشريفين، فإن كان هذا الباب أمينا، كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع وإلا اضطربت أفكارهم وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الإسلامية. إن الخطر الذي ألمَّ بمصر نغرت له أجشاء المسلمين وتكلمت به قلوبهم ولن تزال آلامه تستفزهم ما دام الجرح نغارا. وما هذا بغريب على المسلمين فإن رابطتهم الملية مع رابطة اللسان، أقوى من روابط الجنسية، وما دام القرآن يتلى بينهم ويعمل بأحكامه وفي آياته ما لا يذهب على إفهام قارئيه فلن يستطيع الدهر أن يذلّهم. إن الفجيعة بمصر، حركت أشجانا كانت كامنة و جددت أحزانا لم تكن في الحسبان وسرى الألم في أرواح المسلمين سريان الاعتقاد في مداركهم وهم من تذكار الماضي ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء، ولا نأمن أن يصير التنفس زفيرا ـ بل نفيرا عاما ـ بل يكون صرخة تمزق مسامع من أصمَّه الطمع.

إن أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب، جيل من الناس ـ الإنجليز ـ لاكتائب له في فتوحاته إلا المداهاة ولا فيالق يسوقها للاستملاك سوى المحاباة ولا أسنة يحفظ بها ما تمتد إليه يده إلا المراضاة، يظهر بصور مختلفة الألوان متقاربة الأشكال. كحافظ عروش الملوك! والمدافع عن ممالكهم! ومثبت مراكز الأمراء! ومسكن الفتن! ومخلص الحكومات من غوائل العصيان! وواقي مصالح المغلوبين ومؤمن حقوق الغربيين! وحامي الأقليات . . . إلخ ـ مما سبق ذكره ـ فكان أول ما

يجب عليه ملاحظته في سيره هذا أن لا يأتي من أعماله بما يهتك هذا الستر الرقيق الذي يكفي لتمزيقه رجع البصر وكسر النظر وأن يتحاشى العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها إذا حنقت خنقت، وليس له أن يغتر بعدم مكنتهم وهو يعلم أن الكلمة إذا اتحدت لا تعوزها الوسائط ولا يعدم المتحدون قويا شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته، وأن المغيظ لا يبالي في الإيقاع بمناوئه أسلم أو عطب، فهو يضر ليضر وإن مسه الضر.

إلا أن غشية النهم ذهبت بعقول المنهومين ووقرت أسماعهم عن حسيس الهمسات المتراسلة من الهند إلى مكة ومن مكة إلى مصر والكرير الممتد من الأقاليم والممالك الإسلامية في الشرق وكلها تتلاقى بين تراقي المغرورين بقوتهم المسترسلين في جفوتهم.

إن الرزايا التي حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها، فأيقظت أفكار العقلاء وحولّت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل التى أدت بهم إلى ما هم فيه، فتقاربوا في النظر وتواصلوا في طلب الحق وعمدوا إلى معالجة علل الضعف راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسنًا يسلكونه بوقاية الدين والشرف، وإن في الحاضر لنهزة تغتنم وإليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم، ولئن فاتت فكم في الغيب من مثلها وإلى الله عاقبة الأمور.

* * *

. . . أتى جمال الدين على بيان منهج « العروة الوثقى» وأعاد ذكره لي عندما عزمت على اصدار جريدة «البيان» [1] في الأستانة عام (١٣١١ هـ١٨٩٣ م) وما

---

(١) صدرت لنا الإرادة السنية إذ ذاك بإصدار جريدة عربية في الأستانة فأصدرناها باسم «البيان» وما كادت تنتشر وتصل إلى بعض أنحاء الشرق مثل الهند وتونس ومراكش والعراق وسوريا وغيرها حتى انهال طلب الاشتراك فيها من كل صوب وناحية، مما أدهش المرحوم السلطان عبد الحميد وزاد في هواجسه، وإذا بالإرادة السنية السلطانية تصدر بتعطيل الجريدة لأجل غير مسمى! وقد علمنا أهم أسباب التعطيل وهي: =

أحراه أن يكون دستوراً لكل جريدة شرقية حيث قال : ستأتي في خدمة الشرقيين على ما في الإمكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراس من غوائل ما هو آت .

ويستتبع ذلك البحث في أصول السباب ومناشئ العلل التى ذهبت بهم إلى جانب التفريط والبواعث التي دفعت بهم إلى مهام وعرة عميت فيها السبل واشتبهت بها المضارب وتاه فيها الخِرِّيت وضل المرشد حتى لا يدرى السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة والمزعجات المدهشة والمدهشات القاتلة ! وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التي شغلت أوهام المترفين ولبست عليهم مسالك الرشد وتزيح الوساوس التي أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم وشفاء أدوائهم وظنوا أن زمان التدارك قد فات وأن الغباية بلغت حدها .

وتحاول إشراب الأفهام أن لا حاجة في الوصول إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة ، تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم . وإن تخيل تلك الدائرة الواسعة إنما عرض من الإدبار عن المطلوب وهو تحت الجناح وأمام البصر ويكفي في الوصول إليه عطفة نظر وقطع بعض خطوات قصيرة .

وإن الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم وهي ما تمسكت به أعز دولة أوروبية وأمنعها ولا ضرورة في إيجاد المنعة إلى اجتماع كل الوسائط وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى ولا مرغم للشرقي أن يقف في بدايته

= إن أكبر الجواسيس مع أعوان له أخذوا يحللون كل كلمة وردت في الجريدة فعثروا على هذه الجملة : «من نوايانا الخدمة العامة والإخلاص . . . إلخ . والنية سابقة العمل» . فدسوا على ما قيل لنا لأحد المرتبين في المطبعة أن يضع عوض كلمة «العمل» اليمن» فجاءت العبارة : «والنية سابقة اليمن» واستخلصوا من ذلك وأفهموا السلطان أننا بهذه الجريدة سنسعى أولاً لتحرير اليمن واستقلالها! ثم نسعى لاستقلال البلاد العربية إلى آخر ما هنالك من الترهات! وقد أثرت تلك الوشاية وتعطلت الجريدة فتأمل! .

موقف الأوروبي في نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلك وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرًا أعجزها وأعوزها.

وتنبه على أن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية، فإن فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوي لابتلاع الضعيف. وتجعل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة المدبج بأشكال المجاملة - شفافًا - ينم عما وراءه! وتنقب عن المسالك الدقيقة التي يسري بها الطامعون في دياجر الغفلات.

وتهتم بدفع ما يرمي به الشرقيون عمومًا والمسلمون خصوصًا من التهم الباطلة التي يوجهها إليهم من لا خبرة لهم بحالهم ولا وقوف على حقائق أمورهم وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدنية ما داموا على أصولهم، التى فاز بها آباؤهم الأولون! ولا تتوانى فى تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية وما يتداوله السياسيون في شئونهم مع اختيار الصادق وانتقاء الثابت.

و تراعي في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة في أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها والتنبيه إلى السياسات التى تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين!

* * *

التعصب الجنسي والتعصب الديني

قال: إن استقراء حال الأفراد من كل أمة واستطلاع أهوائها يثبت لجلي النظر ودقيقه وجود تعصب للجنس(١) ونعرة عليه عند الأغلب منهم، وأن المتعصب ليتيه بمفاخرة بنيه ويغضب لما يمسهم حتى يقتل دون دفعه بدون تنبه منه لطلب السبب ولا بحث في علة هذا الوجدان حتى ظن كثيرون من طلاب الحقيقة أن التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية، إلا أنه يبطل ظنهم ما نراه في حال طفل ولد في أمة من الأمم ثم نقل قبل التمييز إلى أرض أمة أخرى وربي فيها إلى أن عقل، ولم يذكر له مولده فإنا لا نرى في طبعه ميلا إليه بل يكون خالي الذهن من قبله ويكون مع سائر الأقطار سواء، بل ربما كان آلف لمرباه وأميل إليه، والطبيعي لا يتغير.

و لهذا لا نذهب إلى أنه طبيعي ولكن قد يكون من الملكات العارضة على الأنفس ترسمها على ألواحها الضرورات، فإن الإنسان في أي أرض كان، له حاجات جمة وفي أفراده ميل إلى الاختصاص والاستئثار بالمنفعة إذا لم يصبغوا بتربية زكية . وسعة المطمع إذا صحبها اقتدار تدعو بطبعها إلى العدوان فلهذا صار بعض الناس عرضة لاعتداء البعض الآخر، فاضطروا بعد منازلة الشرور أحقابا طوالا إلى الاعتصاب بلحمة النسب على درجات متفاوتة حتى وصلوا إلى الأجناس فتوزعوا أمما كالهندي والإنجليزي والروسي والتركماني ونحو ذلك، ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحمة قادرا على صيانة منافعه وحفظ حقوقه من تعدي قبيل الآخر، ثم تجاوزوا في ذلك حد الضرورة كما هي عادة الإنسان في

---

(١) أي تعصب للقوم أو العرق!

أطواره، فذهبوا إلى حد أن أنف كل قبيل من سلطة الآخر عليه علما بأنه لا بد أن يكون جائرا إذا حكم ولئن عدل فإن في قبول حكمه ذلا، تحس به النفوس وينفعل له القلب.

فلو زالت الضرورة لهذا النوع من العصبية، تبع هو الضرورة في الزوال كما تبعها في الحدوث بلا ريب وتلجئ الضرورة للاعتماد على حاكم تتصاغر لديه القوى وتتضاءل لعظمته العظماء وتخضع لسلطته النفوس بالطبع وتكون بالنسبة إليه متساوية الأقدام، وهو مبدأ الكل وقهار السموات والأرض، ثم يكون القائم من قبله بتنفيذ أحكامه مساهما ومشاركا للكافة في الاستكانة والرضوخ لأحكام أحكم الحاكمين، فإذا أذعنت الأنفس بوجود الحاكم الأعلى وأيقنت بمشاركة القائم على أحكامه لعامتهم في الرضوخ لما أمر به، اطمأنت الأنفس في حفظ الحق ودفع الشر إلى صاحب هذه السلطة المقدسة واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة إليها، فيمحي أثرها من النفوس والحكم لله العلي الكبير.

هذا هو السر في إعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ورفضهم أي نوع من أنواع العصبيات ما عدا عصبتهم الإسلامية فإن المتدين بالدين الإسلامي متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عن جنسه وشعبه ويلتفت ويعرض عن الرابطة الخاصة إلى العلاقة العامة وهي علاقة المعتقد؛ لأن الدين الإسلامي لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق إلى الحق فقط وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى إلى عالم أعلى، بل كما كانت كافلة لهذا، جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد وبيان الحقوق كليها وجزئيها وتحديد السلطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات وإقامة الحدود وتعيين شروطها حتى لا يكون القابض على زمامها إلا من أشد الناس خضوعا لها ولن ينالها بوراثة ولا امتياز في جنس أو قبيلة أو قوة بدنية أو ثروة مالية وإنما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ورضاء الأمة. فيكون الوازع عند المسلمين في الحقيقة شريعتهم المقدسة الإلهية التى لا تميز بين جنس وجنس واجتماع آراء الأمة وليس للوازع أدنى امتياز عنهم إلا لكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفع عنها. وكل فخار تكسبه الأنساب وكل امتياز تفيده الأحساب لم يجعل له الشارع أثرا في وقاية

الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض، بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة، فهي ممقوتة على لسان الشارع والمعتمد عليها مذموم والمتعصب لها ملوم فقد قال صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية». والأحاديث النبوية والآيات المنزلة متضافرة على هذا، ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة في التقوى ـ اتباع الشريعة ـ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات: ١٣].

و من ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الأزمان على اختلاف الأجيال من لا شرف له في جنسه ولا امتياز له في قبيله ولا ورث الملك عن آبائه ولا طلبه بشيء من حسبه ونسبه وما رفعه إلى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه.

وإن بسطة الملك في الوازعين من المسلمين كان الله يسديها إليهم على حسب امتثالهم للأحكام الإلهية واهتدائهم بهديها وتجردهم عن الاعتلاء الشخصي وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق غيره في أبهة ورفاهية معيشة وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد رجعت الأجناس إلى تعصبها ووقع الاختلاف وانقبضت سلطة ذلك الوازع.

هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن، لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبات الأجناس وإنما ينظرون إلى جامعة الدين؛ لهذا ترى العربي لا ينفر من سلطة التركي والفارسي يقبل سيادة العربي والهندي يذعن لرئاسة الأفغاني ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض. وإن المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل ما دام صاحب الحكم حافظا لشأن الشريعة ذاهبا مذهبها. نعم إذا شذ أو حاد في سيره عنها وطلب الإمرة بما ليس من حقه، انصدعت منه القلوب وانحرفت عن محبته الأنفس وأصبح ـ وإن كان وطنيا فيهم ـ أشنع حالا من الأجنبى عنهم.

إن المسلمين اختصوا من بين أرباب الأديان بالتأثر والأسف عندما يسمعون بانفصال بقعة إسلامية عن حكم إسلامى بدون التفات إلى جنسها وقبيلها.

و لو أن حاكما صغيرا بين قوم مسلمين من أي جنس كان أتبع الأوامر الإلهية وثابر على رعايتها وأخذ الناس بحدودها وضرب بهم مع المحكومين في الخضوع لها وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة، لأمكنه أن يحوز بسطة في الملك وعظمة في السلطان وأن ينال الغاية من رفعة الشأن في الأقطار المعمورة بأرباب هذا الدين ولا يتجشم في ذلك أتعابا ولا يحتاج إلى بذل النفقات ولا تكثير الجيوش ولا مظاهرة الدول العظيمة ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية!! ويستغنى عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع إلى الأصول الأولى من الديانة الإسلامية القويمة ومن سيره هذا تبعث القوة وتتجدد لوازم المنعة.

أكرر القول بأن السبب هو أن الدين الإسلامى لم تكن وجهته كوجهة سائر الأديان إلى الآخرة فقط ولكن مع ذلك أتى بما فيه مصلحة العباد في دنياهم وما يكسبهم السعادة في الدنيا والنعيم في الآخرة وهو المعبر عنه في الاصطلاح الشرعي بـ«سعادة الدارين»، وجاء بالمساواة في أحكامه بين الأجناس المتباينة والأمم المختلفة.

إن بعض المسلمين يعز عليهم الصبر أحيانا ويضيق منهم الصدر لجور حكامهم وخروجهم في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية، فيلجئون للدخول تحت سلطة أجنبية ويسعون إليها منوِّمين مغرورين، على أن الندم يأخذ بأرواحهم عند أول خطوة يخطونها في هذا الطريق. فمثلهم كمثل من يريد الفتك بنفسه، حتى إذا أحس بالألم رجع واسترجع. وإن ما يعرض على الممالك الإسلامية من الانقسام والتفريق إنما يكون منشؤه قصور الوازعين وحيدتهم عن الأصول القويمة التي بنيت عليها الديانة الإسلامية وانحرافهم عن مناهج أسلافهم الأقدمين فإن منابذة الأصول الثابتة والتحول عن المناهج المألوفة أشد ما يكون ضررهما بالسلطة العليا، فإذا رجع الوازعون في الإسلام إلى قواعد شرعهم وساروا سيرة الأولين السابقين لم يمض قليل من الزمان إلا وقد أتاهم الله بسطة في الملك، ألحقهم في العزة بالراشدين، أئمة الدين.

كلمات قصار وأمثال حكيمة [١]

كان يمين جمال الدين إذا شاء أن يُقْسِمَ قوله: وعزة الحق وسر العدل.

وأما أقواله:

الحقائق لا تزول بالأوهام.

الجبن لا يغني والشجاعة لا تفقر.

من دواعي الذل المسكنة والسؤدد مع عزة النفس.

الأمة أرضها الأمل وبنيانها العمل.

ساقط الهمة من عَلِمَ موقع الفضيلة وصدق الدعوة ولم يبادر إليهما، بل ينتظر أن يكون تابعا ومقلدا لغيره فيهما.

كثرة النصراء لداع أو لدعوة عن غير علم منهم بصحة الدعوة قلة ومذلة، وقليل من النصراء لدعوة عن علم مكانة واستطالة.

من سفه الرأي أن يعتقد الرجل أفضليته على الغير بالعمر والمشيب فقط.

ربما أفادت السنون تجاربا.

الأقدمية لا تجدي الأفضلية غالبا.

الفخر بالقول المجرد يبطله المجد بالفعل.

أثقل الأعباء محاولة الحسود ستر فضل المحسود.

---

(١) لكل جملة أو مثل سبب دعى إليه في حينه ولو عمدنا إلى ذكر الأسباب لتضخم الكتاب جدًا، لذلك أرسلنا أكثرها مجردة عن أسبابها.

أتم شيء على الإنسان فضيلته ورذيلته.

من توهم الكمال تخونه الأعمال.

العاقل من اعتقد بعجزه ثم سعى للعمل.

الاعتماد على النفس والتوكل من أقوى عوامل الظفر.

ليس في الإنسان عضو يتحرك لغير قصد وغاية، فكل حركة يفعلها الإنسان لا يعلم غايتها تحكم عليه بالجهل.

قضايا الجهل في الإنسان أكثر من قضايا علمه.

وعمر الإنسان أقصر من أن يناله ما يحب أن يعلمه.

النظام ما انتظم به شمل عالم متفرق يصرفه لوجهة نافعة.

لو لم يتنازع الخلق على الحق لما كان ثمة باطل.

القوة صنم مرهوب، والضعف شبح مربوب.

لا يؤمن مربوبية القوة إلا شبح الضعف.

أحقر الناس من يطلب موت الناس ليحيا، وأعظمهم من يستميت ليحيي ولو واحدا من الناس.

عظمة الملك لا تكون بالتيجان ووقار العلم لا يكون بالطيلسان.

التسفل أيسر من الترفع.

ميسور للإنسان فعل الأسود وممتنع على الأسود عمل الإنسان.

الذل وصحيح العلم ضدان لا يجتمعان.

الأكفاء في العصر لا يكونون على الغالب أصدقاء.

الفقر عدو الفضيلة والثراء نصير الرذيلة.

لا خير في حق لا تدعمه قوة.

وبئس الباطل المنصور.

تطويل المقدمات دليل على سقم النتائج .

حقيقة الأنفة وعزة النفس عدم الاتكال على الناس .

الحجر خير من بشر يقعد لغير علة ويحتاج بشرا مثله .

من رهب الملوك لغير جريرة فهو الصعلوك .

لا تطيب نفس الإنسان بالتواضع إلا إذا علم بعض العلم .

علماء العصر يظهرهم العصر وقادة الأفكار تبرزهم الأخطار .

الإفراط في التواضع دليل على الإدعاء .

قلة الكلام لا تكون في الغالب دليلا على الكمال .

ليس في كل اختصار بلاغ .

صاحب الحق قوي ولو كان ضعيفا والمبطل ضعيف ولو كان قويا .

صاحب القلم لا يحتاج إلى عصا .

الصامت عن حقه محروم .

من فتح له الباب ولم يدخل أولى بالطرد .

صاحب الحاجة إذا لم ينطق بحاجته أولى بالخرس .

قلما يأتي الحق بدون عناء .

لذة استرداد الحق لا تضارعها الهيبة والتهيب .

الإنسان من وقر نفسه وعرف حق غيره من جنسه .

لا خير في إنسان يفضله الحيوان .

بعض الخلق يرضون بالموت خوف الموت ويلبسون لباس الذل خوف الذل .

الأمة بأفرادها والشمم بالتجرد عن النفع الذاتي وطلبه في النفع العام .

ما مات أحد في حب أمة إلا وأحيته .

من أحب الحياة فليمت في سبيل حياة أمته .

لا أمة بدون أخلاق ولا أخلاق بغير عقيدة ولا عقيدة بغير فهم .

خير موازين الأمم أخلاقها .

سؤدد الأمة معقود بقادتها .

خير الأخلاق إنكار الذات .

أعظم دلائل الإنكار على الذات الأعمال .

ألف قول لا يساوي في الميزان عملا واحدا .

طلاب الحكمة كثيرون ولكن ما أقل العاملين .

تقل العلماء متى كثر المتطفلون والمدعون .

أعظم دليل على كبر الهمة مجاهرة المرء بمخالفته المألوف إذا تحقق بطلانه .

العلماء والعقلاء لا يصح أن يكونوا أكثرية في محيطهم .

حكيمان عاقلان في أمة مجموعها مليون خير من ألف متعاقل ومدعي حكمة فيها .

ما استحكم الجهل إلا وتفرقت الكلمة ولا كثر الإدعاء المجرد بالصلاح والإصلاح إلا وعم الفساد وشمل .

وضيع الحسب يستطيل بالقليل من المال على غيره .

الأصل عون والعرق جساس .

العلم الصحيح نسب صحيح بل وراثة لنبوة .

الراحة بالرضى والنصب بالطموح .

إسراف الإنسان بصحته أضر من إسرافه بثروته .

إذا لم تساو الطبيعة بين الرجل والمرأة بالتكوين فعبثا نحاول مساواتهم بالأقاويل .

قوة المرأة بضعفها .

وباء الغرض أفتك من وباء المرض.

خير ما يحتاجه الشرق من الملوك ـ القوي العادل ـ ولا خير في العادل الضعيف كما أنه لا خير في القوي الظالم.

شر أدواء الشرقيين اختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف، فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا.

الاستقلال أمل يتبعه عمل وحمل النفس على المكاره واقتحام المهالك والمصاعب.

خير لون لراية الاستقلال دماء المجاهدين الأبطال.

ترك ما كان سببا للصعود يؤدي إلى الهبوط والسقوط.

إذا سادت الجهال ساءت الأحوال.

إذا خلا الميدان من العقلاء تسابقت الجهلاء.

العالم الفقير غني بعلمه والغني الجاهل فقير بجهله.

الأسد لا يعدم فريسة حيثما ذهب.

تبلغ المرأة بضعفها ما لا يبلغه الرجل بقوته.

الحرية تؤخذ ولا تعطى.

والاستقلال لا ينال بالأقوال.

طالب الموت في سبيل حياة الوطن، إما أن يموت بطلا شهيدا وإما أن يعيش سيداً عزيزاً.

من اعتقد أن لا حياة إلا هذه الفانية فقد خسر الأولى والثانية.

إذا كانت حاجة الكون للرجل مرة فحاجته إلى المرأة كرة.

عمل واحد تختص وتقوم به النساء تعجز عنه رجال الغبراء.

التكلف للسجع ينفر منه الطبع ويحسن وقعه إذا جاء عفوا.

أشد وطأة على الإنسان من غربة اليد والوجه واللسان أن يصبح كحرف الحاء والدهر إفرنجي.

عدم التشاكل من أعقد المشاكل.

لا يتم عمل والتآلف مفقود.

ولا يكون فشل والاتحاد موجود.

يئس الإنسان من أن يجد له صديقا في الحياة كيئس الغريق من النجاة.

من ثابر وكابر على تجربة الضار أولى أن يتخذ عبرة.

بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة.

الأزمة تلد الهمة.

انهزام العاقل من أمام الجهلاء أولى من الظفر بهم.

بائع الدر وبائع الفحم يتساويان بالاسم ويختلفان بقدر المباع.

الجاهل الحي ميت، والعالم الميت حي.

كيف لا يفضل أضعف حيوان ناهق يذكر الله، إنسانًا ناطقا، ينكر وجود الله[1].

كيف يجرؤ على إنكار المعبود واجب الوجود من يأكله الدود.

إذا لم يتعظ الإنسان بما فوقه من أجرام فليتعظ بما تحته من رفاة الأجسام.

عدّ الناس معطي الذهب وهو من التراب ثوابا إسرافًا في الثواب.

التقي والورع والصالح من يعبد الله لا خوفا من جحيمه ولا طمعا في جنته بل لكونه إله يستحق العبادة والتقديس.

مهد جبروتية فرعونية تساق بسياسة بقرونية.

---

(١) جاء لزيارة السيد جمال الدين رجل متحذلق متفلسف! وتناول الحديث قائلا: إنه قرأ كتب الفلاسفة وثبت عنده أن «الله غير موجود» ولا يعتقد بوجوده إلا الحيوان ـ إلى آخر ما هنالك من ضروب الهذيان ـ فضاق صدر السيد ولم يجبه وقال للحاضرين: هلموا نذهب إلى الحديقة وكان فيها أنواع من الطيور والدجاج وبينهم ديك أشقر كبير جميل، أخذ يوالي صياحه ويذكر أخيرا (الله الله) بنطق واضح تمام الوضوح، عند ذلك قال جمال الدين المثل المحرر: «كيف لا يفضل . . .» فخجل الرجل وانسل من باب الحديقة من غير أن يودع.

أحقر صناعة لنحّات أنفع من تقعر النحاة .

كان مقر الفقه في الرأس والصدر ثم انحدر إلى الجبة والسطر .

القبة الجوفاء لا ترجع إلا الصدى .

عمامة كالبرج وجبة كالخرج .

جمود بعض المتعممين أضر بالإسلام والمسلمين .

كان المقصود من النحو[1] أن يكون آلة ، فصيره جمود النحاة غاية .

ولم يستعض المتأخرون في أغلب ما يكتبون بسوى أحرف العلة والأجوف والمهموز وفاتهم الجزالة والسلاسة .

من عجز عن إصلاح نفسه كيف يكون مصلحا لغيره .

العصامي قد يكون لمن يخلفه عظاميا والعظامي فقط يبقى وارثا للعظام .

إعتماد المظلوم على وعود الظالم بالكلام أقتل له من المدفع والحسام .

أمة ثبتت في جهادها لأخذ الحق ساعة خير لها من الحياة في الذل إلى قيام الساعة .

إذا لم تتذرع الأمة بشكواها من ظالميها بغير الكلام فاحكم عليها بأنها أضل من الأنعام .

أمة تطعن حاكمها سرا وتعبده جهرا لا تستحق الحياة .

الإيمان واليقين ليس معناهما عبادة رؤساء الدين .

---

(١) ذكرت للسيد جمال الدين ما للأستاذ العلامة الفاضل المرحوم الحكيم كرنيليوس فان ديك من الأيادي البيضاء على أهل بلادنا ، بل وعلى الناطقين بالضاد بما ألفه من الكتب الفريدة باللسان العربي وما ترك من تلاميذه من العلماء في البلاد وأعدت على مسمع جمال الدين ما ذكره لي فان ديك وهو على التقريب قال : ترك لنا الأسلاف وأعني جهابذة العرب كنوزا من العلوم والفنون أودعوها في عمارة كبيرة وأوصدوها وتركوا لنا مفتاحها الصرف والنحو ، فأخذنا المفتاح واعتقدنا أنه جميع الميراث ولا سواه ! وأخذ كل منا بدوره يبردخ ذلك المفتاح ولم يخط ببال أحدنا أن يفتح به ذلك الباب ولم نزل إلى اليوم على هذه الحال حتى انبرى المفتاح وما عاد يصلح أن يفتح به ذلك الباب . انتهى .

فاستحسن جمال الدين ذلك المثل جد الاستحسان ، واستمطر للحكيم صيب الرحمة والغفران ، وقال : عمل فان ديك فنفع وقال فصدق وهذا هو المثل الصالح والقدوة الحسنة .

مقبرة العلوم خزانات الكتب .

العلم الحي في الصدر الحي .

شر الأزمنة أن يتبجح الجاهل ويسكت العاقل .

كم من منتصر لمظلوم وقع في شرك الظالم .

المظلوم حي ولو مات والظالم ميت ولو عاش .

من تولى زمام أمور الجمهور لا غنى له عن مرآة وكتاب تاريخ صحيح ، فكما أن المرآة تريه شخصه على علاته هكذا التاريخ ينقل أعماله في حياته .

كثير من الآباء يستميتون ليحيوا أبناءهم ، وقليل من الأبناء لا يستثقلون طول حياتهم ويستعجلون موتهم .

مهابة تصدر عن كرسي الحاكم ، لا عن عدله وفضائله أقرب للسخرية منها للاحترام .

أكثر أمراء الشرق إذا ألقي أحدهم في أضيق جب من الاستعباد ، وحفظت له ألقابه الضخمة مجردة حسبه جنة عرضها السموات والأرض .

المرأة إذا اتخذت لفضلها شريكة للحياة نعمت الشركة وطابت الحياة ، وإذا اتخذت لمحض الشهوات كانت شركا للممات .

حمَّال الحطب للاتجار أنفع من حمال الذهب للادخار .

عيب الكبير كبير والجبنة أقبح عيوب الملوك .

يحتاج الملك الجبان للصعلوك الشجاع .

تحتجب الحقائق عن الملوك بقدر تحجبهم .

العاقل من مثل في نفسه مثال ما استحسن من غيره .

أقرب موارد العدل القياس على النفس .

الدين رادع عن رضى في السر .

والسلطان وازع في الجهر بالقهر .

من خبثت نفسه لان ملمسه وكثر ختله وخداعه .

الشاب جسر من جنون لاغنى للعقلاء من المرور عليه .

أعظم دليل على وجود قوة قاهرة فوق إرادة البشر، تقوض عروش الملوك قهرا وموت نَطس الأطباء رغما وعجز الحكماء فعلا.

النعيمَ والجَحيم يتجليان للإنسان في صور أعماله فيتنعم بالحسن منها ويتألم من القبيح.

كم من غني محسود بمظهره فقير مقهور في حقيقة أمره.

السعادة في الدنيا ضالة البشر وإذا وجدها أحد قلما يدل عليها ولاأظنها من موجودات هذا العالم الفاني.

ربما تكون القناعة أحد أسباب السعادة ولكن ليس لها حد معروف، ولاشكل موصوف فالإنسان مسرف في كل شيء.

لذلك كثر بين الناس المفرطون وقل المعتدلون.

يكفر الإنسان في كل شيء لايرضاه ويعبد كل شيء يهواه.

من أعظم مجالي الحكمة المحافظة على الهيئة المتوسطة والفضائل بلا شك هيئات متوسطة بين خلتين ناقصتين.

الأحزاب السياسية نعم الدواء ولكنها في الشرق تنقلب غالبا إلى شر الداء.

يتألف الحزب في الشرق ويعلن على الأمة غايات ومطالب شريفة فيناصرونه ويكون الكل له أصدقاء في البداية ثم تظهر الأثرة والأنانية وحب الذات فينفرط عقد الحزب ويصير الكل له أعداء في النهاية.

قاضٍ في الجنة وقاضيان في النار[1].

---

(١) زار جمال الدين يوما أحد القضاة ويسمى «نائب» كان في عكا وآخر قاضي «نائب» في إحدى القضوات، وكان القانون العثماني إذ ذاك يقضي بأن يتولى القاضي الشرعي، رياسة محكمة الحقوق مع المحكمة الشرعية ومدة مأموريته سنتان ينفصل عند انقضائهما. وفي الأقضية كان القاضي يتولى رياسة محكمة الحقوق والجزاء والتجارة والإجراء، وأخذ كل منهما يشكو قلة راتبه وهو تقريبا اثنتا عشرة ليرة ونصف عثمانية شهريا ويشكو من اضطراره في كل سنتين للانتقال مع عياله ومجيئه للآستانة ومكثه فيها حتى ينال نيابة ثانية، وإذ دخل رجل محترم حسن الهيئة واللباس، فاحتفل به السيد وعرفه للحاضرين وأنه قاضٍ في محكمة طنطا وسأله عن حالة القضاء وراتب القضاة فامتدح الرجل سير القضاء الوطني المصري وأن الراتبَ كاف واف. فتبسم جمال الدين وقال: قاض في الجنة ـ وأشار إلى القاضي المصري ـ وقاضيان في النار ـ وأشار إلى من كان يشكو من قضاة الأتراك ـ!

اذا لم تنصف الحكومة القضاة أحرى بها أن تجعل الذئاب رعاة .

إذا كان القاضي يتظلم فكيف بالمظلوم لا يتألم .

إنصاف القاضي قبل إنصاف المتقاضي .

قرقعة السيوف بغير فتك والتبختر بلامة الحرب إبّان السلم من الأدلة على الجبن في موطن القتال .

قبول الدخلاء والمتطوعة في الجيش مفسدة للنظام ومن عوامل الانهزام .

قلما ينهزم جيش يتحلى قائده بالصبر والثبات واقتحام الموت قبل الجند .

القائد من قاد بأفعاله لا بأوامره وأقواله .

الأمير بأفعاله خير من الأمير بأمواله!

الأديب في الشرق يموت حيا ويحيا ميتا .

بينما الأدباء في حياتهم أفقر الفقراء فإذا هم بعد الموت يصيرون بالرثاء وحفلات التأبين أغنى الأغنياء .

نهض الغرب بالعلم والعمل وانحط الشرق بالجهل والكسل .

التقيد بنافع ثبتت منفعته أولى من التقيد بمألوف ثبتت مضرته .

ثمرة العقول لا تجتنى إلا بإطلاقها من قيود الأوهام .

من قال إن الدين يأمر بالعسر دون اليسر وبالضار دون النافع لمجرد التقليد والمألوف، فهو كذاب .

عماء البصيرة أضر من عماء البصر .

كم من أعمى نبغ حسده ويحسده المبصرون .

و كم من أبكم بإشاراته أفصح من عيّ بكلماته .

الهيئات في الاجتماع حكومية كانت أو غير حكومية إنما هي خليط من أفراد يجب مراعاة التشاكل فيها والتجانس وإلا فسد الخليط .

ولا يجتنى الشهد من الحنظل .

المعوّج الظاهر من الناس أقل ضررا من المتلبس بالاستقامة .

من ظن أنه خدع الناس بالباطل يكون أول مخدوع .

الأعمى من يظن أن جميع الناس بدون إبصار!

لولا الزرع ولولا الضرع لما كان سرف الأغنياء ولا ترف الأمراء .

موقف الزراع والصناع من الحضارة أنفع من موقف الإمارة .

رأينا شعبا يعيش بدون ملك ولكن ما رأينا ملكا يعيش بدون شعب .

حاجة الملك إلى الأمة أشد من حاجة الأمة إلى ملك .

للعلم قشور ولباب .

فالواقف على القشور يغرق في بحر الغرور .

المغرور من لا يرضى إلا عن نفسه وعما يصدر عنه قولا كان أو عملا .

المبتدي في أوليات العلوم يظن أنه تبحر فيها وانتهى ، والراسخ المحقق فيعتقد أنه ما زال في الابتداء .

محدث النعمة بالمال يستعرضه في كل مكان ومحدث النعمة بالعلم يلقيه على كل إنسان .

أظهر الآداب وأليقها بالعلماء والمتعلمين عدم قطع الحديث على المتكلم وتركه يتم ما يريد أن يرويه من غير أن يسبقه إليه ولو كان من منسياته .

لو يحاسب الإنسان نفسه كما يحاسب غيره لقل خطؤه وقرب من الكمال .

من الغرائب في طبائع الإنسان أنه إذا رضي استحسن القبيح واستسهل الصعب وإذا غضب عكس الأمر فيستقبح الحسن ويستصعب السهل فلو مزج الإنسان ساعة رضاه في ساعة غضبه لوقع على الهيئة المتوسطة وفاز بالفضيلة .

قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام .

العقل أشرف مخلوق فهو عالم الصنع والإبداع ولا معطل له إلا الوهم ولا يقعده عن عمله إلا الجبن وهو الذي يخيل المفقود موجودا والقريب بعيدا .

كل عناصر الوجود في هذا العلم الفاني خاضعة للعقل المطلق الإنساني .

فكل مستحيل اليوم في الطب والصناعة سوف يكون غدا ممكنا .

الشركة شرك فإذا لم يصطاد الشركاء به غيرهم اصطادوا بعضهم.

الحقيقة ما ثبتت وتغلبت على الأوهام.

المصلح الزعيم من لا يفر ولا يتضعضع من أذية اللئام.

سجن الظالمين للمصلح «رياضة» ونفيهم له «سياحة» وقتلهم له«الشهادة» وهي أسمى المراتب.

الفصل في نزاع نساء البيت ينغص الحياة.

أعدل قضاء في الدنيا يعجز عن إرضاء متخاصمتين من النساء على رجل أو شيء.

أعقل الآباء من لا يساكن أولاده بعد الزواج ويستعيض بالتزاور عن التجاور.

الأم تسعى وتتصور من وراء زواج ولدها النعيم فإن زوجته ترى نفسها في الجحيم.

قل من رأيت من الرجال من يعرف الهناء بغير النساء.

و ندر منهم من لا ينسب شقاءه إليهن.

و الأقرب للصواب أن يقال فيهن ما قيل في الأولاد: وجودهم بلاء وبلاؤهم بلاء القوي من الشجر لا يعجل بالثمر.

ينعوج الشرقي بانعواج حاكمه ويستقيم إذا هو استقام.

لا ينطبق على الشرقيين قول: «مثلما تكونوا يولى عليكم» بل حق عليهم قول: «مثلما يولى عليكم تكونوا»!

الأجرب يعدي السليم والمرتكب يعدي المستقيم.

من الصعب وضع حد للعفة وحصرها بداية وانتهاء فالعفيف في الماديات مثلا إذا عف عن أخذ ألف دينار كيف يكون موقفه عند المليون إذا عرض عليه؟

أول صفة رافقت الإنسان الأول «الطمع» وفيه العناء وليس له حد «والقناعة» وفيها الهناء وحدها وإن كان كما قالوا، الاكتفاء بالموجود وترك التشوق للمفقود ولكن لا يعمل لها أحد.

العربية وسعَّها البدو في البراري والقفار، وضيقَّها الحضر في المدن والأمصار.
خذ القياس ودع الناس.
لا يحق للسماعي والقياسي أن يمنع أحدهما الآخر.
إذا جاز بالسماعي أن ينحرف، لم لا يجوز بالقياس أن«ينعوج»؟
العلم قد يكون في الأحداث.
ولكن التجارب لا تكون إلا في الشيوخ.
بالعدل والمساواة الوفاق والوئام وبالأثرة والأنانية النفرة والخصام.
ما أقل المجتهدين في السلف وما أكثرهم في الخلف (١).
من الأدواء والأمراض ما هي عند أكثر الناس نعمة، تفوق نعمة العافية(٢).

---

(١) قال شارحا: كان علماء السلف والأئمة منهم، لا يجرءون على القول بسنة من سنن الرسول ﷺ إلا بعد التدقيق والنظر في الإجماع وتحري الثقاة من الرواة... إلخ. أما الجهلاء من المشايخ المتعممين اليوم! فتراهم يتهجمون على التحريم للحلال والتحليل للحرام بغير نص، وقد جهلوا أن مقام التحريم ما جاز لصاحب الشرع الرسول الأعظم ﷺ إلا بتنزيل لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ﴾؟ [التحريم: ١]. قال: وقد رأيت منذ أيام شيخا بعمامة كالبرج! وجبة كالخرج! آخذا بتلابيب رجل ـ أفندي ـ قرب جامع السليمانية في الأستانة وهو يهزه ويقول له: إن لبسك هذا القميص حرام وكفر! لأنه من صنع الإفرنج الكفار! قال جمال الدين: فما وسعني إلا أن تقدمت إلى ذلك الشيخ الجاهل وقلت له: يا شيخ، إن عمامتك وجبتك وعمامتي وجبتي، هم من صنع الإفرنج، فلماذا لا تخلع عمامتك وترمي بجبتك أولا؟ ثم تعمد إلى قميص الرجل فتشلحه إياه. وكم من أمثال هذا الشيخ الجاهل في هذه الأمة بهذه الأيام. لاحول ولا قوة إلا بالله!

(٢) قال: في مقدمة تلك الأمراض النفسية ـ مرض جمع الأموال ـ إذ يعاني جامعها من المشاق أشدها ويتحمل من المخاطر والمهالك أصعبها وكثيراً ما اتخذ لجمعها أسقط الوسائل وأسلفها، حتى إذا تسنى له جمعها وكنزها ربما خانته العافية فلا يستطيع تناول غذاء لذيذ، أو يصرعه الشح فيمنعه من بسيط المأكل والملبس وهو في كل هذا البلاء، يرى في جمعه المال وكنزه نعمة كبرى، وكثيراً ما كان المال سببًا لقتل جامعه. وهكذا القول في البنين (الأولاد) فإن الأبوين يذوقان في تربيتهم الأمرَّين ويستسهلون في سبيل راحتهم كل صعب ويلذ لهم العراء إذا كسوهم والجوع إذا أطعموهم والسهر إذا أناموهم حتى إذا كبروا استثقل بعضهم وجود الأبوين واستطولوا حياتهما، فسبحان من أودع في كل قلب ما أشغله.

عبرة وذكرى

كنا ذكرنا في مقال سابق أن السيد جمال الدين بحث عن مجموعة «العروة الوثقى» فوجدها وأعطاني نسخة وبعد مدة استرجع ما أعطاني واستبدلها بالتي كان أبقاها عنده وقال :

«يا شيخ بني مخزوم، إنك لتجد في هذه المجموعة وعلى هامشها إشارات، فكل مقال أشرت إليه اضممه واثبته في «الخاطرات» فذكرها لا يخلو من العبرة» .

فوجدت أكثر ما أشار إليه الأستاذ يتعلق في أحوال مصر والسودان وفتنة المهدي السوداني محمد أحمد، فقلت : يا أستاذ ! إن مسألة المهدي قد انتهى أمرها وتشتت شمل أعوانه ومات الرجل ورسخ قدم الإنجليز في السودان وفي مصر !

قال : نعم، ووضعت يدها على ملك السودان وجعلت قاعدة الملك «الخرطوم» كل ذلك ثمن دم «جوردن باشا» ودية قتله ! وما يدريك أنه في الآتي من الزمن سيقتل إنجليزي آخر في مصر وتأخذ إنجلترا ديته ملكا آخر وخزائن من المال .

فمسألة السودان ومسألة مصر هما في الدور الأول من الأدوار العديدة التي أعدتها الإنجليز لابتلاع تلك الأصقاع، ولسوف تتحول في مصر أحوال وتظهر أشكال وتتلون السياسة البريطانية بألوان يندهش منها الإنسان . وما كان في السياسة من الأصول (خصوصا في تقاليد الإنجليز) وسياستهم فمن الصعب الرجوع عنه بسهولة . هي ترسم اليوم خططا لأمر سوف تبتدئ فيه بعد جيل . ودخولها لمصر لم يكن ابن ذاك العام بل هو نتيجة مساعٍ طويلة ودسائس دقيقة وإعمال أفكار من أعوام مديدة .

وعملا بإشارته بدأت بإثبات ما أشار إليه من المقالات ومنها :

الإنجليز
والتهتك في الحيلة

اشتهرت دولة الإنجليز بخلابة الشرقيين وأخذهم بالرويغة حتى وضحت سبلها من كثرة ما طرقت. وانقلبت وجه الحيلة فظهر مستورها من يوم كان اللورد دوفرين في القاهرة لكشف حالة مصر وتقرير نظام لحكومتها ـ كما يزعمون ـ لوَّح للحكومة بترك السودان؛ ثم جاء من بعده المأجور بارنغ وألزم الحكومة بالتنازل عن حقها فيه، لأنه ربما يكلفها نفقات وافرة ليس لها عوض من الفائدة. فامتثلت الحكومة أمر غالبيها وهمت بإخلائه. وكان أول عملها أن صدرت أوامر الدولة البريطانية بتعيين الجنرال جوردون للقيام بتخلية السودان! فتكون المنة على السودانيين في استقلالهم «الموهوم» لدولة بريطانيا وتكون الصلة بينهم وبينها خاصة وما وصل خرطوم إلا وأقام محمد أحمد أميرا على كوردوفان. وأخذ في إرجاع الولايات السودانية لملوكها الأقدمين أو أبنائهم، ولم يكن القصد من هذه الزعزعة إلا أن يكون السودان بعد تنازل المصريين سيبا أو فراطة لا حق لأحد فيه، فيأخذه السابق إليه بدون أن تعترض فيه المشاكل السياسية ليتيسر للإنجليز عاجلا أو آجلا أن يستولوا عليه وينزعوه من أيدي أمرائه الصغار، ويكون فيه بعض العوض عن مصر لو صدتهم مقاومة الدول عنها أو قوة غيرها كما أشرنا إلى ذلك. وفي هذه الأزمان ـ أي سنة ١٨٨٤ م ـ أخرجت إنجلترا من جرابها ألعوبة أخرى ومثلت من ضيق جوردون سببا عظيما لتمهيد طريق يوصل الجيوش لتخليصه. فأصدرت أوامرها إلى أحد المصانع الكبيرة بإعداد الآلات وتعيين المهندسين والصناع ليسيروا إلى سواحل البحر الأحمر ويباشروا مد سكة حديد من سواكن إلى بربر، كما ذكرت

ذلك جريدة «البال مال كازيت» وتزعم أن لاباعث لها على ذلك إلا الرغبة في تخليص جوردون إن كان جوردون في خطر ! وتحتاج في إنقاذه إلى إرسال الجيوش، فهل يبقى حيا إلى أن تمد سكة حديد وتخرق الجبال والأودية وتسير عليها العربات حاملة للجيوش مع أن الأخبار قد أشارت إلى وقوعه أسيرا أو هلاكه قتيلا .

إذا فرضنا هلاك جوردون ـ كما هو الغالب ـ أو خلاصه فهل تهدم دولة إنجلترا طريق الحديد ؟ وتنقض بناءها بعد إنفاق النفقات الواسعة عليها أو تتبرع بهبتها للحكومة المصرية سخاء وجودا ؟ كلا والله ! لا هذا ولا ذاك، ولكن أخذت أقرب الطريقين للاستيلاء على السودان، فإن مد الطريق الحديدية في تلك الجهة يسهل لها الولاية على السودان الشرقي . فإذا استقر لها الأمر فيه وصلته بالغربي ولم تلاق في ذلك صعوبة، على أنها في خلال المدة بعد مد السكة تستفيد أعظم فائدة جوهرية من مواصلة البلاد السودانية ؛ فإنها تفتح للتجارة الإنجليزية بابا وتغلق بصفته باب المنفعة عن مصر ، فتأتي بضائع البز وما يحتاجه السودانيون من إنجلترا إلى سواكن ومن سواكن تذهب إلى السودان بدون أن تصل إلى أيدي المصريين وتنقل الأصناف التجارية السودانية من داخل السودان إلى بربر، ثم تصل إلى سواكن وتصدر إلى أوروبا ولايراها مصري، فإذا تولى الإنجليز مصر (لا قدر الله)، حرموا الوطنيين من الاشتراك معهم في تجارة السودان وهي من أغزر ينابيع ثروتهم التجارية . وإذا ألجأتهم الحوادث للجلاء عنها فقد اختصوا بمادة المنفعة التي يمكن أن تأتي من أقطار السودان. وبذلك تتقوض كثير من بيوت التجارة في الأقطار المصرية ويعدم بخرابها آلاف مؤلفة من النفوس .

* * *

بعد أن كتبت هذه المقالة توقفت عن متابعة نقل كل ما أشار إليه جمال الدين من المقالات في «العروة الوثقى» إذ رأيت كلها أو جلها تأتي على ذكر حوادث مضت وفيها تفنيد وتقبيح لأعمال إنجلترا خصوصا في مصر واحتلالها لذلك القطر وما أتاه عمال الإنجليز مثل «كلفور لويد» وغيره من الخطيئات والأعمال. . . إلخ .

فأتيت يوما لجمال الدين وكاشفته بقولي: هذه المقالة نقلتها إلى «الخاطرات» حسب إشارتك ولكن توقفت عن نقل ما تبقى مما أشرت إليه؛ لأنني ما رأيت في نقل حوادث جرت ومضت وانقضى أمرها وكاد الناس أن ينسوها ولا فائدة للمصريين أو للشرقيين من إعادة ذكرها! ويكفي أن الأستاذ أوقدها جذوة على الإنجليز في كل مقال وفي كل مجلس وحشد لهم في صدور وأفئدة الشرقيين جيوش الضغينة والبغضاء، حتى كاد الأستاذ أن يحرم الإنجليز من كل مزايا الإنسانية والعدل والنصفة، بل ألصق فيهم كل شنيعة من ظلم، وختل ومكر وذلك على غير عادة الأستاذ؛ إذ رأيناه يتتبع حسنات الأمم وسيئاتهم وكذلك الأشخاص حتى إذا رضي قال فيهم أحسن ما علم وإذا غضب قال أقبح ما فيهم. أما الإنجليز فما رأينا الأستاذ ذكرهم بخير ما في كل مقاله وحديثه.

سمع لي جمال الدين بإصغاء ولما انتهيت قال: ياشيخ بني مخزوم، وعزة الحق، إن ما تراه اليوم من الفضول بذكر حوادث مضت وأعمال أتى بها الإنجليز في مصر والهند وفيما وطأته أقدامهم من البلاد الشرقية، إن مضت أعيانها فستأتي أشكالها وأمثالها.

فبريطانيا لا تفتر تحدث فتوقا في البلاد فتدخل من أضيقها فتوسعه وترقب أصغر حدث فتجسمه وتعمل على شق عصا القوم وتقسمهم أحزابًا وتكون نصير المتباغضين سُنَّة جرت عليها دولة بريطانيا ورجالها فلا يحيدون عنها، أما القول في نفرتي من الإنجليز أو بغضي لهم وتعريضي بسوء أعمالهم فلا يفوتنك العلم أنني ما تناولت الإنجليز وحكومتهم إلا من وجهة استعمارهم وتدخلهم في الممالك الشرقية كالهند ومصر وسومهم أهلها سوء التصرف ومنتهى العسف والجور فكيف يمكن أن يكون للإنجليز هناك أثر من العدل ولو أنصفت أو عدلت لما دخلت واستعمرت الأقطار والأمصار وأتت فيها منكر الأعمال.

الإنجليز كأمة ليس من ينكر أنها من أرقى الأمم، تعرف معاني العدل وتعمل بها ولكن في بلادها ومع الإنجليز أنفسهم وتنصف المظلوم إذا كان من الإنجليز، تعلم أن للإنسان، حقا في الحياة وهذا الإنسان في عرفهم هو الإنجليزي وغيره من البشر

ليس بإنسان، شعار كل إنجليزي وشعار دولة الإنجليز، إنه ليس في الوجود إلا «الإله» و«حق» الإنجليزي ! Dieu et mon droit .

فما زال الطمع الهائل مشبوعًا به رأس كل إنجليزي ويرى كل بقعة غنية كالهند أحق بها الإنجليز من أهلها! وكل قطر خصب كالقطر المصري، الإنجليز أولى به من أهله ومن أرباب الحق فيه، متى كان الأمر كذلك وهو الواقع، فلا يمكن أن يصدر عن أعمال الإنجليز إلا كل ظلم ولا يمكن أن تكون وسائلهم غير المكر والختل والخديعة ومن سفه الرأي ومنتهى البله، أن يطلب الشرقيون من الإنجليز عدلا فيهم أو إنصافا لهم إذ معنى المطالبة بهذا تخلي الإنجليز عن البلاد وتركها لأهلها وما أبعده منالا وهيهات أن تفعله أو تفكر به دون قوة واتحاد. ومختصر القول: إن قصدي في كل ما قلت وتحدثت إن هو إلا كشف ما تدعيه هذه الدولة العظيمة من العدالة وما تختص به نفسها من الوصاية على نوع الإنسان فلك بعد هذا الخيار، إما أن تكتب بقية ما أشرت إليه أو تجتزئ بما كتبت وعسى أن ينفع الله به وهو الهادي إلى سواء السبيل».

* * *

ختـام!

تمت مواضيع كتاب «الخاطرات» التي كتبت في الأستانة ما بين سنة ١٣١٠هـ ـ سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٣١٤هـ ـ سنة ١٨٩٧م، وقد بذلنا كل الجهد وحرصنا جد الحرص، كما يرى المطالع لحفظ وتدوين كل خاطرة وكل قول لذلك الإمام الحكيم، والأستاذ الكامل، المرحوم المبرور، السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني، فجاء بعونه تعالى سفرا جامعا لشتات الحكم وصائب الآراء في أدواء الشرق وما يعانيه أهله من العلل الاجتماعية، نرجو الله أن ينفعنا جميعا بعلوم من صدرت عنه تلك «الخاطرات» وما حوته من جليل الأقوال وبالغ النصيحة وأن يسكنه فسيح جنانه ويعامله بجزيل فضله وإحسانه.

وقد سبق لنا القول بأن فقيد الشرق وحكيمه على الإطلاق، على بعد شهرته وغزارة فضله وعلمه لم يكن له من الآثار غير رسالة [1] في «إبطال مذهب الدهريين» كتبها بالفارسية في البلاد الهندية عام ١٢٩٨هـ وقد عني بنقلها إلى العربية، العلامة الفهامة المرحوم الشيخ محمد عبده وهو أعلم مريدي الأستاذ الحكيم وأوفى من صحبه إلى أن وافى الأستانة كما مر ذكر ذلك، فرأينا في بادئ الأمر من تمام الفائدة والرسالة وهي من بليغ نفثاته ومرآة لصحيح عقيدته أن نضمها إلى هذا الكتاب: «الخاطرات» ولكن لما وجدنا أن الرسالة مطبوعة وموجودة في أكثر المكاتب في بيروت ومن السهل على الطالب تناولها، فقد صرفنا النظر عن إعادة طبعها وإلحاقها واكتفينا بذكر مقدمة ناقلها للعربية والإتيان على مختصر الرسالة التي وضعت لإبطال مذهب الدهريين وبيان مفاسدهم وإثبات أن الدين أساس المدنية والكفر فساد العمران.

محمد المخزومي - بيروت: شوال ١٣٤٩هـ

(١) إن رسائل ومقالات السيد جمال الدين الأفغاني أكثر بكثير من رسالة واحدة.. ونحن قمنا بجمعها وتبويبها ونشرها تحت عنوان: «الآثار الكاملة» في عشر مجلدات.. ومنها «الخاطرات».

مقدمة الأستاذ الشيخ محمد عبده على الرسالة

نحمد الله على الهداية ونعوذ به من الغواية ونصلي ونسلم على خاتم رسله وآله وصحبه هداة سبله وبعد : أتيح لي الاطلاع على رسالة فارسية في نقض مذهب الطبيعيين من تصنيف العالم الكامل، محيط المعرفة الشامل، الشيخ جمال الدين الحسيني الأفغاني . أما الشيخ فله من لسان الصدق ورفيع الذكر ما لا يحتاج معه إلى الوصف، وأما الرسالة فعلى إيجازها ، قد جمعت لإرغام الضالين وتأييد عقائد المؤمنين ما لم يجمعه مطول في طوله وحوت من البراهين الدامغة والحجج البالغة ما لم يحوه مفصل على تفصيله، دعاه إلى تصنيفها حمية جاشت بنفسه أيام كان في البلاد الهندية عندما رأى حكومة «الهند الإنجليزية» تمد في الغي جماعة من سكان تلك البلاد إغراء لهم بنبذ الأديان وحل عقود الإيمان، وأن كثيرا من العامة فتنوا بآرائهم وخدعوا عن عقائدهم وكثر الاستفهام منه عن حقيقة ما تدعيه تلك الجماعة الضالة وممن سأله عن ذلك حضرة الفاضل مولاي «محمد واصل» مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الأعزة بمدينة «حيدر آباد الدكن» من بلاد الهند، فأجابه الشيخ برقيم صغير، يعده فيه بإنشاء رسالة في بيان ما كثر السؤال عنه وقد حداني علو الموضوع وسمو منزلة الرسالة منه إلى الاجتهاد في نقلها من لغتها إلى اللغة العربية، فتم لي ذلك بمساعدة عارف أفندي الأفغاني، تابع الشيخ المؤلف، ورجونا بذلك تعميم الفائدة وتكميل العائدة . إن شاء الله .

مختصر الرسالة

بنى الأستاذ الحكيم المرحوم السيد جمال الدين الرسالة على أن الدين أكسب عقول البشر ثلاث عقائد، وأودع نفوسهم خصالاً كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء الهيئة الاجتماعية.

العقيدة الأولى التصديق بأن الإنسان ملك أرضي وأنه أشرف المخلوقات، والثانية يقين كل ذي دين أن أمته أشرف الأمم وكل مخالف له فعلى ضلال باطل، والثالثة جزمه بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي والانتقال من دار ضيقة الساحات، كثيرة المكروهات، جديرة بأن تسمى بيت الأحزان! وقرار الآلام، إلى دار فسيحة الساحات، خالية من المؤلمات، لا تنقضي سعادتها ولا تنتهي مدتها.

والخصال الثلاث: ١ ـ الحياء ٢ ـ الأمانة ٣ ـ الصدق.

أما الدهريون ـ الطبيعيون ـ فقد وضعوا مذهبهم على أساس بطلان الأديان كافة وعدّها أوهاما باطلة ومجعولات وضعية ووجوب إزالة العقائد الثلاث ومحو الخصال الثلاث من الإنسان، وبنوا على هذا أن لا حق لملة من الملل أن تدعي لنفسها شرفا على سائر الملل ولا أن تعتقد أنها أولى من غيرها بفضيلة ولا أجدر بمزية، وقالوا: إن الإنسان في المنزلة، كسائر الحيوانات وليس له من المزايا ما يرتفع به على البهائم، بل هو أخس منها خلقة، وأدنى فطرة.

وقالوا ـ وبئس القول: إن الحياء من ضعف النفس! ونقصها فإذا قويت النفوس وتم لها كمالها، لم يغلبها الحياء في عمل ما ـ كائنا ما كان ـ فيجب ـ على زعمهم ـ أن يسعى الإنسان في معالجة هذا الضعف ومقاومته، ليفز بكمال القوة وهو قلة الحياء!

ثم قالوا : وفي مقدمتهم «أبيقور الدهري» وأتباعه الدهريون «ردا على القول إن الإنسان أشرف المخلوقات» ما بال الإنسان معجب بنفسه مغرور بشأنه ، يظن أن الكون العظيم إنما خلق لوجوده الناقص ويزعم أنه أشرف المخلوقات وأنه العلة الغائية لجميع المكونات! وأن الإنسان من جنونه ـ على زعمهم ـ اعتقاده أن له عوالم روحانية نورانية ومعاهد قدسية ينقل إليها بعد الموت ويتمتع فيها بسعادة لا يشوبها شقاء ، ولذة لا يخالطها كدر ، ولهذا قيد نفسه بسلاسل كثيرة من التكاليف ، مخالفا نظام الطبيعة العادل وسد في وجه رغبته أبواب اللذائذ الطبيعية وحرم حسه كثيرا من الحظوظ الفطرية ، مع أنه لا يمتاز عن سائر الحيوانات بمزية من المزايا ولا في شأن من الشئون ، بل هو أدنى وأسفل من جميعها في جبلَّته وأنقص من كلها في فطرته وما يفتخر به من الصنائع ، فإنما أخذه بالتقليد عن سائر الحيوانات فالنسج ـ مثلا ـ نقله عن العنكبوت ، والبناء استنّ فيه بسنة النحل ورفع القصور وإنشاء الصوامع ، أخذ فيه مأخذ النمل الأبيض ، وادخار الأقوات حذا فيه حذو جنس النمل وتعلم الموسيقى من البلبل! وعلى ذلك بقية الصنائع ، إلى أن يقولوا : إذا كان هذا شأن الإنسان من النقص عن الحيوانات ، فالأولى أن لا يغتر بأن في الآخرة ثوابا وعقابا ويحرم نفسه في هذه الدنيا من حظوظ اللذة ويقيد نفسه بأوهام! الحلال والحرام واللائق وغير اللائق والحياء والصدق والأمانة وغيرها من الأمور الوضعية التي تقيد بها الناس جهلا ولم يتقيد بها الحيوان والبهم ، إلي آخر ما هناك من الأضاليل والأباطيل التي تجعل بمقتضى أصول مذهبهم ، أدنى إليهم من الحيوانات أفضل من الإنسان .

وقد أفاض الحكيم المرحوم ، السيد جمال الدين بتفنيد جميع تلك الأباطيل بمقدمات صادقة وبراهين ساطعة ، منها وجوب الاعتقاد بالله وبالثواب والعقاب ومنافع ذلك للبشر قال : إن كل فرد من نوع الإنسان ، قد أودع بحسب فطرته وبناء بنيته شروراً كثيرة وشهوات عديدة ، تميل به إلى مشتهيات ، فإذا قام كل فرد لدفع الشر عنه بقوة ساعده أو سلاحه أو الأقران بدفع شرور أقرانهم فنى عمر الجميع بالدفاع وما كان لهم من الوقت متسع لغير عمل ، وإن قيل إن قوة الحكومة بقوانينها تعمل لصون الأفراد ، قلنا إن قوة الحكومة إنما تأتي على كف العدوان الظاهر ورفع

الظلم البيِّن ، أما القتل في الخفاء والاختلاس والزور المموَّه وغير ذلك من الجرائم التي يرتكبها أرباب الشرور والشهوات ، فمن أين للحكومة أن تستطيع دفعها؟ وأنى يكون لها الاطلاع على خفيات الحيل وكامنات الدسائس ومطويات الخيانة ومستورات الغدر حتى تقوم بدفع ضرره؟ وهل يرتاب عاقل أن الدهري الذي ينكر وجود الخالق ولا يؤمن بثواب أو عقاب ، إذا ظفر برجل معه مال وليس من يراه من أهل السلطة ، هل يتردد بقتل ذلك الرجل وأخذ ما معه؟ كلاّ ثم كلاّ ، أما إذا كان ذلك الرجل ممن يعتقد ويؤمن بأن للعالم خالقا ، قادرا ، عالما بمضمرات القلوب ومطويات الأنفس ، واسع الحول سامي القدرة وأنه قدّر للخير والشر ، جزاء يوفاه مستحقه ، لاشك أن ذلك المؤمن لا يقدم على قتل النفس ولو بعُدَ عن أنظار أهل السلطان الزمني ، إذن فسلطان الدين أقوى وأنفع من السلطان الزمني وصرامة القوانين ، هذا أبسط قياس بين من يؤمن بالله وبين من ينكر وجوده جل جلاله ، ثم لو أخذنا بقية أباطيل الدهريين وفرضنا تمكنهم من إزالة العقائد الثلاث والخصال الثلاث وتسنى لهم أن يستبدلوا الحياء بقلة الحياء والصدق بالكذب والأمانة بالخيانة وصون الأعراض بالهتك والإباحة والاشتراك ، فبأي نظام تصان الحقوق وتحفظ هيئة الاجتماع؟ وكيف تأمن الأم من ابنها أن لا يهتك عرضها؟ أو البنت من أبيها أن لا يفضحها؟ وغير ذلك من مقوضات أساس العمران .

نكتفي بهذا القدر من مواضيع الرسالة ،وعلى طالب المزيد أن يتناولها فهي مطبوعة كما قلنا وموجودة في أكثر المكاتب .

نسأل الله الحماية من الضلال والغواية . إنه سميع مجيب .

* * *

الفهـــارس

الآيات ـ الأعلام ـ الأماكن

فهرس الآيات

وتعاونوا على البر والتقوى	٢	المائدة
ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء	٥٤	المائدة
وتلك الأيام نداولها بين الناس	١٤٠	آل عمران
الذين قال لهم الناس	١٧٣	آل عمران
فانقلبوا بنعمة من الله وفضل	١٧٤	آل عمران
اصبروا وصابروا	٢٠٠	آل عمران
إن تبدوا الصدقات فنعما هى	٢٧١	آل عمران
ليس لك من الأمر شىء	١٢٨	آل عمران
يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط	١٣٥	النساء
ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم	٧٧	النساء
وهو الذى أنشأ جنات معروشات	١٤١	الأنعام
ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة	٥٣	الأنفال
واعلموا أنما غنمتم من شىء	٤١	الأنفال
وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة	٦٠	الأنفال
ودين الحق ليظهره على الدين كله	٣٣	التوبة
إنما الصدقات للفقراء والمساكين	٦٠	التوبة
إن الحسنات يذهبن السيئات	١١٤	هود
إنا أنزلناه قرآنا عربيا	٢	يوسف
إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم	١١	الرعد

قل أفتخذتم من دونه أولياء	١٦	الرعد
والذين صبروا	٢٢	الرعد
ومن يضلل الله فما له من هاد	٣٣	الرعد
قل إنما أمرت أن أعبد الله	٣٦	الرعد
وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه	٤	إبراهيم
يرد إلى أرذل العمر	٧٠	النحل
وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون	١١٨	النحل
ولاتقولن لشيء إني فاعل ذلك	٢٣	الكهف
إلاّ أن يشاء الله	٢٤	الكهف
وترى الأرض بارزة	٤٧	الكهف
وآتيناه من كل شيء سببا	٨٤	الكهف
كانتا رتقا ففتقناهما	٣٠	الأنبياء
ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر	١٠٥	الأنبياء
يا أيها الناس اتقوا ربكم	١	الحج
فتبارك الله أحسن الخالقين	١٤	المؤمنون
ولايقتلون النفس التى حرم الله	٦٨	الفرقان
جئتك من سبإ بنبإ يقين	٢٢	النمل
إني وجدت امرأة تملكهم	٢٣	النمل
وجدتها وقومها يسجدون للشمس	٢٤	النمل

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

الآثار الكاملة

للسيد جمال الدين الحسيني
- الأفغاني -

دراسة وتحقيق وإعداد وتقديم :

سيد هادي خسروشاهي

١ - العروة الوثقى — بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده

٢ - رسائل في الفلسفة والعرفان — بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده

٣ - الرسائل والمقالات — بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده

٤ - ضياء الخافقين — بالاشتراك مع آخرين

٥ - تاريخ إيران وتاريخ الأفغان

٦ - الرسائل والوثائق (العربي والفارسي)

٧ - رسائل ومقالات (بالفارسية)

٨ - خاطرات - آراء وأفكار - — تقرير : محمد باشا المخزومي

٩ - التعليقات على شرح العقائد العضدية — بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده

١٠ - المستدركات (رسائل ومقالات لم تنشر حتى اليوم)

رقم الإيداع ٥٨٢٤/ ٢٠٠٢